اتحاد الكتاب العرب
دمشق

شمس الدين الكيلاني

نصوص الثقافة العربية الوسيطة في الهند والصين



سلسلة الدراسات [١٤]
٢٠٠٩

نصوص الثقافة العربية الوسيطة

في الهند والصين

البريد الالكتروني: E-mail sy.tne@Vunecri
aru@net.sy

موقع اتحاد الكتّاب العرب على شبكة الإنترنت
.comamhttp://www.awu-d

الإخراج الفني: سنديا عثمان
وفاء الساطي
تصميم الغلاف: بدر الدين الأيوبي

شمس الدين الكيلاني

نصوص الثقافة العربية الوسيطة

في الهند والصين

منشورات اتحاد الكتاب العرب
دمشق

سلسلة الدراسات (14)
2009

استهلال

اختزنت الثقافة العربية ـ الإسلامية الوسيطة في متنها، مثلها في ذلك مثل الثقافات الأخرى، مجموعة من المعاني والقيم والرموز الأنماط الذهنية والمعرفية، التي تجلّت في سلوك حامليها الاجتماعيين، وفي مخيلتهم الرمزية، وأطّرت وجهة نظر أفرادها في أنماط السلوك الاجتماعي والقيم الحاكمة لها، وأثرت على تخيُّلهم للآخرين وفي مواقفهم تجاههم، وزوّدت حامليها بالمقاييس التي فاضلوا بها بين الآخرين من الأفراد والأمم والحضارات، ومنحتهم جملة من القيم التي ترى فيها الجماعة والفرد ما يجب أن يكون عليه سلوكه، وأشكال القداسة وامتداداتها الزمانية والمكانية، وجملة من الرموز والدلالات التي تومئ بها إلى مقاصد غير مباشرة. فالتواصل الاجتماعي الرمزي بالأصوات المعبرة، والإشارات كالتحية والابتسامة وعلامات الاستحسان والاستهجان، واللغة المنطوقة والمكتوبة، لا تأخذ جميعها معانيها إلاّ بفضل مرورها بالتفاعل الاجتماعي. وعلى هذا تشكل المنظومة الرمزية للثقافة العربية، كأية منظومة رمزية ثقافية أخرى، قواعد للسلوك الاجتماعي، سواء نظرنا إلى الثقافة، تبعاً للاتجاه الواقعي، على أنها الأشكال المكتسبة من السلوكيات الاجتماعية، أو مجموعة الأفكار والقيم والمعاني والرموز، التي تشكل، تبعاً للنظرة المثالية، الخلاصة الروحية النموذجية للواقع الاجتماعي المحسوس. فهي تنطوي على مواقف إدراكية ومعرفية، تنتج صوراً تخيُّليه وذهنية، تسبغ بها معانيها على علاقة الجماعة العربية الإسلامية فيما بينها، فكان للثقافة العربية أسلوبها في تمثُّل الجماعات والأمم الأخرى، وفي تقييمه لدورها ومكانتها في مجال العمران، ولقد تعامل بحثنا مع الثقافة على أساس معناها

الأنثربولوجي الأوسع، الذي يتجاوز لحظة رد الفعل الغريزي — الطبيعي ، وسلوكها المباشر إلى مجال يستطيع فيه الفرد والجماعة أن يمنحان ما حولهما المعنى والمغزى، والغايات، التي تشكل المرجعية العليا للجماعة.

لقد تعامل بعض الباحثين مع الثقافة على أنها مجموعة القيم والمعايير والرموز والمعتقدات والأيديولوجيات وغيرها من الأشكال المعرفية والتخيُّلية والقيمية الاجتماعية ،التي تتجلى في نمط الحياة الكلية للمجتمع، وفي توجهات أفراده وفي العلاقات التي تربط بينهم، وقد رآها إدوارد تايلور1871 ـ 1917، على أنها الحصيلة الذهنية والقيمية للمجتمع، تجمع المعارف والمعتقدات والفن والقانون والأخلاق والتقاليد وكل القابليات والعادات الذي يكتسبها أفراد المجتمع، بينما جمع روبرت برستد في تعريفه كل ما يفكر فيه أعضاء المجتمع ويقومون بعمله ويتملكونه، وقدّم دوركهايم تعريفاً مكثفاً جمع فيه بين "طريقة التفكير والشعور والعمل"، بينما ذهب غي روشيه إلى توسيع هذا التعريف، ليصل إلى القول "الثقافة هي مجموعة من العناصر لها علاقة بطرق التفكير والشعور والفعل، وهي طرق صيغت تقريباً في قواعد واضحة، والتي اكتسبها وتعلمها وشارك فيها جمع من الأشخاص، تستخدم بصوره موضوعية ورمزية في آن معاً، من أجل تكوين هؤلاء الأشخاص في جماعة خاصة ومميزة"[1].

وعلى هذا ،فقد تجنَّبنا الفصل في مجال الثقافة، بين أساليب السلوك الفردي والاجتماعي والعادات والتقليد والأساليب التي يتخذها الأفراد لتنظيم علاقتهم الاجتماعية من جهة وطرائق الفكر والمُخيلة، ومنظومة المعاني وسلّم القيم، غير أننا من الناحية الإجرائية ، ركّزناعلى المتن النظري والتخيُّلي للثقافة العربية ـ الإسلامية

---

[1] غي روشيه. مقدمة إلى علم الاجتماع العام. ترجمة مصطفى دندشي ج2. ط2. مكتبة الفقيه. بيروت2002. ص198.

الوسيطة في مدوناتها ومصنفاتها، في مكتباتها العارمة التي اختزنت في صفحاتها وسطورها الانجازات النظرية والتخيُّلية للمفكرين والكتاب العرب الذين عكسوا المعاني العميقة للثقافة العربية، ومن ذلك المتن ينطلق بحثنا ليكون مصدره ومرجعه، ومن هنا، فقد حاولنا البحث في أروقة الثقافة العربية المكتبية للتعرّف على الصورة التي كونتها الثقافة العربية عن شعوب الهند والصين وحضاراتها.

فقد اختزنت المدونة الثقافية العربية في العصر الوسيط صورة مُتخيلة عن الصين والهند والعالم وعن الحضارات وأممها التي شاركت العرب والمسلمين في بناء الأرض والعيش فيها، قدمت فيها عن الآخر صفات وملامح، وأصدرت في حقه أحكاماً، وحملت مزيجاً من الأفكار والمشاعر والمواقف والدلالات الرمزية، والمعايير، وانعكست على صعيد الممارسة على شكل تدخلات واحتكاكات وتنافس واقتباس، وامتزج فيها الموقف الديني، بحدود معرفتها لنفسها وللآخر وبمصالحها التاريخية، وتأثرت بمدى انفتاحها على الآخر في الداخل والخارج، وبطبيعة العلاقات حرباً وسلماً التي ربطتها بالجوار الأقربين والأبعدين. وتجسدت تلك الصورة المُتخيلة عن الصين والهند في مدوناتها المختلفة، أكانت مدونات تاريخية، أو جغرافية، أو أدبية وفنية، أو في مدونات الأدب الشعبي الفلكلوري، أو في رسائل الرحالة العرب، وخطابات مفكريهم وفلاسفتهم، التي حملت في ثناياها صورة العرب عن العالم في العصر الوسيط، وأطّرت رؤيتهم، ومُتخيلهم العام عن حضارات الهند والصين وشعوبهما، ورسموا الحدود القصوى التي بلغتها معارفهم عنهما. ولقد عرفت الحضارة العربية الإسلامية، كغيرها من الحضارات، علاقات من التدافع والتناحر، مع جيرانها من الحضارات الأخرى، بما فيها حضارات الهند والصين، وتبادلت معها السلع، والأفكار، والتخيلات. فكونت لنفسها صورة عنهم، حكمت إلى حد كبير طريقة فهمها وتعاملها معهم، تغذت بمرجعيتها الثقافة، وبتقدم معرفتها للعالم، وبخبرتها بحال الشعوب الأخرى.

ومما ساعد على توطيد هذا الانفتاح على الآخر، هو اتسام الاجتماع العربي الإسلامي بالتنوع الديني والثقافي، والإقوامي، فعكست الثقافة العربية الإسلامية هذا التنوع داخل وحدتها العميقة، وامتزجت بداخلها ثقافات الأمم التي دخلت في كنفها، ذكر ميتز "إن ما يميّز مملكة الإسلام عن النصرانية في القرون الوسطى، أن الأولى يسكنها عدد كبير من معتنقي الأديان الأخرى غير الإسلامية، وليست كذلك الثانية، وأن الكنائس والبيع ظلت في المملكة الإسلامية كأنها خارجة عن سلطة الحكومة معتمدة على العهود، وما كسبته من حقوق، وقضت الضرورة أن يعيش اليهود والنصارى بجانب المسلمين، فأعان ذلك على خلق جو من التسامح لم تعرفه أوربا في القرون الوسطى[1]، ثم وسّع المسلمون مفهوم "أهل الكتاب" و"أهل الذمة" ليشمل تسامحه الديانات الهندية الصينية. يشير (وات) إلى أنه "قد عُرفت الأقليات الذمية باسم أهل الكتاب" باعتبارها تتبع أنبياءهم. والحق أن الدين التوحيدي ذو النصوص المدونة قد لقي كمفهوم تفسيراً ليبرالياً للغاية فأصبح الزرادشتيون والهندوس والبوذيون من الأقليات الذمّية أيضاً[2]، ولهذا أعلن قائد الفاتحين العرب محمد بن القاسم، عندما واجه الهندوس والبوذيين: إن الهندوس "أهل كتاب"، وعليه فقد أجاز المسلمون الدين الهندوسي، واُكتسب حق ممارسة عباداته، وظل هذا الحق محترماً بعامة[3]، لذا عندما تناول الباحثون العرب الديانات الهندية والصينية بالدراسة والتمحيص، تناولوها

---

(1) عن أحمد أمين. ضحى الإسلام ج1. دار الكتاب العربي ط10 بيروت. بدون تاريخ. ص323. (مونتغمري والأساسية السياسي الإسلامي. (المفاهيم الأساسية) . ترجمة. صبح الأساسية) دار الحداثة بيروت1981. ص76.

(2) مونتغمري وات. الفكر السياسي الإسلامي. (المفاهيم الأساسية). ترجمة. صبحي حديدي. دار الحداثة بيروت1981. ص76.

(3) رؤى متحدة. نحو مفهوم للتسامح في العقائد الدينية. مجلة التسامح 18. السنة الخامسة. ربيع2007 مسقط، ص241.

بموضوعية فائقة، وهذا ما نجده جلياً لدى المسعودي والشهرستاني والمقدسي وخاصة البيروني.

ولا شك أن الأحكام العامة التي بشّر بها الدين الإسلامي عن العلاقة مع الآخر، شكلت عاملاً أساسياً في تكوين المرجعية الثقافية العربية وما تتضمنه من منظومة قيم ومعايير ومواقف تجاه شعوب الهند والصين، إلى جانب تأثير المعايير الأخرى في الميدان الإدراكي والقيمي العربي، كـ "معيار العمران" ومعايير أخرى، اقتبسوا بعض وجوهها من حتكاكاتهم الثقافية وذلك عن طريق الترجمة عن اليونانية، وتجلى ذلك في تأثرهم بالنظريات الفلكية التي حدّدت، من خلالها، مواقع الأمم الهندية والصينية، وغيرها من الأمم، تبعاً لعلاقتها بدوران النجوم والفلك، وتأثيراتها، أو تبعاً لموقعها من الأقاليم التي تخيلها الجغرافيون الأوائل كأحزمة متراصفة حول خط الاستواء، و تؤلف العالم المعمورمن الأرض ؛ كما عكس العرب في مدوناتهم وأبحاثهم عن الصين والهند وجيرانهما الجانب المعرفي، أي مدى اقتراب العرب معرفياً من الصين والهند ومن العالم ، وبمدى ما انحسر من مجهول أمامهم. وإلى جانب ذلك فقد تأثروا بالعامل السلالي؛ وكثيراً ما أخذ الجغرافي والرحالة والمؤرخ العربي تلك المعايير حزمة واحدة مجتمعة، وأحياناً هيمن عند بعضهم إحدى هذه المرجعيات على ما عداها.

إذ مزج التصور القرآني للشعوب، ولعلاقاتها ببعضها، بين الوحدة والتنوع، فهناك أصل واحد للبشر، كما أن هناك تنوعاً عميقاً داخل هذه الوحدة؛ فمن "آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم" الروم: 22 ، وخلقهم مختلفين ليتعارفوا، وأن مجال التفاخر الوحيد بينهم هو طريق التقوى، "يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير" الحجرات: 13 ، وقابل هذا التصور النظري في الاجتماع السياسي العربي الإسلامي اعتراف عملي بالتنوع العرقي والديني والثقافي، فاعتبر الإسلام الديانات السماوية جميعها تعود إلى وحي نبوي واحد، أتمه الإسلام وأكمله، "قولوا آمنّا بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل إلى إبراهيم وإسماعيل ويعقوب والأسباط، وما أُوتي

موسى وعيسى، وما أُوتي النبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون" البقرة: 136، فنظر المسلمون إلى أصحاب الديانات السماوية الأخرى باعتبارهم "أهل الكتاب"، وتعاملوا معهم، بين ظهرانيهم، كجزء من الاجتماع الإسلامي، وطبقوا عليه مفهوم "المواطنة الإسلامية".

لم يكن المعيار الديني هو المعيار الوحيد الذي حكمت به الثقافة العربية على الآخر، فقد نظر الباحثون والمؤلفون العرب الى الأمم من زاوية مساهمتها في مجال العمران، فاعتمدت على معيار الحضارة والعمران، وقاست ما يتوفر للصين والهند و لأمم الأخرى من فضائل وخصال بمدى مساهمتها في العمران، وما تختص به من مساهمات في إحدى أبوابه المختلفة، وهو ما أفضى إلى نوع من النسبية الثقافية، تجلت بشكل واضح عند الجاحظ والتوحيدي وابن خلدون، إذ خصّوا كل أمة وحضارة بدور مميز في مجال العمران، فالصين حسب الجاحظ برزت في الصناعات، واليونان في الحكم والآداب، والعرب في البلاغة والشعر والمرؤة، والفرس في الملك، والأتراك في الحرب، ويذكر التوحيدي في الإمتاع والمؤانسة: "فللفرس السياسة والآداب والحدود والرسوم، وللروم العلوم والحكمة، وللهند الفكر والروية والخفة والسحر، وللترك الشجاعة والإقدام، وللزنج الصبر والكد والفرح، وللعرب النجدة والقرى والوفاء والبلاء، والجود والذمام والخطابة والبيان"[1].ووصل العرب إلى نتيجة تضع الصين والهند مع غيرهما من الأمم في صعيد واحد تتعادل فيه فضائلها ورذائلها، وهو ما عبّر عنه التوحيدي بقوله "إن الأمم كلها تقاسمت الفضائل والنقائض باضطرار الفطرة واختيار الفكر، ولم يكن بعد ذلك إلاّ ما يتنازعه الناس بينهم بالنسبة الترابية والعادة، والنزاع الهائج من القوة الشهوانية".

---

(1) أبو حيان التوحيدي. علي بن محمد بن العباس. كتاب الإمتاع والمؤانسة. صححه وضبطه أحمد أمين وأحمد الزين. منشورة دار الحياة. بيروت بدون تاريخ. ص73.

كما تأثرت أحكام العرب على الغير الصيني والهندي وعلى أنفسهم، بالدور الذي أعطوه للعامل البيئي ـ الجغرافي، ولدورة النجوم والفلك على طبائع البشر، وذلك نتيجة لما وصلت إليه معرفتهم وعلمهم بالعالم آنئذ، فكان لكل أمة وحضارة موقعها البيئي ـ الجغرافي، في أحد الأقاليم السبعة التي قسموا بها الجزء المعمور من الأرض، من الجنوب خط الاستواء إلى الشمال قرب القطب، واعتنقوا الرأي القائل باستحالة الحياة في البلاد الشديدة الحرارة جنوب خط الاستواء، أو قارسة البرودة في أقصى الشمال.

لعل هذه المعايير مجتمعة هي التي قامت عليها نظرة العرب ـ المسلمين إلى الآخر، فلم تقتصر على المعيار الديني، أو معيار العمران، أو على التحديدات الجغرافية ـ البيئية، أو تأثيرات الفلك لوحده، بل مزجت بين تلك المعايير مجتمعة عند تفحصهم لما لهذا الآخر الصيني والهندي، من مميزات وخصائص، ومثالب وفضائل، دون أن ننسى تأثرهم بدرجة الثقة التي أحسوا بها بأنفسهم وبقيمهم، وبطبيعة علاقاتهم السياسية بهذه الشعوب في صياغة بعض أحكامهم.وإذا كنت المعرفة العربية قد رصفت الخصائص السلبية إلى جانب الخصائص الإيجابية، لدى معاينتهم لحال الشعوب والأمم خارج "دار الإسلام"، بما فيهم شعوب الهند والصين، فلأنهم اعتادوا أن يطبقوا تلك القاعدة، على الأقاليم العربية والإسلامية نفسها، لذا عندما يصادف المرأ في دراسات الباحثين العرب لشعوب الهندو ـ صينية، ذكر بعض المظاهر السلبية لسلوكهم، ولعاداتهم، فإن هذا غير صادر عن نزعة مركزية ثقافية، أو تعالي ثقافي، أو عن مركزية عرقية، إذ إنهم لم يبخلوا على أقاليمهم العربية الإسلامية ذاتها، أو على مدنهم الأحكام السلبية إلى جانب ذكرهم لفضائل هذه المدن والأقاليم، وهي قضايا تمتلئ بها صفحات مصنفات "البلدان" والمصنفات الجغرافية "المسالك والممالك" والمصنفات الأدبية، بما فيها مؤلفات الجاحظ.

ومما ساعد الباحث العربي من الاقتراب معرفياً من الصين والهند، هو تميّز علاقات العرب بالهند والصين وشعوب الشرق الأقصى عن طبيعة علاقاتهم وصلاتهم

بأوربا، ففي الشرق وجد الرحالة العرب ـ المسلمون والتجار الحدود مفتوحة أمامهم، فأينما ذهبوا إلى الصين والهند وجدوا جاليات إسلامية بانتظارهم، أما في بيزنطة وبلاد الإفرنج، فلم يقبل أهلها وحكامها بوجود جاليات عربية ـ إسلامية بديارهم، فقد وجد العرب فروقاً جذرية في علاقاتهم بالعالمين الشرقي والأوربي. فالإمبراطورية الفارسية تداعت كلياً أمامهم، وعرفوا أن الهند والصين يعبدون آلهة متعددة، فاستنتجوا ـ حسب برنارد لويس في كتابه العرب في التاريخ ـ أنهم مهيؤون لدخول الإسلام "أما الحاجز البيزنطي، فقد اهتز ودُفع إلى الخلف أمام الزحف الإسلامي، ولكنه بقي صامداً. وظلّت الإمبراطورية الرومانية المسيحية حيّة يحكمها قيصر في القسطنطينية، وحين كانت أساطيله وجيوشه تدافع عن مدينتها، فإنها لم تكن تحافظ على بقايا الإمبراطورية البيزنطية فحسب، بل أيضاً عن أوربا المسيحية"[1]. ورغم توطّد هيمنة العرب على التجارة البحرية الشرقية، فقد حافظت العلاقة الهندية ـ العربية على طابعها التنافسي السلمي، ولم يحدث أن تجابهت قوتاهما في البحر من أجل التجارة، فقبل مجيء الأوروبيين، وتلويثهم تجار البحر السلمية، وزرعهم بذور الصراع، لم يحدث قط في أي عصر من العصور، أن مارست دولة آسيوية السيطرة على حركة مرور السفن، ولم يحدث أن شابت نشاطات العرب التجارية أي شائبة سياسية، وكان العرب يتجرون بمنتهى الحرية بجميع الموانئ الهندية، فعندما وصل البرتغاليون بقيادة فونسو البوكرك إلى ساحل الملايو لاحظوا أن التجار العرب والهنود، والصينيين، يتنافسون بحرية، في أسواق تلك المنطقة، تنافساً صريحاً لا لبس فيه، وكانت سفنهم التجارية الصغيرة والكبيرة لا تعرف الحروب ولا تستعد لها لذلك، كان وصول المراكب التجارية الكبيرة حادثاً جديداً، أدخل الحروب والصراع على تجارة تلك البحار.

---

(1) برنارد لويس: السياسة والحرب ـ تراث الإسلام. قسم أول. تصنيف شاخت. وبوزورث. ترجمة محمد زهير السمهوري. سلسلة عالم المعرفة. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت1978، ص258.

يهدف هذا البحث إلى تعريف القارئ العربي مباشرة بالنصوص الرئيسية الكبرى التي اختزنتها الثقافة العربية الوسيطة، والتي كان مدارها وموضوع بحثها الصين والهند، فعكست حدود المعرفة العربية لهذين البلدين ولمحيطهما الإقليمي، وموقف هذه الثقافة منهما ومن سلوكهما الاجتماعي، وقيمهما، ومن الأديان والمذاهب التي اعتنقوها، والطقوس التي مارسوها في أتراحهم وأفراحهم وفي تقواهم الروحية، وقدمت المعايير والرموز التي حكمت نظرتها نحو الصينيين والهنود و جيرانهم كبشر في علاقتهم ببيئتهم، وفي تجربتهم الحضارية في بناء صرحهم السياسي والمدني والتقني والحرفي، مع مقارنة هذه التجربة بغيرها من التجارب الحضارية.

وعلى هذا، فإن هذا البحث يتفرع إلى بابين، يتألف الأول من مقدمات تهدف إلى إضاءة الموضوع من جميع جوانبه، وذلك بالتذكير بمصادر المعرفة العربية وكتاباتها في الهند والصين في شتى فروع المعرفة، أكانت كتابة أدبية وفكرية ، أو في الكتابة التاريخية ، أوفي أدب الرحلات ، أو المدونات المعجمية و الموسوعية ، التي برزت فيما بعد القرن الرابع عشر ميلادي ، وصولاً إلى مدونات العجائب، والمأثورات الفلكلورية، والإضاءة على ما أنجزه المؤلفون العرب من أبحاث ، وقدموه من معطيات وتخيلات وأفكار ومواقف في الهند والصين في شتى فروع المعرفة ، و مجالات التأليف وأبوابه، أما الباب الثاني فيعرض لالنصوص العربية الكبرى في الصين والهند والتي رتبناها إلى مجموعات حسب أسلوب تأليفها الأدبي وموضوعها وشكل مقاربتها للثقافة، ولم نراعِ في ذلك التسلسل الزمني لتأليفها، وعلى ذلك عرضنا تلك المجموعات من النصوص إلى ست مجموعات، وهي على التوالي: مختارات من كتب الأدب والمقابسات، مختارات من الأدب الجغرافي، مختارات من التأليف التاريخي، مختارات من أدب الرحلات، مختارات من المدونات الموسوعية والمعجمية، مختارات من مصنفات العجيب، وأملنا أن يسد هذا البحث ثغرة ولو صغيرة في المكتبة العربية المعاصرة.

الكتابة العربية في الهند والصين

دخلت الصين والهند مجال التأليف العربي، منذ ظهور هذا التأليف، في عصر التدوين، في القرنين الثاني والثالث الهجريين، والذي كان بحق عصر انبثاق التأليف العلمي والأدبي العربي: تدوين السنة، والأنساب والتاريخ والجغرافية وعلوم الفلك، والفقه واللغة والآداب والترجمة، وأيضاً تدوين حكايات الرحالة وقصصهم، وكتب العجائب. وقد شهدت المصنفات الجغرافية والتاريخية والرحلات فضلاً عن المؤلفات الأدبية، سيما تلك المعروفة بـ "المقابسات"، ذروة ازدهارها في القرنين الثالث والرابع الهجريين، واحتلت، في المدونة الثقافية العربية، موقعاً مركزياً، في نسج هذه الثقافة لصورتها عن الصين والهند وجيرانهما.

آ ـ في كتب الأدب والمقابسات

وازدهر منذ العهد الأموي، في مجال الأدب، طريقة المفاضلة بين الحضارات والأمم، انطلقت في البداية من دراسة مميزات الأقاليم والمدن في دار الإسلام، على طريقة أدب الفضائل، وكتب البلدان واهتمت بشكل خاص في ذكر محاسن ومثالب المدن في دار الإسلام، ثم عممت تلك الرؤية على كتب الأدب، وتجلت هذه النزعة المنفتحة في المؤلفات الأدبية، سيما المعروفة بالمقابسات، التي طمحت إلى إعطاء القارئ مقتطفات عن كل العلوم، وكان ابن المقفع من أوائل من ساهم في هذا الحقل، فلم يتحرج في مؤلفاته من اختيار الحِكم من شتى الثقافات، ولقد سجّل تدوين العلم انطلاقة واسعة بعد سنة 143هـ ـ 754م، فإلى جانب التأليف العربي، جرى تدوين

الموروث اليوناني والفارسي، والهندي، فتعدّدت الثقافة العربية، وتنوعت مصادرها، حتى أصبحت في القرن الثالث الهجري سوقاً للقيم، فظهرت موسوعات ثقافية تعترف بهذا التعدد، وسُميت لذلك بـ "كتب الأدب"[1].

وكان ابن قتيبة أبو أحمد عبد الله بن مسلم الدينوري النيسابوري 276هـ ـ 883م من أوائل من دشن التأليف في هذا النوع من "كتب الأدب"، وتبعه ابن عبد ربه/أبو عمر شهاب الدين أحمد بن حمد 246هـ ـ 328هـ، وشهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي 850هـ ـ 1459م، إذ انفتح هؤلاء على ثقافتي الهند والصين والثقافات الأخرى، فاستند ابن قتيبة إلى المبدأ القائل: "إن العلم ضالة المؤمن حيث أخذه نفعه، ولن يزري الحق أن نسمعه من المشركين"، فنجد في كتابه أقوال حكماء الهنود إلى جانب حكماء الصين والترك، والعجم والعرب، واليونانيين والردم، فيورد عشرات الحكم الهندية، "في كتاب للهند: لا ظفر لبغي، ولا صحة مع نهم، ولا ثناء مع كبر، ولا صداقة مع خب خداع، ولا شرف مع سوء أدب، لا بر مع شح، ولا اجتناب محرم مع حرص، ولا محبة مع زهو، ولا ولاية حكم مع عدم فقه، ولا عذر مع إصرار، ولا سلامة مع ريبة، ولا راحة قلب مع حسد، ولا ثبات ملك مع تهاون وجهالة وزراء"[2]. وتميز الأبشيهي عن زملائه من أصحاب المقابسات بأنه كان يضع القرآن والحديث على رأس قائمة مراجعه[3]. ومن هؤلاء كان أبو الحسن بن أبي ذر يوسف العامري النيسابوري 381هـ صاحب "مناقب الإسلام" الذي مارس التعددية

---

(1) د. محمد عابد الجابري. العقل الأخلاقي العربي. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت 2001 ص 198.

(2) ابن قتيبة. عبد لله بن مسلم بن قتيبة الديوري. من عيون الأخبار منشورات وزارة الثقافة. دمشق 1977. ص47.

(3) الجابري. العقل الأخلاقي. مصدر سابق. ص218.

الثقافية في إطار الحضارة العربية الإسلامية، دون تحزّب لموروث ثقافي معين[1]. ونوه، أن أهم الأمم، أو الأجيال البشرية، هم الصينيون والهنود، والترك، والحبش، والبربر، والقبط، والروم والعجم والعرب[2]. وسلك تلميذه مسكوية 421هـ ـ 1030م المعاصر لأبي حيان التوحيدي، المسلك الثقافي نفسه، فكان كالعامري في اعترافه، بأن لكل أمة نصيبها من الحكمة والأدب، وهذا ما يميز المقابسات التي تنطوي على نوع من "الليبرالية الثقافية"[3]. فكتابه "الحكمة الخالدة" يجمع فيه حزمة واحدة حِكَم الهنود والصينيين وحِكم الروم، وحِكم العرب، وحِكم ملوك الفرس وملوك الهند[4]. ولخّص ابن الفقيه وجهة النظر العربية الإسلامية النسبية تلك على تأملاتهم للهند والصين، فقال: "ولولا أن الله عز وجل خصّ كل بلد من هذه البلدان، وأعطى كل إقليم من الأقاليم بشيء منعه عن غيره، لبطلت التجارات، وذهبت الصناعات، ولما تغرب أحد، ولا سافر رجل..."[5]، وعرّج إلى الهند والصين قائلاً: " لذلك خص الله جلّ وعز بلاد السند والهند بأنواع الطيب والجواهر، كالياقوت والألماس وغير ذلك من الحجارة الثمينة، والكركدن والفيل والطاووس والأعواد والعنبر والقرنفل والسنبل والخولنجان، والدار صيني، والنارجيل والهليلج والتوتياء والقنى، والخيزران والبقم والصندل، والساج والفلفل وعجائب كثيرة، وخصّ أهل الصين بالصناعات وأعطاهم ما لم يعطه لأحد، فلهم الحرير الصيني والغضائر والسرج، وغير ذلك من الآلات

---

(1) المصدر نفسه. ص395.

(2) أبو الحسن العامري. كتاب الأعلام ومناقب الإسلام. تحقيق أحمد عبد الحميد غراب. دار الأصالة. الرياض1988. ص/17 ـ 72/.

(3) الجابري. العقل الأخلاقي ... مصدر سابق. ص407.

(4) مسكويه. أبو علي أحمد بن محمد. الحكمة الخالدة. حققه وقدم له عبد الرحمن بدوي. مكتبة النهضة المصرية1952. ص10.

(5) ابن الفقيه. أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني. مختصر كتاب البلدان. طبع في مدينة ليدن المحروسة. بيروت1956 سنة1302. ص251 — 252.

المحكمة العجيبة الصنعة، المتقنة العمل، ولهم أيضاً مسك إلا أنه ليس بجيد، وقالوا إنما يتغير في البحر لطول المسافة"[1]

ولعل هذه النزعة المساواتية، قد أفضت إلى بزوغ نزعة إنسانية عربية ـ إسلامية في العصر الوسيط، عبر عنها بقوة الجاحظ 255هـ ـ 866م، إلى حد ما، والتوحيدي 320 هـ ـ 932م، ومسكويه 421هـ ـ 1030م الذين لخصوا وجهة نظر الثقافة العربية تجاه العالم، وكان الجاحظ من المؤسسين العظام لهذه النزعة الإنسانية في الثقافة العربية، والذي قال عنه ميكيل "لا بد لنا في الحد الأدنى، أن نعترف، في حدود معارفنا الحالية، أن الجاحظ أول من طرح قضية الإنسان في العالم، ولا سيما في كتابة الحيوان الذي يمثل مختارات تاريخ طبيعي، واستعراض الخلق في صيغ نوادر أدبية"[2]. فقد نظر إلى مساهمات الأمم المختلفة في مجال العمران والحضارة، بطريقة تكاملية تقوم على منح كل منها أدواراً في مضمار التمدن، وأن أي منها لا يملك إمكانية التفوق بكل جوانب التمدن "لأن من كان مقسم الهوى، مشترك الرأي، ومتشعب الرأي والنفس، غير موقر على ذلك الشيء ولا مهيأ له، لم يحذق من تلك الأشياء شيئاً بأسره، ولم يبلغ فيه غايته"[3]. وأشار إلى إبداع "الصين في الصناعات، واليونان في الحكم والآداب، ... وآل ساسان في الملك، والأتراك في الحرب"[4]. وانتقل إلى القول إن "سكان الصين منهم أصحاب السبك والصباغة، والإفراغ والإذابة، والأصباغ العجيبة، وأصحاب المخرط، والنحت، والتصاوير، والنسخ والخط، ورفق الكف في كل شيء

---

(1) المصدر نفسه. ص233.

(2) أندريه ميكيل. أندريه ميكيل. جغرافية دار الإسلام البشرية ج1. ق1. ترجمة إبراهيم خوري. وزارة الثقافة 1983. ص275.

(3) الجاحظ. أبو عثمان بن بحر. رسائل الجاحظ ج1. تحقيق وشرح عبد السلام هارون. الجاحظ. خانجي. القاهرة 1964. ص67.

(4) المصدر نفسه. ص67.

يقولـونه ويعانقـوه"[1]وعلى هذا، "فلكلٍّ نصيب من النقص، ومقدار من الذنوب، وإنما يتفاضـل الـناس بكثرة المحاسـن، وقلـة المساوئ "[2]. فخصّ الأمـم المختلفة: الـصين، الهند، اليونان، الـترك، العـرب، بميزة خاصة تتسم بهـا، تكمّـل بهـا الجهد البـشري العمراني[3].

وأكـد أبـو حـيان التوحـيدي على الـرؤية الـنسبية الثقافـية، إذ يقـول: "فلكـل أمـة فضائل ورذائـل، ولكـل قـوم محاسـن ومساوئ، ولكـل طائفـة من الناس صناعتها"[4]. ووزع الفـضائل على العـرب والـصين والهـند، والـترك، "فللفـرس الـسياسة والآداب، والحـدود والرسـوم، وللروم العلوم والحكمة، وللهند الفكرة والروية والخفة الشعوذة، والـسحر، وللـترك الـشجاعة والإقـدام، وللزنج الصبر والكد والفرح، وللعرب النجدة والوفاء، والبلاء، والجود والزمام والخطاب والبيان"[5].

و انطلـق صـاعد الأندلـسي المولـود عـام 1029م، في كتابه "طـبقات الأمـم"، مـن المفاهيم المرجعية للثقافة العـربية الإسـلامية، القائمـة علـى بيان ما تنفرد به كل مدينة، وإقليم، وأمـة مـن خاصـية تميزها عـن مثيلاتها، وقـد أغفـل العامـل الـديني في تقييمه لأدوار الأمـم في مجـال الحـضارة، ووضع سلماً لمراتب رقي الأمم قياسياً على تقدمها في مجـال العلـم وحسب، و أهمل المهارات اليدوية والبدنية المعبر عنها في الحرف والصنائع، وعلـى هـذا اسـتبعد الـصين، مـن مجمـوعة الأمـم المبدعة في مجال العلـوم، ووضـعها في الطبقة الثانـية من الأمم التي اشتهرت في مجال الإبداع الحرفي اليدوي، بينما وضع الهند

---

(1) المصدر نفسه. ص68.

(2) المصدر نفسه. ص37.

(3) وديعة طه نجم. الجاحظ والحاضرة العباسية. مطبعة الإرشاد. بغداد1965. ص65.

(4) أبـو حـيان التوحـيدي، علـي بن محمد بن العباس. كتاب الإمتاع والمؤانسة. صححه وضبطه أحمد أمين واحمد الزين. منشورة دار الحياة. بيروت بدون تاريخ. ص73.

(5) المصدر نفسه. ص74.

في المرتبة الأولى أي في صف الأمـم "العالمة". أشار، في البداية، إلى أن التنوع بين الأمم إنما يقوم على اختلافها في اللغة والأخلاق والسحنة، ويغفل العامل الديني إذا قال: "إعلم أن جميع الناس في مشارق الأرض ومغاربها، وجنوبها وشمالها، وإن كانوا نوعاً واحداً، فإنهم يتميزون بثلاثة أشياء، الأخلاق، والصور، واللغات"[1]. وهذا التمايز بين الأمم لا يمت بصلة لأحكام التفاضل، فالاختلاف في اللغة والصورة والأخلاق، أي السلوك، لا يتضمن حكماً قيمياً، إنما هو حكم وجود وحسب، فالحكم التفاضلي بين الأمم يقوم فقط على مدى مساهمة هذه الأمة أو تلك في مجال العلوم، مع تغييبه للعامل الديني، فهو يقول: وجدنا هذه الأمم على كثرة فرقهم، وتخالف مذاهبهم طبقتين: فطبقة عنيت بالعلوم فظهرت منها ضروب العلوم، وصدرت منها فنون المعارف، وطبقة لم تعن بالعلوم عناية يستحق منها اسمه، وتعدّ بها من أهله، فلم ينقل عنها فائدة حكمة". وعلى هذا المقياس، وضع الهند في قائمة الأمم العالمة واستبعد الصين. فأمة الهند، التي وضعها في الطبقة الأولى، هي "أمة كثيرة العدد عظيمة القدر فخمة الممالك، وقد اعترف لها بالحكمة وأقر لها بالتدبير في فنون المعرفة جميع الملوك السالفة، والقرون الخالية". وللهند أيضاً "التحقق بعلم العدد، والأحكام بصناعة الهندسة، والخط الأوفى، والقدح المعلى من معرفة أحكام النجوم، وأسرار الفلك وسائر العلوم الرياضية، وبعد هذا فإنهم أعلم الناس بصنعة الطب، وأبصرهم بقوى الأدوية وطبائع المولدات، وخواص الموجودات، ولملوكهم السير الفاضلة والملكات المحمودة، والسياسات الكاملة، وأما العلم الإلهي، فهم يجمعون على التوحيد لله والتنزيه له عن الإشراك به، ثم أنهم مختلفون بعد ذلك في سائر أنواعه، فمنهم براهمة، ومنهم صابئة"[2].

---

[1] صاعد الأندلسي. أبو القاسم صاعد بن احمد التغلبي. طبقات الأمم. تحقيق حياة العيد بو علوان. دار الطليعة. بيروت 1985. ص33.

[2] المصدر نفسه. ص50 ـ 53.

أما الصين فيضعها في الطبقة الثانية من الأمم التي لم تعن بالعلوم، فيصفها باتساع الملك، والثروة والصناعات، فهي "أكثر الأمم عدداً، وأفخمها ملكة، وأوسعها داراً، ومساكنهم محيطة بمشارق الأرض المعمور ما بين خط النهار إلى أقصى الأقاليم السبعة في الشمال، وحظهم من المعرفة، التي بزوا فيها سائر الأمم، إتقان الصنائع العملية، وأحكام المهن التصويرية، فهم أصبر الناس على مطاولة التعب، وتجويد الأعمال ومقاساة النصب في تحسين الصنائع". ونقل صاعد ما اعتقده أنه قول ملك الصين، ومفاده: "أن ملوك الدنيا خمسة يتبعهم سائر الناس، وأولهم ملك الصين، وكانوا يسمونه "ملك الناس" لأن أهل الصين أطوع الناس للمملكة، وأشدهم انقياداً للسياسة، وكانوا يسمّون ملك الهند ملك الحكمة، لفرط عنايتهم بالعلوم وتقدمهم في جميع المعارف، وكانوا يسمون ملك الترك ملك السباع لشجاعة الترك، وشدة بأسهم، وكانوا يسمون ملك الفرس ملك الملوك لفخامة ملكته وجلالها، ونفاسة قدرها، وكانوا يسمون ملك الروم ملك الرجال لأن الروم أجمل الناس وجوهاً، وأحسنهم أجساماً"[1]. وعلى الرغم من أن المؤلفين العرب لم يوافقوا صاعد تبخيسه لموقع الصين الحضاري، فإنهم شاركوه وصفه للمجالات التي تتقنها الصين والهند، ودأبوا على نقل هذه النظرة المتكاملة للأدوار الحضارية للأمم. وقد انتقلت تلك النظرة المفعمة بالنسبية الحضارية إلى جميع فروع المعرفة والثقافية العربية. وسنختار نصاً للتوحيدي ونصاً آخر لصاعد نموذجين للتأليف الأدبي في الصين والهند

ب – مسالك المدونات الجغرافية

قبل أن يهتم الباحثون العرب بخصائص الأمم والحضارات الأخرى، فإنهم أبرزوا الفروق المحلية الإيجابية أو السلبية في مدنهم وأقاليمهم، وطبقوا تلك الطريقة المنهجية

---

(1). المصدر نفسه. ص50 – 52.

على رؤيتهم للأمم الأخرى، فأعطوا لكل منها خاصة من الخصائص، ودوراً في مجال العمران، وما اشتهرت به من زرع، وحيوان وعجائب، وغرائب. وقد طبقوه مناهجهم تلك على رؤيتهم للصين والهند، والأمم الأخرى، وقد اتسع هذا النمط من المقارنة والوصف شيئا فشيئا إلى ليشمل وصفهم المدن والأقطار المختلفة على طراز "الفضائل" أو "الخصائص"، ثم تحول هذا النمط إلى "كتب البلدان"، وتحول هذا الأخير بدوره، تحت تأثير الموضوعات المثيالوجية، والعجائب، إلى "كتب العجيب" أو باتجاه وصف الطرق، والأقاليم، أي إلى "المسالك والممالك"[1].وانتقلت هذه الطريقة من المقارنة اتي تحترم النسبية الثقافية إلى مجال الجغرافية لاسيما الجغرافية البلدانية وتلك الجغرافية المتأثرة بنهج المدرسة الجغرافية العربية، غير إن هذا النمط الجغرافي نافسه منهج الجغرافية الفلكية الإقليمية.

فقدمت الجغرافية، منذ القرن الثالث الهجري، التصورات العامة للعرب المسلمين ومعارفهم عن الآخر بما فيه شعوب الصين والهند، ولخّصت هذه الجغرافية معارف العرب، ومتخيلهم عن الصين والهند، والشعوب الأخرى، وامتزجت في بوتقتها جميع أصول الثقافية العربية.وقد سيطر على منهجياتها ـ في تلك الأثناء ـ ميلان أو اتجاهان مدرسيان ؛الأول اتجاه الجغرافية الرياضية — الفلكية، الذي ظهر في نقطة التقاء القرنين الثامن و التاسع الميلادي، نتيجة تأثر المؤلفين العرب بالعلوم الهندية والفارسية أولاً، ثم بالترجمات عن اليونانية ولاسيما مؤثرات شخصية بطلميوس بمصنفاته الجغرافية الفلكية، فوضعوا الصين والهند وجيرانهم في الشرق الأقصى تبعاً لذلك، في الأقاليم الأول والثاني بشكل رئيسي، وذلك وفقاً لنموذجهم الجغرافي الفلكي عن العالم، في سياق تقسيمهم للكبرة الأرضية إلى أقاليم متوازية لخطوط طول خط

---

(1) بوليانوفيتش كراتشكوفسكي. تاريخ الأدب الجغرافي العربي. القسم الأول. ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم. مراجعة ايغور بلايف. الإدارة الثقافية. في جامعة الدول العربية1963. ص129 ـ 132.

الاستواء، وإلى درجة الحرارة التي يتعرض لها. وعلى هذا الأساس ألف "محمد بن موسى الخوارزمي" ت232هـ ـ 846م كتابه "صورة الأرض"[1]. فكان هذا الكتاب عبارة عن جداول فلكية، رتّبت صفحاتها إلى ثلاثة أعمدة، اشتمل الأول منها على اسم الموضع، والثاني على خطوط الطول، والثالث على عرضه، وهو ما يبدو أنه كاف لتحديد كل ما يلزم لمعرفة الأقاليم وما فيها من شعوب[2]. واتبع "كتاب عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية المعمورة" لسهراب ـ أبو الحسن بن البهلول القرن التاسع الميلادي، على النهج نفسه. فقد حدّدت هذه المنهجية الهند والصين وقيدتها بشكل رئيسي بتأثيرات العوامل الفلكية الإقليمية للأقاليم التي تقع فيها هذين البلدين، وقد اتبع هذا النهج الكثير من الجغرافيين العرب، أمثال ابن رستة 300هـ ـ 912م، وابن خرداذبة 280هـ ـ 892م، وابن الفقيه 340هـ ـ 951م. لذا فالمعلومات والتخيلات ـ الجديدة والقديمة ـ التي قدّمها هؤلاء عن الهند والصين استندت على الترتيب الإقليمي ـ الفلكي للعالم المعمور، فعلى غرار بطليموس، ظنوا أن المعمور من الأرض يشكل ربع الكرة الأرضية، ويقع في نصفها الشمالي، وأسموه الربع المعمور من الأرض، وقسموا الربع المعمور هذا إلى سبعة أقاليم، على شكل أحزمة أفقية من الجنوب إلى الشمال موازية لخط الاستواء، ولكل إقليم تأثيراته الخاصة على الناس القاطنين فيه بالإضافة على الحيوان والنبات، يشير ابن رسته "إن الذي خلف معدل النهار، إلى ناحية الجنوب أشد سواداً، وشعورهم أشد تفلفلاً، وخلقهم أشد تشوهاً ممن كان في مثل بعدهم عن معدل النهار في جهة الشمال، ونحن نجد ذلك، فإنهم يأتون منهم بناس كثير على ما وصفنا من الخلقة، متوحشي الطباع، متشبهين بأكثر طباعهم بالسباع المتوحشة.. وما يحدث فيها وإنما يكون ذلك على قدر قرب الشمس منها، أو بعدهم

---

(1) حسين مؤنس: تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس. مكتبة مدبولي ط2. مصر1986. ص5. وراجع كراتشكوفسكي. المصدر السابق. ص18.

(2) خصباك. المصدر السابق. ص457.

عنهم.....أما القوم الذين هم متباعدون عن مدار رأس السرطان إلى الشمال، وذلك مثل بابل، ونحوه من البلدان، فإن الشمس لا تبعد من سمت رؤوسهم ولا تقترب منهم، ولكن ممرها معتدل عليهم، فإن هواءهم حسن في التمزيج، وموضعهم معتدل ليس فيه حرّ شديد، ولا برد شديد، وألوانهم وأبدانهم، وطبائعهم معتدلة وعقولهم وأخلاقهم حسنة وقد كثر فيهم العلم والذكاء، وتقدمة المعرفة بالأشياء، ومحاسن الأخلاق وهي أرض العلماء والنبيين..."[1]. وعلى هذا الأساس، نظر الجغرافيين العرب المتأثرون بتلك النظرية، إلى الشعوب كافة، غير إنهم وعلى الرغم من وقوع الهند والصين في الإقليم الأول والثاني الجنوبيين الحارّين للغاية، فقد استثنوهما كما استثنوا الجزيرة العربية من تأثير مناخ هذين الإقليمين، بحجة إحاطة ماء المحيط بهم، مما خفّف من وطأة الحرارة عليهم، وهو من علائم موقفهم الإيجابي من هذين البلدين. وقدّم ابن رسته الكثير من المعطيات والمواقف عن بعض ملوك الهند وفي مقدمتهم بلهرا "معنى بلهرا أنه ملك ملوك الهند، وهو في بلاده يُقال له الكمكم... وبلاده بلاد الساج، ومنها يُجلب، وهو ملك واسع المملكة، كثير الجيش، ومن حوله من الملوك يصلّون يخضعون له، ومن ورد من رُسله على هؤلاء الملوك الذين حوله صلّوا له إعظاماً لصاحبه"[2]. أما ملك الصيلمان: فيمتاز هذا الملك بالقوة، والشجاعة، ونقل ابن رسته عن الرحالة محمد بن إسحاق، أن جيش ملك الصيلمان هذا يبلغ "نحو سبعين ألفاً، وله فيلة قليلة إلاّ أن الهند يقولون أن فيلة الصيلمان أجرأ على القتال من جميع فيلة الهند"، كما أن "هؤلاء الملوك جميعاً يرون الزنا مباحاً، غير أن من أحصن منهم بامرأة، فعرض لها عارض، وزنيا قتل الرجل والمرأة".وبلغ عجب ابن رسته ذروته، عندما لاحظ اقتران الطقس التعبدي بالعهر، وهي مفارقة لم يألفها الباحث العربي، فسجل وجود مائة

---

(1) ابن رسته أبو علي أحمد بن عمر. كتاب الأعلاق النفيسة. المجلد السابع. طبع في مدينة ليدن المحروسة. بمطبعة بريل. سنة1892. ص101 ـ 102.

(2) المصدر نفسه . ص34.

جارية حول صنم ملتان، وظيفتهن الطقسية الرقص أمام الصنم البد، لاستعطافه، بحسب قولهن: "نحن نرقصه، ونترضاه"[1]. كما ترتبط عقوبة السارق، والعقوبات الأخرى لديهم بالمكانة الاجتماعية، فلم يكن خافياً على العرب نظام الطبقات التراتبي في الهند، منذ ابن خرداذبة[2]، وإذا سرق مسلم ببلاد الهند ردوا الحكم في أمره إلى هنرمن المسلمين، ليعمل فيه بما يوجب حكم الإسلام"[3]

وأورد ابن خرداذبة الذي تجاذبه المنهج البطليموسي ومنهج المسالك والممالك، وتصانيف تقويم البلدان ذي المنهجية المحلية العربية، معلومات وتصورات مختلفة عن الهند والصين، ففي معرض حديثه عن "مسلك التجار اليهود والراذانية" أن هؤلاء التجار يمضون في البر "إلى السند والهند والصين، فيحملون من الصين المسك، والعود، والكافور، والدار الصيني، وغير ذلك... حتى يرجعون إلى القلزم= البحر الأحمر، ثم يحملونه إلى الفرما (=في مصر)، ثم يركبون في البحر الغربي (=البحر المتوسط)، فربما عدلوا بتجاراتهم إلى القسطنطينية، فباعوها إلى الروم، وربما صاروا فيها إلى ملك الفرنجة فيبيعونها هناك". وتعقب ابن خرداذبة طريق التجارة البحري إلى الصين بدءاً من الفورما في مصر على البحر الأحمر القلزم، إلى جدة "ثم يمضون إلى السند والهند والصين فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدار صيني، وغير ذلك"، وعرّف بالمرافئ الصينية، فشرح ابن خرداذبة، أن "من الصنف إلى لوقين تونكين Tonken وهي أول مرافئ الصين، مائة فرسخ، ...وفيها الحجر الصيني، والحرير الصيني، والغضار الجيد الصيني، وبها أرز...، ومن لوقين إلى خانفو، وهي المرفأ الأكبر مسيرة أربعة أيام في البحر، ومسيرة عشرين يوماً في البر، وفيها الفواكه

---

(1) المصدر نفسه. ص133 ـ 137.

(2) ابن خرداذبة، أبو القاسم عبد الله بن عبد الله: المسالك والممالك، مكتبة المثنى، بغداد، دون تاريخ. ص71.

(3) المصدر نفسه. ص152.

كلها والبقول والحنطة والشعير والأرز، وقصب السكر، ومن خانفو إلى خنجو = Hangochow مسيرة ثمانية أيام، وفيها مثل ما في خانفو، ومن خانجو إلى قانطو مسيرة عشرين يوماً، وفيها مثل ذلك"[1].كما أضاء على نظام الطبقات التراتبي المُغلق في الهند.

أما المنهج الجغرافي الثاني فهو منهج محلّي اعتمد على المشاهدة، والتجربة المباشرة، والرحلة لاستقصاء، وتجميع الشواهد للوصول إلى الاستنتاجات، وهذا الاتجاه أو الميل يمثله بحق خط الجغرافية العربية ـ الإسلامية، فهو خط "المسالك والممالك"، أو نموذج التصنيف البلداني، الذي استند على المشاهدة والرحلات، وسؤال أهل البلاد أنفسهم عن أحوالهم؛ وارتبط هذا الاتجاه بالتاريخ، فكان أغلب الرحالة أو الجغرافيين، في الأندلس والمغرب، مؤرخين دمجوا معطياتهم الجغرافية أو الرحلية بالتاريخ، والمكان بالزمان، وقد استند هذا الاتجاه على الرحلات وما جمعه أصحابها من معلومات عن طريق المشاهدة المباشرة، والذي تفرع وتطور منه أيضاً أدب الرحلات[2]، وعبر هذا الاتجاه عن نفسه، في بداياته، في الدراسات "البلدانية" والبحث عن فضائل "المدن" و"البلدان"، وشقّ طريقه واسعاً في منهج "المسالك والممالك"، ثم تُوج بالمدرسة "الجغرافية العربية الكلاسيكية" في القرن الرابع الهجري ـ العاشر الميلادي على يد الأصطخري أبو إسحاق أبو إبراهيم بن محمد الفارسي 340هـ ـ 951م وابن حوقل أبو القاسم محمد بن علي الموصلي ت367هـ ـ 977م والمقدسي البشاري محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء ت390هـ ـ 1000م في كتاب أحسن التقاليم في معرفة الأقاليم. هذه المدرسة اهتمت أساساً بأطلس دار الإسلام، وبما جاورها من البلدان[3]، واستعاض كتابها عن نماذج بطليموس الرياضية الفلكية عن الأقاليم،

(1) المصدر نفسه152 ـ 154.

(2) مؤنس. المصدر السابق. ص8 ـ 9.

(3) كراتشكوفسكي. المصدر السابق. ص359.

بمفهوم الإقليم — المقاطعة، فاهتموا بالسكان والبيئة وبالثقافة العامة للناس، وبأساليب معاشهم.فإن خريطة الاصطخري اشتملت على عشرين إقليماً، وقدم خلالها الاصطخري على انطباعات سريعة عن الهند والصين، وعلى صف المحيط الهادي والهندي، وجزرهما، وطرق التجارة التي تتضمنها، وقد ذكر الاصطخري، وابن حوقل أيضاً، أن الهند والصين من الممالك العظام في الكون. وأن هناك: مملكة إيران شهر، ومملكة الروم ومملكة الصين، ومملكة الهند، ثم أشارا إلى مدى ما أخذته "مملكة الإسلام" في صعودها من تلك الممالك من بلاد، ومن تأثيرات، فكتبا بكلمات تكاد تكون متطابقة: فلما جاء الإسلام أخذ من كل مملكة بنصيب، فأخذ من مملكة الروم: الشام ومصر والمغرب، والأندلس، وأخذ من مملكة الهند ما اتصل بأرض المنصورة والملتان إلى كابل، وطرف أعلى طخارستان، وأخذ من مملكة الصين ما وراء النهر"[1]. أما "أرض الهند فإن شرقيها بحر فارس وغربيها وجنوبها بلاد الإسلام، وشماليها مملكة الصين"[2].

لقد أكمل ابن حوقل طريق الاصطخري، ولاسيما أنه كان مغرماً بالتجوال لمعرفة العالم، وبدأ تجواله من بغداد في رمضان عام 331هـ ـ 943م، فجاب أفريقية الشمالية والأندلس، وزار نابلي وصقلية، وعرف عن كثب العراق وفارس، وجزءاً من الهند[3]. فقدم معطيات تفصيلية عن السند وخاصة السند، فتعرض إلى المنصورة التي كان اسمها القديم حسب ياقوت همناباد فقال إنه يحيط بها "خليج نهر مهران، وهي

---

(1) الاصطخري. أبو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي (الكرخي). المسالك والممالك. تحقيق د. محمد جابر عبد العال الحسيني. وزارة الثقافة والإرشاد القومي. مصر1961. ص15 ـ 16. وابن حوقل أبو القاسم النصيبي. كتاب صورة الأرض. منشورات دار مكتب الحياة. بيروت1992. ص19.

(2) ابن حوقل. المصدر نفسه. ص23. الاصطخري. ص18.

(3) كراتشكوفسكي. ج1. مصدر سابق. ص189.

شبيهة بالجزيرة، وهي مدينة حارّة، ينبت فيها النخل، وقصب السكر"، وبأرضها "ثمرة على قدر التفاح تسمى الليمون حامضة شديدة الحموضة، ولهم فاكهة تشبه الخوخ يسمونها الأنبج، ونقودها القندهاريات" ولهم درهم يقال له الطاطري، ويتعاملون بالدنانير أيضاً"[1]، ويحيط سندابل النخيل، وبها رستاق أي سهل يعرف بأُيل، "وفيه مسلمون وكفار وثنيون من مدينة البدهة، ولهم غلات وزروع وكروم ومواشي... وإبل وغنم وبقر وأكثر زرعهم البخوس"[2]. والبدهة يتجرون مع قرنديل وهم على البداوة[3]، وأشار ابن حوقل أن "الكفار في بلد السند هم البدهة وقوم يعرفون بالميد، وهم قبائل مفترشة ما بين حدود طوران ومكران والملقان ومدن المنصورة... وهم أهل إبل"[4].وقدّم عن مدينة الديبل، وهي أهم المدن الساحلية لإقليم السند، وتقع في موقع كراتشي الحالية، شرقي نهر مهران، صورة مركبة عنها بقوله: "والديبل من شرقي نهر مهران على البحر، وهي متجر عظيم وتجارتها في وجوه كثيرة، وهي فرضة هذه البلاد وغيرها، وزرعهم الباخس، وليس لهم كثير شجر، ولا نخيل، وهو بلد قشف، وإنما مقامهم للتجارة"[5]. وأشار إلى ملك بلهراعلى أن بلهرا هو اسم مملكة ولقب ملك في الوقت نفسه[6]. وتعرض المقدسي البشاري للهند عبر وصفه بلاد السند، والملتان، وقنوج، والمواد التجارية التي تُحمل من هناك، ودراهمهم، والتماثيل التي في ملتان، وبحر الصين، وجزر المحيط الهندي: سرنديب، وحفظ لنا وقائع رحلة سلام الترجمان إلى سد الصين، الذي يسميه سد ذي القرنين، وهو صاحب عبارة "وعدن دهليز الصين

---

(1) ابن حوقل. ص277.
(2) المصدر نفسه. ص281.
(3) المصدر نفسه. ص279.
(4) المصدر نفسه. ص279.
(5) المصدر نفسه. ص279.
(6) المصدر نفسه.ص228.

مع صحار"[1]، وذكر أن الملتان سُمّيت فرج بيت الذهب لأن المسلمين لما فتحوا الملتان "وجدوا بها من الذهب ما أغناهم"[2]. وأشار إلى أن الغالب على الديبل هو وظيفتها التجارية، إذ إن "أهلها كلهم تجار، كلامهم سندي وعربي، وهي فرضة الكورة، كثيرة الدخل"[3] وأن في قنوج جالية مسلمة إلاّ أن الغلبة فيها للكفار، وأهلها ذوو "وجوه حسنة"[4].

أما أبو ريحان البيروني 440هـ ـ 1048م الجغرافي والرحالة والموسوعي الكبير، فقد دوّن خلاصة تجاربه الفكرية، وحصيلة رحلاته وتجواله في ربوع الهند، التي استمرت أربعين عاماً، في كتابه الشهير، تحقيق ما للهند من مقولة في العقل أو مردوده، الذي انتهى من تأليفه عام 423هـ ـ 1031م، أي بعد عام ونصف من وفاة السلطان محمود الغزنوي، الذي اصطحبه في غزواته الهندية، فتعرف من خلالها على حياة الهنود، وبخاصة على حياتهم العقلية، والدينية، ويُعد الكتاب وثيقة تاريخية إثنوغرافية عن الهند، فهو لم يدرس فيه طبيعة هذه البلاد وأحوال سكانها وحسب، بل درس كذلك لغة أهلها وآدابهم في مختلف بيئاتهم، اعتمد فيه على المقارنة بين التجربة الفكرية الهندية وما يماثلها من حياة فكرية عند اليونان، "فأورد كلام الهند على وجهه، وأضيف إليه ما لليونانيين من مثله لتعريف المقارنة بينهم"[5]. فقد خصّصه بشكل رئيسي لعرض المكانة التي تحتلها التجربة الروحية للهند، قياساً إلى الحضارات الأخرى،

---

(1) المقدسي. شمس الدين بن عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء الشامي. أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. طبع مدينة ليدن المحروسة. مطبعة بريل1954. ص34.

(2) المصدر نفسه. ص483.

(3) المصدر نفسه. ص479.

(4) المصدر نفسه. ص485 — 486.

(5) البيروني. أبو ريحان محمد بن أحمد. تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة. صحح النسخة المكتبة الأهلية في باريس. طبع بمطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية. بحيدر آباد الدكن. الهند1958. ص 1 و ص 5.

وخاصة الإنجاز الروحي والعقلي لليونان. وأودع في كتابه هذا نتيجة دراساته في تاريخ وعادات وعقائد وآداب علوم الهند، ومن جملتها ما كان عندهم من المعرفة بصورة الأرض، فأصبح بذلك واسطة العقد بين الإسلام والهند بعد أن نقل إليهم ما عند المسلمين من علوم[1]. فلم يخص تاريخ الهند السياسي إلاّ بحيّز صغير، لصالح تخصيصه لأحوالها الفلكية و لأديانها بأحد عشر فصلاً، وكان أكثر ما سحره فيها ـ كما يقول ديورانت ـ جا فادجيتا، وأدرك ما بين تصور الفدانتا والصوفية، والفيثاغورثية الحديثة، والأفلاطونية الحديثة من تشابه، وأورد مقتطفات من كتابات مفكري الهنود ووازنها بمقتطفات شبيهة بها من كتابات مفكري اليونان[2]. فمع تأثير منهج الجغرافية الفلكية علية الاّ أن عنصر المشاهدة والتجربة اللتان توفرتا له في رحلاته جعلت كتابه شبيه بالدراسة الأثنوغرافية. فبعد أن درس كتب الهنود، في كل ميادين المعرفة، بسط أبحاثه تلك، فكان بذلك كمن يؤسس لإنثروبولوجيا ثقافية، حيث "درس معتقدات الهنود، وأفكارهم الثقافية وطريقة حياتهم دراسة موضوعية وبطريقة علمية مخططة"[3]

قسَّم البيروني كتابه إلى ثمانين باباً، وهو في هذه الأبواب الثمانين يتحدث عن معتقدات الهند، وشرائعهم وأحكام الفروض. والعبادات عندهم كالمواريث والصيام والقرابين والكفاءات والحج والصدقات والأعياد والعقوبات والمباح من المطاعم والمشارب والمحظور منها. كما يذكر نظام الطبقات في مجتمعهم وأحكامه، ويشير إلى ما عندهم من أنواع الخطوط وطرائق الكتابة، ويعرفنا بتراثهم في النحو والشعر وسائر العلوم، ويصف لنا بلادهم ومعالمهم الجغرافية. ويسوق لنا حديثاً طويلاً عن علم الفلك عن الهنود، وفصل عن صورة الأرض عندهم وأصناف الشهور والسنين ويشير

(1) كراتشكوفسكي ج1 مصدر سابق. ص25.

(2) ول. ديورانت قصة الحضارة ج2 مجلد رابع. مصدر سابق. ص185.

(3) د. أحمد الربايعة البيروني. وأسس الإنثروبولوجيا. مجلة دراسات تاريخية. العدد31 — 32. السنة العاشرة. دمشق. آذار حزيران1989.

إلى أحكام الكواكب والنجوم ومراصدها... وهو لا يكتفي بهذا بل يقارن بين ما عند الهنود وما عند غيرهم من الأمم[1].

ووصف البيروني طرق المقاضاة عندهم، و العديد من الأحكام والعقوبات، فالقاضي الهندي يطلب من المدّعي الكتاب المكتوب على المدعي عليه، أي وثائق الاتفاق بينهما، والبينة المثبتة بوثيقة مكتوبة، فإن لم توجد "فالشهود بغير كتاب، ولا أقل في عددهم عن أربعة فما فوق، إلاّ أن تكون عدالة الشاهد مقرّرة عند القاضي، فيقطع الحكم بها بشهادة الواحد"[2]، ويلجأ أحياناً إلى التجسس، والاحتيال لاستنباط الحقيقة، فإذا عجز المدعي عن إقامة البينة لزم المنكر اليمين... والإيمان أنواع كثيرة تتعلق بأهمية الدعوى، ربما ألقي منكر اليمين في ماء شديد الجريان، فإن كان صادقاً لن يصيبه ضرر، وإن كان فوق ذلك، غلوا السمن والدهن في قدر ثم القوا قصعة ذهب فيه ويقوم المنكر بإخراجها، فإن كان محقاً أخرجها سالماً، وهناك عقوبات تتأثر بموقع المتهم في الهرم الطبقي الذي يتكون بالترتيب من حيث الأهمية من: البراهمة، كشتر، إلى بيش ثم شودر، والأخيرين في أسفل السلم الاجتماعي، وإذا كان القاتل برهمناً والقتيل من سائر الطبقات لم يلزمه القاضي سوى كفارة تكون بالصوم والصلاة والصدقة، وإن كان المقتول برهمناً والقاتل من سائر الطبقات لم يجزه كفارة، أما بشأن جزاء قاتل البقرة وشارب الخمر، والزاني، فإن الولاة لا يقتصّون من برهمن أو كشتر، ويكتفون بماله ونفيه. أما جزاء القتل في الطبقات الأخرى: بيش وشودر: فإن قتل بعضهم بعضاً يكفّر بكفارة، ويقيم الولاة القصاص عليهم[3].فانتقل البيروني في دراسته لدين الهنود ولثقافتهم العالمة إلى المقارنة ما بين هذه الثقافة وبين ما يماثلها عند اليونان، وأحياناً عند العرب المسلمين، وقدّم نصّاً مقارناً أخاذاً جريئاً، يقترب لأن يكون مدخلاً

---

(1) المصدر نفسه. ص133.
(2) البيروني، أبو ريحان محمد بن أحمد. تحقيق ما للهند....، ص472.
(3) المصدر نفسه. ص472 ـ 475.

إنتروبولوجيّاً، بين السلوكين الثقافيين الهندي واليوناني، وكانت قد ذخرت الكتابات العربية عن الهند بالمقارنات الضمنية ما بين السلوك الثقافي الهندي، والسلوك الثقافي العربي الإسلامي.و دلّل البيروني على أوجه الاختلاف بين ثقافة الهند وسلوكها وبين الثقافة العربية الإسلامية، والسلوك الاجتماعي للجماعة العربي الإسلامية، يمهد لذلك بالقول "إن القوم يباينونا بجميع ما تشترك فيه الأمم، وأولها اللغة"[1]، وأيضاً "أنهم يباينوننا بالديانة مباينة كلّية، لا يقع منّا شيء من الإقرار بما عندهم، ولا منهم بشيء مما عندنا"، ذلك، فإن الهنود منغلقين على أنفسهم حذرين من الغريب، ويتجنبون الاختلاط به، ويسمون الغريب مليج، وهو عندهم "القذر"، وهم "يباينوننا في الرسوم والعادات"[2]، وأعاد مؤلفونا الحذر الهندي من الغريب إلى سببين، أولهما أن الغريب يأكل لحم البقر وهي كائن مقدس لديهم، وثانياً لشعورهم بالتفوق، إذ "يعتقدون في الأرض أنها أرضهم، وفي الناس أنهم جنسهم، وفي الملوك أنهم رؤساؤهم، وفي الدين أنه نحلتهم، وفي العلم أنه ما معهم، فيترفعون ويتبظرمون، ويعجبون بأنفسهم"، ويستدرك البيروني هنا، لينوه إلى أن الأقدمين عندهم لم يكونوا بهذه العجرفة، فبراهم أحد فضلائهم يقول: "إن اليونانيين، وهم أنجاس، لما تخرجوا من العلوم، وأنافوا على غيرهم وجب تعظيمهم". فكانوا يعترفون لليونانيين بأن "ما أعطوه من العلم أرجح من نصيبهم"[3]، وقد أبدى البيروني تشكّكه بالسحر، وبحقيقته، وعزاه إلى اعتقاد العوام، ووصف السحر بأنه "إظهار شيء للإحساس على خلاف حقيقته، بوجه من الوجوه والتمويه... فالكذب ظاهر في حده، فالسحر إذاً غير داخل في العلم بتة"[4].

---

(1) المصدر نفسه. ص13.
(2) المصدر نفسه. ص15.
(3) المصدر نفسه. ص17.
(4) المصدر نفسه. ص150.

وإذا كان ابن خرداذبة قد شرح بغموض النظام الطبقات الهندي، فإن صورته توضحت ملامحه مع البيروني، فحدد بدقة التراتبية الاجتماعية، حتى ظن أن مبدأ المساواة الإسلامي، وقف عقبة أمام دخول الهند للإسلام"[1]. وهذه الطبقات أربع عليا البراهمة، التي خلقت، كما ذكرت كتبهم، من رأس براهمه، وهو علامة على رفعة هذه الطبقة، والطبقة التي تليها: "كشتر"، خلقت "بزعمهم من مناكب براهمه ويديه"، ورتبتهم لذلك ليست متباعدة جداً عن "رتبة البراهمة"، وتأتي دونهم ال "بيش" الذين "خلقوا من رجلي براهمه"، وهاتان المرتبتان كشتر وبيش على تمايزهما يعملون في المدن والقرى، ثم يأتي بعدهم أحطهم طبقة: شودر، يشتغلون بالمهن كالاسكاف والنساج وصياد السمك، والقناص، ويشتغلون "برذائل الأعمال من تنظيف القرى وخدمتها"، وأحيطت تلك التقسيمات بشبكة من التشريعات لتمنع التداخل بينها، "ولا يرخصون لأحد في تجاوز رتبته، ويعاقبون من لم يكتف بطبقته"[2].

فطبقة البراهمة وظيفتها الإشراف على الأمور الدينية، وعلى أعمال الكهانة، وتقوم طبقة كشتر بوظيفة الحرب والسياسة، وتقوم بيش بأعمال الزراعة والتجارة، وتنفرد طبقة الشودرا بخدمة الطبقات الأخرى، وطلب مرضاتها، والتذلل إليها، لهذا حدد لكل طبقة أخلاقية ومناقبية خاصة بها، تنسجم مع وظيفتها ورسالتها الاجتماعية، تناظر إلى حد ما منشأها العضوي من جسد البراهمة، فالحكمة التي يختص بها البراهمة تتسق مع فكرة أنها ولدت من رأس البراهما، والشجاعة التي تميز كشتر تتسق أيضاً مع فكرة ولادتها من منكبي البراهمة، وهكذا إلى بقية الطبقات[3].

---

(1) المصدر نفسه . ص76.
(2) المصدر نفسه. ص75 — 77.
(3) المصدر نفسه. ص78.

لاحظ البيروني ومعه المؤلفين العرب تأثير هذا البناء الاجتماعي، على تسلسل الوظائف والعلائق الأخرى للمجتمع الهندي، وعلى النظام القضائي، وعلى النظام العائلي، فمن حق الهندي الزواج من طبقته، أو من الطبقة الأدنى منها، باستثناء الشودرا، فزواجهم ينحصر بطبقتهم، ولا يتزوج منهم أي فرد من الطبقات الأخرى.

وأشار البيروني إلى اتباع الهنود الخط الأمومي في النسب، وفسّر ذلك برغبتهم في الحفاظ على نقاء النسب، ومع ذلك فإن للزواج في الهند قواعد مرنة، إذ لاحظ البيروني شيوع نظام تعدد الزوجات، الذي يحق للرجل أن يتزوج بأربع نساء، والزواج عندهم رابطة دائمة، لا يفرق بين الزوجين إلاّ الموت، إذ لا طلاق لهم، والمرأة إذا مات زوجها هي بين أمرين "إما أن تبقى أرملة طوال حياتها وإما أن تحرق نفسها، وهو أفضل حالاً". وإنهم يعتبرون" الأجانب أفضل من الأقارب، وما كان أبعد في النسب من الأقارب هو أفضل مما قرب فيه، وأما ما جرى على الاستقامة إلى أسفل، أعني ابنة الأولاد وأولاد الأولاد، وإلى الأعلى من أم وجدة وأمهاتهن فمخرم أصلاً، وأما من انحرف عن الاستقامة وتفرّع إلى الجانبين: من أخت وبنت أخت، وعمّة وخالة وبناتها فكذلك محرم"[1].

والأصل في الورثة هم الذكور، وأن الأسفل من الميت أحق بالإرث من الذي يعلوه "أعنى أن الابن والأولاد أولى من الأب والأجداد، وأن الابن أولى من ابن الابن والأب أولى من الجد، وابن الابنة أولى من ابن الأخت، وابن الأخ أولى من كليهما، إن لم يكن للميت وارث كانت التركة إلى بيت مال الوالي، إلا أن يكون الميت برهمن فتتحول التركة إلى صدقة"[2].

---

[1] المصدر نفسه. ص469 ـ 470.

[2] المصدر نفسه. ص475 – 476.

بينما استراب البيروني في خبر إباحة الزنا قبل الزواج وبعده، واعتبره من الظنون المشكوك فيها، وأن "عقوبة الزانية أن تخرج من بيت الزواج وتُنفى". وحصر الزنا المباح في بيوت الأصنام، محملاً الملوك وحدهم مسؤولية إباحته، قائلاً "والآفة فيه من جهة ملوكهم... وغرضهم فيهن بيت المال"[1].

ورأى أن الهنود أحياناً يكتفون من اللباس بخرقة قدر إصبعين يشدّونها على عوراتهم بخيطين، ويضيقون الخفاف ويتزينون كالنساء "بالأسورة وخواتم الذهب"، ويأكلون "آحاداً فرادى... ولا يعودون إلى ما فضل من طعام، ويرمون بأواني المأكول إذا كانت خزفية، ويحمّرون الأسنان بمضغ الفوفل بعد تناول ورق التنبول والنورة". ومن عاداتهم أنهم "يأخذون اليد في المصافحة، من جهة ظهر الكف، ولا يستأذنون للدخول في البيوت، ثم لا يخرجون من غير استئذان، ويتربعون في المجالس، ويبزقون بالنخاعة غير محتشمين الكبراء، ويقصعون القمل بين أيديهم، ويتيمنون بالضرطة"[2].

أفرد البيروني باباً خاصاً، في الدين الهندي، وكان قد اهتم أكثر من أي مؤلف عربي – إسلامي بثقافة الهند، وما انفك عن المقارنة بين الهند واليونان، وأحياناً بين الفكر الأسطوري الديني الهندي وبين ما يماثله عند الفرس أو اليهود، أو النصارى، إلا أن المقارنة الأساسية خصصها بين الهند واليونان، وهو في ذلك يعطي لليونان الميزة، وذلك لأن الهند في فكرها الديني، توقفت عند مرحلة تجاوزها اليونان، وهي مرحلة العلم المختلط بالفكر الديني الأسطوري، يقارنها البيروني بالمرحلة الجاهلية من تاريخ العرب، إذ توقفت الهند في مفاهيمها الدينية عند هذه المرحلة، بينما تجاوزها العرب بالإسلام، كما تجاوزها اليونان بالفلسفة[3]، فعنده "أن اليونانيين أيام الجاهلية، قبل ظهور النصرانية، كانوا على مثل ما عليه الهند من العقيدة، خاصّهم أي الخاصّة، في

---

(1) المصدر نفسه. ص471 — 472.

(2) المصدر نفسه. ص145 — 146.

(3) علي أومليل. في شرعة الاختلاف. دار الأمان. الرباط 1991. ص35 — 36.

النظر قريب من خاصّهم وعامهم في عبادة الأصنام كعامهم، ... ولكن اليونان فازوا بالفلاسفة، الذين... نقحوا لهم الأصول الخاصة.... يدلّ على ذلك سقراط لما خالف عبادة الأوثان عامة قومه، وانحرف عن تسمية الكواكب آلهة... ولم يكن للهند أمثالهم أي أمثال فلاسفة اليونان ممن يهذب العلوم"[1].

وعلى الرغم من إظهاره تفوق اليونانيين على الهند في فكرهم الديني، بارتقائهم إلى التوحيد عن طريق الحكمة الفلسفية، فإن في عرضه للديانة البرهمية/الهندوسية، ميّز فيها بين إيمان الخاصة وإيمان العامة، فالخاصة تتسم عبادتها بالتوحيد، والعامة تختلط عبادتها بالتعدد والشرك، إذ يعتقد أنه "اختلف اعتقاد الخاص والعام في كل أمة بسبب أن أطباع الخاصة ينازع المعقول، ويقصد التحقق في الأصول، وطباع العامة يقف عند المحسوس ويقنع بالفروع ولا يروم التدقيق"، ثم ينطلق من تلك الفرضية ليؤكد أن إيمان خاصة الهندوس يتصف بالوحدانية، بينما يشوب إيمان العامة التعدد والشرك، ليخلص إلى القول: "واعتقاد الهند في الله سبحانه أنه الواحد الأزلي من غير ابتداء ولا انتهاء، المختار في فعله، القادر الحكيم أي المدبر المبقي، الفرد في ملكوته... لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء"، وقدّم على ذلك أمثلة من كتب الهند تذكرنا بموضوعات علم الكلام الإسلامي، فينقل عن كتاب باتنجل، حواراً يقول السائل: من هذا المعبود الذي يُنال التوفيق بعبادته؟ قال المجيب: هو المستغني بأزليته ووحدانيته عن فعل لمكافأة عليه... والعالم بذاته سرمداً..."...ثم يقول السائل هل له من الصفات غير ما ذكرت؟ يقول المجيب: له العلو التام في القدر لا المكان، فإنه يجل عن التمكن، وهو الخير المحض التام الذي يشتاقه كل موجود، وهو العلم الخالص من دنس السهو والجهل"، ...ثم قال السائل: فإن كان متكلماً لأجل علمه فما الفرق بينه وبين العلماء والحكماء...؟ قال المجيب: الفرق بينهم هو الزمان، فإنهم تعلموا فيه أي في الزمان وتكلموا بعد أن لم يكونوا عالمين... فكلامهم وإفادتهم في زمان، وإذ ليس للأمور الإلهية بالزمان اتصال

---

(1) البيروني. ص19.

فالله سبحانه عالم متكلم في الأزل"، من هنا يستنتج البيروني "فهذا قول خواصهم في الله تعالى ويسمونه "أيشفر"، أي المستغني الجواد الذي يعطي ولا يأخذ، لأنهم رأوا وحدته هي المحضة، ووحدة ما سواه بوجه من الوجوه متكثرة"، أما عن اعتقاد عوامهم التي تُدرك الله في المحسوس والمتعدد فحسب، فلا تختلف نظرته تلك إلى عامة الهند، عن نظرته إلى عوام جميع أصحاب الديانات، فعوام الهند "يوجد مثله في سائر الملل، بل وفي الإسلام، من التشبيه والإجبار". فهم يحرفون القول عن مواضعه. فإذا سمّى بعض خواصهم الله تعالى "نقطة". ليبرئه عن صفات الأجسام... فعامهم يظن أنه عظمه بالتصغير، كما يحرفون معنى "إحاطته بالكل من لا يُخفى عليه خافية"، فيظن عاميهم "أن الإحاطة تكون بالبصر، وبالبصر بالعين، فيصفه بألف عين"[1].

أما بشأن اعتقادهم بالتناسخ، فيذهب البيروني إلى المقارنة "كما أن الشهادة بكلمة الإخلاص شعار المسلمين، التثليث علامة النصرانية، والإسبات أو تقديس السبت علامة اليهود، كذلك التناسخ علم النحلة الهندية، فمن لم ينتحله لم يك منها"، وأن اعتقادهم هذا، ناتج عن إيمانهم بأن "الأرواح تتردد في الأبدان البالية بحسب افتتان الأفعال إلى الخير أو الشر، ليكون التردّد في الثواب منبهاً على الخير، فتحرض على الاستكثار منه، وفي العقاب على الشر والمكروه فتبالغ في التباعد عنه، ويصير التردد من الأرذل إلى الأفضل دون عكسه"[2]، ولا يزال الإنسان يتصفّى في القوالب البدنية حتى ينال الخلاص على توالي التوالد، فإذا تجردت النفس عن المادة كانت عالمه، فإذا تلبست بها كانت بدورها جاهلة، وظنّت أنها فاعلة... لذا، "أفضل الناس هو العالم الكامل لأنه يحب الله ويحبه الله، وكلما تكرر عليه الموت والولادة وهو في مدد عمره مواظب على طلب الكمال حتى ناله"[3].

---

(1) المصدر نفسه. ص23 ـ 24.
(2) المصدر نفسه. ص38.
(3) المصدر نفسه. ص39 ـ 40.

وقد اعتقد البيروني أن (ماني) عندما نُفي من إيران شهر إلى أرض الهند، "نقل التناسخ منهم إلى نحلته"، كما أن اليونانيين، كانوا "موافقين الهند في هذا الاعتقاد"[1]. أما بشأن اعتقادهم بالجنة وجهنم، فالعالم الكلي أو "المجمع" يسمى عندهم لوك، ويسمّى الأسفل، وهو جهنم باسم ناكلوك، والعالم لوك ينقسم إلى "علو وسفل وواسطة" ويسمّى الأعلى، وهو الجنة "سفر لوك"، ويسمى أيضاً نزلوك و"باتال" والموضع الأخير في أسفل سافلين، والعالم الأوسط هو الذي نحن فيه ويسمى ماتلوك و"ماتش لوك" أي مجمع الناس وهو للاكتساب، والأعلى هو للثواب، والأسفل للعقاب.[2]، والجزاء فيناله على مراتب مختلفة، إما في قالبه الذي انتقل إليه بالتناسخ، وإذا اتبع طريق الخير فمآله الجنة.

و أشار البيروني، بما أنهم رأوا في الجهل سبباً في انحباس النفس بالعالم وترهاته، فقد رأوا أن خلاصهم يأتي "إذن بالعلم... لأنها أي النفس إذا فصّلت الموجودات بالحدود، عقلت ذاتها ومالها من شرف الديمومة، وللمادة من خسّة التغيير... وأعرضت عن تلبس المادة"[3]. وفي كتاب "كيتا"، القول "إن من عرف عند موته أن الله هو كل شيء، ومنه كل شيء فإنه متخلص".[4].ويقارن البيروني هذا النص بأقوال شبيهة عند سقراط و فيثاغورث[5]، وبالمقابل فإن العامة لا تستطيع الاتصال بالله إلاّ عن طريق المحسوس، و التعدد الشرك، وهذا هو مصدر تقديسها للأصنام، والهياكل، وهو لا يستثني من هذا النزوع إلى المحسوس العامة من المسلمين، قائلاً "وهذا هو السبب الباعث على إيجاد الأصنام بأسامي الأشخاص المعظمة من الأنبياء والعلماء

(1) المصدر نفسه. ص42 ـ 43.
(2) المصدر نفسه. ص44 ـ 45.
(3) المصدر نفسه. ص44 ـ 49.
(4) المصدر نفسه. ص57.
(5) المصدر نفسه. ص63 ـ 64.

والملائكة"[1].لهذا لم يخل قوم من عبادة الأصنام، ودلّل على ذلك بما عرفه عن أن اليونانيين، كانوا "في القديم يوسّطون الأصنام بينهم وبين العلة الأولى، ويعبدونها بأسماء الكواكب"[2]، فأظهر بهذا نقده المبطّن لتدمير السلطان محمود الغزنوي لصنم سومنات، بينما أطرى من جانب خفي، على محمد بن القاسم لتركه معبد مولتان على حاله.

أما الحج عندهم، فليس من المفروضات وإنما هو "تطوع وفضيلة"، فيه يقصد الحاج أحد الأماكن المقدسة أو أحد الأصنام المعظّمة أو أحد الأنهار المطهّرة، فيغتسل بها، ويخدم الصنم، ويهدي إليه، ويكثر التسبيح والدعاء، ويصوم ويتصدق على البراهمة والسدنة وغيرهم، ويحلق رأسه ولحيته وينصرف[3]، مثل نهر الكنك (=الغانج)، الذي يعتقون أن "مجراه في القديم من أرض الجنة"[4].ثم أن "صيام" أهل الهند، أيضاً "تطوع ونوافل ليس منها شيء مفروض"، يقوم على الإمساك عن الطعام مدة ما، و"يختلف بحسب مقدار المدة وبحسب صورة الفعل" [5].

درس البيروني بطريقة شاملة تفصيلية تصورات الهند عن العالم، والأبراج وعلم النجوم، والمواقيت، والأرض، وقارن ذلك كله بعلوم اليونان، وأحياناً بعلوم العرب، ففيما يتعلق باعتقاداتهم بقصة الخلق، فقد تصوروا "إن الماء كان قبل كل شيء، وموضع في العالم ممتلئ به" ومن ثم فإن " الماء أزبد بالتموّج فبرز منه شيء أبيض خلق البارئ منه براهم، وصار السماء من أحد نصفيه والأرض من الآخر، والأمطار من كسيرات ما بينهما" وعلّق البيروني أنهم لو قالوا بدل الكسيرات الجبال "لكانت أليق

---

(1) المصدر نفسه. ص84.
(2) المصدر نفسه. ص94 ـ 95.
(3) المصدر نفسه. ص463.
(4) المصدر نفسه. ص217.
(5) المصدر نفسه. ص482 ـ 483.

بها من الأمطار". ومنهم من يرى أن الله قال لبراهم: "إني خالق بيضة أجعلها لسكناك فيه، وخلقها من زبد الماء، فلمّا نضب الماء وغاض كسر البيضة بنصفين فتشكلت من قسميها الأرض والسماء. ورأوا الأرض "مستديرة يحيط بها بحر وعلى البحر أرض كالطوق"، و"أن السماء والعالم مستديران والأرض كروية الشكل، نصفها الشمالي يبس، ونصفها الجنوبي مغمور بالماء، ومقدارها عندهم أعظم مما هو عند اليونانيين، وأن جبل ميرو تحت القطب الشمالي، وجزيرة بروامخ تحت القطب الجنوبي، وأن الخط الفاصل بين نصفي الأرض اليابس والرطب يسمى نلكش[1].

أما عن البوذية التي أطلق العرب عليها اسم السمنية أو الشمنية، وأصحاب البد، فإن البيروني، لم يجد كتاباً عنها، ولم يصادف أحداً منهم، فاضطر للاستعانة بشخص لا يثق بمعلوماته، وهو "الإيران شهري"[2]. و كانت البوذية في حالة انحسار عن الهند، حيث استطاعت التعدية البرهمية امتصاصها بهدوء، كما انزاحت عن آسيا الوسطى ما بين القرنين الخامس والسابع ميلاديين[3]، ومن هنا أتت شكوى البيروني، من افتقاده لمصادرها.

أوصل المغاربة والأندلسيون الجغرافية العربية وخط المسالك والممالك والمنهج البلداني إلى ذروتها، وطبعوها بطابع خاص عندما مزجوها بالتاريخ أحياناً واستعانوا وبالمشاهدة المباشرة أكثر الأحيان، والإدريسي 649هـ ـ 1251م وابن جبير، والغرناطي 565هـ ـ 1170م، وابن فاطمة وابن سعيد المغربي 673هـ ـ 1274م،

---

(1) المصدر نفسه. ص180 ـ 181 ـ 191. وص221 ـ 222.

(2) المصدر نفسه. ص206.

(3) جفري باوند. معتقدات الدينية لدى الشعوب. ترجمة إمام عبد الفتاح إمام. سلسلة عالم المعرفة 173. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت1993. ص243. وحسن محمد جوهر. وعبد الحميد بيومي. الصين. دار المعارف بمصر. بدون تاريخ. ص86 ـ 92. ود.رضوان السيد. البوذية والإسلام وغربة الأديان. جملة التسامح. صيف سنة2004. عدد7. ص276.

فساهم ذلك، في الحد، من تأثير النظريات الهندية واليونانية[1].وتوغل الغرناطي، وهو محمد بن عبد الرحيم بن سلمان بن ربيع القيسي الغرناطي ت565هـ ـ 1170م، شمالاً في بلاد القفقاس وأوروبا، وجال شرقاً حتى وصل إلى مشارف الصين والهند، واتجه جنوباً حتى منتصف القارة السوداء، ووصل إلى بلاد تركستان على حدود الصين، ثم إلى جنوب روسيا، وحوض الفولغا وشرقي أوروبا، ثم دون مشاهداته في كتابيه "المعرب عن بعض عجائب المغرب" وبشكل خاص في "تحفة الألباب في نخبة الإعجاب".

إلاّ أن أغلب هؤلاء لم يتوغل في الصين والهند. وعلى الرغم من الخرائط التي قدمها الإدريسي، واهتمامه العالمي الواسع وما قدمه من معلومات، إلا أنه ظل أسير تصورات بطليموس عن المحيط الهندي، حيث اعتبره كبحيرة مغلقة تحيطها في الجنوب استطالة إفريقيا شرقاً محاذاة لشواطئ الهند والصين.

صنّف أغلبية المؤلفين العرب في الصين، والهند، في الإقليمين الأول والثاني، وبالتالي تعريضهم لتأثيرات هذين الإقليمين، إتباعاً لتصورات بطليموس وجالينوس، ووضعوا الجزر المتناثرة، في المحيط جنوب السواحل الهندية الصينية على حواف العالم غير المعمور مع كل المتخيلات الغريبة المترافقة بها، ومع ذلك فإن الباحثين العرب، حاولوا تجنيب الهنود والصينيين مما يتلازم ووجودهم في الأقاليمين الأول والثاني، من أحكام تبخيسية، وذلك بإدخالهم عوامل مناخية أخرى تخفف من وطأة حرارتهما ويبوستهما، وهي الطريقة نفسها التي استثنى بها ابن خلدون مناطق الجزيرة العربية الواقعة في هذين الإقليمين بتدخل رطوبة البحر الذي يحيط بها[2].

وأوضح الإدريسي ليُجنب الصين والهند تأثيرات الإقليم الأول "وأهل الإقليم الأول كلهم سمر أو سود، فأما أهل الهند والسند والصين وكل من احتضن منهم

---

(1) حسين مؤنس. تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس. مدبولي ط2. القاهرة1986م. ص.13.

(2) المصدر نفسه. ص82.

البحر فألوانهم سمر، وأما أهل الصحارى من الزنج والحبشة والنوبة وسائر السودان الذين سبق ذكرهم فلقلّة الرطوبة البحرية وتوالي إحراق الشمس لهم، ومرها عليهم دائماً تفلفلت شعورهم واسودت ألوانهم، وأنتنت أعراقهم "[1].

وصف الإدريسي حكم ملوك الهند بالعدل، لدرجة غدا معها "بسط العدل في أهل الهند طبيعة هؤلاء، لا يعولون على شيء سواه لفضل عدالتهم وحفظ عقودهم وحسن سيرهم"، و ربط الإدريسي طقس حرق الملك الميت عند الهنود، بطقس آخر، إذ أنهم يضعون جثة الملك، قبل حرقها، على عجلة ويطوفون بها على المدينة، وينادي مناد "هذا ملككم فلان ابن فلان... ها هو قد مات... لا يملك من مُلكه شيئاً ولا يدفع عن جسمه أذى، ففكروا فيما أنتم صائرون إليه"، بعدها، يقربون الجثة إلى المكان المخصص للنار، "فيلقونها" حتى تحترق. و أثارت استهجانه، ماسمعه من أن أهل الهند "يحرقون موتاهم ولا قبور لهم"، وهم"لا يبكون ميتاً، ولا يحزنون عليه كثيراً"[2]. بينما يذهب الإدريسي، إلى أن الرجل في الهند "إذا ارتضى نكاح ابنته أو أخته أو خالته أو عمته ما لم تكن متزوجة فعل ذلك، والأخ يفعل بأخته مثل ذلك"، والحال أن مصدر الإدريسي السماع، وهو ما يتعارض مع ما يذكره البيروني علماً أن مصدر البيروني التجربة والمشاهدة. ولاحظ الإدريسي أنه بفضل صنم ملتان الشهير، ومدخراته، حافظ الولاة العرب على بنائه، وسمحوا لسدنته بالاستمرار في حمايته والعناية به، والقيام بطقوسهم المعتادة فيه، واقترنت عندهم الملتان بهذا الصنم الشهير الذي كان يحج إليه معظّم عند الهنود "من أقاصي بلدانهم"[3]، وأعرب الإدريسي عن إعجاب بمدينة نهروان، فهي قاعدة ملك بهرا الشهير عند العرب، و"أنها مدينة كبيرة جليلة، حسناء

---

(1) الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسني: كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، دون مكان، ودون تاريخ.. ص98.

(2) المصدر نفسه. ص189 — 190.

(3) المصدر نفسه. ص176.

البناء بناؤها بالأجر والجص"، ثم أشاد بأهلها رغم أنهم كفار حسب زعمه، فـ"لأهلها همم عالية وأحوال وافرة وأموال صامتة، وتجارات معروفة"، وهم تجار، يتعاملون مع من جاء من الصين والسند، ويعتمدون على "الأرز والحمص والباقلي، والعدس والماش، والسمك والحيوانات" ومنهم "لا يذبحون طائراً ولا حيواناً"، أما البقر "فإنها محرمة عندهم البتة"، ونوه بأن أهالي نهرواره الهندية يأكلون: الأرز، والباقلي واللوبياء والعدس، والماش والسمك، والحيوانات التي تموت ميتاً طبيعياً، ولا يذبحون طائراً ولا حيواناً... أما البقر فمحرمة عندهم البتة، فإذا ماتت دُفنت[1].أما مدينة كمباي: أو كنباية فأطلق عليها بعض المؤلفين، اسم كنباية وهي ميناء على الساحل، الذي على مدخله يقع ميناء.

وأظهر الإدريسي، أهمية عدن في هذه التجارة مع الهند والصين، وكثافة السلع المستوردة، "ومدينة عدن صغيرة،... ومنها تسافر مراكب السند والهند والصين، وإليها يجلب متاع الصين مثل: الحديد والفرند، والكيمخت أي الحرير المشجر والمسك، والعود، والسروج، والغضار، والفلفل والدار فلفل، والنارجيل، والهرنوة، والقاقلة، والدار صيني، والخولجان، والبسباسة، والإهليلجيات، والأبنوس، والذبل، والكافور، والجوزبوا، والقرنفل، والكبابة المتخذة من الحشيش، والثياب العظيمة المخملة، وأنياب الفيلة، والرصاص القلعي، وغيرها من القنا، والخيزران، وأكثر السلع التي تبحر بها إلى سائر البلاد"[2]،

وسلّط الإدريسي الأضواء، على بعض المدن الصينية، التي يصعب معرفة ما يقابل بعضها الآن، فهناك كاشغر "مدينة عامرة كثيرة الخيرات مشتملة البركات، فيها متاجر وبضائع وأسعار وحركات، وهي على نهر صغير من جبل قطيفور، وفي هذا

---

(1) المصدر نفسه ص187 ـ 189.

(2) المصدر نفسه. ص54.

الجبل معادن فضة فائقة الجودة". ومدينة اسقيريا على نهر خمدان، "عامرة... بها تجتمع أموال الصين التي تصل إلى ملكها الأكبر" وقريب منها، مدينة تاجه، مدينة الملك العظمية، التي يستودع فيها المال الذي جيء به في خزائن الملك البغبور، وتبعد مدينة طوخا عن اسقيريا ستة أيام، وهي "عامرة بالناس وفيها تجار وبضائع وذخائر، يصنع بها الثياب الطوخية من الحرير العشي"، وهناك أيضاً مدينة قاقلا كثيرة الحرير، وأهلها يربّون دود الحرير، إليها تنسب الثياب القاقلية، والحرير القاقلي[1]. وأهل الصين يبنون منازلهم "من خشب ومن قنا مشبك على مثال الشقاق القصب... ويليط بالطين، وبعلاج لهم يتخذونه من حب الشهدانج أي القنب، فيصير في بياض اللبن، تدهن به الجدر فيشرق إشراقاً عجيباً"[2]، وبما أنها من خشب، فهي معرضة للحريق، لذا يضعون أملاكهم وذخائرهم، في صناديق مركبة على عجل تدور بها، فإن وقع الحريق دفعوا تلك الصناديق بما فيها[3].

ويبرز جغرافي و رحالة آخر من مواليد غرناطة، وهو ابن سعيد المغربي الذي أمضى الجانب الأكبر من حياته في الترحال طلباً للعلم، وللتعرف على العالم، فقد تنقل في تجواله من المغرب الأقصى على المحيط الأطلسي إلى المحيط الهندي، تابع دراسته في بغداد قبل أن يدمرها هولاكو بأعوام قليلة، ورحل منها إلى حلب متجهاً إلى أرمينيا، يدفعه الفضول ليتعرف على هولاكو مباشرة[4]. وعلى الرغم من أنه لم يزر بلاد الصين والهند، لكنه حفظ مشاهدات غيره من الرحالة لهذه البلدان، سيما ابن فاطمة، فترك ملاحظات قيمة للغاية عن المحيط الهندي، فنبه على التقائه بالمحيط الأطلسي، خارقاً بذلك نظرية بطليموس التقليدية، ومعارضاً، أيضاً، آراء أستاذه

---

(1) المصدر نفسه . ص203 ـ 205.

(2) المصدر نفسه. ص58.

(3) المصدر نفسه. ص58.

(4) المصدر نفسه. ص342.

الإدريسي، علماً أنه اعتمد اعتماداً كبيراً على تبويبه للأقاليم، وتجزئتها إلى عشرة أقسام، كما اعتمدت معرفته للصين والهند، جزئياً، على المعطيات التي قدمها الإدريسي. وما هو مميز في عمل ابن سعيد المغربي، فإنه من الصعب أن نجد شيئاً مهماً عن دلهي، في المصنفات العربية، قبل ابن سعيد المغربي في القرن الثالث عشر الميلادي. ولعل هذا يرتبط بالمعلومات المتناقلة عنها بعد دخول الغوريين إليها، واتخاذهم لها عاصمة لهم، ثم ازداد ذكرها لاحقاً، وبلغ التأليف حولها ذروته عند ابن بطوطة كشاهد مباشر على حياة تلك المدينة، وعند ابن فضل الله العمري مستعيناً بما سمعه عنها شفوياً أو مكتبياً.

وركّز ابن سعيد المغربي على ما يحيط بها من عبادات للبراهمة، فهي "بين ذراعين من نهر كنك المعظم عند الهنود"، وفي سياق عرضهم للديانة الهندوسية، خصصوا مساحة لعبادة الأصنام البُدد والتي يرتبط كل صنم وشكله ومعبده بالمذهب المتفرع عن البراهمية، كما رأينا، ومعه الكهنة، ورجال الدين، المشرفين على العقيدة والطقس، إذ لاحظ ابن سعيد المغربي "أن على جانبي نهر الكنك الغانج، "قلاع البراهمة التي لا ترى، وهم عباد الهند الذين ينسبون إلى البرهمن، وهو أول حكمائهم وسلاطينهم، الذي اجتمعت لهم ممالك الهند وأديانها... والأبداد عندهم"، وأنه كحال مؤلفينا أشار ابن سعيد المغربي إلى تقديس الهندوس للعديد من الظواهر الطبيعية والحيوانية والنباتية، وإحاطتهم لها بطقوس العبادة، مثل نهر الكنك الغانج، "ونهر الكنك المعظم عند الهنود يمرّ في بلادهم، وهم أيضاً يعظمونه، وهناك أشجار وحجارة على جانب الغانج، يرتقي عليها الرجال ويقطعون رؤوسهم على طرفها على النهر[1] اكتفى ابن سعيد بالإشارة إليها إثر ذكره لنهرواله نهرواره قاعدة كجرات، وجاليور قاعدة ما سمّاه العديس أحد ملوك الهند، والتي يمرّ بها التجار المسلمون في طريقهم من كنباية إلى

---

(1) ابن سعيد المغربي. ص134.

دلهي.[1] ثم أشار إلى أن الهند فتحها الغوريون، وقاعدتها دلهي، وأن "صاحب دلهي في عصرنا، هو أحد مماليك الغوريين، وجنده أتراك والرعايا كفار هنود"[2]، وهو ما يظهر أن غالبية، أهل دلهي ظلت على الهندوسية، وبقي الإسلام محصوراً بالنخبة الحاكمة، وبالجيش والإ دارة، فبقي في دلهي دين الحكام. وذكر من مدن السند قندابيل، التي يعتقد أنها قرية جنود Gandawa الحالية، التي على شرقيها جبال الخيزران، وفي أوديتها الساج، الذي يحمله التجار إلى فارس والعراق عن طريق البحر[3].

ج ـ في المدونة التاريخية العربية

، وقد بوأ المؤرخون العرب ومفكروهم الأمتين الهندية والصينية مكاناً مرموقاً في هذا التاريخ الكوني، وكان أفضل نموذج لهذه السردية التاريخية هو ماقدمه الطبري، والمسعودي، واليعقوبي، وابن الأثير وغيرهم. وليس من الغرابة بشيء أن يكون الميلاد الحقيقي للتأليف البلداني هو نفسه ميلاد التاريخ العالمي عند العرب، وهو ما جسده اليعقوبي أحمد بن يعقوب بن واضح الكاتب ت292هـ ـ 895م، الذي جمع بين تأليفه لأول تاريخ عالمي عند العرب "تاريخ اليعقوبي" قدّم فيه معطيات مهمة عن الصين والهند. وبين تصنيفه لكتابه الجغرافي "كتاب البلدان"، جمع فيه بين الجغرافية والتاريخ واعتماد المشاهدة. وقد مكّنته رحلاته من جمع مادة وافية، تخللتها إشارات ومعلومات جغرافية وإثنوغرافية عن بلدان الشرق الأقصى وفي مقدمتها الصين والهند، وحفظ لنا، بالإضافة إلى ما قدمه ابن خرداذبة، جانباً من الوقائع المُتخيلة من رحلة سلام الترجمان إلى حدود الصين الشمالية، إلى السد الذي اعتقدوا أن الاسكندر قد

---

(1) المصدر نفسه. ص 120

(2) المصدر نفسه، ص 163

(3) المصدر نفسه. ص119.

بناه هناك، ودفع شعوب ما يسمى ياجوج وماجوج وراءه، وختم كتابه البلدان بإطلالة على بلاد الترك والتبت والصين، ورسم الصورة العربية المتخيلة عن سد الصين وشعوب ياجوج وماجوج. الذي جمع بين الجغرافية والتاريخ واعتماد المشاهدة. وضع اليعقوبي أول تاريخ للعالم عند المسلمين، تتويجاً لمحاولات المؤرخين العرب لاحتضان تاريخ البشرية منذ آدم إلى النبي محمد، وقد تجلّت هذه النزعة التاريخية، في ذروة التأليف التاريخي على يد الدينوري 282هـ ـ 895م واليعقوبي والطبري ت310هـ ـ 922م، إذ التزموا بالنظرة الجامعة لتاريخ الأمم ووحدتها، في سياق وحدة الإنسانية، وعلى هذا الأساس وضعوا الهند والصين، وغيرهما من الأمم، في حلقات التاريخ الكوني والروحي، للإنسانية، التي صدرت عن نفس واحدة "آدم"، ثم تفرعت هذه النفس الواحدة، وتشعب منها البشر، وصاحب هذا التشتت ظهور الرسل "مبشرين ومنذرين" إلاّ أن الرسل انحصرت رسالتهم ببني قومهم "ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً". النحل36، "وإن من أمة إلاّ خلا فيها نذير" فاطر24، فالنبي محمد هو استمرار لما قبله من الرسل، إلاّ أنه يتميز بشمول رسالته الناس كافة، وعلى هذا يصبح افتراض نزول الوحي على الرسل والأنبياء في الصين والهند وجوارهما افتراضاً واقعياً، ويصبح التساؤل ممكناً حول ما إذا كانت البوذية التي سمّاها العرب "السمنية" والبراهمية، والكونفوشية، ديانة موحى بها، وقد تميزت الحضارة العربية الإسلامية بتقبلها الديانات الوثنية للصينيين والهنود، مع إبدائها أحيانا الاستفظاع والاستهجان، الذي اقتصر على مواضيع بعينها، ولاسيما ما يتعلق منها ببعض الطقوس، والاعتقادات غير المألوفة لهم[1].

اعتقد اليعقوبي انه إذا لم يكن براهما رسولاً، فهو مؤسس العلوم، التي اقتبستها الأمم الأخرى، بما فيها اليونان والفرس عنه، فهو "أول من تكلم في النجوم، وأُخذ عنه علمها، والكتاب الأول الذي يسميه الهند "السند والهند"، منه أخذ اليونان

(1) عزيز العظمة. العرب والبرابرة. المسلمون والحضارات الأخرى. الريس لندن1991. ص92.

علومهم"[1]. فتقلّد الهنود، تبعاً لهذا التصور، تاج الحكمة، وأفاضوا به على الأخرين، "والهند أصحاب حكمة ونظر يفوقون الناس في كل حكمة، فقولهم في النجوم أصح الأقاويل، وكتابهم...: السند والهند الذي منه اشتق كل علم من العلوم، مما تكلم فيه اليونان والفرس وغيرهم... كما في قولهم في الطب... وأسماء العقاقير، ولهم غير ذلك من كتب الطب، ولهم في المنطق والفلسفة، كتب كثيرة في أصول العلم"[2]. وذهب اليعقوبي، إلى أن الهند بعد موت براهما، أصابها الاضطراب، فقامت ممالك متفرقة في البلاد، "لكل طائفة مملكة". وبما أن أهل الهند أصحاب" حكمة ومعرفة وعقول مجازون متفوقون، مقدار غيرهم من الأمم، فأجمعوا على تمليك رجل واحد فملكوا زارح، فكان عظيم الشان والقدر"[3]. وأن للهند "ممالك مختلفة، وملوك متفرقة لسعة البلاد في طوله وعرضه، وأن أول ملوكهم مما يتاخم البلاد التي هي اليوم في دار الإسلام، دانق وهو ملك عظيم القدر، واسع الملك كثير العدد، ثم بعده رهمي وهو أعظم قدراً، وأعزّ بلاداً وهو على بحر من البحور، وفي بلاده الذهب... ثم مملكة بلهرى ملك الكمكم، ومن عندهم يأتي الساج، ولهم اتساع البلاد، ثم مملكة الطافن وهم قوم بيض الوجوه، ثم مملكة كنبابة، ومملكة الطرسول، ومملكة الموشه، ومملكة المايد، وهذه الممالك تتاخم الصين، ثم مملكة سرنديب، ثم ملكة قمار ثم مملكة الديبل، ثم الفاريط، ثم مملكة الصيلمان[4]، وكان ملك داهر، أول الملوك الهنود الذي اصطدم بهم العرب، وهو ملك السند، قبل أن يبسط العرب سيطرتهم أيام محمد بن القاسم، فظل ذكره يملأ الصفحات في المؤلفات التاريخية، و كان تحت سيطرته مدن هندية مقدسة لاسيما الملتان وسومنات، وامتاز هذا الملك، بنظر العرب، بالقوة، فهو يستعمل الفيلة

---

(1) اليعقوبي. تاريخ اليعقوبي ج2

(2) المصدر نفسه. ص108.

(3) المصدر نفسه ج2. ص99.

(4) المصدر نفسه ج2. ص90 - 91.

في الحرب، كعادة ملوك الهند، وبثروته الهائلة، وبإشرافه على المعابد المقدسة، وقال عنه اليعقوبي "كان صاحب جيش عظيم، يعتمد في زحفه على الفيلة"[1]،

ولقد كثّف اليعقوبي نظرة الإعجاب العربية تجاه الهند بقوله "والهند أصحاب حكمة ونظر، وهم يفوقون الناس في كل حكمة، فقولهم في النجوم أصح الأقاويل، كتاباتهم فيه كتاب "السندهند" الذي انبثق منه كل علم من العلوم مما تكلم فيه اليونان والفرس وغيرهم، وقولهم في الطب... فيه علامات الأدواء ومعرفة علاجها وأدويتها... ولهم في المنطق والفلسفة كتب كثيرة في أصول العلم... ولهم كتب كثيرة يطول ذكرها ويبعد عرضها". فلقد اكتفى الباحثون العرب بالتأكيد على أن مؤسس الديانة الهندوسية هو "برهمن الأكبر والملك"، فهو "الإمام المقدم فيهم الذي ظهرت في أيامه الحكمة"[2]. وسجل اليعقوبي معرفته للطريق البحرية التجارية، فمن أراد السفر إلى الصين بحراً، يجب عليه أن يجاوز سبعة أبحر، يختلف كل واحد منها، في اللون والريح والأمواج، وغيرها من المخلوقات البحرية، وأول هذه البحار بحر فارس "يبحر فيه التاجر من سيراف وينتهي برأس الجمجمة، والثاني يقال له بحر لاروي، والثالث الهركند، حيث توجد جزائر سرنديب، والرابع بحر كلاه بار، الذي فيه أشجار الكافور، والخامس بحر شلاهط الذي فيه العجائب، والسادس كندرج، والسابع صنخي، وهو بحر تشان هاي الذي يلتقي ببحر آخر يقال له كنجلى، ويشرح اليعقوبي أنه "بحر الصين، وإنما يسار فيه بريح الجنوب حتى يصيروا إلى بحر عذب عليها المسالح والعمران، حتى ينتهوا إلى مدينة خانفو"[3]. وأوضح اليعقوبي، أن مذهب عبادة الأسلاف لدى الصينيين يمتزج لديهم بتقديس ملوكهم، وأرجع ذلك إلى أن ملك عرون شيّد الهياكل، وجعل صوراً لأبية في صدر الهيكل، ودخل الهيكل وسجد "تعظيماً لصورة أبيه"، كما عمل على أن يتخذها

---

(1) المصدر نفسه، ج2. ص288 — 289.

(2) المصدر نفسه، ج1. ص 93 ـ 94

(3) المصدر نقسه ج1. ص207 — 208.

أهل مملكته جميعاً في مدنهم وبلداتهم. وعاصمة الصين خمدان، ومن هذه المدينة العظيمة كان ملك الصين يدير ملكه بنظام وعدل، فهو "ملك الرعاية والسياسة وإتقان الصنعة". ورجع إلى سلسلة ملوكهم، فكان أولهم صاير بن عامور[1]،

أما المسعودي 345هـ ـ 965م والذي اشتهر كمؤرخ وجغرافي على حد سواء، وجمع في شخصيته بين اهتمامات فكرية متنوعة، وبين الترحال في أصقاع شتى، فبالإضافة إلى ترحاله في ربوع مشرق إفريقيا وتجواله في البلاد العربية الإسلامية، فإنه زار الهند عن طريق البحر فمر بالسند والبنجاب، وكنكان ومليبار، ثم بعد أن اجتاز سيلان سرنديب مضى قدماً نحو بحر الصين، ثم عاد إلى زنجبار ومدغشقر وأخيراً قفل راجعاً صوب عُمان متخذاً طريقه إلى مسقط رأسه بغداد، ثم قصد مصر في سني عمره الأخيرة حتى قضى سنة 345هـ ـ 965م[2].

وقد أضفت الرحلة على أبحاثه الكثير من العمق في التفكير والدقة في التعبير[3]. وقد قال عنه ميكيل إنه "فيلسوف ذكي جداً، واسع الإطلاع، انفتح ذهنه على جميع الأنظمة الفكرية، من فلسفات الحكماء الأسطوريين، إلى معتقدات ومذاهب عصره المتباينة، وهو مؤرخ ديانات، ذهب بعيداً في تقصياته فعرف المازدية والسبأية والبوذية، ومذاهب النصارى واليهود، وسأل في أسفاره فقهاء أمم عديدة وعلماءهم، كاليهود والفرس، والنصارى... ويستغرب الباحث توفيقه بين العقيدة الإسلامية والتقصي العلمي "ومرونته في اتصاله بالكفار"[4]. وكان قد تحدث عن رحلاته وأسفاره ومنهجه في البحث، في مدخل مروج الذهب، أكد صراحة على اعتماده المشاهدة والتجربة في دراساته، فقال "تقحمنا الشرق والغرب، فتارة بأقصى خراسان، وتارة بوسائط أرمينية

---

(1) المصدر نفسه ج1. ص205.
(2) نفيس أحمد. مصدر سابق. ص55.
(3) نقولا زيادة. الجغرافية والرحلات عند العرب. الأهلية للنشر والتوزيع. بيروت 1972. ص 147.
(4) أندريه ميكيل. جغرافية دار الإسلام البشرية ج1. ق2. مصدر سابق. ص19.

وأذربيجان، والران والبيلقان نواحي من أرمينية، وطوراً العراق، وطوراً الشام"[1]. وكما يشير كراتشكوفسكي، أنه قد زار الصين وأرخبيل الملايو، وكثيراً ما كان يثبت في مصنفاته تاريخ زياراته[2]. واحتلت مصنفاته مكانة خاصة، بعد أن اكتسب من رحلاته معارف ومعلومات لا تحصى في أمور الجغرافية والأجناس البشرية، فقدم خلاصة للآراء السائدة عن امتداد المحيط الهندي[3].

وحفظ المسعودي وقائع رحلة ابن وهب القرشي، التي سمعها من السيرافي، عندما صادفه عام303هـ، وقد توقف طويلاً في وصفه للمحيط الهندي، وجزائره، وسكانه، وطبيعته، والتجارة التي تجري فيه، والسفن التي تمخر عبابه، وكيفية صناعتها، واختلافها عن سفن البحر المتوسط. فلم يخلو وصفه من بعض العجائب، إلاّ أنه عارض نظرية بطليموس القائلة بامتداد جنوب القارة الأفريقية نحو الشرق بطريقة يوازي فيها هذا الامتداد السواحل الهندية الصينية، ويُحدث فيه ما يُشبه بحيرة مغلقة مع البر الهندي والصيني، وفي كتاب "أنساب الأشراف"، يتعرض لتشعبات الأمم والشعوب، وتفرّع حضاراتها، فيقسمها إلى سبعة مجموعات، هي الفرس، والكلدانيون الذين يضم إليهم العرب واليهود، ثم أمة اليونان والروم، ثم الأفارقة، وبعدها الترك، فالهند ـ السند، وأخيراً الصين.

ولعل المسعودي في ترميزه لخصائص الحضارات الكبرى بصورة ملوكها، قد قدّم "الصورة النمطية" العربية عن حضارات الصين والهند وبقية الحضارات الأخرى، حيث تبدو كلاً منها حاملة خصائصها الذاتية التي تميزها عن غيرها من الحضارات، وتتكامل في الوقت نفسه معها، وإلى جانب ذلك، ورغم ثقته الكبرى بحضارته العربية ــ

---

(1) المسعودي. أبو علي بن الحسين بن علي. مروج الذهب ومعادن الجوهر ج4. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. المكتبة التجارية الكبرى ط4. مصر1964. ص 409. وج1. ص 4.

(2) كراتشكوفسكي ج1. مصدر سابق. ص 178.

(3) توماس أرنولد. تراث الإسلام (جي. أ. ج كراموز. J.H. Kramers الجغرافية والتجارة). عربه جرجس فتح الله. دار الطليعة ط3. بيروت1979. ص 138 ـ 139.

الإسلامية، وهي التي كانت حينئذ في عزّ تألقها، فإنه لم يذكر العرب بالاسم، أو يذكر ملوكهم إلاّ باعتبارهم ورثة للموقع الذي لعبه ملوك بابل في الحضارة من قبل. فإلى جانب تأكيده على احتلال ملوك بابل للمكان الأول بين ملوك العالم قديماً، فإنه وضع في الموقع الذي يليه ملك الهند لحكمته، ثم ملك الصين لسياسته وإتقانه الصنتعه وتحدث عن ملك الهند، على أنه "ملك الحكمة، وملك الفيلة، لأن عند الملوك الأكاسرة، إن الحكمة من الهند بدؤها". ثم يتلوه في المرتبة ملك الصين، وهو "ملك الرعاية والسياسة وإتقان الصنعة وليس في ملوك العالم أكثر رعاية وتفقداً من ملك الصين لرعيته... وهو ذو بأس شديد، وقوة ومنعة، وله من الجنود المستعملة والكراع والسلاح" الكثير[1].

وقد رفع المسعودي، مثله في ذلك مثل المصنفين العرب، من مستوى حكمة ملوك الهند إلى درجة عالية، وأظهر إعجابه بقوتهم، وبثرائهم، وحكمتهم، وعدالتهم، وهو ما عبر عنه المسعودي بوضوح، "والهند في عقولهم وسياساتهم وحكمتهم وألوانهم وصفاتهم، وصحة أمزجتهم، وصفاء أذهانهم، ودقة نظراتهم، بخلاف سائر السودان... وسائر الأجناس"[2]، ولاحظوا إلى جانب ذلك، أن "الهند لا تملّك الملك عليها حتى يبلغ من عمره أربعين سنة"[3]، ويمتزج هذا العدل عندهم بالحكمة الفائقة، روى المسعودي، أن الاسكندر الكبير. "بلغه أن في أقاصي أراضي الهند ملكاً من ملوكهم ذا حكمة وسياسة وديانة وإنصاف الرعية، وأن ليس بأرض الهند من فلاسفتهم وحكمائهم مثله، يقال له كند، وكان قاهراً لنفسه، مميتاً لصفاته الشهوية والغضبية، حاملاً لها على خلق كريم"[4]،

---

(1) المسعودي. مروج الذهب. ج1. ص 160.
(2) المصدر نفسه.ج1 ص82.
(3) المصدر نفسه.ج1 ص83.
(4) المصدر نفسه ج1. ص294 – 295.

واعتقد المسعودي باحتمال أ ن يكون مؤسس الديانة البراهمية رسولاً[1]. وذهب إلى أنهم بدأوا بسبعة فرق، ثم "اختلف أهل الهند ممن سلف وخلف في آراء هؤلاء السبعة، ثم تفرعوا بعد ذلك مذاهب... والذي وقع عليه الحصر من طوائفهم سبعون فرقة"[2] بهذا تصبح عبادة الصنم واسطة للوصول إلى الله وتقرباً منه، وليس عبادة له بحد ذاته، وهذه المسألة من الأهمية، بحيث خصّص لها المسعودي مقطعاً مهماً تفحص فيه دوافعها ومعانيها لدى البراهمية، مُخضعاً تطور المذهب البرهمي إلى نمو الروح الإيماني في التاريخ. فهو أشار إلى أن كثيراً من أهل الهند والصين: يعتقدون أن الله عز وجل جسم، وأن الملائكة أجسام، وأن الله وملائكته احتجبوا بالسماء فدعاهم ذلك إلى أن يتخذوا تماثيلاً وأصناماً على صورة الباري، يعبدونها ويقربون لها القرابين، والنذور، "لشبهها عندهم بالباري، وقربها منه"، فأقاموا على ذلك حتى نبههم بعض حكمائهم، إلى أن الأفلاك والكواكب أقرب بينها وبين الله، وأن كل ما يحدث في العالم إنما على قدر ما تجري به الكواكب عن أمر الله، فعظموها وقربوا لها القرابين لتنفعهم، ومكثوا على ذلك دهراً، ثم لما رأوا غياب الكواكب، أمرهم بعض حكمائهم أن يجعلوا أصناماً، يُقرب لها نوعاً من القربان، معتقدين أنهم إذا عظموها، تحركت لهم الأجسام العلوية بكل ما يريدون، ولما طال عليهم العهد، "عبدوا الأصنام على أنها تقربهم إلى الله، وألغوا عبادة الكواكب"[3]. وقرن المسعودي انبعاث البوذية السمنية في الهند، بالتطور الداخلي للديانة الهندية، وبظهور شخصية بوداسف وهي شخصية بوذا نفسه، فالهنود ظلوا عبدة الأصنام "حتى ظهر بوداسف بأرض الهند، وكان هندياً، وقد خرج من أرض الهند إلى السند.... ثم إلى كرمان، فتنبأ أي ادعى النبوة وزعم أنه رسول الله، وأنه واسطة بين الله وبين خلقه"، ثم أتى فارس في عهد الملك طهمورث، الذي أظهر

---

(1) المسعودي. المصدر نفسه ج1. ص79.

(2) المصدر نفسه ج1. ص79.

(3) المصدر نفسه ج1. ص14.

مذاهب الصابئة، وعظّم النار، فاصطدم بوداسف بهذه الآراء، وكان بوداسف "قد أمر الناس بالزهد في هذا العالم، والاشتغال بما علا من العوالم، إذ من هنالك بدء النفوس، إليها يقع الصدور في هذا العالم"، ثم أن "بوداسف جدّد عبادة الأصنام وقرّب لعقولهم عبادتها"[1]، فتعامل المسعودي بحيادية تجاه إدعاء بوداسف بالنبوة، إلاّ أنه أظهر موقفاً سلبياً عندما عرض لدعوة بوداسف لعبادة الأصنام.

وفي سياق سرده للتارخ السياسي للهند، ذهب إلى القول إن الهند كانت، "الفرقة التي فيها الصلاح والحكمة"، ولكن لما تجيلت الأجيال، وتحزبت الأحزاب، حاولت الهند "أن تضم المملكة، وتستولي على الحوزة، وتكون الرياسة فيها". فاجتمع حكماؤها فقرروا الوحدة "ونصبت لها ملكاً، وهو البرهمن الأكبر، والملك الأعظم، والإمام فيها المقدم، وظهر في أيامه الحكمة، وتقدمت العلماء، واستخرجوا الحديد من المعادن، وضربت السيوف والخناجر"، وتعاقبت من سلالة براهما ملوك الهند، وأولاده "يُعرفون بالبراهمة إلى وقتنا، والهند تعظمهم، وهم أعلى أجناسهم وأشرفهم، وفي رقاب الرجال والنساء منهم خيوط صفر، يتقلدون بها كحمائل السيوف، فرقاً بينهم وبين غيرهم من أنواع الهند"[2].

وتعقب المسعودي ما تعاقب عليهم من ملوك، التبس فيما قدموه الخيال بالواقع، فعقب سلسلة من الملوك العظام تفككت الهند، ثم أتى ملوك آخرون أعادوا وحدة الملك والسلطان، فبعد براهمن ملك الهند ابنه الباهبود، ودام ملكه مائة عام، اقتدى خلالها بأسلوب أبيه، وفي أيامه عمل النرد، وجعل ذلك مثالاً للمكاسب، التي يجب أن تأتي بالحذق، لا بالحيل[3]. و ذهب المسعودي إلى أن زامان هو من خلف الباهبود، فكان ملكه مائة وخمسين سنة، وأعقبه، الملك فور، وهو الذي واقعه الاسكندر،

---

(1) المصدر نفسه ج2 ص237

(2) المصدر نفسه ج1. ص76 ـ 78

(3) المصدر نفسه.ج1 ص80.

وقتله مبارزة، وسلم الملك من بعده، لدبشليم، الذي وضع كتاب كليلة ودمنة، ثم ملك بعده بلهيت، الذي وضع الشطرنج، فقضى بلعبها على النرد، "وبه الظفر الذي يناله الحازم، والبلبلة التي تلحق الجاهل" ورتب كتاباً للهند يعرف بطريق جنكا، ثم ملك بعده كورش فأحدث للهند آراء في الديانات"[1].

وعقب سلسلة هؤلاء الملوك العظام، الذين أسسوا ملك الهند ووحدتها، وأيضاً مذاهبها، ضرب الهند الاختلاف واستقلت المقاطعات وتمزق الملك، "فلما هلك هذا الملك كورش اختلفت الهند في آرائها، فتخربت الأحزاب، وتجيّلت الأجيال، وانفرد كل رئيس بناحية، فملك على أرض السند ملك، وملك على أرض القنوج ملك، وتملك على أرض قشمير ملك، وتملك على مدينة المانكير، وهي الحوزة الكبرى، ملك يسمى البلهرا، وهذا أول ملك سمّي من ملوكهم البلهرا، فصارت سمة لمن طرأ بعده"[2]. ونوه المسعودي إلى أن "أعظم ملوك الهند في وقتنا هذا البلهرى، صاحب مدينة المانكير... وأن بين دار ملكه وبين البحر مسيرة ثمانين فرسخاً سندية، والفرسخ ثمانية أميال، وله جيوش وفيلة لا تدرك كثرتها وأكثر جيوشه رجّالة، لأن دار ملكه بين الجبال"[3]. وبلاده بجوار قمار (=كمبودية)، وتقع ناحية ملك الرا، أو الراي، حسب بزرك، بين قشمير الأعلى وقشمير الأسفل، وكان يسمّى مهروك بن رائق، وقد بعث برسالة إلى ملك المنصورة العربي في سنة مائتين وسبعين هجرية "يسأله أن يفسر له شريعة الإسلام بالهندية"، فأرسل له ملك المنصورة رجلاً أصله من العراق، أقام في بلاده ثلاثين سنة، ثم تركه "وقد أسلم قلبه" لكنه، أخفى إسلامه عن رعيته "خوفاً من بطلان أمره وذهاب ملكه"[4]. وله جيش عظيم، يتألف من جيوش أربعة "وكل جيش

---

(1) المصدر نفسه ج1. ص80 — 81.
(2) المصدر نفسه ج1 ص82.
(3) المصدر نفسه ج1. ص85.
(4) المصدر نفسه ج1. ص84.

منها سبعمائة ألف" ويبلغ عدد مدن بلاده وقراه "ألف ألف، وثمانمائة ألف قرية بين أنهار وشجر وجبال وحروج"[1]، كما ذكر العديد من ملوك المدن على ساحل مليبار، وساحل كروماندل، الذين اشتهرت مدنهم كمحطات تجارية كبرى، ونقل التجار العرب منها التجارة الأفاوية والنسيج.

أما بالنسبة إلى الصين، فقد أظهر المسعودي معرفته بوعورة الطريق البري إلى الصين، الذي يمر بأنهار عظيمة "تجري من بلاد الترك والتيبت والصغد، وهي بين بخارى وسمرقند، وهناك جبال النوشادر"، منها يحمل النشادر، وهذه الجبال خطرة في الصيف، لاحتمال أن تشتعل النوشادر من ارتفاع الحرارة، إلاّ أنها في الشتاء تبدو سالمة، فمن أراد من بلاد خراسان أن يسلك إلى بلاد الصين، عليه أن يسلك واد بين تلك الجبال، طوله أربعون ميلاً أو خمسون، فيأتي إليه أناس هناك، على فم الوادي، "فيحملون ما معهم على أكتافهم... حتى يخرجوا إلى ذلك الرأس من الوادي". لأن الحيوانات لا تستطيع المرور هناك، وينبهنا إلى طرق أخرى للتجارة مع الصين تمر من بلاد الأتراك، وهي "مما تسلكه البهائم نحو من أربعة أشهر"[2]. ودوّن المسعودي انقطاع الاتصال البحري المباشر بين المراكب العربية التجارية إلى مرافئ الصين. وخسارة الجاليات العربية لمراكزها التجارية الكبرى، ولاسيما في مدينة خانفو، وتحوّلهم إلى كله التي أصبحت مركز لتلك الاتصالات، وهي مدينة تقع حسب المسعودي في "النصف من طريق الصين أو نحو ذلك، وإليه تنتهي مراكب أهل الإسلام من السيرافيين والعمانيين في هذا الوقت، فيجتمعون مع من يرد من أرض الصين في مراكبهم، وقد كانوا في بدء الزمان بخلاف ذلك، وذلك أن مراكب الصين كانت تأتي بلاد عمان وسيراف وساحل فارس والبحرين والأبلة والبصرة..."[3].

---

(1) المصدر نفنسه ج1.ص86

(2) المصدر نفسه ج1. ص156 ـ 157.

(3) المصدر نفسه ، ج1. ص140.

علّل المسعودي هذا الانقلاب التجاري، إلى اغتصاب ملك شرير الحكم، فالأمور في الصين بقيت "مستقيمة في العدل حسب ما جرى به الأمر فيما سلف من ملوكهم إلى سنة أربع وستين ومائتين، فإنه حدث في الملك أمر زال به النظام، وانقضت به الأحكام والشرائع... "[1]، إذ إن من الملوك المؤسسين للصين الملك نسطرطاس الذي كما، قال المسعودي، سقى الأنهار، وقتل السباع، وغرس الأشجار وأطعم الثمار"، ثم أتى عيثدون، ف "أحسن السياسة للرعية، وسوّاهم في جميع أمورهم، وشملهم بالعدل"، وملك بعده حراتان فأحدث الفلك السفن وحمل فيها الرجال، وأمرهم أن يجلبوا إليه ما في كل بلد من الطرائف والتحف والمآكل والمشرب والملبس، وأن يعرفوا قوة سياسة كل أمة، وشريعتها ونهجها، فحملوا إليه ما ليس عندهم فاستقامت أمور مملكته. ولكن أهم الملوك هو ابنه الملك توتال، الذي وضع قاعدة: "أن الملك لا يثبت إلاّ بالعدل"، فأقام العدل، وحصّن، ورتب الناس في رتبهم، ودعم سياسته القائمة على العقل، بشريعة[2]. ولعلهم في هذا العرض لدور الشريعة، كانوا يتمثلون التجربة الإسلامية، وبهذا أسس هذا الملك لنظام عادل.

فلم تزل الملوك أمورهم منتظمة، وأحوالهم مستقيمة إلى أن قام شرير اسمه بانشو، في القرن الثالث هجرية، بالعصيان فعطل العدل والتجارات، ثم ما لبثت الأمور أن عادت إلى مجراها المألوف، وخلص المسعودي من عرضه التاريخي إلى القول: "وملوك الصين ذوو آراء ونحل، إلاّ أنهم مع اختلاف أديانهم غير خارجين عن قضية العقل وسنن الحق، في نصب القضاة والأحكام، وانقياد الخواص والعوام إلى ذلك"[3].

وقدم المسعودي الصورة الأشمل عن الدين الصيني، من خلال فهمه الموضوع من الداخل، فنظر إلى عبادة الأصنام كواسطة أو رمز للوصول إلى التعالي المجرد، الواحد،

---

(1) المصدر نفسه.ج1 ص138.
(2) المصدر نفسه ج1. ص134 ـ 135.
(3) المصدر نفسه. ص136.

كما ميّز مثل البيروني بين ديانة العامة التي تعتمد التمثيل والتجسيد والتعدد، وإيمان الخاصة الذي يعتمد على التجريد للوصول إلى الوحدانية. وعرض المسعودي مذاهبهم في سياق التاريخ، فمع الملك الذي يسميه توتال، جرى ترتيب "سياسة شرعية، وفرائض عقلية وجعلها لهم رباطاً". وترسّخ بموته تعظيم أهل الصين لعقيدة عبادة السلف المندمجة بقداسة الملوك، إذ جعل الصينيون يوم وفاته صلواتاً وعيداً يجتمعون فيه عند ذلك الهيكل، وصوروا صورته على أبواب المدينة، وعلى الدنانير والفلوس، على الثياب"[1]، ثم أرجع بذور هذه العقيدة، إلى تقليد أسبق ينسب إلى زمن ما سمّاه الملك عيثون الذي صنع تمثالاً من الذهب الأحمر"... وكان يسجد له، ويبدأ بجده الأول ثم أبيه، وأهل مملكته يسجدون له"، وقدموا القرابين وأوقدوا البخور، وعملوا لهؤلاء الأجداد تماثيل من الأحجار والأشجار. وآمنوا بقدرة الكواكب على مصيرهم ومصير العالم، فجعلوا لكل كوكب منها وقتاً يتقربون فيه إليه بدخن بخور وبأنواع الطيب والعقاقير، كما أشار إلى أن بعضهم اتبع السمنيةأي البوذية التي أتتهم من الهند، كما أن لهم "آراء ونحل حدثت عن مذاهب الثنوية، وأهل الدهر"، ولاحظ أن المذاهب الدينية الصينية اتخذت، بالنهاية، الأصنام والصور مقاصد للعبادة، مشبهاً إياها بعادات العصر الجاهلي القرشي، أو كما قال: "عباداتهم نحو من عبادات قريش قبل مجيء الإسلام: يعبدون الصور، ويتوجهون نحوها بالصلوات"، وقد ميّز في داخل عبادة الأصنام والصور، بين جاهل يتوجه إليها بالعبادة، وعابد ينظر إليها كواسطة للاقتراب من الله، أو كما يقول "اللبيب منهم يقصد بصلاته الخالق، ويقيم التماثيل من الأصنام والصور مقام قبلة" أي كمحطة مقدسة يتوجه عبرها المؤمن إلى الخالق، "والجاهل منهم، ومن لا علم له، يشرك الأصنام بإلهية الخالق، ويعتقدها جميعاً، وأن عبادتهم الأصنام تقربهم إلى الله زلفى، وأعاد المسعودي انتشار مذهب الثنوية في الصين، "والقول بالنور والظلمة"، إلى تأثير المانية، نسبة إلى ماني وأحد دعاتها الذي "زخرف

(1) المصدر نفسه. ج1. ص135.

لهم كلاماً يريهم فيه من تضاد ما في هذا العالم، وتباينه من موت وحياة، وصحة وسقم، وضياء وظلام، وغنى وفقر، واجتماع وافتراق، واتصال وانفصال، وشروق وغروب، ووجود وعدم، وليل ونهار، وغير ذلك من سائر المتضادات" فاجتذبت المانوية بعض الصينيين، الذين فيهم شُبه في عقولهم فدانوا للمانية، وختم المسعودي عرضه هذا لمذاهبهم الدينية، بالتأكيد على أن هذا الاختلاف في مجال الشرائع والديانات، لم يؤثر على رصانة العقل الصيني، وذلك بقوله: "وملوك الصين ذوو آراء ونحل، إلاّ أنهم، مع اختلاف أديانهم غير خارجين عن قضية العقل والحق، وفي نصب القضاة والحكام، وانقياد الخواص والعوام"[1].

وتوقف العرب طويلاً، في العصر الوسيط، عند بناء السلطة والملك في الصين، ولم يخفوا إعجابهم بعظمة ملك الصين ومهابته، التي ترتكز على الثروة الطائلة التي بين يديه، وأبهة الملك، وعلى ثراء بلاده، وهناك ما يزيدها أهمية بنظرهم، وهي فكرة التنظيم، نظام السلطة وآليات عملها على أساس عقلاني، وهو النظام الدقيق الذي يدير فيها ملك الصين بلده، والذي يستند على العقل ومقتضياته، وأحياناً أخرى على مقتضيات العقل والشريعة المستقاة من دينهم، فيأتي الدين عندهم ليسند سلطة العقل، وهناك أيضاً العدل الوافر الذي يشمل الجميع، وتسنده قوة السلطان والتقليد الراسخ، وهناك ثالثاً العمران والمدنية، التي يسندها النظام أيضاً، وهو ما يتجلى بتنظيم إدارة المدن وشوارعها، وبنائها، وإقرار العدل فيها، "[2]. وقارن المسعودي بين التركيب الاجتماعي لأهل الصين والعرب، فوجد أن"... أهل الصين شعوب وقبائل كقبائل العرب وأفخاذها، وتشعبها في أنسابهم، ولهم مراعاة لذلك، وحفظ له، وينسب الرجل منهم إلى خمسين أباً إلى أن يتصل بعابور، وأكثر من ذلك وأقل"، فمنهم في

---

(1) المصدر نفسه. ص133 ـ 138.

(2) المصدر نفسه، ج1. ص137.

البوادي وسكان الجبال، ومنهم الحضر في المدن، "فمنهم الجيل، وهم سكان جيلان، والأشروشة والصفد، وهم بين بخارى وسمرقند، ثم الفراغنة وأشاش واستيجاب وأهل بلاد الفاراب، فبنوا المدن والضياع وانفرد منهم أناس غير هؤلاء فسكنوا البوادي"[1]. كل هذه المظاهر الراسخة، وآليات عملها رفعت من قدرة الصين وحضارتها في أعين باحثينا. وتتصف مدن الصين بالتناسق، والتنظيم، فرأوا مدينة خمدان مقسومة إلى شطرين، الملك وحاشيته وإدارته في شطر، وبقية الناس في الشطر الآخر من المدينة، الذي تقع فيه التجارة والأسواق[2]. واتفق المسعودي على أن بلاد الصين "شعوب وقبائل، كقبائل العرب وأفخاذها وتشعبها في أنسابها، ولهم مراعاة لذلك، وحفظ له"، وأن الصينيين يحرصون على الزواج الخارجي إذ "لا يتزوج أهل كل فخذ من فخذهم مثال ذلك أن يكون الرجل من مضر فيتزوج في ربيعة... ويزعمون أن في ذلك صحة النسل وقوام البنية، وأنه أصح للبقاء، وأتم للعمر.

أما عبد الرحمن بن خلدون 1342 ـ 1406م الموسوعي والمؤرخ والجغرافي، والذي دشن في مقدمته علم الاجتماع السياسي التاريخي الذي سماه "علم العمران"، وقدم فيها أفكاراً تميز بالأصالة والجدية، حتى بالنسبة للأدب الجغرافي العربي نفسه، فقد تفرد في وضع الهند والصين في الإقليمين الثالث والرابع اللذان يقع فيهما أغلب بلاد العرب والمسلمين، ليصيبهما ما يصيب أهل هذين الإقليمين من صفات، إذ يقول "وأما أهل الأقاليم الثلاثة المتوسطة، أهل الاعتدال في خُلقهم وخلقهم وسيرهم وكافة الأحوال الطبيعية للاعتمار لديهم، من المعاش والمساكن والصنائع والعلوم والرئاسات والمُلك، فكانت فيهم النبوءات من النبوة والمُلك، والدول، والشرائع، والعلوم والبلدان، والأمصار والمباني، والفراسة، والصنائع الفائقة، وسائر الأحوال المعتدلة،

---

(1) المصدر نفسه، ج1. ص131 — 137.
(2) المصدر نفسه، ج1. ص145 ـ 146.

وأهل هذه الأقاليم التي وقفنا على أخبارهم مثل العرب والروم وفارس وبني إسرائيل واليونان وأهل السند والهند والصين"[1].

وعارض التفسير السلالي الذي طبقه بعض الباحثين العرب على الشعوب الهندية والصينية، بالتفسير البيئي والاجتماعي، فلقد اهتم المؤرخين العرب في بواكير أعمالهم، بعلم السلالات، حتى كونت علوم الأنساب إحدى محطات الدراسات التاريخية لاحقاً، إلى جانب السير والمغازي، ثم صارت الكتابة التاريخية للأنساب تندرج منذ القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي في تاريخ الجماعة أو الأمة الإسلامية[2].

ثم نقل المؤلفون العرب تلك الترسيمة السلالية إلى مجال العالم بأسره، بإرجاعهم حلقات السلالة البشرية إلى أصل واحد: آدم، ثم تفريعها من أحفاده في حلقاتهم الرئيسية التي تتمفصل مع أولاد نوح: سام، وحام، ويافث، الذين تقاسموا الأرض فيما بينهم، فكان من حصة سام وأولاده وسط الدنيا بما فيها بلاد العرب، ولحام الشام ومصر وأعالي النيل، والسودان والهند، وبقي ليافث وذريته بلاد الصقالبة والروم والفرنجة والصين[3]. فوضع المسعودي الصين، في هذا التقسيم، في قسمة أولاد يافث، والهند في ذمة أولاد حام، بينما افترض اليعقوبي ترسيمة أخرى: "صار لولد يافث الصين والهند والسند والترك والخزر والتبت والبلغر والديلم وإلى ما وراء خراسان، ولولد حام المغرب وما وراء الفرات إلى مسقط الشمس، ولولد سام الحجاز واليمن وباقي الأرض[4].

---

(1) ابن خلدون. عبد الرحمن بن محمد. مقدمة ابن خلدون. دار القلم. بيروت1978. ص82 ـ 83.

(2) عبد العزيز الدوري. بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب. بيروت1983. ص19 ـ 51.

(3) المسعودي. أخبار الزمان ومن أباده الحدثان. وعجائب البلدان. دار الأندلس ط2. بيروت1966. ص91 ـ 92.

(4) اليعقوبي. أحمد بن يعقوب تاريخ اليعقوبي ج1. بيروت دار صادر. ص20.

وأشار بعضهم أنه بعد الطوفان الكبير، افترقت الأمم، وتبلبل لسانها، وتفرقت البشر به إلى سبعة أمم، أمة الفرس، وأمة الكلدانيين وتضم العرب، وأمة اليونان والروم والصقالبة كانت لغتهم واحدة، وملكهم واحد، والأمة الخامسة أجناس الترك، والأمة السادسة وتجمع أجناس الهند والسند وما يتصل بها، لغتهم واحدة وملكهم واحد، والأمة السابعة الصين والسيلي (=كوريا) وما يتصل من ولد عامور بن يافث، ثم ما لبث أن كثر النسل، وتشعبت الشعوب والقبائل، وافترقت مرة أخرى اللغات، والأمم، وتباينت الآراء والعبارات والمساكن والمناسك[1]، ولوّن بعض المؤلفين العرب هذه الترسيمة، بالمعايير أعطوا فيها الأفضلية لأولاد سام، وذريته، بأن خصّوهم بوسط الدنيا، وخصّوا أولاد حام بما يشبه الدرجة الثانية لعصيانه لأبيه[2].
وبالمقابل فإن يافث، الذي تنتسب إليه شعوب الصين والهند، والترك وبعض الشعوب الأوروبية، لم يوجّه لهم الباحثون العرب ولأحفاده خصائص طبيعية تحط من وزنهم ومرتبتهم في الجنس البشري، ولم يظهروا أية أحكام سلبية بحق الهنود، أو الصين لانتسابهم إلى يافث. وقد وجه ابن خلدون نقده إلى تلك الترسيمة، وإلى القائلين بها: "وما أداهم إلى هذا الغلط إلاّ اعتقادهم أن التمييز بين الأمم إنما يقع بالأنساب فقط، وليس كذلك، فإن التمييز للجيل أو الأمة يكون بالنسب في بعضهم كما للعرب وبني إسرائيل والفرس، ويكون بالجهة بموقع المكان، والسمة واللون، كما للزنج والحبشة والصقالبة والسودان، ويكون بالعقائد والشعار والنسب كما للعرب، ويكون بغير ذلك من أحوال الأمم، وخواصهم ومميزاتهم، فتعميم القول في أهل جهة من جنوب أو

---

(1) المسعود أبو الحسين علي بن الحسين: التنبيه والإشراف، جزءان، إعداد قاسم وهب، وزارة الثقافة ـ دمشق 2000م. ص146 ـ 154

(2) الدمشقي. شيخ الربوة. محمد بن أبي طالب الأنصاري. كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر. طبع مدينة بطربورغ المحروسة. في مطبعة الأكادمية الأمبراطورية1865. ص266.

شمال بأنهم ولد فلان.. إنما هو من الأغاليط"[1]. كان ما يشغل بال ابن خلدون أثر البيئة والوسط الجغرافي، واختلاف العمران في الخصب والجوع، والمعتدل من الأقاليم والمنحرف، غير إن تلك المواضيع لم يحدث أن أخضعت ـ كما يقول كراتشكوفسكي ـ قبل ابن خلدون لفحص منظم، فمثل هذه الأفكار لم تظهر في أوروبا إلاّ ابتداء من مونتسكيو [2].

د ــ في الرحلات العربية إلى الصين والهند ومحيطهما

صور الرحالة العرب الصينيين والهنود في تنوع أوضاعهم، كما ساعدت الرحلة على إنضاج الدراسات العربية، وعلى تخفيف أثر النظريات الأقاليم الفلكية على تلك الدراسات. تعرّف الرحالة العرب على الصين والهند، وخبروا أحوالهما وأساليب معاشهما، عاداتهما، وديانتاهما، وحفظ لنا مع مرور الزمن بعض مدوناتهم تلك، منهم من كان تاجراً كسليمان التاجر 237هـ ـ 871م في القرن التاسع، والتاجر العماني أبو عبيده عبد الله بن القاسم الذي غادر عُمان إلى كانتون عام 750م، وفيهم البحارة كبزرك بن شهريار 342هـ ـ 953م صاحب "عجائب الهند والصين" وآخر لم يترك لنا اسمه كمؤلف "ألف ليلة وليلة"، ولا سيما قصة السندباد البحري، ومنهم من كان سفيراً، يقوم بمهمة سياسية، كابن فضلان الذي مر على بلاد الشرق في مناطق يقطنها الأتراك جيران الهند والصين في طريقه إلى بلغار الفولغا، وسلام الترجمان للتعرف على مصير سد الصين، فضلاً عن ابن بطوطة 770هـ ـ 1368م، الذي جاب الآفاق، وزار الصين والهند وجزر المحيط الهندي، وشغف بالتجوال والتعرف المباشر على حياة الشعوب وتقاليدهم.

---

(1) ابن خلدون عبد الرحمن. مقدمة ابن خلدون. دار القلم. بيروت. بدون تاريخ. ص85.

(2) كراتشكوفسكي. مصدر سابق. ص 444.

رحلتي سليمان التاجر وابن وهب:

ترك سليمان التاجر أهم الرحلات البحرية ـ التجارية في المحيط الهندي، وبحر الصين، في القرن التاسع الميلادي، ولعله الأثر العربي الأهم الذي يتحدث عن سواحل البحر الشرقي الكبير، والطريق الملاحي إليها على أساس الخبرة الشخصية، مع التزام الموضوع[1]. فالأخبار هنا تؤخذ من التجار الذين أقاموا في الهند والصين سنوات طوال أحياناً، وبذا أصبحت مدوناتهم رصينة، بينما عُرف النوتيون بتبجحهم، وادعائهم الخبرة في البحار، وروجوا القصص التي يصعب التحقق من صحتها[2]. امتلك المؤلفون العرب وجهة نظر نسبية نحو "الثقافات" وهي نظرة غدت من المفاهيم الأساسية للإنثروبولوجية المعاصرة، فلم يقتصر استقصاؤهم على العادات المستهجنة والغريبة، والفروقات الثقافية الجذرية، لحياة الهنود، بل رافق ذلك وعيهم لتنوع المؤسسات والمعتقدات، والسلوكيات الاجتماعية، واتجهوا نحو المقارنة بين هذه الأنماط الثقافية للشعوب.

فكانت رحلة سليمان التاجر العراقي، في المحيط الهندي والمحيط الهادي، وصولاً إلى البر الصيني من أغنى الرحلات، إذ وصف بدقة هذا الطريق البحري الطويل، ووصف ما شاهده فيه من جزائر، وكما وصف الحياة على البر الصيني، وقد دون رحلته سنة 237هـ ـ 851م، ثم عمل أبو زيد الحسن السيرافي على إعادة تدوينها مجدداً في القرن العاشر الميلادي، وأعطاها شكلها المعروف الآن، وذيّل رحلة سليمان بملحق ضمنه طائفة من الأخبار، عن أهل الهند والصين، جمعها من أقوال الرحالة[3]،

---

(1) المصدر نفسه. ص 22.

(2) أندريه ميكيل. جغرافية دار الإسلام البشرية ج1. ق1 ترجمة إبراهيم خوري. وزارة الثقافة السورية. دمشق1983. ص213.

(3) د. شوقي ضيف. الرحلات ط4. دار المعارف مصر1987. ص29.

وأضاف إليها وقائع رحلة ابن وهب القرشي، التي تعود إلى عام257هـ، الذي وصل إلى عاصمة الصين، وكانت حينئذ "خمدان" وقابل إمبراطور الصين، وقد ارتدى وصف ابن وهب أهمية خاصة، لأن رحلته تمّت بعد أن قُضي على الوجود العربي القوي في خانفوه (=كانتون)، وانقطعت سبل الاتصال التجاري المباشر بالصين، فصار آخر ميناء تصله السفن العربية ميناء كلة في شبه جزيرة الملايو، ولم يصل الاتصال المباشر بالصين إلاّ عقب مرور زمن طويل من ذلك التاريخ، وقد التقى السيرافي بالمسعودي عام303هـ، وقد استفاد منه الأخير برواية ابن وهب[1].

وقد اكتفى أبو زيد في ملحقه بنقل انطباعات غيره من التجار والرحالة بما فيهم القرشي، وغلفها بانطباعاته الخاصة، أما سليمان فوصف أوضاع الناس كما وجدها في رحلاته، فاتفق علماء الغرب على أن هذه الرحلة يجب على الباحث أن يستند إليها إن أراد البحث عن علاقة العرب بالصين[2].

ولقد أبحر سليمان التاجر من سيراف إلى مسقط إلى سواحل مليبار ثم مرّ بمضيق بالك شمالي جزيرة سيلان إلى خليج البنغال، ومنه إلى جزيرة لنجبالوس، إحدى جزر نيكوبار، ثم إلى كله بار على ساحل الملايو الغربي، ماراً على جزيرة تيومن في الجنوب الغربي من ملقا، ومن هناك إلى رأس القديس يعقوب قرب سايجون، ومن هناك إلى جزيرة هانيان، ثم عبر المضيق الذي يفصلها عن أرض الصين، ليرسوا في ميناء خانفوه كانتون الحديثة، فوصف في طريقه هذه السواحل التي مرّ بها، والجزر والموانئ المختلفة والمدن، والمحاصيل وسلع التجار، وعرفنا بوجود جالية عربية كبيرة ومن المسلمين يحكم بينهم شيخٌ مسلمٌ يوليه صاحب الصين، يدعو إلى الخليفة العباسي في بغداد، وأسهب في الحديث عن الهند والصين، وملوكها، وأخبارها، وأحوال الناس وعاداتهم، وعقد

---

(1) السيرافي أبو زيد الحسن. رحلة السيرافي. تحقيق عبد الله الحبشي (مقدمة المحقق) المجمع الثقافي. أبو ظبي1999. ص8.

(2) بدر الدين حي صيني. مصدر سابق. ص 49 ـ 50.

مقارنات هائلة بين أهل الصين وأهل الهند، وتحدث عن الثغور، والأماكن التي تمّر بها السفن أثناء عودتها من خانفوه إلى سيراف، والبصرة، وسرد أخباراً كثيرة عن حياة الناس في الصين والهند. ووصفوا ترتيب مواقع السلطة في الصين، فالسلطان رأس السلطة، يساعده: الوزير، وقاضي القضاة، والخصي، وجنوده وخصيانه، ففي العاصمة خمدان تتركز السلطة الملكية وإدارتها العليا، فيتولى الإدارة المالية، نيابة عن الملك، وتحصيل الخراج، خصيان الملك، أعلمنا السيرافي أن خدم الملك "... هم ولاة الخراج وأبواب المال، فمنهم من سُبي من الأطراف أطراف الصين فخُصي، ومنهم من يخصيه والده من أهل الصين، ويهديه إلى الملك تقرباً به إليه، فأمور الملك في خاصته وخزائنه، ومن يتوجه إلى مدينة خانفو الساحلية.... هم الخدم"[1]،

و أبرز السيرافي جوانب تفوق الصين لاسيما في التقنيات الدقيقة، ونسيجها لألبستها الحريرية الرائعة الإتقان، وزخرفتها وتصويرها، وثرائها، وفي نظامها المدني الدقيق، وتقسيم مدنها، وإدارة الحكم، فشهد سليمان التاجر، أن "أهل الصين من أحذق خلق الله كفاً بنقش وصناعة، وكل عمل لا يقدمهم فيه أحد من سائر الأمم"، يقدم الملك شهادة كفاءة للرجل الذي يجد في نفسه التفوق في صناعة ما، "فيأمره الملك بأن يقف على بابه سنة كاملة، فإن لم يُخرج أحد فيه في صنعته عيباً جازاه وأدخله في حملة صُنّاعه"، وهو ما يُظهر براعة الصين في نسج الحرير، وصناعته. كما روى سليمان التاجر، أن تاجراً عندما كان في خانفو، رأى الخصي، يلبس"خمسة أقبية قمصان بعضها فوق بعض والخال يشف من تحتها"[2]

وسجلوا للصين: أن طعامهم الأرز، وربما طبخوا معه الكوشان (لعله شراب العنب) فيصبونه على الأرز فيأكلونه، أما ملوكهم فيأكلون خبز الحنطة، واللحم من سائر الحيوان والخنازير وغيرها، ولهم من الفواكه: التفاح، والخوخ، والأترج الكباد،

(1) السيرافي. المصدر نفسه. ص58.
(2) المصدر نفسه. ص59 ـ 60

والرمان، والسفرجل، والكمثرى، والموز، وقصب السكر، والبطيخ والتين، والعنب والقثاء، والخيار والنبق، والجوز، والجلوز نبات يشبه الفستق ولعله البندق والفستق، والإجاص، والمشمش، والغبيراء، نوع من الزهر، النارجيل، وليس عندهم نخل كثير، وشرابهم النبيذ المعمول من الأرز، وليس في بلادهم خمر، ولا يحمل إليهم، ولا يعرفونها، ولا يشربونها، ويعمل عندهم من الأرز: الخل والنبيذ. والناطف نوع من الحلوى[1].

وكان لسليمان التاجر ملاحظات على تقاليدهم عن الزواج، فحالهم مثل حال الهنود "فإذا أرادوا التزويج تهانأوا بينهم، ثم تهادوا، ثم يشهرون التزويج بالصنوج والطبول، وهديتهم من المال على قدر الإمكان"[2]، وأظهر مصنفونا أن المؤسسة الزوجية مصانة بروادع قانونية قوية للغاية، فحسب سليمان التاجر أن "من سنن أهل الصين... سبيل المحصن والمحصنة عندهم إذا زنيا القتل"[3]، ومن السلوكيات التي بدت لهم شاذة، أو غريبة، والتي تتعلق بالجنس، أو النظافة، أو الطهارة، أنهم "يأتون النساء في الحيض"، وأنهم "لا يغتسلون عن جنابة"، لا يستخدمون الذبح الحلال، على الحيوان، فإنهم "يضربونه على هامته"، كما أن الرجل الصيني يتزوج ما شاء من النساء[4]. وعندما يريد أن يبول فهو يبول واقفاً، "فأما الملك والقواد والوجوه فلهم أنابيب من خشب مدهونة طول كل خشب منها ذراع، وفي الطرفين ثقبتان تتسع العليا للحشفة، فيقف على رجله، إذا أراد البول ويباعدها عن نفسه ويبول فيها، ويزعمون أن ذلك أصح لأجسامهم... وأن المثانة لا تصفوا بما فيها إلاّ مع القيام بذلك"[5].

---

(1) المصدر نفسه. ص32.

(2) المصدر نفسه. ص48.

(3) المصدر نفسه . ص56.

(4) المصدر نفسه. ص49.

(5) المصدر نفسه. ص77.

وذكر سليمان التاجر: "إن فيهم نساء لا يردن الإحصان، ويرغبن في الزنا"، فتعلن للشرطة "رغبتها في الدخول في جملة الزواني"، فيطلبون منها "أن تكتب نسبها وحليتها، وموضع منزلها، وتثبت في ديوان الزواني... ويدفع إليها منشور وثيقة يذكر فيه دخولها في جملة الزواني، وأن عليها لبيت المال في كل سنة كذا وكذا فلساً". غير أن المرأة الزانية تكون في نظر الصينيين في الحضيض لذا فإن "من تزوجها فعليه القتل" أما الطريقة التي يسمح لهن فيها بعرض أنفسهن، فقد بين السيرافي أن "هذه الطبقة من النساء يرحن بالعشيات... إلى من طرأ إلى تلك البلاد من الغرباء من أهل الفسق والفساد...، فيقمن عندهم وينصرفن بالغدوات". وفي المقابل، فالرجال أنفسهم يمارسون الزنا المنظم، أو اللواط، "فأهل الصين يلوطون بغلمان، وقد أقيموا لذلك بمنزلة زواني البِدَدة"[1]. أي بمنزلة العهر المقدس لأصنامهم المقدسة.

ولم تقتصر نظرة العرب إلى الهند على الإعجاب بعدلهم وحكمتهم وحسب، فقد استهجنوا بعض الجوانب الأخرى، سيما دأب الهنود على حرق ملوكهم بعد الموت، ومشاركة فريق من رجاله المخلصين مصيره هذا، ويسمون هؤلاء الخلصاء بالبلانجرية، أو البلاوجرية[2]، وأسهبوا في وصف الطقوس والآليات المرافقة لهذا التقليد، وهو ما نجده عند السيرافي[3]. وأرجعوا ذلك إلى اعتقادهم بالتناسخ، وإلى "تمكنه في قلوبهم"، وقد قدموا فكرة عن طرق محاكمات الهند، فروى السيرافي أنه إذا ادعى رجل في الهند على آخر دعوى توجب على فاعلها القتل، طلب القاضي من المدّعى عليه أن يدخل في اختبار تحمّل حماوة النار، "فتحمّى حديدة إحماءً شديداً" فتوضع على يده سبع وريقات من ورق الشجر، بعدها، "توضع على يده الحديدة فوق الورق، ثم يمشي بها مقبلاً ومدبراً" فإن لم يظهر على يده أثر، فقد تخلص من القتل

---

(1) المصدر نفسه.ص57 ـ 58.

(2) المصدر نفسه. ص211.

(3) المصدر نفسه . ص78.

ومن الدعوى المقدمة ضدّه، ويغرّم من ادعى عليه "مناً من الذهب يقبضه السلطان نفسه"، وربما تعرض المدعى عليه لاختبار أن يتناول خاتماً من ماء مغلي، فإن تناوله دون أن تصاب يده بسوء بُرِّئ، وغرّم المدعي[1]، أما عقوبة السارق عندهم فهي قاسية للغاية، إذ يؤتى بخشبة طويلة حادة من طرفها "فيقعد عليها على أسته حتى تخرج من حلقة"[2]، والهند التي تبدو لدى المؤلفين العرب، بالمقارنة مع الصين أقل اتساعاً، وأقل كثافة بالمدن[3]، ولاحظوا الاختلاف بين مساكن الهنود والصينيين، فبناء أهل الصين من الخشب، "وبناء الهند من حجارة وجص وآجر وطين"[4].

ومن عاداتهم، إن اتفقوا على الزواج حسب السيرافي "تهانأوا بينهم، ثم تهادوا، ثم يشهرون التزويج بالصنوج والطبول، وهديتهم في المال قدر الإمكان".[5]

ورأى السيرافي أن الزنا عندهم مباح قبل الزواج فحسب، ف "الزنا في جميع بلاد بلهرا مباح إلاّ في المتزوجات"[6]. منهم امرأة فبغت، فعليها وعلى الباغي بها القتل، في جميع بلاد الهند، وإن زنى رجل بامرأة اغتصبها قُتل الرجل وحده، فإن فجر بامرأة على رضىً منها قتلا جميعاً"، كما أن رجالهم لا يختتنون[7]، بل أنهم "يخرجونهن من منازلهم تقززاً". أثناء حيضهن، وبالمقابل فإنهم "يغتسلون كل يوم قبل الغداء ثم يأكلون"، ولاحظ، أن الهنود، باستثناء أصحاب الطقوس التعبدية، يبدون حرصاً على النظافة، "يغتسلون كل يوم، قبل الغداء ثم يأكلون" و"يستاكون"، ومن عاداتهم تطويل اللحى، لكن "إذا مات لأحدهم ميت حلق رأسه ولحيته"، ويرتدي رجالهم ونساؤهم

---

(1) السيرافي. ص45 — 46.

(2) المصدر نفسه. ص48.

(3) المصدر نفسه. ص51.

(4) المصدر نفسه. ص267_268.

(5) المصدر نفسه. ص48.

(6) المصدر نفسه. ص190.

(7) المصدر نفسه. ص48 _ 49.

"فوطتين، ويتحلون بأساور الذهب والجوهر"، ولا يعتمدون الذبح، بل يضربون رأسه الشاة حتى يموت فإذا مات أكلوه"[1]، أعاد السيرافي طقس قتل النفس إلى عقيدة التناخ الهندوسية، إذ "إن سائر الملوك أسطوري، يتعلق بأحد ملوك الهند العظام[2].

وتهب الفتاة جسدها في بعض المعابد لممارسة العهر المقدس، روى السيرافي، أن "بالهند قحاب يُعرفون بقحاب البد"، فعندهم "أن المرأة إذا نذرت نذراً وولد لها جارية جميلة أتت بها البُد، وهو الصنم الذي يعبدونه، فجعلتها له،... فتمكّن من نفسها بأجرة معلومة، وكلما اجتمع لها شيء من ذلك دفعته إلى سدنة البد"[3]، واعتقد السيرافي، أن تحريم للخمر عند الهند مصدره الحكمة وليس الدين، لأن هدفه توطيد الحكمة والعدل فأهل الهند "ويقولون: كيف يدير أمر مُلكه من هو سكران، وربما قتلوا الملك"[4].

فقد أجرى السيرافي سلسلة من المقارنات ما بين ثقافتي الصين والهند، وهي خلاصة تجربته، جاء فيها "لأهل الهند قضاة يحكمون بينهم... وكذلك أهل الصين... وأهل الصين والهند يزعمون أن البُدد تكلمهم" والصين والهند يقتلون ما يريدون أكله، ولا يذبحونه فيضربون هامته حتى يموت. ولا يغتسل الهند ولا الصين من جنابة، وأهل الصين لا يستنجون إلا بالقراطيس، والهند يغتسلون كل يوم قبل الغداء ثم يأكلون.

والهند لا يأتون النساء في الحيض... والصين يأتونهن في الحيض... وأهل الهند يستاكون، ولا يأكل أحدهم حتى يستاك ويغتسل، وليس يفعل ذلك أهل الصين، وبلاد الهند أوسع من بلاد الصين... وبلاد الصين أعمر، وليس للصين ولا للهند نخل ولهم سائر الشجر. و أصل ديانة الصين من الهند، وهو يزعمون أن الهند وضعوا لهم البُدد،

---

(1) المصدر نفسه. ص49 ـ 50.

(2) المصدر نفسه. ص71. 72.

(3) المصدر نفسه. ص84 — 85.

(4) المصدر نفسه. ص47 — 48.

وأنهم في أهل الدين، وكلا البلدين يرجعون إلى التناسخ، ويختلفون في فروع دينهم. الطب بالهند والفلاسفة، ولأهل الصين أيضاً الطب، أكثر طبهم الكي، ولهم علم بالنجوم، وذاك بالهند أكثر... وبلاد الصين أنزه وأحسن، أكثر الهند لا مدائن بها، وأهل الصين في كل موضع لهم مدينة محصنة عظيمة، وبلاد الصين أصح وأقل أمراضاً وأطيب هواءً، لا يكاد يرى بها أعمى ولا أعور ولا من به عاهة، وهذا كثير في بلاد الهند...

وفي بلاد الهند مفاوز كثيرة، والصين كلها عمارة، وأهل الصين أجمل من أهل الهند، وأشبه بالعرب واللباس والدواب"[1]. امتزج في موقف الباحثين العرب من الحياة الاجتماعية الصينية الإعجاب والاستهجان، وإن بقيت الأرجحية للإعجاب، فأهل الصين، عند السيرافي"أهل جمال وطول وبياض نقي مُشرب بالحمرة، وهم أشد الناس سواد شعور، ونساؤهم يجزن شعورهن"، وهم"أجمل من أهل الهند، وأشبه بالعرب في اللباس والدواب، وهم في هيئتهم وفي موكبهم شبيه بالعرب، يلبسون الأقبية المناطق"[2]، والصغار والكبار منهم "يلبس الحرير، في الشتاء والصيف أما الملوك فيلبسون الجيد من الحرير، ومن دونهم فعلى قدرهم، وإذا جاء الشتاء لبس الرجل السراويل من ثلاثة إلى خمسة.... فأما في الصيف، فيلبسون القميص الواحد من الحرير، ونحو ذلك، ولا يلبسون العمائم"[3].

رحلة أبو عبيدة والنضير وابن اسحق:

وصلت إلينا رحلة أبو عبيدة عبد الله بن القاسم من أهل عمان إلى الصين قبل سنة 141هـ ـ 758م، أي قبل نهب خانفوه، وكان عالماً كبيراً في عصره وتاجراً كبيراً

---

(1) المصدر نفسه. ص50 ـ 51.

(2) المصدر نفسه. ص45 ـ 51.

(3) السيرافي. ص31 ـ 32.

اشتغل بتجارة المر، وأيضاً رحلة النضير بن ميمون الأباضي البصيري من أبناء القرن الثالث الهجري، والقرنين الثامن والتاسع الميلادي[1].

وقد حفظ ابن رسته، رحلة أبي عبد الله محمد بن اسحق، الذي أمضى قرابة عامين في جزيرة قماري أي قمير ـ الاسم القديم لكمبوديا الحديثة، وذلك في أوائل القرن التاسع الميلادي، فغدت معطيات هذه الرحلة مصدراً مهماً له، ولابن خرداذبه عن تلك المناطق التي زارها ابن اسحق، فكادت أن تكون هذه الرحلة المصدر الوحيد عن كمبوديا، واستفاد منها ياقوت الحموي لمعجمه.

رحلة بزرك بن شهريار:

دوّن بزرك الربان الشهير ما شاهده وسمعه من زملائه البحارة خلال الفترة ما بين 288هـ ــ 900م، و432 هـ ــ 953م، [2]. فاحتلت تلك المذكرات المرتبة الثانية للرحلات العربية للشرق الأقصى، فصار "عجائب الهند" مدونة عن ملاحي العرب الذين أبحروا فوق أمواج المحيطين الهندي والهادي، امتلأت بحكاياتهم عن أحوال الناس في جزائر المحيط الهندي والهادي وعلى ضفافهما، تطيل في وصف عبّاد الهند وكهنتها، وتتعرض لصناعات أهل الهند والصين[3]. تناول بزرك مجدداً أخبار الصين والهند، وجيرانهما في البحر من جزر وشطآن، فضخّم الجوانب الأسطورية من الحكايات، مازجاً العجيب والغريب بالواقعي، واحتجب البر وراء البحر[4]. فانتهى

---

(1) د. حسين نصار. أدب الرحلة. مكتبة لبنان، والشركة المصرية العالمية للنشر 1991. ص 50. وكراتشكوفسكي. مصدر سابق. ص 155.

(2) د. حسين نصار. المصدر السابق. ص 66. وشوقي ضيف. مصدر سابق. ص 33.

(3) أحمد سوسة. الشريف الإدريسي ج2. مصدر سباق. ص 21.

(4) ميكيل ج1. ق1. مصدر سابق. ص 222.

بزرك إلى تقديم صورة عن الحياة على ظهر البحر الشرقي وفوق شواطئه وجزائره، تساعدنا على فهم كثير مما ورد في كتب الجغرافية العربية، وهو وإن كان يمزج الوصف البليغ والواقعي بالوصف العجائبي، والأسلوب السهل بالحركة، فقد قال عنه حسين فوزي " لقد طالعت أكثر ما جاء بالأدب العربي الرسمي عن البحار فلم أجد فيه ما يدلني ولو من بعيد ما جاء بكتاب "عجائب الهند" صدقاً في الوصف وقوة على الإيحاء بالجو البحري... هو نتيجة إيضاح المتكلم إيضاحاً مباشراً عن تجارب شخصية"[1].

وتخلّل "عجائب الهند" الكثير من المعطيات والمواقف والأحكام عن الهند، فذكر بزرك، أن الهند تفوقت الهند بسحَرَتها، وسحرائها، فإن فيهم "من يخرج إلى الصحراء فيرى الطيور تطير في الهواء، فيخط في الأرض دارة دائرة تحت الطيور، فلا تزال تدور في موقع الخط إلى أن تقع فيه"[2]. وفيهم من السحرة "من يمنع التمساح، فيجعل الرجل يسبح معه، دون أن يصيبه أذى"[3].

وأجمع مصنفونا على تفوق الهند في العجائب والغرائب، أكثر من الأمم الأخرى، فشهد بزرك وغيره من المؤلفين "أن الله خلق العجائب عشرة أجزاء، جعل تسعة منها في ركن المشرق... ثم جعل في الصين والهند ثمانية أجزاء منها"[4]. غير إن عندالهنود "البول أنظف من الماء الذي تغسل به اليد أو الفم"[5].

---

(1) حسين فوزي، السندباد القديم، مكتبة الأنجلو المصرية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1943م. ص 45. وراجع شوقي ضيف، مصدر سابق. ص33 ـ 39.

(2) بزرك بن شهريار، الناخذاة الرامهرمزي: كتاب عجائب الهند برها وبحرها وجزائرها، تحقيق عبد الله محمد الحبشي، المجمع الثقافي ـ أبو ظبي 2000.. ص104.

(3) المصدر نفسه. ص150.

(4) المصدر نفسه. ص18.

(5) المصدر نفسه. ص116 — 117.

وذكر بزرك أنه: "إذا سرق الهندي في بلاد الهند قتله الملك، إذا كان هندياً وضيعاً أو لا مال له، وإذا كان له مال أخذ الملك ماله بأسره"[1]، فعلى الرغم من معرفة الباحثين العرب لطرائق الصوفية التقشفية في بلادهم، فإن ما رأوه في الهند، من طقوس وطرائق، لإذلال الجسد إلى حد القتل، كان مبعثاً لدهشتهم، واستفظاعهم! روى بزرك عن محمد بن بابشار، أنه رأى، في الهند، رجالاً يقعدون على ضفة نهر الغانج المقدّس لديهم، بانتظار أن يجرفهم ماؤه[2]، وأطنب بزرك في صناعة الحرير الصينية، وفي نسجهم له، وفي خياطتهم لثياب الحرير، فروى عن تاجر اسمه كاوان زار الصين وقابل ملكها البغبور، فأدخله إلى بستان بخانفو رأى فيه النرجس والمنثور وشقائق النعمان، والأنوار زهر أبيض فعجب كاوان، ولم يخطر بباله أن ما يراه زهور مصنوعة من نسج الحرير، حتى تأكد باللمس أنها مصنوعة[3].

رحلات السندباد ألف ليلة وليلة

وقد نتج عن تداول المشاهدات الواقعية، أو الحكايات المتخيلة التي نقلها المؤلفون العرب عن بحار الهند والصين، و برّهما، أدباً قصصياً على نحو ما نجده في قصص السندباد البحري، في "ألف ليلة وليلة"، التي تعتبر بحق أعظم الحكايات الشعبية في كل العصور، وقد أشار إليها ابن النديم، أبو الفرج بن اسحق بن أبي يعقوب 383هـ - 993م في كتابه "الفهرست"، فنوّه مرّة بأصولها الهندية، تحت اسم "هزار أفسان"، ومعناه ألف خرافة، وأكد مرّة أخرى على تأليفها المحلي، على يد أبي عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري صاحب كتاب "الوزراء"[4].

---

(1) المصدر نفسه. ص152.

(2) المصدر نفسه. ص120.

(3) المصدر نفسه. ص129.

(4) ابن النديم. أبو الفرج بن اسحق بن أبي يعقوب. الفهرست. المكتبة التجارية الكبرى. مطبعة الاستقامة القاهرة بدون تاريخ. ص436 وص437.

وسواء أكانت هذه القصص قد توسعت من نواة قصصية مترجمة عن الهندية، أو توسعت عن القصص التي كتبها ابن عبدوس الجهشياري، فإن المُترجم منها عن الهندية أو العائد إلى الجهشياري، لم يكن سوى نواة صغيرة من متنها المتداول اليوم، بعد أن أضيفت إليه قصصاً كثيرة لا نستطيع أن تحدد تاريخها، فقد نما الكتاب وزيد عليه في الأقطار الإسلامية في الشام والعراق وفي مصر خاصة، ثم خضع في أزمان مختلفة، وخضع في وقت ما إلى مؤلف ذي شخصية جامعة حوّر فيه وأخضعه لأسلوبه، فخضع الكتاب لمؤثرات الحضارة الإسلامية[1]. وأضاف إليها التأليف العربي حكايات، وأشخاصاً، وأوصافاً، جعل "الليالي" تنصهر عمقاً في قلب الثقافة العربية، واكتسبت شخوصها روحاً عربية إسلامية، وقدمت مغامرات "سندباد"، التي تحتل جزءاً هاماً من حكايا "ألف ليلة وليلة" البحرية، مجموعة من قصص البحارة، صورة عن حياة الهنود والصينيين، من أشتات المعارف العربية، وحكايات الرحالة المتداولة في عصره. لذا قال كراتشكوفسكي عنها: "إن أسفار السندباد انبعثت في الوسط نفسه الذي نشأت فيه قصص التاجر سليمان، وفي مواصفاتها نفسها، أي سيراف والبصرة وبغداد، وأما مسرح حوادثها فهو الهند وأرخبيل الملايو، وقد أمكن تحديد أماكن بعض حوادثها بالكثير من الدقة"[2]. وارتبطت سرديات السندباد بالترحال في ربوع الهند والصين وبحاريهما، وعكست المرجعيات الثقافية العربية، ولاسيما أنه تم تداولها على نطاق واسع في الأوساط الشعبية العربية، في مشارقها ومغاربها.

رحلة المطوع 760 م ـ 800 م:

ولعل أول الرحلات العربية البرية، باتجاه الهند هي رحلة تميم المطوع بن بحر و هو أول الرحالة الذين زاروا بلاد الأتراك جيران الهند والصين، فوصل إلى التغزغز

---

(1) سهير قلماوي. ألف ليلة وليلة. دار المعارف بمصر1960. ص84.

(2) كراتشكوفسكي ج1. مصدر سابق. ص 142.

القاطنين حوض أورخون جنوب بحيرة بايكال، وكان لهم قطعان ماشية، ومساكنهم من خيم وأكواخ لباد، ولا توجد عندهم مدينة سوى مدينة الخاقان، وهي مدينة كوشان، ومن المحتمل أن يكون قد وصل إلى عاصمة الأويغور قره بلاساغوه على نهر أورخون في مدينة مونغوليا الخارجية، ويذكر أن الأويغوريين على دين المانويه، وعلاقتهم وثيقة مع أباطرة الصين، ولقد نقل بعض وقائع رحلته ابن خرداذبة، وابن الفقيه وياقوت الحموي[1].

رحلة سلام الترجمان:

يُقال أن سلام الترجمان، في القرن التاسع الميلادي، أول من عبر الطريق البري إلى الصين، وقد أرسله الخليفة الواثق بالله 232هـ ـ 847م ليستطلع حال سد الصين، بعد أن رآه في المنام وقد انهدم، ولعل هذا الحلم المزعج مرده الشائعات عن تحرك القبائل التركية في أواسط آسيا نتيجة قضاء القرغيز على دولة الأويغور حوالي عام 840[2]. وسجل انطباعاته عن الشعوب القاطنة في أقصى شمال شرق المعمورة، في الحدود الشمالية لبلاد الصين، والترك، تلك التي ظنها العرب أنها شعب "يأجوج ومأجوج" التي ذكرها القرآن، وانتشرت وقائع رحلته في الأدب العربي، و الجغرافي: ابن خرداذبه، وابن رسته وياقوت الحموي، وأبو حامد الغرناطي، والقزويني والنويري، كما احتفظ لنا الإدريسي بعضاً منها[3].

---

(1) س. آي. بوسورث. آسيا الوسطى. تراث الإسلام ج1 مصدر سابق. ص 188.
(2) كراتشكوفسكي ج1. مصدر سابق. ص 148و156و159.
(3) أحمد سوسة. الإدريسي. الباب الأول. مصدر سابق. ص 105.

رحلة ابن فضلان:

أما رحلة أحمد بن فضلان الذي أرسله الخليفة المقتدر سنة 309هـ ـ 921م، على رأس بعثة إلى بلاد البلغار على نهر آتل، جنوب روسيا، فقد غادرت السفارة بغداد في الحادي عشر من صفر عام 309هـ ـ 21 يونيو 921[1].

وقد قابل في طريقه قبائل تركية وهم على جوار الحدود الشرقية للهند. وصف لنا عاداتهم، وطقوسهم وحياتهم، "وشهادته تكاد تكون المادة الوحيدة عن تاريخ الفترة السابقة لبروز الأتراك السلاجقة، الذين انبثقوا عن الأوغوز، والذين اجتاحوا في القرن الحادي عشر القسم الأكبر من الشرق الأوسط وأقاموا سلطنتهم الخاصة"[2].

رحلة أبو دلف 390هـ ـ 1001م:

وقام أبو دلف مسعر مهلهل الخزرجي الينبوعي، برحلته إلى الصين عام 331هـ ـ 942م، استجابة لتكليف الأمير الساماني نصر بن أحمد، فخرج أبو دلف من بخارى وعبر تركستان الغربية فالشرقية والتيبت ودخل الصين، ثم غادرها إلى الهند، ومنها رجع إلى بخارى عن طريق تركستان ووصف البلاد التي مر بها، وحفظ لنا مقتطفات عن هذه الرحلة ابن النديم وياقوت والقزويني[3].

وقد وصف لنا مشاهداته في الصين، ومظاهر العمران والأشكال المتنوعة للسلوك الاجتماعي لدى الصينيين، ولدى أهل التيبت. توصل كراتشكوفسكي إلى أن رحلة أبي دلف إلى الصين واقعية حقيقية لا شك فيها، وأن القصص الواردة على لسانه في

---

(1) أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد. رسالة بن فضلان. مديرية التراث العربي. مجمع اللغة العربية ط2. دمشق1959. ص 99 ـ 100.

(2) س. آي. يوسورث. آسيا الوسطى. مصدر سابق. ص189 ـ 190.

(3) م. حمد محمود زيتون. مصدر سابق. ص54 ود. حسين نصار. أدب الرحلة. مكتبة لبنان بيروت. والشركة المصرية. القاهرة1991. ص42.

"الفهرست" لابن النديم "تحمل جميع الدلائل على رجحان حدوثها، كما أن قصة تسلقه لجبل دماوند الذي حفظها لنا القزويني، تمثل شيئاً طريفاً للغاية، وأن اهتمامه بظواهر الطبيعة يضطرنا إلى الوقوف موقف الاطمئنان من رواياته[1].

وبكل الأحوال، شمل وصف أبي دلف، أمم الترك والتتار، المنتشرة ابتداءً من سواحل البحر الأسود إلى ضفاف نهر آمور، ووصف لنا التغزغز وهم شعب تركي يعيش على نهري سيحون (سيرادريا) وجيحون (أموداريا)، وزار في الهند المولتان والمنصورة وحيدر آباد، والديبل الساحلية، وأيضاً قنوج في شمال الهند، فضلاً عن الصين، وبلاد التيبت، ونعثر على نصوص رحلته في "معجم البلدان" لياقوت الحموي، وفي "آثار البلاد وأخبار العباد" للقزويني، وعند ابن النديم في فهرسه. وكان أبو دلف قد زار مدينة سندابل، عاصمة لمملكة باسم كين، واشتهرت بالكتب العربية باسم ماصين وكانت على علاقة قوية بالدولة السامانية' ولعل أبو دلف، هو أول العرب الذين كتبوا عنها، ووصفها، بأنها "قصبة الصين وبها دار المملكة"، وكان "لها ستون شارعاً" وكل من هذه الشوارع تتجه "إلى دار المملكة" التي تقع في قلب المدينة، ويرتفع سور المدينة تسعون ذراعاً، وعرضه تسعون باباً، وفيها نهر يتفرع إلى ستين جزءاً على عدد شوارعها، ثم يخرج نصفه تحت السور فيسقى البساتين، ويرجع نصفه الآخر إلى المدينة، فيسقي أهل ذلك الشارع إلى دار الملك، ثم يخرج في الشارع الآخر إلى خارج البلد، وبذلك يصبح لكل شارع نهران: الداخل يسقيهم والخارج يخرج بفضلاتهم. ولهذه المدينة بيت عبادة عظيم، فيه تماثيل وتصاوير وأصنام وبدّ عظيم، وأهل البلد لا يأكلون اللحوم أصلاً، ومن قتل منهم شيئاً من الحيوان قُتل[2].

---

(1) كراتشكوفسكي ج1. مصدر سابق. ص 189.

(2) ياقوت الحموي معجم البلدان. مجلد ثالث ج12. ص444.

الغرناطي 565هـ ـ 1170م:

أوصل المغاربة والأندلسيون، مؤلفات الرحلات، والمسالك والممالك إلى ذروتها، كما نراه عند الغرناطي 565هـ ـ 1170م، وابن بطوطة، وتكاثرت رحلاتهم قياساً على مثيلاتها في المشرق العربي، في القرن الحادي عشر والثاني عشر، إلاّ أن أغلب الرحالة المغاربة والأندلسيين لم يتوغل في الصين والهند. وعلى الرغم من الخرائط التي قدمها الإدريسي، واهتمامه العالمي الواسع وما قدمه من معلومات، إلا أنه ظل أسير تصورات بطليموس عن المحيط الهندي، حيث اعتبره كبحيرة مغلقة تحيطها في الجنوب استطالة إفريقيا شرقاً محاذاة لشواطئ الهند والصين. وتوغل الغرناطي، وهو محمد بن عبد الرحيم بن سلمان بن ربيع القيسي الغرناطي ت565هـ ـ 1170م، شمالاً في بلاد القفقاس وأوروبا، وجال شرقاً حتى وصل إلى مشارف الصين والهند، واتجه جنوباً حتى منتصف القارة السوداء، ووصل إلى بلاد تركستان على حدود الصين، ثم إلى جنوب روسيا، وحوض الفولغا وشرقي أوروبا، ثم دون مشاهداته في كتابيه "المعرب عن بعض عجائب المغرب" وبشكل خاص في "تحفة الألباب في نخبة الإعجاب" ناقلاً معلوماته عن الهند والصين عن رجل يدعوه "أبا العباس الحجازي" الذي أقام بأرض الهند والصين أربعين سنة، و حدثه عن جزيرة سرنديب سيلان، كما حدثه عن الهند والصين إلاّ أن هذه الأحاديث غلب عليها العجيب. امتدح أبو حامد ما تذخر به بلاد الهند والصين من ملك عظيم وعدل، وعلم، كما أطرى طريقة معاملتهم للتجار المسلمين، لدرجة أنهم كانوا يعفونهم من المكوس، فتمنى على ملوك المسلمين أن يحذوا حذوهم.

ابن بطوطة 770هـ ـ 1369م:

بدأ ابن بطوط أسفاره الطويلة من طنجة إلى مصر عبر شمال إفريقيا، وإلى الشام، ومضى في تجواله شرقاً إلى خوارزم وبخارى وأفغانستان، ودخل بعدها إلى الهند والصين، ومخر عباب البحر وجال في جزر الهند الشرقية، وجزر المالديف[1].

(1) فؤاد بدوري: ابن بطوطة. دار الكاتب العربي. القاهرة. بدون تاريخ ص13.

واستغرقت رحلاته إلى الشرق الأقصى، معظم صفحات كتابه، بدأها من طنجة يوم الخميس في 2 رجب 725هـ ـ 1324م حاجاً إلى بيت الله الحرام[1]. عاين على السواحل الجنوبية لآسيا الوسطى مساكن التركمان، وانتشار التجار العرب طلباً للأخشاب، وذهب حتى سينوب Sinope، ومن هناك عبر البحر الأسود إلى كوش في بلاد القرم، وسافر إلى مدينة القرم، وكانت تابعة للسلطان المغولي محمد أوزبك خان المغوليين المعروفين بالقبيلة الذهبية وقد دخلها الإسلام[2]. وتوجه إلى بلغار الفولغا، واستراخان، ومنها إلى القسطنطينية، وقفل راجعاً إلى خوارزم، أكبر مدن الأتراك وأعظمها وأجملها وأضخمها، ثم غادروها إلى بخارى وسمرقند باتجاه غزنة وكابل في أفغانستان، ومن هناك دخل الهند، وعاش في ربوعها تسعة أعوام[3]. وزار لاهير Lahiri بجوار كراتشي، وسكورSukkur، وملتانMultan، وسرسه، وهاس، حتى وصل إلى مدينة دلهي، فأقام سنين طويلة برعاية السلطان محمد طغلق، الذي أرسله فيما بعد في سفارة إلى الصين فاجتاز الهند الوسطى، وملوه، ثم ساحل مليبار، حتى وصل إلى جزر مالديفMaldive جزر ديبة المهل وأقام فيها سنتين، ومنها عبر إلى جزيرة سرنديب (سيلان)، واستأنف رحلته ماراً بساحل كرومندل، وأخيرا أقلع إلى البنغال وزار كمروب وسهلت، وسوفرجيون بجوار دكا، ثم أبحر إلى شبه جزيرة الملايو واندونيسيا انتهى إلى ميناء الزيتون (تشوان شوفو) في الصين، ثم زار بعض المدن الصينية القريبة من الساحل مثل الخنسا (هانج شو)، وهي في نظره أكبر مدينة رآها على

(1) ابن بطوطة. محمد بن عبد الله اللواتي تحفة النظار في غرائب الأمصار. وعجائب الأسفار. دار الشرق العرب بيروت بدون تاريخ ص15.

(2) فؤاد بدوي. ابن بطوطة. مصدر سابق. ص13 ـ 16. راجع إبراهيم أحمد العدوي. ابن بطوطة. سلسلة إقرأ 144. دار المعارف. مصر1954. ص54، 82.

(3) محمد محمود الصياد. رحلة ابن بطوطة. مجلة تراث الإنسانية. مجلد الثالث/1/ الدار المصرية للتأليف. ص112.

سطح الأرض، وفان بالق (بكين) وهي عاصمة الخان، ما لبث عاد إلى الزيتون ومن هناك حملته سفينة إلى سومطرة ومنها إلى ساحل مليبار، عائداً إلى بلاده ماراً بهرمز إلى العراق وبلاد الشام ثم مصر، ووصل فاس عام1349م[1].

لقد جاءت رحلة ابن بطوطة من الناحية التاريخية، في الفترة التي تحول فيها معظم الغزاة المغول إلى دين الإسلام، وهو ما ساعد العرب على استئناف النشاط التجاري مع الصين والهند، والجزر، والتنقل، والإقامة الطويلة فيها، فسجل مشاهداته وتجاربه، كان عظيم الاهتمام بالناس، فتراه يعرض لجميع الظواهر الاجتماعية بالسرد حتى تلك التي يهملها المؤرخ عادة، فتمر من أمام أنظارنا مراسيم البلاط الأجنبية، وأزياء الشعوب المختلفة، وتقاليدها وحرفها، وأصناف أطعمتها وأغذيتها[2]. فأعطانا صورة عن حياة الهنود والصينيين، وأناس جزر المحيط الهندي، وكشف عن سلوكهم، وأساليب معاشهم، ومعتقداتهم، وطقوسهم، وحياتهم العائلية[3]، ووصف بلاط سلطان دلهي، ومراسيم احتفالاته، وطرائقه في القصاص، ولا ينسى الحديث عن أشجار الهند، والحبوب التي يزرعها الهنود، وعاداتهم في حرق الموتى، ثم أقام سنتين في جزر المالديف، تزوج خلالها، وتولى القضاء، وصف عادات سكانها وأعمالهم، ومساكنهم، وسجل ابن بطوطة، في رحلته إلى الصين، كثافة الوجود العربي والإسلامي في الصين وازدهار التجارة العربية فيها، وكان قد وصل الصين وهي تحت حكم المغول، الذين تحولوا إلى الدين الإسلامي، وفتحوا الطريق أمام المسلمين لدخول الصين والاستقرار فيها، فتحولت مذكراته إلى سجل حافل عن حياة المسلمين، ونشاطهم الكبير في حياة المدن الصينية.

---

(1) المصدر السابق. ص112 ـ 113. راجع نفيس. أحمد جهود المسلمين في الجغرافية. مصدر سابق. ص100.

(2) كراتشكوفسكي ج1. مصدر سابق. ص431.

(3) محمد محمود الصياد. مصدر سابق. ص114.

وكانت أول مدينة وصل إليها ابن بطوطة، هي التي يسميها الزيتون، ويعتقد البعض أنها كانتون نفسها، وأن محقق كتاب ابن فضل الله العمري، يضعها بين مدينة أموي وفوتشينو، وثالث يعتقد أنها جوان شو Tch – Jung الحالية، ولعل الأرجح أنها مدينة كانتون، لأن مواصفاتها عند ابن بطوطة تشابه، مايذكره الباحثون العرب الآخرون عن خانفو، أي كانتون، وصفها ابن بطوطة بأنها "مدينة عظيمة كبيرة، تصنع فيها ثياب الكمخا والأطلس، ومرساها من أعظم مراسي الدنيا، أو هو أعظمها"، وقد رأى فيها مائة جنك كبير، أي مركب كبير، ووجد من الجنك الصغيرة ما لا يحصى، ومرفؤها، "خور كبير من البحر يدخل في البر حتى يختلط بالنهر العظيم"، وما يهم هنا أنه رأى فيها المسلمين يسكنون في المدينة على حدة، وتعرّف على قاضي المسلمين فيها، وكبار التجار، ولاحظ أن التجار المسلمون إذا قدموا إليهم "فرحوا أشد الفرح، وقالوا: جاء في أرض الإسلام" فلا يشعر المسلم الغريب بالغربة. وزار مدينة صين الصين التي يُعتقد أنها مدينة مهاجين الحالية، ومعناها الصين الكبرى، وهي حسب محقق كتاب الجغرافيا، لابن سعيد المغربي هي عاصمة منزي في ولاية فوكين الحالية، فرأى فيها جالية عربية ومسلمة، وعندما انتقل إلى مدينة أخرى سمّاها الخنسا، التي يُعتقد أنها هانج جو الحالية، قال عنها "أكبر مدينة رأيتها على وجه الأرض طولها مسيرة ثلاثة أيام"، وهي مقسمة إلى ستة مدن أولها يسكنه حراس المدينة وأميرهم، وثانية يسكنها "اليهود والنصارى والترك وعبدة الشمس"، والثالثة، يسكنها المسلمون "ومدينتهم حسنة، وأسواقها مرتبة كترتيبها في بلاد الإسلام، وبها المساجد والمؤذنون، ... ولها زاوية تعرف بالعثمانية، حسنة العمارة، وبها طائفة الصوفية... وعدد المسلمين بهذه المدينة كثير".

وترك ابن بطوطة في مذكراته، وصفاً شاملاً لسفن الصين ومراكبهم، وطريقة صنعهم لها، فهناك ثلاثة أصناف لمراكب الصين: الكبار منها تسمى الجنك، والمتوسطة تسمى الزو، والصغار تسمى الكمكم، ويحتوي المركب الكبير من ثلاثة قلوع إلى اثني عشر قلعاً، وتصنع قلوعه من الخيزران منسوجة بالحصر، ويخدم المركب ألف رجل فما

دون، منهم البحرية ستمائة، والمقاتلة أربعمائة، وفيها الرماة، وأصحاب الدرق الذين يرمون بالنفط، ولا تُصنع هذه المراكب إلا بمدينة الزيتون، أو بصين صينية، أو صين كلان، ويعتمدون في إنشاء المركب على صنع حائطين من الخشب ضخمين جداً، موصولة بالعرض والطول بمسامير ضخام، طول المسمار منها ثلاثة أذرع، فإذا التأم الحائطان الخشبيان، صنعوا على أعلاها فرش المركب، وعلى جوانب ذلك الخشب توضع المجاديف، وهي كبار كالصواري. يجدف واحدها العشرة إلى الخمسة عشر رجلاً. ويزرعون الخضر والبقول والزنجبيل في أحواض خشب. ويعاملون وكيل المركب كأنه أمير كبير، تحف به عند نزوله الرماة والحبشان بالحراب والسيوف والأطبال والأطباق.

وزار ابن بطوطة، في الهند، ساحل المليبار، فقال "هي بلاد الفلفل"، وقدّر طولها "مسيرة شهرين على ساحل البحر من سندابور إلى كولم، والطريق جميعها بين ظلال وأشجار"[1]. ولاحظ الأهمية التي يوليها أهل ماليبار لطرق التجارة، ولطرق السفر، ففي كل نصف ميل يوجد بيت من الخشب فيه دكاكين، يقعد عليها "كل وارد وصادر"[2]. ووجد ابن بطوطة ملتان، عند مروره بها، تابعة لسلطان دلهي المسلم، وغدت "قاعدة بلاد السند، ومسكن أمير أمرائه"[3]. و رأى ابن بطوطة كمباي تعج بالنشاط[4]، وتتبع سلطان دلهي محمد شاه. ودخل ابن بطوطة بعدها، مدينة منجرور، فوجدها مدينة كبيرة، على خور يسمى خور الدُنب، وهو "أكبر خور ببلاد المليبار، وبهذه المدينة ينزل معظم تجار فارس واليمن"، ويكثر فيها الفلفل والزنجبيل، وكان سلطانها أكبر سلاطين تلك البلاد واسمه رام دو، وإلى جانب أهلها الهندوس، يسكنها نحو أربعة آلاف من المسلمين، في ربض بناحية المدينة، وهم ضرورة لتجارة المدينة،

---

(1) ابن بطوطة. ص432.

(2) المصدر نفسه. ص433.

(3) ابن بطوطة. تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. مصدر سابق. ص309 وص316.

(4) المصدر نفسه. ص426.

لـذا، إذا وقعـت الحـرب "بيـنهم وبـين أهـل المديـنة، يـصلح بيـنهم الـسلطان لحاجـته للتجارة"، وبها قاض مسلم[1]. وأقلع ابن بطوطة من قالقوط أو كاليكوت، حين كانت المحطـة الرئيـسية للـتجارة العـربية الـصينية، وأهـم موانـئ الهـند، إلى جـزر المالديـف، فوصـفها بـأن "مرسـاها مـن أعظـم مراسـي الدنـيا، وكـان سـلطان قالقـوط كافـراً يُعبالسامري"، يلبس قماشاً أبيض يستر به وسطه، حافي القدمين، وعلى رأسه عمامة صـغيرة[2]، وزار ابـن بطـوطة سـاحل كروماندووصـف عـادات أهلـه[3]، ومـن المميـزات الكـبرى الأخـرى، الـتي أسبغها العـرب علـى الحـياة الـسياسية الهـندية هـي الـنظام، والترتيب المنتظم، فمنذ خطا ابن بطوطة خطـواته الأولى في الـسند، أدهشته دقة نظام البريد، وانتظام الطرق التي أنشأها سلطان دلهي، لعموم الـبلاد الهندية التابعة له، وحـضور هيبته علـى بـلاد المليبار، وقـنوج وسـواحل المعبر، وكجـرات، ودولـة آبـاد، وعرف عن قرب مكانة سلطانها الذي اجتمعت فيه خصال متباينة، فكان "أحب الناس في إسـداء العطايـا وإراقـة الـدماء"، واشـتهر "في الكـرم والـشجاعة"؛ وأيـضاً "في الفـتك والـبطش بـذي الجـنايات وهـو أشـد الـناس تواضـعاً وأكثرهم إظهاراً للعدل والحق"[4]، واشتهر بعدلـه كباقـي ملـوك الهـند، ففي إحدى السنين "أمر السلطان برفع المكوس عن بلاده، وأن لا يؤخذ من الناس إلا الزكاة والعشر خاصة، وصار يجلس بنفسه للنظر في المظالم"[5]، وأنه "شديد المحبة في العرب، مؤثراً لهم معترفاً بفضائلهم"[6].

---

(1) المصدر نفسه. ص434 – 435.

(2) المصدر نفسه. ص437 ـ 439.

(3) المصدر نفسه. ص470.

(4) المصدر نفسه. ص345.

(5) المصدر نفسه. ص366.

(6) المصدر نفسه. ص361 و397.

لا تفارق الدهشة والاستفظاع مؤلفينا أمام منظر انقياد الزوجة الهندية إلى النار حرقاً، التصاقاً بزوجها الميت، وصف ابن بطوطة المنظر بذعر وتعجّب، عندما رأى بأم العين كيف أقدمت ثلاث نساء، وقد مات أزواجهن، إلى النار الملتهبة بثبات، فما كان منه، وهو ابن ثقافة منحت اعتباراً كبيراً للحياة، وللنفس البشرية، إلاّ أن أُغمي عليه[1]، وشاهد مرة أخرى، ثلاث نساء مات أزواجهن، أقمن قبل موعد الحرق بثلاثة أيام "وهن في غناء وطرب وأكل وشرب". وفي اليوم الموعود أتت كل واحدة منهن بفرس فركبته، وهي متزينة متعطرة، والبراهمة يحفون بهن، تصاحبهن الطبول والأبواق، والناس حولهن يطلبون منهن إبلاغ التحيات لأقاربهم، وهن يقلن للطالب "نعم"، إلى أن وصلن موضع كثير المياه والأشجار بينها أربع قباب، ولبسن ثياب قطن خشن غير مخيط، وتقدمن إلى النار بثبات، ورمى الرجال الحطب ليزيدوا النار اشتعالاً، فكاد ابن بطوطة أن يسقط من فرسه مغمياً عليه، إلا أن ابن بطوطة عرف أن هذا الحرق ليس من الفروض الدينية الواجبة "فإحراق المرأة بعد زوجها عندهم أمر مندوب إليه غير واجب"[2]. وشاهد ابن بطوطة في تجواله في بلاد الهند اتصال سكن الهندوس بسكن المسلمين، "والمسلمون غالبون عليهم"[3]. وقد استفظع اقتران تقديس نهر الغانج، بطقوس قاسية، مميتة، وذلك حين رأوا الهنود "يغرقون أنفسهم، في نهر الكنج، وهو الذي يحجون إليه، ويحرقون أنفسهم، وفيه يرمى برماد هؤلاء المحرّقين"[4]، كما أثار استغراب العرب، تقديس الهندوس للبقرة، فهم حسب ابن بطوطة "يعظمون البقر، ويشربون أبوالها للبركة، وللاستشفاء إذا مرضوا... ويلطخون بيوتهم وحيطانهم بأوراثها"[5].

---

(1) المصدر نفسه. ص322.
(2) المصدر نفسه. ص323 —323.
(3) ابن بطوطة. ص394.
(4) ابن بطوطة. ص324.
(5) ابن بطوطة. ص341.

ووصف ابن بطوطة مدينة خان بالق هي مدينة بكين، بأنها "من أعظم مدن الدنيا"، يرتفع قصر الخان الأعظم، "في وسط المدينة المختصة بسكناه، وأكثر عمارته بالخشب المنقوش، وله ترتيب عجيب"، وله سبعة أبواب[1]، بالإضافة إلى شربهم الشاي، فعندهم، كما أشار ابن بطوطة، سكر يضاهي السكر المصري، بل يفضله، والأغباب والأجاص، "وبها البطيخ العجيب، يشبه بطيخ خوارزم، وأصفهان، وكل ما ببلادنا من الفواكه فإن بها مثله وأحسن منه، والقمح بها كثير جداً، ولم أر قمح أطيب، وكذلك العدس والحمص"، إلاّ أن ما أثار اشمئزاز المؤلفين العرب هو أنهم "يأكلون لحوم الخنازير والكلاب ويبيعونها في أسواقهم". وشهد ابن بطوطة على ضلوع الصين في صناعة الحرير، وتربية دودة القز[2].

فإذا كان البيروني قد انتبه على "الثقافة العالمة" للهنود، للوصول إلى معرفة حجم الإنجاز الثقافي الهندي مقارنته بتجارب الأمم الأخرى، ولاسيما اليونان، فابن بطوطة، لم يترك صغيرة وكبيرة إلاّ وأشار إليها، وخصوصاً فيما يتعلق بحياة الناس، ومكّنه من ذلك يقظته الذهنية، وعيونه المفتوحة على العالم.

لقد تضافرت تلك الأشكال من الاتصالات العربية بشعوب شرق آسيا، لتشكل بالنهاية قاعدة لاتساع معرفة العرب بها، فتفوقت معارفهم على مثيلاتها في أوروبا، وعبّر غوستاف لوبون عن هذه الحقيقة بقوله: "في الوقت الذي كانت فيه أوروبة تشك بوجود بلاد الشرق الأقصى، ولا تعرف من أفريقية سوى بعض شواطئها، كان للعرب علاقات تجارية بالهند، والصين وأفريقية الداخلية، وبأقسام أوروبا النائية، كروسية وأسوج والدانمارك"[3]. صحيح، أن أوروبا كانت تتبادل السلع مع الصين والهند، منذ

---

(1) ابن بطوطة. ص498 — 499.

(2) ابن بطوطة. ص486 ـ 487.

(3) غوستاف لوبون. حضارة العرب. ترجمة عادل زعيتر. طبع الحلبي وشركاه القاهرة1984. ص660.

زمن بعيد، إلاّ أن صلاتهم تلك، كانت تتم أما عن طريق آسيا الوسطى، بعد أن تجوب السلع بلاد التتر، وبلاد فارس، وأما عن طريق مصر بعد أن تقطع هذه السلع البحر الأحمر مارة من الخليج العربي، وسواحل بلاد العرب، وكان العرب وحدهم واسطة هذه المقايضات[1]، لهذا فاقت معلومات الجغرافيين العرب والمسلمين عن قارة آسيا معلومات سابقيهم من الجغرافيين اليونان والرومان بدرجة عظيمة[2].

هـ ـ التأليف المعجمي والموسوعي

ظهرت أنماط جديدة من التأليف مابين القرنين 14 ـ 16م: انحسر تدريجياً نمط تأليف "المسالك والممالك" و"التأليف البلداني"، مع تراجع وتدهور الحال الثقافي ـ السياسي، لاسيما تدمير المغول لبغداد عاصمة الخلافة، ثم سيطرة العسكر المماليك على الحكم في العديد من البلاد العربية. فظهر في سياق ذلك نمط جديد من التأليف اعتمد بشكل رئيس على تجميع المعطيات المكتسبة من التأليف القديم، كنوع من حفظ الذاكرة الجماعية للأمة، وهو ما ظهر جلياً في التأليف الموسوعي والمعجمي، وإلى جانب ذلك ظهرت مصنفات جغرافية تهتم بالعجيب، Cosmographs، فضلاً عن استمرار خط الرحلات، التي رتبت جميعها مكاناً خاصاً للصين والهند. ففيما يخص التأليف المعجمي فقد جمع معلومات هامة وتصورات متداولة عنهما وعن جيرانهما، فمنذ القرن الحادي عشر الميلادي ظهر للبكري "معجم ما استعجم"، وللزمخشري ت 538هـ ـ 1143م "كتاب الجبال والأمكنة والمياه"، وللحميري ت900هـ ـ 1503م "الروض المعطار في خبر الأقطار"، فحفظ هؤلاء ما قدمه سابقوهم من معطيات ومُتخيلات عن الصين والهند، فضلاً عن بعض المعطيات الجديدة. وقد لخّص الحميري

---

(1) المصدر نفسه. ص 237.

(2) شاكر خصباك. الجغرافية عند العرب. دار المعارف للطباعة والنشر سوسة. تونس بدون تاريخ ص 78.

السردية التاريخية عن زمن البدايات في الهند، بقوله: وممكلة الهند عند جميع ملوك الكفار، بإجماع منهم، مملكة الحكمة، والحكمة من الهند مبدؤها، وزعموا أنهم أول من ضم المملكة وضموا إليها ملكاً، وأولهم البرهمن الأكبر، وهو الذي أظهر الحكمة وطبع السيوف وآلات الحرب وصور الأفلاك، وأشار إلى المبدأ الأول، وذلك هو كتاب "السند هند" أي دهر الدهور، ومنه فرّعت الكتب، المجسطي وغيره"[1]. وذهب الحميري إلى أن "الزنا عند سائر ملوكهم مباح إلاّ في المحصنين"، وقد راق للمؤلف العربي، أن الهنود يمتنعون "عن شرب الخمر المسكرة، ويعيبون شاربها لا تديناً بل سياسة[2]. وأدرك تعدّد الآلهة عند الهنود وتعدد مذاهبهم، واقترب من وعي أن للهندوسية، ثلاثة آلهة عظمى. فاعتقد الحميري أنهم "اثنتان وأربعون ملة، فمنهم من يثبت الخالق وينفي الرسل، ومنهم من ينفي الكل. ومنهم من يعبد النار ويحرق نفسه، ومنهم من يعبد الشمس ويسجد لها، ويعتقد أنها الخالقة المدبرة لهذا العالم، ومنهم من يعبد الشجر، ومنهم من يعبد الثعابين"[3]. وأشار الحميري إلى مدينة طوقين تونكين إلى أنها أول مرافئ الصين "بها يعمل الغضار الصيني، ومنها يتجهز به إلى سائر البلاد والتي تتصل بها وتبعد عنه، وبها أرز وحبوب ونارجيل وقصب، وهم يجالسون التجار... ويستعملون الطيب أكثر من سائر بلاد الهند"[4].

اشترك أبا عبيد البكري، تلميذ العذري، ومعاصره، وتلميذ ابن حزم وابن بسام، في التأليف المعجمي، فضلاً عن مؤلفاته الجغرافية، اعتمد في المواد التي جمعها عن بلاد الهند والصين الأليف معجمه معجم ما استعجم، على ما عرفه من رحلات، وما اطلع عليه مكتبياً وظهر، و على رحلات ومؤلفات المسعودي، وأسلوبه في ذلك أن

---

(1) الحميري. ص597.

(2) المصدر نفسه. ص471.

(3) المصدر نفسه. ص597.

(4) المصدر نفسه. المصدر نفسه. ص358.

يبدأ بالكلام عن المملكة، ثم يذكر مسالكها، وحدودها وتاريخها وعادات أهلها وخصائصها. فيبدأ بالهند ثم الصين [1]. وبلغ هذا التأليف المعجمي قمته عند ياقوت الحموي ت626هـ ـ 1229م في كتابه "معجم البلدان" شمل فيه كل الأصقاع التي عرفها العرب، وخصص أبواباً واسعة للهند والصين، وقد جمع بين مقاصد الجغرافية والمنهج البلداني إلى جانب استفادته من الرحلات، حفظ مقتطفات من رحلة أبي دلف إلى بلاد الهند والصين والترك، ووقائع رحلة سلام الترجمان إلى شمال الصين لزيارة سورها العظيم، ورحلة تميم بن المطوع إلى الشعوب التركية، كما استفاد من اطلاعه الأكاديمي ومن تنقلاته ورحلاته في مجال التجارة، التي كان قام بها لصالح سيده، التاجر الكبير في بغداد، أو من كثرة أسفاره في المحيط الهندي، فأتت مادته غنية للغاية تجاوز في إطلالتها العالم الإسلامي باتجاه بلاد الصين والهند وأوربا وإفريقيا. ثم أُتيح له الانصراف على تأليف معجمه، الذي انتهى منه عام1224م في حلب[2]. وتعامل ياقوت مع الهند ـ شأنه في ذلك شأن الباحثين العرب ـ باعتبارها مكونة من إقليمين رئيسيين، وهما "إقليم السند وإقليم الهند، وأعاد ياقوت عمق العلاقة بين الإقليمين إلى: "أن السند والهند كانا أخوين من ولد بوقير بن يقطن بن حام بن نوح"[3]. وبشان تسمية الصين روى الحموي أيضاً عن أبي القاسم الزجاجي أنها "سميت بذلك لأن صين بن بغير بن كماد أول من حلّها وسكنها"[4]. وقدسلط ياقوت الضوء على العديد من المدن وقدم دواسة أثنوغرافية عنها. وقد برز التأليف الموسوعي إلى جانب التأليف المعجمي، في القرن الرابع عشر، فظهرت الموسوعات على شكل مؤلفات تكاد تكون

---

(1) حسين مؤنس. تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس. القاهرة1986م. ص1.

(2) عبد الرحمن حميد. أعلام الجغرافيون العرب. دار الفكر. دمشق1984، ص25.

(3) الحموي، ياقوت بن عبد الله: معجم البلدان، (5 أجزاء)، دار صادر، بيروت 1955 ـ 1957.. مجلد3 ج10. ص267.

(4) المصدر نفسه. مجلد 3 ج12. ص440.

دائرة علوم تجمع بين التاريخ والجغرافية والثقافة العامة والإدارة وأصول الشرع وقواعد الخطابة وكل ما يحتاجه أصحاب القلم في الإدارة السلطانية، ويأتي في مقدمة أولئك الموسوعيين شهاب الدين النويري ت731هـ ـ 1334م في كتابه "نهاية الأرب في فنون الأدب" في ثلاثين مجلداً، حفظ فيه بعض ما كتبه سابقوه عن الهند والصين وغيرهما من البلدان، ومعه ابن فضل الله العمري، والقلقشندي.

وقد قدّم النويري تصورات عامة عن الهند والصين عن العمارة السياسية والاجتماعية وتقاليد الملك والسلوك الاجتماعي وافنون العمران والنشاط الاقتصادي وطقوس العبادة والدين، فلاحظ أن المُلك متوارث في الهند، و"أهل بيت المملكة في كل مملكة أهل بيت واحد، لا يخرج عنهم الملك"، وهذه قاعدة مُتّبعة على كل مهنة في الصين "فأهل الكتابة والطب بيوتات لا تكون الصناعات إلاّ فيهم"[1]. وتنطبق هذه القاعدة أيضاً، على "بيوت الوزراء والقضاة، وسائر أرباب المراتب"[2]. وينتج عن صفة العدل والحكمة هذه، صفة أخرى، وهي امتناع الملوك عن شرب الخمر كي لا تذهل عقولهم، كما يحرمون الشراب على رعيتهم، وذلك كما يذهب النويري لأن "ملكهم متى شرب الشراب فقد استحق الخلع"[3]. وربما أتاه أحدهم فيغرق نفس نهر الغانج فيه، إذ "إن الرجل منهم إذا أراد الفوز أحرق نفسه، وألقى رماده فيه"[4]. وأظهر إعجابه بملك بلهرا، هو الأبرز بين ملوك الهند، والأكثر مهابة، لدرجة أنه صار يُلقّب بملك ملوك الهند، وأطرى حكمته وقوته.

أما بشأن الصين فقد أرجع أصل الصينيين إلى ولد عابور الذين ساروا على ساحل البحر حتى انتهوا إلى أقاصيه من بلاد الصين؛ فتفرقوا في تلك البقاع والبلاد وقطنوها

---

(1) النويري. نهاية الأدب ج14. ص223.
(2) المصدر نفسه. ص48.
(3) المصدر نفسه ج14. ص323.
(4) المصدر نفسه. السفر الأول. ص272.

وعمروها، وكوروا الكُوَر، ومصروا الأمصار ومدنوا المدن، واتخذوا لملكتهم مدينة عظيمة، وسموها إيقو، وبينها وبين ساحل البحر الحبشي، وهو بحر الصين، مسافة ثلاثة أشهر، مدن وعمائر متصلة. وصار لهم ملك عظيم، وأن ملوك الصين ذوو آراء ونحل، إلاّ أنهم مع اختلاف أديانهم غير خارجين عن قضية العقل وسنن الحق في نصب القضاة والأحكام، وانقياد الخواص والعوام إلى ذلك. قال: وأهل الصين شعوب وقبائل كشعوب العرب وأفخاذها، ولهم مراعاة لحفظ أنسابهم. وينتسب الرجل منهم إلى خمسين أباً وأكثر إلى أن يتصل بعامور. ولا يتزوج أهل كل فخذ إلاّ من فخذهم، ويزعمون أن في ذلك صحة النسل وقوام البنية، وأن ذلك أصح للبقاء وأتم للعمر "من أراد من نساء الصين البغاء ـ كما يقول النويري ـ فعليه جزية مقرّرة... وإن أقلعن عما كن عليه، تكف الجزية عنهن" غير أن أولاد تلك النساء البغي: إن كانوا صبياناً يكونون للملك خدماً وعبيداً، وما يكون من أولادهن إناثاً فلأمهاتهن، ويلحقن بصنعتهن"[1].

ابن فضل الله العمري 748هـ ـ 1347م:

وقد ظهر في ثلاثينيات القرن الثامن الهجري كتاب ابن فضل الله العمري، أي موسوعته مسالك الأبصار التي جمع فيها الكثير من الروايات عن الصين والهند، حيث لم يكتف العمري، بالنسبة لهذه الأصقاع، بتسجيل ما وصل إليه عن طريق الصدفة وحدها، فهو يقدم لنا معلومات جمة عن شمال الصين، مروية بألفاظ من التقى بهم من الرحالة، وكان هؤلاء ينتمون إلى مجموعتين من الناس هم التجار، ثم الفقهاء الذين ساقتهم إلى تلك الجهات، في أغلب الظن، حاجة الأقليات المسلمة للتفقه بالدين، فأكدت جميع قصصهم على أن الصين فتحت أبوابها في العهد المغولي للتجار العرب والمسلمين، وقد اهتم ابن فضل الله اهتماماً خاصاً بوصف نظام الإدارة وطرق الموصلات والتجارة... وما يتصل بها من حرف ومهن، وشمل استدلاله شتى مهارات

---

(1) المصدر نفسه ج14. ص327.

الصينيين الصناعية، كما قدّم وصفاً شاملاً عن الهند، لاسيما دلهي في حقبة المماليك القطبية الغورية، في عهد السلطان محمد بن تغلق شاه. وقد أثبتت دراسة شيفر schefer للأقسام المتعلقة بالصين، أنه يجب ألاّ نعتبر العمري بالنسبة لهذه الأصقاع نقالة يكتفي بتسجيل ما وصل إليه عن طريق الصدفة وحدها، فهو يقدم لنا معلومات جمة عن شمال الصين، مروية بألفاظ من التقى بهم من الرحالة[1]. أشار ابن فضل الله العمري أن الهند "مملكة عظيمة الشأن، لا تقاس في الأرض بمملكة سواها لاتساع أقطارها، وكثرة أموالها، وعساكرها، وأبهة سلطانها"[2]، وعرض تقسيماً آخر للهند، على زمن الإمبراطورية المغولية ـ الهندية، يتألف من ثلاثة وعشرين إقليماً[3]. ووصف في استفاضة تقاليد البلاط الملكي للسلطان محمد بن طغلق، ولسلاطين هذه الحقبة، فهذا السلطان محمد، "ترتعد الفرائص لمهابته"، و"لا يفارقه سلاحه"، ويختلف موكبه باختلاف المهمة التي يقوم بها، إن كان موكب للحرب، أو موكب للسفر، أو موكب للصيد، ويدق له مائتا جمل نقاره طبول، وأربعون جملاً من الكوسات الطبل الصغير[4]. وتضم عساكره "تسعمائة ألف فارس هذا العدل ويخرج معه في الصيد مائة ألف فارس من الفيلة، وألف جنيب جواد، ملبّسة بالذهب"[5]. ورأى العمري أن صلات سلطان دلهي مع "أمهات الأقاليم" الهندية منتظمة عن طريق بريد منظم بشكل دقيق، ونوه إلى جانب ابن بطوطة بوجود أماكن متقاربة شبيهة بمراكز البريد في مصر

---

(1) كراتشكوفسكي ج1. ص415.

(2) ابن فضل الله العمري، شهاب الدين احمدبن يحيى، كتاب مسالك الابصار في ممالك الامصار، تحقيق: د. أحمد عبد القادر الشاذلي. غصدار المجمع الثقافي أبو ظبي 2003 ج3. ص39.

(3) المصدر نفسه .. السفر الثالث. ص45.

(4) المصدر نفسه ج3. ص64.

(5) المصدرنفسه. ص65

والشام... وسعاة ممن له خفة في الجري، يحمل الكتب بينه وبين تاليه"[1]. وأظهر إعجابه بنساء الهند وجمالهن، فقالوا "إن ملامح الهنديات أكثر حسناً من الترك والقفجاق، مع ما يتميزون به من التخريج العظيم المظهر اللائق والتفنن الفاتن، وغالبهن ذهبيات الألوان، وفيهن بيض ذوات بياض ساطع مختلطاً بالحمرة"[2]. ولاحظ أن "الغالب على لباسهم البياض" بعضهم يزركشه بالذهب، أو يطرز الكمين، أو بين الكتفين مثل المغل من الأتراك، وغالب ترصيعاتهم بالياقوت والماس[3]، وثيابهم "من القطن الرفيع"[4] واستنتج أن الهنود استعاضوا عن الخمر، بالتنبول، يختمون به وجبة طعامهم، و أشار إلى "أن أهل الهند لا رغبة لهم في الخمر ولا في المسكرات استغناءً بالتنبول، وهو حلال طيب... ويبسط النفس.... مع ثبوت العقل"، فإذا أرادالهندي إكرام ضيفه، فعليه بالتنبول و"إذا أراد الرئيس إكرام أحد يناوله التنبول"[5]، وشهد العمري على تفوق الصين في الصناعة لدرجة أهّل بعض صناعهم، على صنع ثياب من ورق، وباعوها "إلى التجار على أنها من الكمخا"، وذكر أنهم يخرجون الدِرس من الفم دون ألم، ونوه بتفوق الصين في الطبخ، ففي مدنهم "مطابخ مطاعم يطبخ فيها الأطعمة الفائقة والمشروب اللذيذ مما لا يوصف حسنه" لدرجة أنه يمكن أن يُقدم إلى الملوك، وتقدم المطابخ في قاعاتها الطعام لزبائنها[6]، و أشار إلى أن عاصمة الصين خان بالق (بكين) وتتألف من مدينتين قديمةوجديدة، في وسط إحداها منزل القان الكبير، وهو قصر عظيم يسمى كوك طاقومعناه "القصر الأخضر"[7].

---

(1) المصد نفسه. ص81.

(2) المصدر نفسه ج3. ص46.

(3) المصدر نفسه ج3. ص86.

(4) المصدر نفسه. المصدر نفسه. ص76.

(5) المصدر نفسه. ص80 ـ 81.

(6) المصدر نفسه ج3 ص136.

(7) المصدر نفسه ج3. ص132.

وثالث هؤلاء الموسوعيون شهاب الدين أحمد القلقشندي ت829هـ ـ 1428م اشتغل بفنون الأدب وبرع في الفقه وغيره من العلوم، واطلع على كتب الأسفار والرحلات، والتحق بديوان الإنشاء، وكان من أبرز كتبه مؤلفه الموسوعي "صبح الأعشى في صناعة الإنشاء" في أربعة عشر مجلداً، مرتبة على مقدمة وعشر مقالات وخاتمة، وذلك للتعريف بحقيقة ديوان الإنشاء، وما يحتاج إليه كاتب الإنشاء، ثم إلى وصف الولايات وطبقاتها، والعهود والعقود، والبريد، ومعرفة الأزمنة والأوقات، وأعياد الأمم ومواقيتها؛ وفي مقالته الثالثة يتعرض للمسالك والممالك، و تناول في المجلد الخامس مملكتي الهند والصين، مستفيداً من سابقيه، وتأتي قيمة ما قدمه القلقشندي — جزئياً ـ في أنه جمع الكثير من النصوص التي لم تصل إلينا. ولقد استند في "مملكة الهند " على "مسالك الأبصار" للعمري، وعلى الغرناطي وأبي الفداء.

أشار القلقشندي الوظائف الكبرى في الدول الهندية، لأجهزة السلطة والملك، تتفرّع إلى "أرباب القلم و أرباب السيوف، وللسلطان له نائب كبير، يسمى في لغتهم أمريت، وأرباب نواب دونه، يسمى كل واحد منهم شق، وله حجّاب ومن يجري مجراهم من سائر الوظائف، وأما أرباب الأقلام فله وزير عظيم، وله أربعة كتّاب سر، يسمى كل واحد منهم بلغتهم دبيران، وأما القضاة فله قاض قضاة عظيم الشأن، وله محتسب وشيخ شيوخ، وله ألف طبيب ومائتا طبيب"[1]، ولكل فرع من فروع السلطة له لباس خاص، فلباس أرباب السيوف غير لباس أرباب القلم[2]. وتعرّف القلقشندي، في الهند، على سيادة نمط "الإقطاع العسكري" على ملكية الأرض، فللخانات والملوك والأمراء والأصفسهلارية قادة الجند، حسب القلقشندي، بلاد مقرّرة عليهم بالديوان إقطاعاً لهم، وذكر أن إقطاع النائب الكبير يكون إقليماً كبيراً

---

(1) القلقشندي، أبو العباس شهاب الدين أحمد علي بن أحمد: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1963.ج5. ص 92.

(2) المصدر نفسه. ص93.

كالعراق، ولكل خان لكّان تنكة اللك ألف، أي بذار ألف تنكة من الأرض، ولكل ملك ستون ألف تنكة... ولكل أمير أربعين ألف تنكة، وللأصفهسلارية حوالي عشرين ألف تنكة، ولكل جندي ما يقارب العشرة آلاف[1].

لم تدفع المؤلف العربي عجرفة الهندي، والاختلاف القائم بين الثقافتين إلى إنكار ما تمتاز به الهند من حضارة، ومدنية، ومميزات أخرى: الغنى والثراء، والقوة، وسعة الأرض، وعظمة الملك، والعدل، وأضاف القلقشندي "الملك العظيم، والعدل الكثير، والنعمة الجزيلة، والسياسة الحسنة، والرضا الدائم والأمن الذي لا خوف منه في بلاد الهند، وأهل الهند أعلم الناس بأنواع الحكمة، والطب والهندسة والصناعات العجيبة"[2]، أما إقليم الهند فيوزعه البعض على قاعدتين: القاعدة الأولى: مدينة دهلي، والقاعدة الثانية: مدينة الدواكير، وكل من هاتين القاعدتين تحاط بأقاليم متسعة، وقسّمه آخرون إلى ثلاثة أقسام. يضم الإقليم الأول بلاد كجرات، التي بها العديد من المدن، مثل نهرواله، وكنبايت، وتانه، وصومنات، وسندان، وهي أغلبها على الساحل الغربي من الهند، شمال شواطئ ماليبار، وهذا الإقليم في إقليم كجرات الحالي، أما القسم الثاني من إقليم الهند، فهو بلاد المنيبار، على حد قول القلقشندي، ويقول عنها المؤلفون العرب "المنيبار هي بلاد الفلفل"، ومدنه: هنود، وباسرور، ومنجرور، والكولم، وهي آخر بلاد الفلفل من الشرق، والإقليم الثالث من إقليم الهند: بلاد المعبر، وهي "شرقي بلاد الكولم بثلاث أيام أو أربعة، وشمالها جبال ملتصقة ببلاد بلهرا ملك ملوك الهند، وبلاد المعبر تشمل على عدة جزائر كبار" ومن مدنه: بيرداول، وماهوره، ولوهور، وقنوج، والأخيرة "قاعدة لهاور، وهي بين ذراعين من نهر الكنج... في أقاصي الهند في جهة الشرق". وهي مدينة "حسنة، كثيرة التجارات، ومن مدنه قشمير الخارجية، وقشمير الداخلية وملكها يسمى القنوج

---

(1) المصدر نفسه. ص94.

(2) المصدر نفسه ج5. ص62.

باسمها"[1]. وذهب القلقشندي إلى أن كولم ملي، إلى أنها كثيرة البساتين، وبها شجر البقم، الذي يشبه شجر الرمان، وفيها حارة للمسلمين، وبها جامع[2]. وحدّد القلقشندي موقع نهروان في غرب إقليم المليبار[3]. استعان القلقشندي في وصف ساحل كروماندل، أي ساحل الهند الشرقي على خليج البنغال، بأبي الفداء، وابن سعيد المغربي، فاعتبره مركزاً رئيسياً للتجارة مع بلاد الشرق الأقصى، "وهو مشهور على الألسن، ومنه يجلب اللانس... وفي شماله جبال متصلة ببلاد بلهرا ملك ملوك الهند"[4].

ز ـ جغرافية العجيب

ظهر في القرن الرابع عشر جغرافيون مزجوا الجغرافيا ووقائعها بالعجيب والمدهش "الكوزموغرافيا"، وجمعوا بين تبحرهم بعلوم الجغرافية والفلك والنبات والحيوان والأجناس، ونزعتهم الصوفية العميقة التي قادتهم إلى الاهتمام بالكشف عن العجيب في الطبيعة والحياة الاجتماعية، كآيات عن عظمة الخالق في خلقه. وعند تناولهم لبلاد الشرق الأقصى طبقوا هذا المنهج نفسه على ظواهرها الطبيعية والإنسانية، فإلى جانب سردهم للوقائع كانوا يرصفون العجيب والاستثنائي والمعجز، وكان أبرز هؤلاء القزويني والدمشقي وابن الوردي ت861هـ ـ 1474م.

زكريا القزويني ت682هـ ـ 1283م:

تأثر بالصوفي الكبير محي الدين بن عربي، وكان صديقاً لابن الأثير المؤرخ ت637 هـ ـ 1239م، وتولى منصب القضاء في واسط والحلة في العراق في عهد آخر الخلفاء

---

(1) القلقشندي المصدر نفسه. الجزء الخامس. ص69 — 77.
(2) المصدر نفسه مجلد5. ص75.
(3) المصدر نفسه ج5. ص71.
(4) المصدر نفسه، ج5. ص57.

العباسيين المستعصم، وقد ترك لنا "عجائب البلدان" و"آثار البلاد وأخبار العباد". استعان بالتقسيم الإقليمي السباعي للعالم المعمور على أساس خطوط العرض الموازية لخط الاستواء، ووضع في سياق ذلك الصين والهند وجزر البحار الشرقية في مجال الإقليمين الأول والثاني، وجمع المعلومات والتصورات عنها ممن سبقه، قال عنه كرايمر "إنه بليني العرب"، يعتبر أكبر كوزموغرافي Cosmography، أي علم وصف الكون، وحفظ الكثير من الرحلات، والشذرات التي دوّنها الرحالة العرب الذين جابوا شتى أرجاء العالم، مثل وقائع رحلة ابن فضلان عبر بلاد الترك نحو بلغار الفولغا، وشذرات من رحلة أبي دلف إلى الهند والصين[1]، وملأ كتابيه "عجائب المخلوقات" و "آثار البلاد وأخبار العباد"، بالكثير مما كتبه سابقوه من الجغرافيين المسلمين، ورحالتهم[2]. ووصف مدينة كشمير، أو "قشمير"، بقوله هي، ناحية بأرض الهند متاخمة لقوم من الترك، "اختلط نسل الهند بالترك" فيها، ولا يخفي إعجابه بأهلها فهم "أكثر الناس ملاحة وحسناً، ويُضرب بحسن نسائهم المثل، لهن قامات تامّة، وصور مستوية، وملاحة كثيرة، وشعور طوال غلاظ"[3]، وروى القزويني عن أبي دلف أنهم يعظّمون الثريا، كما أنهم لا يذبحون الحيوان، ولا يأكلون البيض[4].

ولقد كثف القزويني في قليل من السطور صورة الصين في المتخيل العربي، التي جاء فيها "بلاد واسعة في المشرق ممتدة من الإقليم الأول إلى الثالث، عرضها أكثر من طولها، قالوا: نحو ثلاثمائة مدينة في مسافة شهرين، وأنها كثيرة المياه، كثيرة الأشجار، كثيرة الخيرات وافرة الثمرات، من أحسن بلاد الله وأنزهها، وأهلها أحسن الناس صورة، وأحذقهم بالصناعات الدقيقة، لكنهم قصار القدود عظام الرؤوس، لباسهم

---

(1) القزويني. آثار البلاد وأخبار العباد. ص53.
(2) المصدر نفسه. ص266.
(3) المصدر نفسه. آثار البلاد. ص104.
(4) المصدر نفسه. ص105.

الحرير، وحليهم عظام الكركدن والفيل، ودينهم عبادة الأوثان، وفيهم مانوية ومجوس، ويقولون بالتناسخ، ولهم بيوت عبادات". وللصين كما يقول القزويني "يد باسطة في الصناعات الدقيقة، ولا يستحسنون شيئاً من صناعات غيرهم"[1]. دون أن ننسى غنى الصين ففي أرضها "الذهب الكثير، والجواهر واليواقيت في جبل من جبالها، بها من الخيرات الكثيرة من الحبوب والبقول والفواكه والسكر، وفي جزائرها أشجار الطيب كالقرنفل والدار صيني ونحوها"[2]. كل هذا جعل من الصين بلداً يكاد يخلو من الأمراض "فمن خواص بلاد الصين أنه قلما يُرى بها ذو عاهة كالأعمى والزمن ونحوهما"، وفي بلاد التيبت ما أثار عجب الباحثين العرب، عبر عنه المسعودي "لبلاد التيبت خواص عجيبة في هوائها وسهلها ومائها وجبالها، ولا يزال الإنسان أبداً ضاحكاً بها فرحاً مسروراً، ولا تعرض له الأحزان ولا الغموم ولا الأفكار، ولا تحصى عجائب ثمارها وزهرها ومروجها وهوائها وأنهارها، وهي بلاد تقوي فيها طبيعة الدم على الحيوان الناطق وغيره، ولا يكاد يرى في هذا البلد شيخ حزين ولا عجوز"[3].

أما الدمشقي شيخ الربوة ت727هـ ـ 1387م فقد أمضى معظم أيامه بدمشق مسقط رأسه إماماً بمسجد الربوة، ولذلك لقب بشيخ الربوة وبالصوفي لميوله الصوفية، فلقد اشتهر بكتابه "نخبة الدهر في عجائب البر والبحر" الذي يدل عنوانه ذاته على اهتمامه بـ"الكوزموغرافيا". وقد رتب مؤلفه على تسعة أبواب، بدأه بشكل الأرض وبشكل الأقاليم السبعة ثم معادنها وجواهرها، وفي القسم الثالث تحدث عن الأنهار والعيون، والرابع عن البحار، والخامس للحديث عن البحر المتوسط الرومي ـ الشامي، والسادس عن بحر الجنوب أو المحيط الهندي الذي يعتبر امتداده بحر الزنج، ويخصص لليابسة الباب السابع والثامن، فتحدث فيها عن الأمم الشرقية وعن الأمم

(1) المصدر نفسه. ص54.
(2) المصدر نفسه. ص54.
(3) المصدر نفسه. ص79.

الغربية، مكرساً أبواب مهمة للصين والهند وجزر البحار الشرقية، اختلط في دراساته لهذه البلدان العجيب والغريب بالواقعي. واسترعى انتباه الدمشقي أن فيه صنم مشهور بد، يأتيه الهنود من مسيرة سنة، حيث يقومون "بأنواع العبادات، فمنهم "من يلقي بنفسه زحفاً... حتى يصل إليه"، ومنهم من "يلقي بنفسه من قامته على وجه الأرض". ومنهم من يتجه إليه "حتى يصل أو يموت في طريقه"، ومنهم من يظفّر شعره قروناً ملفوفة، ثم يقصد بيت النار، فيشعل بها قرونه، فإذا صار رماداً ذروه في نهر الكنك، وذلك لأن الهنود يقولون بالتناسخ[1]. ولفتوا النظر إلى العديد من الأصنام الكبرى البُدد في الهند، مثل صنم الملتان داخل بيت عبادة "كان يُلقي الذهب فيه من كوة في وسطه من أعلاه، وكان المرتب لخدمة هذا الصنم سبعة آلاف سادن"، أيضاً في مدينة مالوه يوجد بد مقصود من الهند "يأتون إليه من مسيرة سنة بأنواع من التعبدات التي يرونه"[2]، وأسرفوا في الحديث عن بد مدينة صومنات الذي كان "أهل الهند يعظمون هذا الصنم، ويحجون إليه في كل ليلة كسوف، ويزعمون أن الأرواح إذا فارقت الأجسام اجتمعت إليه فينشئها مع من ينشئ على مذهب التناسخ"[3].

---

(1) الدمشقي، محمد بن أبي طالب الأنصاري (شيخ الربوة): نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، طبع في مدينة بطرسبورغ المحروسة، مطبعة الأكاديمية الإمبراطورية 1281هـ - 1865م. ص174.

(2) المصدر نفسه. ص174 - 175.

(3) المصدر نفسه. ص45.

النصوص العربية
في الهند والصين

1

مختارات
من كتب الأدب والمقابسات

آ

أبو حيان التوحيدي

تـ 414 هـ

الإمتاع والمؤانسة

اختار النصوص

د. ابراهيم الكيلاني

وزارة الثقافة

دمشق 1978

[تفضيل أمة على أمة]

.... فقال: حد الوصف في التزيين والتقبيح مختلف الدلائل على ما يعتقد صوابه وخطؤه، متباين؛ وهذه مسألة — أعني تفضيل أمة على أمة — من أمهات ما تدارأ الناس عليه وتدافعوا فيه؛ ولم يرجعوا منذ تناقلوا الكلام في هذا الباب إلى صلح متين واتفاق ظاهر. فقلت: بالواجب ما وقع هذا، فإن الفارسي ليس في فطرته ولا عادته ولا منشئه أن يعترف بفضل العربي، ولا في جِبِلّة العربي وديدنه أن يقر بفضل الفارسي. وكذلك الهندي والرومي والتركي والديلمي.

[اعتبار الفضل والشرف]

وبعد، فاعتبار الفضل والشرف موقوف على شيئين: أحدهما ما خص به قوم دون قوم في أيام النشأة بالاختيار للجيد والرديء، والرأي الصائب والفائل، والنظر في الأول والآخر. وإذا وقف الأمر على هذا فلكل أمة فضائل ورذائل، ولكل قوم محاسن ومساوٍ، ولكل طائفة من الناس في صناعتها وحلها وعقدها كمال وتقصير؛ وهذا يقضي بأن الخيرات والفضائل والشرور والنقائص مفاضة على جميع الخلق، مفضوضة بين كلهم.

[أوصاف الأمم وخصائصها]

فللفرس السياسة والآداب والحدود والرسوم؛ وللروم العلم والحكمة؛ وللهند الفكر والروية والخفة[1] والسحر والأناة؛ وللترك الشجاعة والإقدام؛ وللزنج الصبر والكد والفرح؛ وللعرب النجدة والقِرى والوفاء والبلاء والجود والذِّمام والخطابة والبيان.

ثم إن هذه الفضائل المذكورة، في هذه الأمم المشهورة، ليست لكل واحد من أفرادها، بل هي الشائعة بينها؛ ثم في جملتها من هو عار من جميعها، وموسوم بأضدادها، يعني أنه لا تخلو الفرس من جاهل بالسياسة، خال من الأدب، داخل في الرعاع والهمج؛ وكذلك العرب لا تخلو من جبان جاهل طياش بخيل عيي، وكذلك الهند والروم وغيرهم؛ فعلى هذا إذا قوبل أهل الفضل والكمال من الروم بأهل الفضل والكمال من الفرس، تلاقوا على صراط مستقيم، ولم يكن بينهم تفاوت إلاّ في مقادير الفضل وحدود الكمال، وتلك لا تخص بل تَعُمّ[2]. وكذلك إذا قوبل أهل النقص والرذيلة من أمة بأهل النقص والخساسة من أمة أخرى، تلاقوا على نهج واحد؛ وتلك لا يلتفت إليها، ولا يعار[3] عليها؛ فقد بان بهذا الكشف أن الأمم كلها تقاسمت الفضائل والنقائص باضطرار الفطرة، واختيار الفكرة. ولم يكن بعد ذلك إلاّ ما يتنازعه الناس بينهم بالنسبة الترابية، والعادة المنشئية والهوى الغالب من النفس الغضبية، والنزاع الهائج من القوة الشهوية.

---

(1) يريد بالخفة: الشعوذة، فإنها خفة في اليد. وقد سبق وصف الهنود بذلك.

(2) يريد أنها لا تخص أمة دون أمة، بل تجمع الأمم كلها.

(3) يعار: يعاب.

وهاهنا شيء آخر، وهو أصل كبير لا يجوز أن يخلو كلامنا من الدلالة عليه والإيماء إليه.

[الدولة في زمن الإقبال]

وهو أن كل أمة لها زمان ضدها[1]، وهذا بيّن مكشوف إذا أرسلت وهمك في دولة يونان والاسكندر لما غلب وساس، وملك ورأس، وفتق ورتق، ورسم ودبر وأمر، وحث وزجر، ومحا وسطر، وفعل وأخبر؛ وكذلك إذا عطفت إلى حديث كسرى أنو شروان وجدت هذه الأحوال بأعيانها، وإن كانت في غُلُف غير غلف الأول، ومعارض غير معارض المتقدم؛ ولهذا قال أبو مسلم صاحب الدولة حين قيل له: أي الناس وجدتهم أشجع ؟ فقال: كل قوم في إقبال دولتهم شجعان ! وقد صدق؛ وعلى هذا كل أمة في مبدأ سعادتها أفضل وأنجد وأشجع وأمجد وأسخى وأجود وأخطب وأنطق وأرأى وأصدق؛ وهذا الاعتبار ينساق من شيء عام لجميع الأمم، إلى شيء شامل لأمة أمةٍ إلى شيء حاوٍ لطائفةٍ طائفة، إلى شيء غالب على قبيلةٍ قبيلة، إلى شيء معتاد في بيتٍ بيت، إلى شيء خاص وبشخصٍ شخص وإنسانٍ إنسان؛ وهذا التحول من أمة إلى أمة يشير إلى فيض جود والله تعالى على جميع بريته وخليقته بحسب استجابتهم لقبوله، واستعدادهم على تطاول الدهر في نيل ذلك من فضله، ومن رقي إلى هذه الربوة بعين لا قذى بها، أبصر الحق عياناً بلا مِرية، وأخبر عنه بلا فرية؛ ومتى صدق نظرك في مبادئ الأحوال وأوائل الأمور وضح لك هذا كله كالنهار إذا متَع[2]،

---

(1) ضدها: أي لها زمان تكون لها فيه الدولة والغلبة على عدوها، أي في زمن الازدهار والقوة، وبالمقابل لها زمن تنحدر فيه، وبالتالي تتأثر خصائلها تبعاً لمرورها بهذين الطورين.

(2) متع النهار: ارتفع وبلغ غاية ارتفاعه قبل الزوال.

واستنار كالقمر إذا طلع ؛ ولم يبق حينئذ ريب في عرفان الحق وحصول الصواب، إلاّ ما يلتاث بالهوى، ويسمج بالتعصب، ويجلب اللجاج، ويخرج إلى المَحْك[1] ؛ فهناك يطيح.

(1) المحك: المنازعة والتمادي في اللجاج.

ب

طبقات الأمم لصاعد الأندلسي :

بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن صاعد التغلبي

ولد سنة 420هـ/1029م

[العلم أساس التفاضل بين الأمم]

تحقيق : حياة بو علوان.

دار الطليعة. بيروت 1985

هذا كتاب طبقات الأمم من تأليف

صاعد عليه الرحمة

قال القاضي أبو القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد: أعلم أن جميع الناس في مشارق الأرض ومغاربها وجنوبها وشمالها، وإن كانوا نوعاً واحداً، فإنهم يتميزون بثلاثة أشياء: الأخلاق والصور واللغات.

وزعم من عني بأخبار الأمم، وبحث في سير الأجيال. وفحص عن طبقات القرون، أن الناس كانوا في سالف الدهور وقبل تشعب القبائل، وافتراق اللغات سبع أمم. فالأمة الأولى الفرس وكانت مساكنها في وسط المعمور وحد بلادها من الجبل الذي في شمال العراق لعقبة حلوان الذي فيه الماهات والكرج والدينور وهمذان وقم وقاشان وغيرها، إلى بلاد أرمينية والباب والأبواب المتصل ببحر الخزر، إلى بلاد أذربيجان وطبرستان[1]، وموقان والبيلقان والران والشابران والطالقان[2] وجرجان[3] إلى بلاد خراسان كنيسابور[4] والمروين وسرخس[5] وهراة[6] وخوارزم وبلخ وبخارا وسمرقند وفرغانة والشاش وغيرها من بلاد خراسان إلى بلاد سجستان وكرمان وفارس والأهواز وأصبهان، وما اتصل بكل هذه البلاد: كانت مملكتها واحدة، ملكها واحد ولسانها واحد فارسي. إلا أنهم كانوا يتباينون في شيء يسير من اللغات، ويجتمعون في عدد الحروف وصورة

---

(1) طبرستان: من بلاد خراسان.

(2) الطالقان: مدينة في خراسان بين مَرْوَ الرُّوذ وبلْخ.

(3) جرْجَان: هي مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان.

(4) مدينة عظيمة في خراسان.

(5) سرخس: مدينة قديمة كبيرة من نواحي خراسان، تقع في وسط الطريق بين نيسابور ومرو.

(6) هراة: من أمهات مدن خراسان بقرب بوشنج.

تأليفها، ولا يخرجهم اختلافهم بعد ذلك في سائر الأشياء من تلك اللغة، كالفهلوية والدرية، وغيرهما من لغات الفرس.

الأمة الثانية، الكلدانيون، وهم السريانيون والبابليون، وكانوا شعوباً منهم الكربانيون والاثوريون والأرمنيون والجرامقة، وهم أهل الموصل، والنبط، وهم أهل سواد العراق. وكانت بلادهم في وسط المعمور أيضاً، وهي العراق والجزيرة، التي ما بين دجلة والفرات، المعروفة بديار ربيعة ومضر والشام وجزيرة العرب اليوم، التي هي الحجاز ونجد وتهامة والغور واليمن كلها ما بين زبيد إلى صنعاء وعدن والعروض الشحر وحضرموت وعمان وغير ذلك من بلاد العرب: كانت البلاد كلها مملكة واحدة ملكها واحد ولسانها واحد سرياني، وهو اللسان القديم، لسان آدم وإدريس ونوح وابراهيم ولوط وغيرهم. ثم تفرعت اللغة العبرانية والعربية من اللغة السريانية فغلب العبرانيون، وهم بنو إسرائيل، على الشام فسكنوه، وغلبت العرب على البلد المعروف بجزيرة العرب المتقدم ذكرها، وعلى الجزيرة المعروفة بديار ربيعة ومضر فسكنوا جميع ذلك. وانكمشت بقية السريانيين إلى العراق وكانت دار مملكتهم العظمى مدينة كلواذا.

والأمة الثالثة اليونانيون والروم والافرنجة والجلالقة وبرجان والصقالبة والروس والبرغز واللان وغيرهم من الأمم التي حوالي بحر نيطش=البحر الأسود وبحيرة مايطسبحيرة آزوف وغيرها من المواضع التي في الربع الغربي الشمالي من معمور الأرض؛ كانت مملكتهم واحدة. ولغتهم واحدة.

والأمة الرابعة: القبط وهم أهل مصر وأهل الجنوب، وهم أصناف السودان من الحبشة والنوبة والزنج وغيرهم؛ وأهل المغرب، وهم البرابر ومن اتصل بهم إلى بحر اقيانس[1] المغربي المحيط؛ لغتهم واحدة وملكهم واحد.

الأمة الخامسة، أجناس الترك من الكرلوك وكيماك والطغزغز والخزر والسرير وجيلان وخوزان وطلسان وكشك وبرطاس: كانت لغتهم واحدة ومملكتهم واحدة.

---

(1) المحيط الأطلسي.

الأمة السادسة الهند والسند ومن اتصل بهم، لغتهم واحدة وملكهم واحد.

والأمة السابعة الصين ومن اتصل بهم من سكان بلاد عامور بن يافث بن نوح، مملكتهم واحدة ولغتهم واحدة.

فهذه الأمم السبع كانت محيطة بجميع البشر وكانوا جميعاً صابئة معبدون الأصنام تمثيلاً بالجواهر العلوية والأشخاص الفلكية من الكواكب السبعة وغيرها، ثم افترقت هذه الأمم السبع وتشعبت لغاتهم تباينت أديانهم.

قال صاعد: وجدنا هذه الأمم على كثرة فرقهم وتخالف مذاهبهم طبقتين: فطبقة عنيت بالعلم فظهرت منها ضروب العلوم وصدرت عنها فنون المعارف، وطبقة لم تعن بالعلم عناية يستحق منها اسمه وتعدّ بها من أهله، فلم ينقل عنها فائدة حكمة ولا دوّنت لها نتيجة فكرة. وأما الطبقة التي عنيت بالعلوم فثماني أمم: الهند والفرس والكلدانيون واليونانيون والروم وأهل مصر والعرب والعبرانيون. وأما الطبقة التي لم تعن بالعلوم فهي بقية الأمم بعد من ذكرنا، كالصين ويأجوج ومأجوج والترك وبرطاس والسرير والخزر وجيلان وطلسان وموقان وكشلك واللان والصقالبة والبرغز والروس وبرجان والبرابر وأصناف السودان من الحبشة والنوبة والزنج وغانة وغيرهم.

وأنبه هذه الأمم التي لم تعن بالعلوم الصين والترك فأما الصين فأكثر الأمم عدداً، وأفخمها مملكة، وأوسعها داراً، ومساكنهم محيطة بمشارق الأرض المعمور ما بين خط معدل النهار إلى أقص الأقاليم السبعة في الشمال وحظهم من المعرفة التي بزوا فيها سائر الأمم إتقان الصنائع العملية، وأحكام المهن التصويرية، فهم أصبر الناس على مطاولة التعب وتجويد الأعمال ومقاساة النصب في تحسين الصنائع. وأما الترك، فأمة كثيرة العدد أيضاً فخمة المملكة، ومساكنهم ما بين مشارق خراسان من مملكة الإسلام وبين مغارب الصين وشمال الهند إلى أقصى المعمور في الشمال، وفضيلتهم التي برعوا فيها وأحرزوا فضلها معاناة الحروب ومعالجة آلتها، فهم أحذق الناس بالفروسية والثقافة، وأبصرهم بالطعن والضرب والرماية. وأما سائر هذه الطبقة التي لم تعن بالعلوم فهم أشبه بالبهائم منهم بالناس لأن من كان منهم موغلاً في بلاد الشمال ما بين آخر الأقاليم السبعة إلى نهاية

المعمور في الشمال، فإفراط بعد الشمس عن مسامتة رؤوسهم برّد هواءهم وكثّف جوهم فصارت لذلك أمزجتهم باردة وأخلاقهم فجة فعظمت أبدانهم وابيضت ألوانهم وانسدلت شعورهم فعدموا بهذا دقة الأفهام وثقوب الخواطر، وغلب عليهم الجهل والبلادة، وفشا فيهم العيّ والغباوة، وكالصقالبة والبلغر، ومن اتصل بهم، ومن كان منهم ساكناً قريباً من خط معدل النهار وخلفه إلى نهاية المعمور في الجنوب، لطول مقاربة.....

2

في المدونات الجغرافية

آ

عن/المسالك والممالك

ابن خرداذبه

أبو القاسم عبد الله 280هـ ـ 892م

مكتبة المثنى. بغداد

[في الهند والصين والجزر الاندونيسية، وكمبوديا]

.... إلى جزيرة خَيْن سبعة فراسخ وهي نصف ميل في نصف ميل ولا ساكن بها، ثم إلى جزيرة كِيس سبعة فراسخ وهي أربعة فراسخ في مثلها وفيها نخل وزرع وماشية ولها غوص اللؤلؤ الجيد، ثم إلى جزيرة ابن كلوان ثمانية عشر فرسخاً وهي ثلثة فراسخ في ثلثة فراسخ وأهلها شراة اباضية، ومن جزيرة ابن كلوان إلى أُرْمُوز سبعة فراسخ، ثم إلى ثارا مسيرة سبعة أيام، وهي الحد بين فارس والسند، ومن ثارة إلى الديبل[1] مسيرة ثمانية أيام، ومن الديبل إلى مصب مهران نهر السند في البحر فرسخان.

ومن السند يجيء القسط والقنا والخيزران.

ومن مهران إلى أوتكين وهي أول أرض الهند مسيرة أربعة أيام، وفي هذه الأرض ينبت القنا في جبالها والزرع في أوديتها وأهلها عتاة مردة لصوص، ومنها على فرسخين المْيد لصوص، ومنها إلى كولى فرسخان، ومن كولى إلى سندان ثمانية عشر فرسخاً وبها ساج وقنا، ومن سندان إلى ملى[2] مسيرة خمسة أيام وبملى الفلفل والقنا، وذكر البحريون أن على كل عنقود من عناقيد الفلفل ورقة تكنّه من المطر فإذا انقطع المطر ارتفعت الورقة فإذا عاد المطر عادت، ومنها إلى بلين مسيرة يومين، ومنها إلى اللجة العظمى مسيرة يومين، ومن بلين تفرق الطرق في البحر فمن أخذ مع الساحل فمن بلين إلى بابتّن مسيرة يومين، وهي بلاد أرز ومنها ميرة أهل سرنديب، ومن بابتن إلى السنجلي وكبشكان مسيرة يوم وفيها أرز، ومنها إلى مصب كُوداَفَريد ثلثة ثلاثة

---

(1) في موقع كراتشي الحالية.

(2) أو كولم، أو كلومالي Quigam في جنوب ساحل ماليبار.

فراسخالفرسخ ثلاثة أميال، ومنها إلى كيلكان واللوا وكنجه مسيرة يومين وفيها حنطة وأرز، ومنها إلى سمندر عشرة فراسخ، وفيها أرز يحمل إليها العود من مسيرة خمسة عشر يوماً وعشرين يوماً في ماء عذب من كامرون وغيرها، ومن سمندر إلى أورنشين اثنا عشر فرسخاً وهي مملكة عظيمة فيها فيلة ودواب وجواميس وأمتعة كثيرة وملكها عظيم القدر. ومن أورنشين إلى ابينه مسيرة أربعة أيام وبها فيلة أيضاً.

.... ومن أراد الصين عدل من بلين وجعل سرنديب عن يساره، فمن سرنديب إلى جزيرة النكبالوس[1] مسيرة عشرة أيام إلى خمسة عشر يوماً، وأهلها عراة وطعامهم الموز والسمك الطري والنارجيل، وأموالهم الحديد وهم يجالسون التجار، ومن جزيرة النكبالوس إلى جزيرة كله مسيرة ستة أيام، وهي مملكة جابة الهندي وفيها معدن الرصاص القلعي ومنابت الخيزران، وعن يسارها جزيرة بالوس على مسيرة يومين وأهلها يأكلون الناس، وبها كافور جيد وموز ونارجيل وقصب سكر وأرز، ومنها إلى جزيرة جابة وشلاهط[2] وهرلج فرسخان وهي عظيمة وملكها يلبس حلية الذهب وقلنسوة الذهب ويعبد البددةالأصنام، وبها النارجيل والموز وقصب السكر، وبشلاهط الصندل والسنبل والقرنفل، وبجابة جبيل في ذروته نار تتقد مقدار مائة ذراع في مثلها سمكها قيد رمح، فهي بالنهار دخان وبالليل نار، ثم مسيرة خمسة عشر يوماً إلى بلاد منبت العطر، وبين جابة ومايط قريب.

وملوك الهند وأهلها يبيحون الزنا ويحرمون الشراب إلاّ ملك قمار فإنه يحرم الزنا والشراب، وملك سرنديب يحمل إليه الخمر من الغراق ويشربها، وملوك الهند ترغب في ارتفاع سمك الفيلة وتزيد في أثمانها الذهب الكثير، وأرفعها تسع أذرع إلا فيلة الأغباب فإنها عشر أذرع وإحدى عشرة ذراعاً، وأعظم ملوك الهند بلهرا[3] وتفسيره

---

(1) جزيرة في خليج البنغال من جزر النكوبار Nicobar.

(2) ممر مائي يفصل بين الزابج (سومطره) وشبه جزيرة الملايو.

(3) اسم أطلقته العرب على ملك وعلى مملكة هندية.

ملك الملوك ونقش خاتمه من ودّك لأمر ولى مع انقطاعه وينزل الكمكم بلاد الساج، وبعده ملك الطاغن، وبعده جابة، وبعده ملك الجزر، وله الدراهم الطاطرية، وبعده غابة وبعده رهمي وبينه وبين هؤلاء مسيرة سنة، وذكروا أن له خمسين ألف فيل، وله الثياب القطنية المخملة والعود الهندي، ثم بعده ملك قامرون[1] تتصل مملكته بالصين وفي بلده الذهب الكثير والكركدن وهي دابة لها قرن واحد في الجبهة طوله ذراع وغلظه قبضتان، فيه صورة من أول القرن إلى آخره فإذا شق رأيت الصورة بيضاء في سواد كالسبيج في صورة إنسان أو دابة أو سمكة أو طاووس أو غيره من الطير، فيتخذه أهل الصين مناطق تبلغ المنطقة ما بين ثلثمائة دينار إلى ثلثة آلاف دينار إلى أربعة آلاف دينار، وهؤلاء الملوك كلهم مخرموا الآذان.

وملك الزابج يسمى المهراج، وفي مملكته جزيرة يقال لها برطايل يُسمع فيها العزف والطبول الليل كله، والبحريون يقولون أن الدجال فيها، ويخرج من البحر خيل مثل خيلنا لها أعراف تجرها على الأرض، وللمهراج جباية تبلغ في كل يوم مائتي مناً ذهب، يتخذ منها لبناً ويطرحه في الماء يقول هذا بيت مالي، وجزيرة فيها القردة مثل الحمير ومن جبايته من قمار الديوك في اليوم نحو من خمسين مناً ذهب، وذلك أن له فخذ الديك الغالب فيفتديه صاحبه.

والطريق إلى الصين

من مايط ذات اليسار إلى جزيرة تيومه فيها العود الهندي والكافور، ومنها إلى قمار مسيرة خمسة أيام وبقمار العود القماري، وأرز، ومن قمار إلى الصنف على الساحل مسيرة ثلثة أيام وبها العود الصنفي وهو أفضل من القماري لأنه يغرق في الماء لجودته وثقله، وبها بقر وجواميس.

ومن مدن الهند المشهورة سامل وهورين وقالون وقندهار وقشمير.

---

[1] هو ملك كمبوديا.

ومن الصنف إلى لوقين وهي أول مراقي الصين مائة فرسخ في البر والبحر، وفيها الحجر الصيني والحرير الصيني والغضار الجيد الصيني وبها أرز، ومن لوقين إلى خانفو وهي المرقى الأكبر مسيرة أربعة أيام في البحر ومسيرة عشرين يوماً في البر، وفيها الفواكه كلها والبقول والحنطة والشعير والأرز وقصب السكر، ومن خانفو إلى خانجو مسيرة ثمانية أيام وفيها مثل ما في خانفو، ومن خانجو إلى قانطو مسيرة عشرين يوماً وفيها مثل ذلك، ولكل مرقى من مراقي الصين نهر عظيم تدخله السفن ويكون فيه المد والجزر، وقد رؤي في نهر قانطو الدقيق والبط والدجاج، وطول بلاد الصين على البحر من أرنابيل إلى آخرها مسيرة شهرين.

والصين ثلثمائة مدينة عامرة كلها منها تسعون مشهورة، وحد الصين من البحر إلى التبت والترك وغرباً إلى الهند، وفي مشارق الصين بلاد الواقواق[1] وهي كثيرة الذهب حتى أن أهلها يتخذون سلاسل كلابهم وأطواق قرودهم من ذهب ويأتون بالقمص المنسوجة بالذهب للبيع وبالوقواق الأبنوس الجيد.

وسئل.. عن المد والجزر، فذكروا أنه إنما يكون في بحر فارس على مطالع القمر وأنه لا يكون في البحر الأعظم إلاّ مرتين في السنة، مرة يمد في شهور الصيف شرقاً بالشمال ستة أشهر، فإذا كان ذلك طما الماء في مشارق البحر بالصين وانحسر عن مغارب البحر، ومرة يمد في شهور الشتاء غرباً بالجنوب ستة أشهر فإذا كان ذلك طما الماء في مغارب البحر وانحسر بالصين. وفي آخر الصين بإزاء قانصو جبال كثيرة وملوك كثيرة وهي بلاد السيلا فيها الذهب الكثير ومن دخلها من المسلمين استوطنها لطيبها ولا يعلم ما بعدها.

والذي يجيء في هذا البحر الشرقي من الصين الحرير والفرند والكيمخاو والمسك والعود والسروج والسمور والغضار والصيلبنج والدارصيني والخولنجان، ومن

(1) بلاد تخيل العرب وجودها في أعماق البحار الجنوبية على حدود العالم المغمور.

الواقواق الذهب والأبنوس ومن الهند الأعواد والصندلان والكافور والماكافور والجوزبوا والقرنفل والقاقلة والكبابة والنارجيل والثياب المتخذة من الحشيش والثياب القطنية المخملة والفيلة، ومن سرنديب الياقوت ألوانه كلها وأشباهه والماس والدر والبلور والسنبادج الذي يعالج به الجوهر ومن ملى وسندان الفلفل، ومن كله الرصاص القلعى، ومن ناحية الجنوب البقم والداذى، ومن السند القسط والقنا والخيزران.

وطول هذا البحر من القلزم إلى الواقواق أربعة آلاف وخمسمائة فرسخ.

والذي يجيء من اليمن الوشى وسائر ثيابهم والعنبر والورس والبغال والحمير.

والهند سبعة أجناس[1]

الشاكثرية وهم أشرافهم، فيهم الملك، تسجد الأجناس كلها لهم ولا يسجدون لأحد، والبراهمة وهم لا يشربون الخمر والأنبذة، والكسترية يشربون ثلثة أقداح فقط، لا تزوجهم البراهمة ويتزوجون فيهم، والشودرية وهم أصحاب زراعة، والبيشية وهم أصحاب صناعات ومهن، والسندالية وهم صحاب اللهو واللحون وفي نسائهم جمال، والزنبية وهم سمر أصحاب لهو ومعازف ولعب.

وملل أهل الهند اثنتان وأربعون ملة منهم من يثبت الخالق عز وجل والرسل ومنهم من ينفي الرسل ومنهم النافي لكل ذلك.

والهند تزعم أنها تدرك بالرقى ما أرادوا، ويسقون به السم ويخرجونه ممن سُقى ولهم الوهم والفكر، ويحلون به ويعقدون ويضرون وينفعون ولهم إظهار التخاييل التي يتحير فيها الأزيب، ويدّعمن حبس المطر والبرد.

---

(1) إشارة إلى نظام الطبقات في الهند، الذي سيفصله البيروني.

ب

أبي علي أحمد بن عمر بن رستة.

كتاب الأعلاق النفيسة

دار صادر. بيروت.

طبع في ليدن المحروسة، مطبعة بريل 1892

ذكر الأرض وهيئتها ومقدار جرمها وكيفيتها ونعت بنياناتها ومدنها المشهورة على حسب ما بلغه علمنا ووصف المسالك والممالك فيها

يقال والله أعلم أن الأرض كرة وأن المحيط بها أربعة وعشرون ألف ميل، أعني الدائرة العظمى التي على كرتها وقطرها سبعة آلاف وستمائة وستة وثلاثون ميلاً بالتقريب، ويقال أن مدن الأرض إحدى وعشرون ألفاً وستمائة مدينة بعدد دقائق الفلك وكل ثلاثة أميال فرسخ.......

اختلاف أهل الملل في هيئة الأرض

قد ذكرنا في أول الباب هيئة الأرض ونعتها على إيجاز واختصار ووجدنا أهل الملل قد اختلفوا في ذلك فأحببنا أن نذكر جملاً من اختلافاتهم نختمها بالصحيح المأخوذ من الفلاسفة بالحجج الواضحة والبراهين النيرة الموجبة للقبول التي يصححها العيان ولا يخفى على ذوي الألباب، قال بعض أهل الملل أن الأرض مبسوطة التسطيح في أربع جهات شرق وغرب وجنوب وشمال، وأن الخلق عليها من جهة واحدة وهو وجهها الأعلى، وأن الوجه الآخر المقابل لهذا الوجه الأعلى أسفلها، وإن السماء فوق الأرض مما يلي وجه الأرض الأعلى وحده دون سائر نواحيها، ووجهها الأسفل......

صفة بلاد الهند

ذكر أبو عبد الله محمد بن اسحاق: أن غامة ملوك الهند يرون الزنا مباحاً ما خلا ملك قُمار[1] فإني دخلت مدينته وأقمت عنده بها سنتين فلم أر ملكاً أغير ولا أشد في الأشربة منه، فإنه يعاقب على الزنا والشرب بالقتل، وليس أحد من ملوك الهند ممن خالطته وبايعته يسرف في شرب الشراب ما خلا ملك البهل، فإنه بلغني أنه يشرب وهو ملك سرنديب ينقل الخمر إليه من بلاد العرب فيشربها، ورأيت تجار الهند وسائرهم لا يشربون الشراب قليله ولا كثيره ويعافون الخل من الأشربة، فخلهم من ماء الأرز المطبوخ يحمصونه حتى يصير بمنزلة الخل، ومن رأوا من أهل الإسلام يشرب الشراب فهو عندهم خسيس لا يعبأون به ويزدرونه، ويقولون هذا الرجل ليس له قدر في بلاده. وليس ذلك منهم ديانة، وذكر بعضهم قال كنت ببلاد قمار فأخبروني أن الملك بها جبار شديد العقوبة لا يكلم العرب، ومن دخل بلاده فأهدى له شيئاً كافأه بأضعاف ما أهدى له، يكافئ بالجزء مائة جزء. ولم أر من الملوك فيما عاملته أحسن مكافأة من ملك قمار، والهند يقولون أن أصل كتب الهند قمار، ومن عقوبة هذا الملك على الشراب أن من شرب من قواده وجيشه يحمى مائة حلقة من حديد بالنار، ثم يوضع ذلك كله على يد ذلك الرجل الشارب، فربما أتلفت نفسه. وهو ملك شديد الغيرة ليس في ملوك الهند أشد غيرة وعقوبة منه، ومن عقوبته قطع اليدين والرجلين والأنف والشفتين والأذنين ولا يلتفت إلى الغرامة كسائر ملوك الهند، وأصل العباد من بلاد قمار، يقال أن فيها مائة ألف عبد وللملك قمار ثمانون قاضياً لو ورد عليهم ولد الملك

---

(1) ملك قما ر: هو ملك كمبوديا.

لأنصفوا منه وأقعدوه مقعد الخصم، وله ثمانون ذكراً لهم جمال وهيئة يصلحون للملك.

.... غير إنه بلغني أن ببلاد الأغباب بلاداً تدعى أورفسين وملكتهم امرأة يقال لها الرابية ويكون بمملكتها في موضع يدعى براز، لها فيلة تكون عشر أذرع إلى إحدى عشرة ذراعاً فهذا ما بلغني من ارتفاع فيلة بلاد الهند، وهؤلاء الملوك جميعاً يرون الزنا مباحاً غير أن من أحصن منهم بامرأة فعرض لها عارض و زنيا قتل الرجل والمرأة. وبعده ملك من ملوك الهند يقال له بَلْهَرا[1]، ومعنى بلهرا أنه ملك ملوك الهند وهو في بلاده يقال له الكمكم، اسم هندي وبلاده بلاد الساج ومنها يجلب وهو ملك واسع المملكة كثير الجيش ومن حوله من الملوك يصلون له ومن ورد من رسله على هؤلاء الملوك الذين حوله صلوا له إعظاماً لصاحبه، ويلي هذا الملك ملوك أحدهم يقال له ملك الطافِن، وهو قليل المملكة كثير المال عامر البلدان، وأهل مملكته سمر وبهم بياض وجمال مستفيض، وفي رقيق بلادهم جمال ليس يشركه في ذلك أحد من الملوك ممن يليه، وبعده ملك يقال له نجابة وهو شريف فيهم، وبلهرا الملك يتزوج فيهم وهم السلوقيون ولا يتزوجون إلاّ فيهم لشرفهم، وهذه الكلاب السلوقية يقال أنها وقعت من بلادهم، ولهم الصندل الأحمر في بلادهم وغياضهم. ويلي هؤلاء ملك يقال له الجُرز، العدل في مملكته مستفيض لو طرح الذهب في وسط الطريق ما خافوا عليه أحداً يأخذه من عدلهم، وبلاده واسعة والعرب يرحلون إليه في تجاراتهم فيبرّهم ويشتري منهم ومعاملاتهم لهم بالذهب القطع والدراهم التي يقال لها الطاطري، عليها تمثال صورة الملك وزنها مثقال، فإذا بايعوهم قالوا للملك ابعث معنا من يخرجنا من بلادك ويحفظ متاعنا، فيقول ليس في بلادي لص فاخرجوا فإن حدث بأموالكم حدث فخذوه مني وأنا الضامن لكم وهو ملك له جسم كبير وليس حوله ملك أشجع منه في الحرب كثير المكيدة وهو يقاتل بلهرا وملك الطافن ونجابة.

---

(1) اسم أطلقه العرب على الملك وعلى عاصمته بلهرا، ويُعتقد أن هذا الاسم محرّف من (مالفار راي) الهندي، ومعناه ملك مالفا.

..... وبالملتان صنم له دخل مال عظيم فملك بني منبة هؤلاء وأموالهم من دخل هذا الصنم ودخله فيما أخبرني به من أثق بقوله، ممن دخل البلاد وأقام بها لا يحصى كثرة، وربما غزا ملوك الهند بني منبة فيخرجون إلى الملتان في جيش عظيم فيقاتلونهم فتغلبهم بنو منبة ليسارهم وقوتهم وكثرة أموالهم. وهذا الصنم أخبر عنه من أتاهم ونظر إليهم أن طوله أرجح من عشرين ذراعاً على صورة رجل، وله بيت عليه سقف عظيم لا يدري من بناه، ويقال أنه بني منذ ألفي سنة، والهند يقولون أن هذا الصنم نزل من السماء وأُمرنا بعبادته وله سدنة يقومون عليه، وله نفقات من دخل الصنم سوى ما يجري على سدنته يطعمون ويسقون ويكسون والهند كلها ترى الحج إليه.

ج

من كتاب صورة الأرض /لابن حوقل/
أبي القاسم بن حوقل النصيبي
ت325هـ ـ 927م
منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت 199

11 ـ ومملكة الصين على ما يزعم أبو إسحق إبراهيم بن البتكين، حاجب صاحب خراسان أربعة أشهر في ثلاثة أشهر. فإذا أخذت من فم الخليج حتى تنتهي إلى دار الإسلام بما وراء النهر فهو نحو ثلاثة أشهر، وإذا أخذت من حد المشرق حتى تقطع إلى حد المغرب في أرض التُبّت، وتمتد في أرض التَغَزْغُزِ وخَرْخِيزَ وعلى ظهر كيماك إلى البحر فهو نحو أربعة أشهر. ولمملكة الصين ألسنة مختلفة، وجميع الأتراك من التغزغز وخرخيز وكيماك والغُزِّيَّة والخَرلخيَّة فألسنتهم واحدة، وبعضهم يفهم عن بعض. ولأرض الصين والتبت لسان مخالف لهذه الألسنة كألسنة صِنهاجة أودغست وأهل سرت وأهل قسطيلية وغيرهم من البربر، فإن لهم ألسنة خاصيّة، ولسان البربر يجمعهم ويفهم بعضهم عن بعض به. ومملكة الصين كلها منسوبة إلى صاحب الصين المقيم بخُمدان[1] كما مملكة الروم منسوبة إلى الملك المقيم بالقسطنطينية، ومملكة الهند منسوبة إلى الملك المقيم بقنوج كنسبة مملكة الإسلام إلى الملك المقيم ببغداد.

.... وأرض الهند تجاه بلاد الزنج من جانب بحر فارس الشرقي[2]، وطولها من عمل مكران في أرض المنصورة والسندهند وهم البدهه وسائر بلدان السند إلى أن تنتهي إلى قنوج، ويجوزها إلى أرض قنوج، ويجوزها إلى أرض التبت نحو أربعة أشهر، وعرضها من بحر فارس على أرض قنوج نحو ثلاثة أشهر.......

السند

1 - وأما بلاد السند وما يصاقبها للإسلام مما جمعتُه في صورة واحدة فهي بلاد السند وشيء من بلاد الهند ومكران وطوران والبدهة. وشرقي ذلك كله بحر فارس وغربيها كرمان ومفازة سجستان وأعمالها، وشماليها بلاد الهند وجنوبيها مفازة ما بين

---

(1) عاصمة الصين آنئذ، ولعلها سنانفو sinanfo، أو tch ـ tong الحالية.

(2) أغلب الجغرافيين العرب، المتأثرين ببطليموس، تصوروا أن الأطراف الجنوبية الشرقية لأفريقيا تمتد شرقاً حتى تحاذي سواحل الهند والصين.

مكران والقُفص ومن ورائها بحر فارس. وإنما صار بحر فارس يحيط بشرقي هذه البلاد والجنوبي من وراء هذه المفازة من أجل أن البحر يمتد من صيمور على الشرقي إلى تيز مكران، ثم ينعطف على هذه المفازة إلى أن يتقوس على بلاد كرمان وفار.......................

إيضاح ما يوجد في صورة السند من الأسماء والنصوص:

قد رُسم البحر موازياً، للطرف الأعلى وكتب فوقه بلد السند، وينصبّ في البحر نهر يأتي من الأسفل وكتب عند نهايته السفلى نهر مهران.

ويقع عن يمين مصب نهر مهران على ساحل البحر من المدن: الديبل، قنبلى، النكيز، التيز. وبين التيز والنكيز في قرب الساحل به وكه، وتبتدئ عن يمين التيز كتابة مستطيلة الخط تحيط بثلاثة أطراف الصورة منتهيةً إلى طرف البحر الأيسر وهي حد السند. ويبتدئ من منتصف الطرف الأيمن من الحد طريق إلى اليسار ينتهي إلى النهر وعليه من المدن: المجاك، فنزبور، قزدار. ويأخذ من التيز طريق إلى فنزبور عليه قصرقند وخواش، ويقع بين هذا الطريق وخط الحد من المدن اصفقه ودزك، ثم يأخذ طريق آخر من التيز إلى قزدار عليه كيز وبل فهرج، وبين كيز وقصرقند سرى شهر. ثم يأخذ طريق من قزدار إلى قنبلى على البحر وعليه ارمابيل ودندراج. ويأخذ من قنبلى طريق آخر إلى اليسار عليه منجابرى ثم المنصورة على نهر مهران.

ويأخذ من هذا النهر خليج بين الديبل والمنصورة يرجع إلى النهر من تحت المنصورة، وعلى هذا الخليج من جانبه الأيسر سدوستان ومسواهي.

ويوازي نهر مهران عن يمينه من الأسفل إلى الأعلى كتابة طوائف البدهه. وتقع مدينة الملتان[1] في جانب النهر الأيمن متصلة بخط الحد في أسفل الصورة، ويأخذ إليها

---

(1) الملتان يقول عنها القزويني: "إنها بيت حجهم ودار عبادتهم"، فتحها العرب، ثم استعادها الهنود، إلى أن غزاها محمود الغزنوي في القرن الحادي عشر الميلادي، وتقع على نهر مهران.

طريق من فنزبور عليه: كيزكانان، سيوى، مستنج. وتقع من فوق كيزكانان مشكى، ويوازي هذا الطريق طريق آخر يأخذ من قزدار ال شاطئ مهران عليه: كوشه، قندابيل، قديرا. وعلى الطريق من قندابيل إلى مستنج خور كجليا وقناة خُمر. ومن أعلى الملتان عن يمين النهر مدينة بسمد، وتقع على خط الحد في أسفل طرفه الأيمن مدينة طوران، وكتب في الساحة عن يمين الطريق من فنزبور إلى الملتان في شكل مثلث برية للبدهه، ويكون ضلعان من أضلاع المثلث خطى كلمة برية. وتقطع أعلى المثلث كتابة ناحية طوران على شكل صليبي وكتب فوق هذه الكتابة بينها وبين ضلعي المثلث مجاك.

وعن يسار مصب نهر مهران على ساحل البحر. كنبايه، سندان، صيمور. وعلى الطريق من كنبايه إلى جانب النهر المقابل للمنصورة قامهل وبانيه، ثم يقع على شاطئ النهر الأيسر: بلرى، قالرى، انرى، الرور. وينصب في نهر مهران نهر يأتي من اليسار كتب عنده نهر الجندرور وعليه مدينة الجندرور، ويليه نهر آخر يقرأ عنده السندروذ، ويوازي طرف الصورة الأيسر كتابة مستطيلة نصها الهند، وتقع عن يسار هذه الكتابة مدينة منهه.

2 - والذي يقع من المدن في هذه البلاد فبناحية مكران التيز وكيز وفنزبور ودزك وراسك، وهي مدينة الخروج وبه وبند وقصرقند واصفقه وفلهفهرة ومشكى وقنبلى وارمابيل. وبنواحي طوران من المدن مجاك وكيزكانان وسيوى وقصدار. وبنواحي البدهه من المدن قندابيل وهي أم الناحية. وأما نواحي السند وما يقع بها من المدن فالمنصورة[1]، اسمها باميرامان بالسندية، والديبل والنيرون وقالرى وانرى، وبلرى ومسواهي والفرج وبانيه ومنجابرى وسدوستان والرور والجندروذ. وأما مدن

---

(1) بناها الفاتحون العرب.

الهند فهي: قامهل وكنبايه[1] وسوباره، ولها نواح جليلة واساول وجناول وسندان وصيمور وبني بتن إلى الجندرور والسندروذ، وهذه مدن الهند التي يملكها الإسلاميون. ولبلد الهند مواطن وأماكن وفجاج وأعماق كفرزان وقيوج في المفاوز، وأقطارها نائية وبراريها فسيحة لا يصل إليها تاجر إلاّ من أهلها ولا يمكن سافرةً غيرها أن تردها لانقطاعها ونأيها وكثرة الآفات المعترضة على الطارئين إليها.

3 - ومن كنبايه إلى صيمور[2] هو بلد بلهرا صاحب كتاب الأمثال، ويدعى ملكهم باسم ناحيته كما قالوا غانه وهو اسم الناحية ويتسمى الملك بها، وكذلك كوغه اسم المملكة واسم من يملكها والغالب على هذه الناحية الكفر، وفيها مسلمون ولا يلي عليهم من قبل بلهرا الذي في زماننا هذا إلاّ مسلم يستخلفه عليهم، وكذلك العادة وجدتُها في كثير من بلدان الأطراف التي يغلب عليها أملاك الكفر كالخزر والسرير واللان وغانه وكوغه. والمسلمون لا يقبلون أن يحكم عليهم إلاّ مسلم منهم ولا يتولى حدودهم ولا يقيم عليهم شهادة إلاّ من في دعوتهم، وإن قل عددهم في بعض الممالك قبلوا من أهل الممالك المشار إليه في العفة، فإن جرحه الخصم وزكاه المسلمون أُمضيت شهادته وأُخذ الحق بقوله من المسلمين. وببلاد بلهرا المساجد تجمع فيها الجمعاتُ ويقام بسائرها الصلوات بالأذان في المنار والإعلان بالتكبير والتهليل، وهي مملكة عريضة.

4 - والمنصورة مدينة مقدارها في الطول والعرض نحو ميل في مثله، ويحيط بها خليج من نهر مهران وهي شبيه بالجزيرة، وأهلها مسلمون ملكها من قريش من ولد هبار بن الأسود وقد تغلب عليها أجداده، وساسوهم سياسة أوجبت رغبة الرعية فيهم وإيثارهم على من سواهم غير أن الخُطبة لبني العباس. وهي مدينة جرومية حارة بها نخيل وليس بها عنب ولا تفاح ولا جوز ولا كمثرى، ولهم قصب سكر يعقد منه القند

---

(1) على خليج كنبايه أو كمبي Combay.

(2) مدينة ساحلية، استولى عليها الفاتحون العرب.

الغزير الكثير، وبأرضهم ثمرة على قدر التفاح تسمى الليمونة حامضة شديدة الحموضة، ولهم فاكهة تشبه الخوخ يسمونها الأنبج تقارب طعم الخوخ، وأسعارها رخيصة وبها خصب، ونقودهم القندهاريات كل درهم منها خمسة دراهم، ولهم درهم يقال له الطاطري في الدرهم درهم وثُمن، ويتعاملون بالدنانير أيضاً وزيهم كزي أهل العراق غير أن زي ملوكهم يقارب زي ملوك الهند في الشعور والقراطق.

5 - والملتان مدينة نحو المنصورة في الكبر وتسمى فرج بيت الذهب، وبها الصنم الأعظم للهند الذي تحج إليه من أقاصي بلدانها وسائر أصقاعها وتعظمه، ويُتقرب إلى هذا الصنم في كل سنة بمال عظيم فينفق على بيت الصنم وعلى سدنته والمعتكفين عليه منهم، وسميت الملتان باسم الصنم والصنم اسمه الملتان، ومكان هذا الصنم في قصر مبنى في أعمر موضع بسوق الملتان بين سوق العاجيين وصف الصفارين، وفي وسط هذا القصر قبة والصنم فيها ومن حوالي القبة بيوت يسكنها خدم هذا الصنم ومن اعتكف عليه، وليس بالملتان من الهند والسند الذين يعبدون الأوثان غير هؤلاء السدنة الذين يحوزهم هذا القصر مع هذا الصنم، وهذا الصنم صورة على خلقة الإنسان مربع على كرسي من جص وآجر، وقد أُلبس الصنم جلداً يشبه السختيان أحمر فلا يتبين من جسده شيء إلاّ عيناه، فمنهم من يزعم أن بدنه خشب ومنهم من يدفع ذلك، غير أنه لا يترك بدنه ينكشف وعيناه جوهرتان، وعلى رأسه إكليل من ذهب مرتفع على ذلك الكرسي وقد مد ذراعيه على ركبتيه، وقد فرق أصابع يديه كمن يحسب أربعةً، وعامة ما يحمل إلى هذا الصنم من المال يأخذه القرشي الهباري أمير الملتان، وينفق على السدنة منه كفافهم، وقد قصدهم الهند غير وقت للتغلب على الملتان في انتزاع الصنم منهم، فيظاهرون المتغلبين عليهم القاصدين لهم بكسره وإحراقه فيرجعون عنهم ولولا ذلك لخربوا الملتان. على الملتان حصن وبها منعة وهي خصبة رخيصة الأسعار، غير أن المنصورة أخصب وأعمر منها وسميت الملتان بفرج بيت الذهب لأنها فتحت في أول الإسلام وكان بالمسلمين إضاقة وقحط، فوجدوا فيها ذهباً كثيراً فاتسعوا فيها بما وجدوه، وأهلها رغبة في القرآن وعلمه والأخذ بالمقارئ السبعة والفقه وطلبة الأدب

والعلـم، وفيهم جساء وزعارة أخلاق ومخارج الملتان على نصف فرسخ منها أبنية كثيرة تعرف بالجندرور، وهي معسكر الأمير ولا يدخل الأمير منها إلى الملتان إلاّ يوم الجمعة عند ركوبه الفيل، ويدخل فيصلي بأهلها ويعود على الفيل إلى دار إمارته وهو من ولد سامة بن لؤي بن غالب وليس هو في طاعة أحدٍ وخطبته لبني العباس.

6 - وأما بَسمد فمدينة صغيرة وهي والملتان دون الجندرور عن شرقي نهر الملتان، وهو نهر مهران وبين كل واحدة منهما وبين النهر نصف فرسخ، وشربهم من الآبار وبسمد هذه خصبة وتكتب بالباء والفاء. ومدينة الرور تقارب الملتان في الكبر وعليها سوران، وهي على شط نهر مهران أيضاً وهي من حد المنصورة خصبة رَفِهَة كثيرة التجارة. والديبل[1] من شرقي نهر مهران على البحر، وهي متجر عظيم وتجارتها من وجوه كثيرة وهي فرضة هذه البلاد وغيرها وزروعهم مباخس، وليس لهم كثير شجر ولا نخيل وهو بلد قشف وإنما مُقامهم للتجارة. والنيرون مدينة بين الديبل والمنصورة على نحو نصف الطريق وهي إلى المنصورة أقرب. وهي مقاربة في الحال لمنجابرى على غربي مهران، وبها يعبر من جاء من الديبل إلى المنصورة وهي تجاهها. ومدينة مسواهي والفهرج وسدوستان كلها غربي مهران وهي متقاربة في أحوالها، وانرى وقالرى فمن شرقي مهران أيضاً على طريق المنصورة إلى الملتان وهما بالبعد من شط مهران لهما عمل صالح، وهما متقاربتان في الحال والصلاح. فأما بلرى فعلى شط نهر مهران أيضاً في غربيه وبقرب الخليج الذي ينفتح من مهران على ظهر المنصورة، وهي ناحية ومدينة مقتصدة صالحة الحال. وبانيه مدينة صغيرة ومنها عمر بن عبد العزيز الهباري القرشي الجواد الكريم المشهور حاله بالعراق في النبل والفضل، وهو جد المتغلبين على المنصورة ونواحيها. وقامهل مدينة من أول حد الهند إلى صيمور، ومن صيمور إلى قامهل فمن بلد الهند ومن قامهل إلى مكران فللبدهه، وما وراء ذلك إلى حد الملتان فجميعه من بلد السند......

---

[1] يعتقد أنها في مكان كراتشي الحالية.

7 ـ والكفار في بلد السند هم البدهه وقوم يعرفون بالمِيذ، وهم قبائل مفترشة ما بين حدود طوران ومكران والماتان ومدن المنصورة، وهي في غربي مهران وهم أهل إبل والجمل الفالح الذي يرغب فيه أهل خراسان وغيرهم من فارس وأشباهها لنتاج البخاتي البلخية والنوق السمرقندية. ومدينة البدهه التي يتجرون إليها ويقصدونها بحوائجهم قندابيل، والبدهه كالبادية من البربر، لهم أخصاص وآجام يأوون إليها وبطائح مياه يعيشون بينها. والميذ قوم على شطوط مهران من حد الملتان إلى البحر، ولهم في البرية بين مهران وقامهل مراع ومواطن ينتجعونها لمصيفهم ومشاتيهم وهم عدد كثير. وبقامهل وسندان وصيمور وكنبايه مساجد جوامع وفيها أحكام المسلمين ظاهرة، وهي مدن خصبة واسعة وبها النارجيل ويستعملون منه الشراب فيُسكرهم [وهو كالماء واللبن صفاء وبياضاً ورقة يسمى الأطواق] والخل فيكون في غاية الحموضة ويستعملون المِزرَ نبيذ أهل مصر، ولا والله ما أعرفه ولا أدري ما هو، إلا أني أحسبه يجري مجرى العصيدة الرقيقة. والغالب على زروعهم الأرز ولهم العسل الكثير ولا نخيل لهم. والزاهوق وكلوان رستاقان متجاوران بين كيز وارمابيل. فأما كلوان ونواحيه فمن مكران، وأما الزاهوق فمن حد المنصورة ولها مباخس كثيرة وزروع واسعة وقرىً غزيرة قليلة الثمر كثيرة المواشي والسائمة من كل نوع وجنس........

... وزي المسلمين والكفار بها واحد في اللباس وإرسال الشَعر، ولباسهم الأزر والميازر لشدة الحر ببلدانهم، وكذلك زي أهل الملتان لباسهم الأزر والميازر، ولسان أهل المنصورة والملتان ونواحيها العربية والسندية، ولسان أهل مكران الفارسية والمكرية، ولباس القراطق فيهم ظاهر إلا التجار فإن لباسهم القُمص والأردية كسائر أهل العراق وفارس.........

د

ابن الفقيه

أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني

مختصر كتاب البلدان

طبع في مدينة ليدن المحروسة

مطبعة بريل 1302

....

الفرق ما بين بلاد الصين وبلاد الهند

قالوا ليس في الصين متاع أسرى ولا أحسن مما يحمله التجار إلى العراق، فأما ما يبقى هناك فردي لا حسن له، ولباس أهل الصين كلهم الحرير في الشتاء والصيف. يلبس الرجل منهم خمس سرويلات حرير لنَدْوة أسفلهم، فأما هواؤهم فحار ولا يعرفون العمائم وطغامهم الأرز وملوكهم يأكلون خبز الحنطة واللحم وليس فيهم كثير نخل ويعمل نبيذهم من الأرز، ولا يستنجون بالماء ويأكلون الميتة ونساؤهم يكشفن رؤوسهن ويجعلن فيها الأمشاط فربما كان في رأس الواحدة منهن عشرون مشطاً من عاج، والرجال يغطون رؤوسهم بشبه القلانس وأهل الصين يلوطون بغلمان قد أقيموا لذلك بمنزلة الزواني للهند. وحيطان أهل الصين الخشب وأكثرهم لا لحى لهم حتى كأنهم لم تخلق لهم لحى وأهل الصين يعبدون الأوثان ولهم كتب لأديانهم، والهند لا يأكلون الحنطة إنما يأكلون الأرز فقط وتطول لحاهم حتى ربما رأيت لأحدهم لحية ثلثة أذرع وإذا مات أحدهم حلق رأسه ولحيته وهم يتلازمون بالحقوق ويمنعون في الملازمة الطعام والشراب سبعة أيام وأهل الهند يقتلون ما أرادوا أكله ولا يذبحونه يضربون هامته حتى يموت ثم يأكلونه، ولا يغتسلون من جنابة ولا يأتون النساء في محيض، وأهل الصين يأتون لأن آئينهم آئين المجوس. وأهل الهند لا يأكلون حتى يستاكوا ويغتسلوا ولا يفعل ذلك أهل الصين، وبلاد الهند أوسع من بلاد الصين أضعافاً وبلاد الصين أعمر. وليس لهم عنب وليس بالبلدين جميعاً نخل. وللهند السحر وهم جميعاً يقولون بالتناسخ ويختلفون في فروع دينهم. وأهل الهند أطباء حكماء منجمون ولهم خيل قليلة وملوكهم لا يرزقون جندهم إنما يدعوهم الملوك إلى الجهاد فيخرجون بنفقات أنفسهم. والهند لا مدائن لهم ويلبسون القرطين ويتحلون بأسورة الذهب

الرجال والنساء، والهند تبيح الزنا ما خلا ملك قمار، فإنه يحرم الزنا والشراب، وبلاد الصين أنزه وأحسن، ومدنهم عظيمة مشرقة محصنة مسورة وبلادهم أصح وأقل أمراضاً وأطيب، لا تكاد ترى بها أعور ولا أعمى ولا ذا عاهة، ولهم عطاء كديوان العرب، ويقال أن بين الهند والصين ثلثين=ثلاثين ملكاً أصغر ملك بها يملك ما يملكه ملك العرب، وملوك الهند كلهم يلبسون الحلي، ...... وقمار[1] من بلاد الهند وأهل الهند يزعم أن أصل كتب الهند من قمار، وملكه مسيرة أربعة أشهر، وعبادتهم الأصنام كلهم، وملك قمار يفترش أربعة آلاف جارية، والعنبر يؤتى به من جزيرة شلاهط والفلفل من ملي وسندان، والبقم من ناحية الجنوب من القبلة بقرب الصين من بلد يقال له فنصور، وماء الكافور والنيل من ناحية السند، والخيزران من بلد يقال له لنكبالوس وكَلَه من ناحية خراسان، والقنى من عمان، والياقوت والألماس من سرنديب، وكذلك الكركدن والطاوس والببغاء والدجاج السندي وجميع أنواع العطر والصيدلة.

قالوا ومبدأ بحر الصين من جبل قاف[2] إلى أن يجيء إلى عبادان والبصرة وأول البحار التي تسلك إلى بلاد الصين بحر صنجي وأول جبل فيه يدعى صندرفولات، وفيه حيات ربما ابتلعت البقر والرجل فهو أشد البحار كلها وهو قليل المسافة وعلى الجبل من الصيادين خلق لهم شبّاك يكون في قعر البحر فأهل المركب إذا أرادوا بلاد الصين سألوا الصيادين عن الريح فيخبرونهم بهيجان البحر وسكونه، لأنه بحر إذا هاج فيه الريح فقليل من يسلم، وإنما يقطع في عشر أو ثمان إلى بلاد الصين إلى الأبواب، خاصة أبواب الصين، وذلك البحر بحر كبير وفيه ملك يدعى المهراج عظيم الملك في جزائره عجائب وأنواع العطر، وينبت في بلاده الذهب نباتاً ويقال غلته في كل يوم مائتا مناً ذهب.

---

(1) قمار هي كمبودية الحالية.

(2) جبل قاف هو جبل تصور العرب أنه يلتف حول العالم ويبدأ من الحدود الصينية الشرقية وينتهي في غرب إفريقيا.

هـ

مقتطفات من

أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني 440هـ ـ 1048م

كتاب البيروني في تحقيق

ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية

بحيدر آباد

الركن الهند

1377هـ ـ 1958م

في ذكر أحوال الهند وتقريرها أمام ما نقصده من الحكاية عنهم

[وجوه اختلاف الهنود عن العرب]

...... يجب أن نتصور، أمام مقصودنا، الأحوال التي لها يتعذر استشفاف أمور الهند، فإما أن يسهل بمعرفتها الأمر وإما أن يتمهد له العذر، وهو أن القطيعة تخفي ما تبديه الوصلة، ولها فيما بيننا أسباب: منها أن القوم يباينوننا بجميع ما يشترك فيه الأمم، وأولها اللغة وإن تباينت الأمم بمثلها ومتى رامها أحد لإزالة المباينة لم يسهل ذلك، لأنها في ذاتها طويلة عريضة تشابه العربية يتسمى الشيء الواحد فيها بعدة أسام مقتضبة ومشتقة، وبوقوع الاسم الواحد على عدة مسميات محوجة في المقاصد إلى زيادة الصفات، إذ لا يفرق بينها إلاّ ذو فطنة لموضع الكلام وقياس المعنى إلى الوراء والأمام، ويفتخرون بذلك افتخار غيرهم به من حيث هو بالحقيقة عيب في اللغة؛ ثم هي منقسمة إلى مبتذل لا ينتفع به إلاّ السوقة وإلى مصون فصيح يتعلق بالتصاريف والاشتقاق ودقائق النحو والبلاغة لا يرجع إليه غير الفضلاء المهرة؛ ثم هي مركبة من حروف لا يطابق بعضها حروف العربية والفارسية ولا تشابهها بل لا تكاد ألسنتنا ولهواتنا تنقاد لإخراجها على حقيقة مخارجها، ولا آذاننا تسمع بتمييزها من نظائرها وأشباهها، ولا أيدينا في الكتبة لحكايتها، فيتعذر بذلك إثبات شيء من لغتهم بخطنا، لما نضطر إليه من الاحتيال لضبطها بتغيير النقط والعلامات وتقييدها بإعراب إما مشهور وإما معمول؛ .... ومنها أنهم يباينوننا بالديانة مباينة كلية لا يقع منا شيء من الإقرار بما عندهم ولا منهم بشيء مما عندنا، وعلى قلة تنازعهم في أمر المذاهب بينهم بما سوى الجدال والكلام دون الإضرار بالنفس أو البدن أو الحال، ليسوا مع من عداهم بهذه الوتيرة وإنما يسمونه

"مُليج" وهو القذر لا يستجيزون مخالطته في مناكحة ومقاربة أو مجالسة ومأكلة ومشاربة من جهة النجاسة، ويستقذرون ما تصرف على مائه وناره وعليهما مدار المعاش، ثم لا مطمع في صلاح ذلك بحيلة كما يطهر النجس بالانحياز إلى حال الطهارة؛ فليس بمطلق لهم قبول من ليس منهم إذا رغب فيهم أو صبا إلى دينهم، وهذا مما يفسخ كل وصلة ويوجب أشد قطيعة..... والحمق داء لا دواء له؛ وذلك أنهم يعتقدون في الأرض أنها أرضهم وفي الناس أنهم جنسهم وفي الملوك أنهم رؤساؤهم وفي الدين أنه نحلتهم وفي العلم أنه ما معهم فيترفعون ويتبظرمون ويعجبون بأنفسهم فيجهلون، وفي طباعهم الضن بما يعرفونه والإفراط في الصيانة له عن غير أهله منهم فكيف عن غيرهم؛ على أنهم لا يظنون أن في الأرض غير بلدانهم وفي الناس غير سكانها وأن للخلق غيرهم علماً، حتى أنهم إن حُدثوا بعلم أو عالم في خراسان وفارس استجهلوا المخبر ولم يصدقوه للآفة المذكورة، ولو أنهم سافروا خالطوا غيرهم لرجعوا عن رأيهم؛ على أن أوائلهم لم يكونوا بهذه المثابة من الغفلة، فهذا "براهمر" أحد فضلائهم حين يأمر بتعظيم البراهمة يقول: "إن اليونانيين وهم أنجاس لما تخرجوا في العلوم وأنافوا فيها على غيرهم وجب تعظيمهم، فما عسى نقوله في البرهمن إذا حاز على طهارته شرف العلم؟" وكانوا يعترفون لليونانيين بأن ما أعطوه من العلم أرجح من نصيبهم منه، ويكفيك دليلاً عليه من مادح نفسه وهو يقرئك السلام؛ إني كنت أقف من منجميهم مقام التلميذ من الأستاذ لعجمتي فيما بينهم، وقصوري عما هم فيه من مواضعاتهم، فلما اهتديت لها أخذت أوقفهم على العلل وأشير إلى شيء من البراهين وألوح لهم الطرق الحقيقية في الحساب حتى انثالوا علي متعجبين....

ذكر اعتقادهم في الله سبحانه

[الخاصة وحدانية والعامة تعددية]

إنما اختلف اعتقاد الخاص والعام في كل أمة بسبب أن طباع الخاصة ينازع المعقول ويقصد التحقيق في الأصول، وطباع العامة يقف عند المحسوس ويقتنع بالفروع، ولا يروم التدقيق وخاصة فيما افتنت فيه الآراء ولم يتفق عليه الأهواء؛

واعتقاد الهند في الله سبحانه أنه الواحد الأزلي من غير ابتداء ولا انتهاء المختار في فعله القادر الحكيم الحي المحيي المدبر المبقي الفرد في ملكوته عن الأضداد والأنداد لا يشبهه شيء؛ ولنورد في ذلك شيئاً من كتبهم لئلا تكون حكايتنا كالشيء المسموع فقط، قال السائل في كتاب "پاتنجل": من هذا المعبود الذي يُنال التوفيق بعبادته؟ قال المجيب: هو المستغني بأوليته ووحدانيته عن فعل لمكافأة عليه براحة تؤمل وترتجى، أو شدة تخاف وتتقى، والبريء عن الأفكار لتعاليه عن الأضداد المكروهة والأنداد المحبوبة، والعالم بذاته سرمداً إذ العلم الطارئ يكون لما لم يكن بمعلوم، وليس الجهل بمتجه عليه في وقت مّا أوحال؛ ثم يقول السائل بعد ذلك: فهل له الصفات غير ما ذكرت؟ ويقول المجيب: له العلو التام في القدر لا المكان فإنه يجل عن التمكن، وهو الخير المحض التام الذي يشتاقه كل موجود، وهو العلم الخالص عن دنس السهو والجهل؛ قال السائل: أفتصفه بالكلام أم لا؟ قال المجيب: إذا كان عالماً فهو لا محالة متكلم؛ قال السائل: فإن كان متكلماً لأجل علمه فما الفرق بينه وبين العلماء الحكماء الذين تكلموا من أجل علومهم؟ فقال المجيب: الفرق بينهم هو الزمان فإنهم تعلموا فيه وتكلموا بعد أن لم يكونوا عالمين ولا متكلمين ونقلوا بالكلام علومهم إلى غيرهم فكلامهم وإفادتهم في زمان، وإذ ليس للأمور الإلهية بالزمان اتصال فالله سبحانه عالم متكلم في الأزل، وهو الذي كلم "براهم" وغيره من الأوائل على أنحاء شتى، فمنهم من ألقى إليه كتاباً، ومنهم من فتح لواسطة إليه باباً، ومنهم من أوحى إليه فنال بالفكر ما أفاض عليه.......................................

.... فهذا قول خواصهم في الله سبحانه تعالى ويسمونه "ايشفر" أي المستغني الجواد الذي يعطي ولا يأخذ، لأنهم رأوا وحدته هي المحضة ووحدة ما سواه بوجه من الوجوه متكثرة، ورأوا وجوده حقيقياً لأن قوام الموجودات به، ولا يمتنع توهم ليس فيها مع "أيس" فيه، كما يمتنع توهم ليس فيه مع "أيس" فيها، ثم إن تجاوزنا طبقة الخواص من الهند إلى عوامهم اختلف الأقاويل عندهم وربما سمجت كما يوجد مثله في سائر الملل بل وفي الإسلام من التشبيه والإجبار وتحريم النظر في شيء، وأمثال ذلك ويوجب التهذّب، مثاله أن بعض خواصهم يسمي الله تعالى "نقطة" ليبرئه بها عن صفات الأجسام، ثم يطالع ذلك عاميهم فيظن أنه عظمه

بالتصغير ولا يبلغ به فهمه إلى تحقيق النقطة فيتجاوز سماجة التشبيه والتحديد بالتعظيم إلى قوله: إنه يطول اثني عشر إصبعاً في عرض عشر أصابع تعالى عن التحديد والتعديد، ومثل ما حكيناه من إحاطته بالكل حتى لا يخفى عليه خافية فيظن عاميهم أن الإحاطة تكون بالبصر بالعين والعينان أفضل من العور فيصفه بألف عين عبارة عن كمال العلم؛ وأمثال هذه الخرافات الشنعة عندهم موجودة وخاصة في الطبقات التي يسوغ لهم تعاطي العلم على ما يجيء ذكرهم في موضعه............

في حال الأرواح وترددها بالتناسخ في العالم

كما أن الشهادة بكلمة الإخلاص شعار إيمان المسلمين والتثليث علامة النصرانية والإسبات علامة اليهودية كذلك التناسخ علم النحلة الهندية. فمن لم ينتحله لم يك منها ولم يعد من جملتها فإنهم قالوا: إن النفس إذا لم تكن عاقلة لم تحط بالمطلوب إحاطة كلية دفعة بلا زمان، واحتاجت إلى تتبع الجزئيات واستقراء الممكنات. وهي وإن كانت متناهية فلعددها المتناهي كثرة والإتيان على الكثرة مضطر إلى مدة ذات فسحة، ولهذا لا يحصل العلم للنفس إلاّ بمشاهدة الأشخاص والأنواع وما يتناوبها من الأفعال والأحوال حتى يحصل لها في كل واحدة تجربة وتستفيد بها جديد معرفة، ولكن الأفعال مختلفة بسبب القوى وليس العالم بمعطل عن التدبير وإنما هو مزمزم، وإلى غرض فيه مندوب، فالأرواح الباقية تتردد لذلك في الأبدان البالية بحسب افتنان الأفعال إلى الخير والشر ليكون التردد في الثواب منبهاً على الخير فتحرص على الاستكثار منه، وفي العقاب على الشر والمكروه فتبالغ في التباعد عنه، ويصير التردد من الأرذل إلى الأفضل دون عكسه لأنه يحتمل كليهما ويقتضي اختلاف المراتب فيهما لاختلاف الأفاعيل بتباين الأمزجة ومقادير الازدواجات في الكمية والكيفية، فهذا هو التناسخ إلى أن يحصل من كلتي جنبتي النفس والمادة كمال الغرض، أما من جهة السفل.ففناء ما عند المادة من الصورة إلاّ الإعادة المرغوب عنها، وأما من جهة العلو فذهاب شوق

النفس بعلمها ما لم تعلم، واستيقانها شرف ذاتها وقوامها لا بغيرها، واستغناءها عن المادة بعد إحاطتها بخساستها، وعدِم البقاء في صورها والحصول في محسوسها والخبر في ملاذّها، فتعرِض عنها وينحل الرباط وينقصم الاتصال ويقع الفرقة والانفصال والعود إلى المعدن فائزة من سعادة العلم بمثل ما يأخذه السمسم من العدد والأنوار فلا يفارق ذهنه بعد ذلك ويتحد العاقل والعقل والمعقول ويصير واحداً.

.... وكان "ماني" نُفي من "إيرانشهر" فدخل أرض الهند ونقل التناسخ منهم إلى نحلته....

في ذكر الطبقات التي يسمونها ألواناً وما دونها

... وقد كان الملوك القدماء المعنيون بصناعتهم يصرفون معظم اهتمامهم إلى تصنيف الناس طبقات ومراتب يحفظونها عن التمازج والتهارج، ويحظرون الاختلاط عليهم بسببها، ويلزمون كل طبقة ما إليها من عمل أو صناعة وحرفة، ولا يرخصون لأحد في تجاوز رتبته ويعاقبون من لم يكتف بطبقته؛ وسِيَر أوائل الأكاسرة تفصح بذلك فلهم فيه آثار قوية لم يقدح فيه تقرب بخدمة ولا توسل برشوة حتى أن "أردشير بن بابك" عند تجديده ملك فارس جدد الطبقات وجعل الأساورة وأبناء الملوك في أولاها، والنساك وسدنة النيران وأرباب الدين في ثانيتها، والأطباء والمنجمين وأصحاب العلوم في ثالثتها، والزراع والصناع في رابعتها، على مراتب في كل واحدة منها تميز الأنواع في أجناسها على حدة بحيالها.

... وللهند في أيامنا من ذلك أوفر الحظوظ حتى أن مخالفتنا إياهم وتسويتنا بين الكافة إلاّ بالتقوى أعظم الحوائل بينهم وبين الإسلام، وهم يسمون طبقاتهم "بَرْن" أي الألوان ويسمونها من جهة النسب "جَاتَكُ" أي المواليد، وهذه الطبقات في أول الأمر أربع، علياها "البراهمة" قد ذكر في كتبهم أن خلقتهم من رأس "براهم" وأن هذا الاسم كناية عن القوة المسماة "طبيعة" والرأس علاوة الحيوان، فالبراهمة نقاوة الجنس ولذلك صاروا عندهم خيرة الأنس، والطبقة التي تتلوهم "كشتر" خلقوا

بزعمهم من مناكب براهم ويديه ورتبتهم عن رتبة البراهمة غير متباعدة جداً ودونهم "بَيش" خلقوا من رجلي براهم، وهاتان المرتبتان الأخيرتان متقاربان، وعلى تمايزهم تجمع المدن والقرى... ثم أصحاب المهن دون هؤلاء غير معدودين في طبقة غير الصناعة ويسمون "أنتز" وهم ثمانية أصناف بالحرف، ويتمازجون بما يشابهها من الحرف الأخر، سوى القصّار والاسكاف واللعّاب ونساج الزنابيل والأترسة والسفان وصياد السمك وقناص الوحوش والطيور والحائك فلا يساكنهم الطبقات الأربع في بلدة، وإنما يأوون إلى مساكن تقربها وتكون خارجها، وأما "هادي" و"دوم" و"جندال" ، "بَدْهَتَو" فليسوا معدودين شيء وإنما يشتغلون برذالات الأعمال من تنظيف القرى وخدمتها، وكلهم جنس واحد يميزون بالعمل كولد الزنا، فقد ذكر أنهم يرجعون إلى أب "شُودَر" وأم "برهمن" خرجوا منها بالسفاح فهم منفيون منحطون. ويلحق كل واحد من أهل الطبقات سمات وألقاب بحسب فعله وطريقته كالبرهمن مثلاً، فإن هذه سمته مطلقة إذا لزم بيته في عمله فإذا لزم خدمة نار واحدة لقب "آيشتِهى" وإذا خدم ثلاثاً من النار فهو "آكن هُوتري" وإذا قرّب للنار مع ذلك فهو "ديكْشِت" فكذلك هؤلاء إلاّ أن "هادي" أحمدهم لأنه يترفع عن القاذورات ويتلوه دوم لأنه يجنكي ويطرب. ومن بعدهما يترشح للقتل والعقوبات صناعةً ويتولاها، وشرهم "بدهَتو" فإنه لا يقتصر بأكل الميتة المعهودة ولكنه يتجاوزها إلى الكلاب وأمثال ذلك، وكل طبقة من الأربع فإنها تصطف في المؤاكلة على حدة، ولا يشتمل صف على نفرين مختلفي الطبقة، فإن كان في صف البراهمة مثلاً نفران منهم متنافران وتقارب مجلسهما فُرق بين المجلسين بلوح يوضع فيما بينهما أو ثوب يمد أو شيء آخر بل إن خُط بينهما تمايزاً، ولأن الفضلة من الطعام محرمة، فإنها توجب الانفراد بالمأكول لأنه إذا تناوله أحد المؤاكلين في قصعة واحدة صار ما بقي بتناول الآخر، وانقطاع أكل الأول فضلة محرمة. فهذه حال الطبقات الأربع وقد قال "باسيدو" حين سأله "آرجن" عن طباع الطبقات الأربع وما يجب أن يتخلقوا به من الأخلاق: يجب أن يكون "البرهمن" وافر العقل، ساكن القلب، صادق اللهجة، ظاهر الاحتمال، ضابطاً للحواس، مؤثراً للعدل، بادي للنظافة، مقبلاً على العبادة، مصروف الهمة إلى الديانة؛ وأن يكون "كشتر" مهيباً في القلوب شجاعاً، متعاظماً، ذلق اللسان، سمح اليد غير مبال بالشدائد حريصاً

على تيسير الخطوب وأن يكون "بيش" مشتغلاً بالفلاحة واقتناء السوائم والتجارة ؛ و"شودر" مجتهداً في الخدمة والتملق ، متحبباً إلى كل أحد بها ؛ وكل من هؤلاء إذا ثبت على رسمه وعادته نال الخير في إرادته إذا كان غير مقصر في عبادة الله ، غير ناسٍ ذكره في جل أعماله ، وإذا انتقل عمّا إليه إلى ما إلى طبقة أخرى وإن شرفت عليه كان إثماً بالتعدي في الأمر....

في منبع السنن والنواميس والرسل ونسخ الشرائع

قد كانت اليونانية تأخذ السنن والنواميس من حكمائهم المنتدبين لذلك المنسوبين إلى التأييد الإلهي مثل "سولن" و"دروقون" و"فيثاغورث" و"مينس" وأمثالهم ، وكذلك كان يفعله ملوكهم. فإن "ميانوس" لما تسلط على جزائر البحر و"الأقريطيين" وذلك بعد أيام موسى بقريب من مائتي سنة ، وضع لهم نواميس على أنها مأخوذة من "زوس" وفي ذلك الزمان وضع "مينس" النواميس ، وفي زمان "دارا" الأول الذي كان بعد "كورش" أنفذ الروم إلى أهل "أثينية" رسلاً وأخذوا منهم النواميس في اثني عشر كتاباً إلى ملكهم "فنفيلوس" ، وتولى وضع السنن لهم وصير شهور السنة اثني عشر بعد أن كانت لهم عشرة....

.... فهذا كان حال هؤلاء وعلى مثله أمر الهند فإنهم يرون الشريعة وسننها صادرة عن "رشين" الحكماء قواعد الدين دون الرسول ، الذي هو "نارايين" المتصور عند مجيئه بصور الإنس ، ولن يجيء إلاّ لحسم مادة شر يطل على العالم ، أو لتلافي واقع ولا عوض في شيء من أمر السنن وإنما تعمل بها ، كما تجدها فلأجل هذا وقع الاستغناء عن الرسل عندهم في باب الشرع والعبادة وإن وقعت الحاجة إليهم في مصالح البرية ؛ فأما نسخها فكأنه غير ممتنع عندهم لأنهم ، يزعمون أن أشياء كثيرة كانت مباحاً قبل مجيء "باسديو" ثم حرمت.......

...[بعض من عاداتهم]

.... وفي سير الهند وما يخالف رسوم أهل بلادنا في زماننا مخالفة تصير بها عندنا أعجوبة، ويخيل إلينا منهم في قلبها تعَمُّدٌ فإنّ تساوينا معاً في هذا العكس ونسبته إلى الغير؛ فمنها أنهم لا يحلقون شيئاً من الشعر وأصلهم العري لشدة الحر، كيلا تُعلي رؤوسهم بالإنكشاف، ويضفرون اللحى ضفائر صيانة لها، ويعملون في ترك شعر العانة أن حلقها مهيج للشهوة زائد في البلية، ثم لا يحلقها المولع منهم بالباءة الحريص على المباضعة، ويطولون الأظافر فخراً بالتعطل فإن المهن لا تتأتى معها واسترواحاً إليها في حك الرأس وفلي الشعر، ويأكلون أوحاداً فرادى على مندل السرقين، ولا يعودون إلى ما فضل من الطعام ويرمون بأواني المأكول إذا كانت خزفية، ويحمرون الأسنان بمضغ الفوفل بعد تناول ورق التنبول والنورة، ويشربون الخمر على الريق ثم يطعمون، ويحسون بول البقر ولا يأكلون لحمها، ويضربون الصنوج بمضارب، ويتسرولون بالعمائم، ثم المفرط منهم يكتفي من اللباس بخرقة قدر إصبعين يشدها على عورته بخيطين، والمفرط يلبس سراويل محشوة بقطن يكفي عدة لحف وبرادع مسدودة المنافذ لا يبرز منها القدمان والتكة إلى خلف، وصدورهم بالسراويل أشبه ومشدُّها بالشفاسق نحو الظهر، ويشقون أذيال القراطق إلى اليمين واليسار، ويضيقون الخفاف حتى يُبتدأ في لبسها وهي مقلوبة من السوق قبل الأقدام، ويبتدئون في الغسل بالرجل قبل الوجه، ويغتسلون ثم يجامعون، ويقفون في الباءة كعريش الكرم، والنساء يرهزن عليهم من تحت إلى فوق، كما يقمن بأمور الحراثة وأزواجهن في راحة، ويتضمخون في الأعياد بالأحثاء بدل العطر، ويلبس ذكورهم ملابس النساء من الصبغات والشنوف والأسورة وخواتيم الذهب في البناصر وفي أصابع الأرجل، ويترحمون على المأبون والمخنث منهم ويسمى "بُشَندل" يلتقم الأير بفمه ويستفرغ المنى ويبلعه، ويتوجهون نحو الحائط في الغائط ويكشفون السوءة نحو المار، ويعبدون "لِنك" وهو صورة أير "مهاديو"، ويركبون بغير سرج وإن أسرجوا ركبوا عن يمين الدابة ويحبون الأرداف في المسير،

ويشدون "الكتارة" وهي الخنجر في أوساطهم من الجانب الأيمن، ويتقلدون بالزنار المسمى "جنجوا" على العاتق الأيسر نحو الجنب الأيمن، ويستشيرون النساء في الآراء والعوارض، ويحسنون وقت الولادة إلى الرجال دون النساء، ويفضلون أصغر الإبنين وخاصة في مشارق أرضهم زاعمين أن كون أكبرهما عن شهوة غالبة، والأصغر عن قصد وفكرة وتؤدة، ويأخذون اليد في المصافحة، من جهة ظهر الكف، ولا يستأذنون للدخول في البيوت، ثم لا يخرجون من غير استئذان، ويتربعون في المجالس ويبزقون بالنخاعة غير محتشمين الكبراء، ويقصعون القمل بين أيديهم، ويتيمنون بالضرطة ويتشاءمون بالعطاس، ويستقذرون الحائك ويستنظفون الحجّام وقاتل المستميتة منهم بالأجرة إغراقاً وإحراقاً، ويسودون ألواح المكاتب للصبيان ويكتبون في طولها وعرضها بالبياض ومن اليسار نحو.

في ذكر برهماند

[قصة الخلق وصورة العالم]

تفسير "برهماند" هو بيضة "براهم" وتقع بالحقيقة على كل الأثير من جهة استدارته وشكل حركته بل على كل العالم من جهة انقسامه إلى الأعلى والأسفل، وهم إذا عدوا السماوات قالوا: إن جملتها "برهماند". وهؤلاء ممن عدموا الرياضة بعلم الهيئة ولم يتصوروها حق التصور، فلا يرون للسماوات غير السكون وخاصة لأنهم يجعلونها قرار الطوائف، يظنون بها الثقل والاعتماد نحو الأسفل إذا وصفوا نعيم الجنة بشبه المشاهد في الدنيا على الأرض، وفي مرموزاتهم الخبرية: إن الماء كان قبل كل شيء وموضع العالم ممتلئ به، ولا محالة أن ذلك في أول نهار النفس وابتداء التصور والتركيب، قالوا: وإن الماء أزبد بالتموج فبرز منه شيء أبيض خلق البارئ منه بيضة "براهم" فمنهم من يقول: إنها انفلقت وخرج منها براهم وصار السماء من أحد نصفيها والأرض من الآخر والأمطار من كسيرات ما بينهما، ولو قالوا الجبال لكانت أليق بها من الأمطار وأشبه، ومنهم من يقول إن الله تعالى قال لبراهم: إني خالق بيضة أجعلها لسكناك فيه، وخلقها من

زبد الماء المذكور فلما نضب وغاض كسر البيضة حينئذ بنصفين؛ وإلى قريب منه ذهب اليونانيون في "اسقليبيوس" المستبط لصناعة الطب، فإنهم على ما ذكر "جالينوس" إذا صوروه وضعوا في يده بيضة لتكون إشارة إلى كرية =كروية العالم ومثال الكل، وأن العالم كله محتاج إلى الطب، وليس اسقيبيوس بأدنى مرتبة من براهم فإنهم ذكروا فيه: إنه قوة إلهية اشتق لها هذا الاسم من فعلها، وهو منع اليبس لأن الموت عارض عند غلبة اليبس والبرد، وإن كانوا في النسبة الطبيعية يقولون فيه: إنه ابن "افوللن" وإنه ابن فلاغوراس وإنه ابن "قرومس" وهو كوكب زحل، كل ذلك لقوة التثليث؛ فأما تقدم الماء عند الهند في الخليقة فمن أجل أن به تماسك كلّ متهبٍ، ونمو كل نام وقوام الحياة في كل ذي روح، فهو للصانع آلة وأداة إذا قصد الصنعة، وبمثله نطق التنزيل في قول الله سبحانه وتعالى: "وكان عرشه على الماء" سواءً حمل من ظاهر اللفظ على جسم معين مسمى بهذا الاسم مأمور بتعظيمه، أو حمل على تأويل بالملك وما أشبهه، فالمعنى أنه لم يكن وقتئذ بعد الله غير الماء وعرشه؛ ولولا أن كتابنا مقصور على مقالات فرقة واحدة، لأوردنا من مقالات الفرق الذين كانوا ببابل وحولها في القديم ما يشبه حديث هذه البيضة ويزيد سخافة عليه؛ وأما إشارة الهند إلى تنصيف البيضة فهي من جهة أن صاحب هذا الكلام عامي لم يعرف إحاطة السماء بالأرض كإحاطة قشر "برهماند" بمخها لكنه تصور الأرض سفلاً والسماء علواً من إحدى جهاتها فقط، ولو تحقق الأمر لم يحتج إلى فلق البيضة، إلاّ أنه رام أن يبسط نصفها أرضاً وينصب النصف الآخر عليها قبة، ففاضل "بطليموس" في تسطيح الكرة ولكنه لم يفضله، وما زالت المرموزات كذلك يتناولها في التأويل كل آخذ بما يوافق عقيدته.....

تصورات الشمنية البوذية

...... فهذا ما وجدت من أقاويل الهند فيه، ولأني لم أجد كتاباً للشمنية ولا أحد منهم استشف من عنده ما هم عليه، فإني إذا حكيت عنهم فبواسطة "الإيرانشهري" وإن كنت أظن أن حكايته غير محصلة أو غير محصل، وقد ذكر عنهم

في "ميرو" : أنه وسط عوالم أربعة في الجهات الأربع ، مربع الأسفل مدور الأعلى ، طوله 80000 "جوزن" نصفه ذاهب في السماء ونصفه غائص في الأرض ، وجانبه الجنوبي الذي يلي عالمنا من ياقوت آسمانجوني وهو سبب ما يرى من خضرة السماء وباقي الجوانب من يواقيت حمر وصفر وبيض ، فهذا جبل ميرو المتوسط للأرض ؛ فأما "قاف"[1] الذي يسميه عوامنا فإنه عند الهند "لوكالوك" يزعمون أن الشمس تدور منه نحو جبل ميرو ولا تضيء منه غير جانبه الداخل الشمالي فقط....

في صورة السماء والأرض عند المنجمين منهم

... وأما الهند فإن كتبهم الملية والبرانات الخبرية تنطق كلها في هيئة العالم بما ينافي الحق الواضح عند منجميهم ، إلاّ أن القوم بها مضطرون في إقامة السنن وحمل السواد الأعظم عليها إلى الحسابات النجومية والتحذيرات الأحكامية ، فيظهرون الميل إليهم والقول بفضلهم والتيمن بلقياهم ، والقطع عليهم أنهم من أصحاب الجنة ، لا يدخل جهنم أحد. ومنجموهم يكافونهم بالتصديق والمطابقة على ما هم عليه وإن خالف أكثره الحق. ويقومون لهم بما يحتاج إليه منهم ولهذا امتزج الرأيان على الأيام فاضطرب الكلام الحاصل عند المنجمين وخاصة عند من يقلد ويأخذ الأصول بالأخبار ولا يذهب فيها مذهب التحقيق وهو أكثرهم ، فلنحك الآن ما هم عليه ونقول : إن السماء والعالم عندهم مستديران والأرض كرية الشكل ، نصفها الشمالي يبس ونصفها الجنوبي مغمور بالماء ومقدارها عندهم أعظم مما هو عند اليونانيين ، ومما وجده المحدثون ويجدونه قد انحرفوا فيها عن ذكر البحار والديبات والجوزن الكثيرة المقدرة لها ، واتبعوا أصحاب الملّة فيما ليس بقادح في الصناعة من كون جبل "ميرو" تحت القطب الشمالي وجزيرة "بروامخ" تحت القطب الجنوبي ، أما الجبل فسواء كان هناك أو لم يكن إذ المحتاج إليه منه خواص الدوران الرحاوي ، وهي بسبب المسامتة موجودة للموضع من بسيط

---

(1) جبل قاف : اعتقد أغلب الجغرافيين العرب ، أنه جبل كوني ، بدايته شرق الصين ونهايته في جنوب أفريقيا.

الأرض، ولما هو على سمته في الهواء، وأما الجزيرة الجنوبية فكذلك خبر غير ضار، على أنه ممكن بل كالواجب تقاطر ربعين من أرباع الأرض يابسين وتقاطر الآخرين في الماء مغمورين، فيرون الأرض في الوسط والأثقال مرجحنّة نحوها فلا محالة أنهم يرون السماء لذلك كرية الشكل....

فيما يخص البرهمن ويجب عليه مدى عمره أن يفعله [الدين وطبقة البراهما]

.... عمر البرهمن بعد مضي سبع سنين منه منقسم لأربعة أقسام، فأول القسم الأول هو السنة الثامنة يجتمع إليه البراهمة لتنبيهه وتعريفه الواجبات عليه وتوصيته بالتزامها واعتناقها ما دام حياً، ثم يشدون وسطه بزنار ويقلدونه زوجاً من "جنوجوى" وهو خيط مفتول من تسع قوي، وفرد ثالث معمول من ثوب، يأخذ على عاتقه الأيسر إلى جنبه الأيمن، ويعطى قضيباً يمسكه وخاتم حشيشة يسمى "دربهي" يتختم به في البنصر اليمنى، ويسمى هذا الخاتم "ببتر" والغرض فيه التيمن والبركة في عطاياه من تلك اليد، والتشديد فيه دون التشديد في أمر "جنجوى" فإن جنجوى مما لا يفارقه البتة، فإن وضعه[1] حتى أكل، أو قضى حاجته خالياً عنه كان بذلك مذنباً لا يمحصه عنه غير الكفارة بصوم أو صدقة؛ وقد دخل في القسم الأول إلى السنة الخامسة والعشرين من سنيه ووجدت ذلك في "بشن بران" إلى السنة الثامنة والأربعين، والذي يجب عليه فيها هو أن يتزهد ويجعل الأرض وطاءه ويقبل على تعلم "بيذ"[2] وتفسيره وعلم الكلام والشريعة من أستاذ يخدمه آناء ليله

(1) خلعه

(2) كتاب التعاليم المقدسة للديانة البراهمية.

ونهاره، ويغتسل كل يوم ثلاث مرات ويقيم قربان النار في طرفي النهار، ويسجد لأستاذه بعد القربان، ويصوم يوماً ويفطر يوماً مع الامتناع عن اللحم أصلاً، ويكون مقامه في دار الأستاذ ويخرج منها للسؤال والكدية من خمسة بيوت فقط كل يوم مرة عند الظهيرة أو المساء، فما وجد من صدقة وضعه بين يدي أستاذه ليتخير منه ما يريد، ثم يأذن له في الباقي، فيتقوت بما فضل منه، ويحمل إلى النار حطبها من شجرتي "بلاس" و"درب" لعمل القربان، فالنار عندهم معظمة وبالأنوار مقتربة وكذلك عند سائر الأمم، فقد كانوا يرون تقبل القربان بنزول النار عليه. ولم يثنهم عنها عبادة أصنام أو كواكب أو بقر وحمير أو صور، ولهذا قال بشار بن برد: والنار معبودة مذ كانت لنار؛ وأما القسم الثاني فهو من السنة الخامسة والعشرين إلى الخمسين وفي بشن بران بدل هذه الخمسين سبعون، وفيه يأذن له الأستاذ بالتأهل، فيتزوج ويقيم الكذخذاهية ويقصد النسل على أن لا يطأ امرأته في الشهر أكثر من مرة عقب تطهر المرأة من الحيض، ولا يجوز له أن يتزوج بامرأة قد جاوز سنها اثنتي عشرة، ويكون معاشه إما من تعليم البراهمة و"كشتر" وما يصل إليه منه فعلى وجه الإكرام لا على وجه الأجرة، وإما من هدية تهدى إليه بسبب ما يعمل لغيره من قرابين النار، وإما بسؤال من الملوك والكبار من غير إلحاح منه في الطلب أو كراهة من المعطي، فلا يزال يكون في دور هؤلاء برهمن يقيم فيها أمور الدين وأعمال الخير، ويلقب "بْرِهِتُ"، وإما من شيء يجتنيه من الأرض أو يلتقطه من الشجر، ويجوز له أن يضرب يده في التجارة بالثياب وبالفوفل، وإن لم يتولها واتجر له "بيش" كان أفضل لأن التجارة في الأصل محظورة بسبب ما يداخلها من الغش والكذب، وإنما رخص فيها للضرورة إذ لابد منها، وليس يلزم البرهمن للملوك ما يلزم غيره لهم من الضرائب والوظائف، فأما التتابع بالدواب والبقر والأصباغ والانتفاع بالربا فإنه محرم عليه، وصبغ النيل من بين الأصباغ نجس إذا مس جسده وجب عليه الاغتسال، ولا يزال يقلس ويقرأ على النار ما هم مرسوم لها؛ وأما القسم الثالث فهو من السنة الخمسين إلى الخامسة والسبعين، وفي بشن بران بدل الخمسة والسبعين تسعون، وفي هذا القسم يتزهد ويخرج من الكذخذاهية ويسلمها والزوجة إلى أولاده إن لم تصحبه إلى الإصحار، ويستمر خارج العمران على السيرة التي سارها في القسم الأول، ولا يستكن بسقف، ولا يلبس إلاّ ما يواري

سوءته من لحاء الشجر، ولا ينام إلاّ على الأرض بغير وطاء، ولا يتغذى إلاّ بالثمار والنبات وأصوله، ويطول الشعر ولا يتدهن؛ وأما القسم الرابع فهو إلى آخر العمر، يلبس فيه لباساً أحمر ويأخذ بيده قضيباً، ويقبل على الفكرة وتجريد القلب من الصداقات والعداوات ورفض الشهوة والحرص والغضب، ولا يصاحب أحداً البتة.

.... ولم يكن له غير الدؤوب على شرائط الطريق المؤدي إلى الخلاص والوصول إلى "موكش" الذي لا رجوع فيه إلى الدنيا....

.... والصلاة هي تسبيح وتمجيد وسجدة برسمهم على الإبهامين من الراحتين الملتصقتين نحو الشمس، فإنها القبلة أينما كانت خلا الجنوب، فليس يعمل شيء من أعمال الخير نحو هذه الجهة ولا يتقدم إليها إلا في كل شيء رديء. فأما نصف النهار فإنه مرشح لاكتساب الأجر، فيجب أن يكون فيه طاهراً، والمساء وقت العشاء والصلاة ويجوز أن يفعلهما فيه من غير اغتسال، فليس أمر الاغتسال الثالث مثل الأول والثاني في التأكد، وإنما الاغتسال الواجب عليه بالليل في أوقات الكسوفات بسبب إقامة شرائطها وقرابينها؛ وتغذي البرهمن في جميع عمره في اليوم مرتين عند الظهيرة والعتمة، فإذا أراد الطعام ابتدأ بإفراز الصدقة منه لنفر أو نفرين وخاصة للبراهمة المستوحشين الذين يجيؤون وقت العصر للسؤال، فإن التغافل عن إطعامهم إثم عظيم، ثم للبهائم والطير وللنار، ويسبّح على الباقي ويأكله، وما فضل منه فيضعه خارج الدار ولا يقرب منه إذ لا يحل له وإنما هو لمن سنح واتفق من محتاج إليه سواء كان إنساناً أو طائراً أو كلباً أو غيره، ويجب أن يكون آنية مائه على حده وإلا كُسرت، وكذلك آلات طعامه...........

.... ومحرم عليه بالنص خمسة أصناف من النبات هي: البصل والثوم والقرع وأصل نبات كالجزر يسمى "كَرِنَجنُ" ونبات آخر ينبت حول حياضهم يسمى "نالي".

فيما لغير البرهمن من الرسوم في عمره
[طبقات أخرى: كشتر، بيش، شودر]

أما "كشتر" فإنه يقرأ "بيذ" ويتعلمه ولا يعلمه، ويقرب للنار ويعمل بما في البرانات، وإن كان فيما ذكرنا من المواضيع التي يعمل فيها مندل للأكل عمله مثلثاً، ويسوس الناس ويقاتل عنهم فإنه مخلوق لذلك، ويتقلد فيداً من "جنجوى" المثلث وفرداً آخر كرباسياً، وذلك عند استتمام اثنتي عشرة سنة من سنه، وأما "بيش" فإليه الفلاحة والعمارة ورعي السوائم وإزاحة علل البراهمة، ويجوز أن يتقلد جنجوى واحداً فقط معمولاً من خيطين، وأما "شودر" فهو للبرهمن كعبد يتصرف في أشغاله ويخدمه، وإن أراد للتقشف أن لا يخلو من جنجوى تقلد الكرباسي فقط، وكل عمل يخص البرهمن من التسابيح وقراءة بيذ وقرابين النار فهو محظور عليه حتى إنه وبيش إن صح عليهما أنهما قرأا بيذ رفعتهما البراهمة إلى الوالي فقطع لسانهما، وأما ذكر الله وعمل البر والصدقة فهو غير ممنوع عنه، وكل من تعاطى ما ليس لطبقته أن يتعاطاه كالبرهمن التجارة و"شودر" الفلاحة فهو آثم........................ ثم سائر الناس دون جندال ممن ليسوا من الهند يسمون "امليچ" أي أنجاس وهم الذين يقتلون ويذبحون ويأكلون لحم البقر،

في ذكر القرابين

إن أكثر "بيذ" مشتمل على قرابين النار، وصفة كل واحد منها، وتختلف في المقدار حتى لا يقدر على بعضها إلاّ كبار الملوك، مثل "اسّميت" المعمول بالدابة المسرحة في العالم[1] ترتعي من غير مانع والجنود تتبعها وتسوقها وتنادي عليها: إنها لملك العالم فليبرز إليها من يأبى ذلك، والبراهمة خلفها تقيم قرابين النار عند

---

[1] يقصد البقرة المقدسة.

روثها، فإذا جالت أكناف العالم كانت طعمة للبراهمة ولصاحبها، وتخلف أيضاً في المدة حتى لا يقدر عليها إلاّ من طال عمره وذلك معدوم في هذا الزمان، فلذلك تعطل كثير منها وبقي القليل للاستعمال؛ والنار عندهم أكالة لجميع الأشياء، ولذلك تتنجس من مداخلة النجاسات إياها كالماء، وبسبب ذلك لا يتساهل الهند فيهما إذا كانا عند من ليس منهم لتنجسهما به، وما أطعمت النار من نصيبها فهو راجع إلى "ديو" لأنها تخرج من أفواههم، والذي يطعمها البرهمن هو دهن وحبوب مختلفة من حنطة وشعير وأرز يلقيها فيها، ويقرأ من بيذ ما هو مفروض لذلك...

في الحج وزيارة المواضع المعظمة

ليس الحج عندهم من المفروضات وإنما تطوع وفضيلة، وهو أن يقصد الحاج أحد البلاد الطاهرة أو أحد الأصنام المعظمة أو أحد الأنهار المطهرة، فيغتسل بها ويخدم الصنم ويهدي إليه ويكثر التسبيح والدعاء ويصوم ويتصدق على البراهمة والسدنة وغيرهم ويحلق رأسه ولحيته وينصرف؛ فأما الحياض الطاهرة المعظمة فإنها في الجبال الباردة حول "ميرو" والذي في "باجِ بران" وفي "مج بران"........ وفي شمال كيلاس جبل "كَورُ" وفي سفحه حوض "بندَسَرِّ" أي الذي رمله ذهب، وعنده تزهّد "بَهَكِيرث" الملك...... ومنها بلد "ماهورة" المشحون بالبراهمة، وتعظيمه بسبب ولادة باسديو فيه وتربيته في "نندكول" بالقرب منه، و"كشمير" الآن مقصود، وكان "المولتان" كذلك قبل تخريب بيت صنمه............

في المباح والمحظور من المطاعم والمشارب

الإماتة في الأصل محظورة عليهم بالاطلاق كما هو على النصارى والمانوية، ولكن الناس يقرمون[1] إلى اللحم وينبذون فيه وراء ظهورهم كل أمر ونهي،

---

[1] يأكلون، قرم الطعام أكله.

فيصير ما ذكرناه مخصوصاً بالبراهمة لاختصاصهم بالدين ومنع الدين إياهم عن اتباع الشهوات، كالمثال فيمن هو فوق أساقفة النصارى من "مطران" و"جاثليق" و"بطرك" دون من يسفل عنهم من "قس" و"شماس" إلاّ من ترهبن منهم زيادة على رتبته، وإذا كان الأمر على هذا أبيحت الإماتة بالتحنيق وإمساك النفس في بعض الحيوان دون بعض، وحرمت الميتة من المباحات إذا ماتت حتف أنفها؛ فأما المباحات فهي الضأن والمعز والظباء والأرانب و"كنده" القرني الأنف والجواميس والسمك والطير المائية والبرية منها كالعصافير والفواخت والدراريج والحمام والطواويس، وما لا يعافه النفس مما لم يرد به حظر، والمنصوص على تحريمه البقر والخيل والبغال والأحمرة والأبعرة والفيلة والدجج الأهلية والغربان والببغاء والشارك وبيض جميعها بالإطلاق والخمر إلاّ لشودر، فإن شربها مباح له وبيعها محظور عليه كبيع اللحم؛ وقد قال بعضهم أن البقر كان قبل "بهارث" مباحاً ومن القرابين ما فيه قتل البقر إلاّ أنه حرم بعد بهارث لضعف طباع الناس عن القيام بالواجبات، كما جعل "بيذ" وهو في الأصل واحد أربعة أقسام تسهيلاً على الناس، وهذا كلام قليل المحصول فإن تحريم البقر ليس بتخفيف ورخصة وإنما هو تشديد وتضييق، وسمعت غير هؤلاء يقولون أن البراهمة كانت تتأذى بأكل لحمان البقر، لأن بلادهم جروم وبواطن الأبدان فيها باردة والحرارة الغريزية فيها فاترة والقوة الهاضمة ضعيفة يقوونها بأكل أوراق التنبول عقب الطعام ومضغ الفوفل، فيلهب التنبول بحدته الحرارة وينشف ما عليه من النورة البِلّة ويشد الفوفل الأسنان واللثة ويقبض المعدة، ولما كان كذلك حظروه للغلظ والبرودة، وأنا أظن في ذلك أحد أمرين، أما السياسة فإن البقر هي الحيوان الذي يخدم في الأسفار بنقل الأحمال والأثقال والفلاحة بالكرب والزراعة وفي الكذخذاهية بالألبان وما يخرج منها، ثم ينتفع بأخثائه بل في الشتاء بأنفاسه، فحرم كما حرمه الحجاج لما شكي إليه خراب السواد، وحكى لي أن في بعض كتبهم: أن الأشياء كلها شيء واحد وفي الحظر والإباحة سواسية؛ وإنما تختلف بسبب العجز والقدرة، فالذئب يقتدر على حطم الشاة فهي أكلته والشاة تعجز عنه وقد صارت فريسته، ووجدت في كتبهم ما شهد بمثله...

في المناكح والحيض وأحوال الأجنة والنفاس

النكاح مما لا يخلو منه أمة من الأمم، لأنه مانع عن التهاريج المستقبح في العقل وقاطع للأسباب التي تهيج الغضب في الحيوان حتى يحمل على الفساد، ومن تأمل تزاوج الحيوانات واقتصار كل زوج منها بزوجة وانحسام أطماع غيره عنهما استوجب النكاح واحتوى السفاح أنفه للقصور عن رتبة ما هو دونه من الحيوانات؛ ولكل أمة فيه رسوم وخاصة من ادعى منهم شريعة وأوامر إلهية، ومن شأن الهند أن يكون التزويج فيهم على صغر السن ولذلك يعقده الأبوان لأبنائهم، فيقيم البراهمة فيه رسوم القرابين ويبث فيهم وفي غيرهم الصدقات، وتظهر آلات الأفراح، ولا يسمى بينهما مهر، وإنما يكون فيه للمرأة صلة بحسب الهمة ونحلة معجلة لا يجوز ارتجاعها إلا أن تهبها المرأة بطيبة من نفسها، ولا يفرق بين الزوجين إلاّ الموت إذ لا طلاق لهم، وللرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة إلى أربع، وما فوق الأربع محرم عليه إلاّ أن تموت إحداهن من تحت يده فيتمم العدد بغيرها ولا يتجاوزه، وأما المرأة إذا مات زوجها فليس لها أن تتزوج، وهي بين أحد أمرين — إما أن تبقى أرملة طول حياتها وإما أن تحرق نفسها وهو أفضل حاليها لأنها تبقى في عذاب مدة عمرها، ومن رسمهم في نساء ملوكهم الإحراق شئن أم أبين احتراساً عن زلة تندر منهن، ولا يتركون منهن إلا العجائز أو ذوات الأولاد إذا تكفل الإبن بصيانة الأم وحفظها؛ والقانون في النكاح عندهم أن الأجانب أفضل من الأقارب، وما كان أبعد في النسب من الأقارب فهو أفضل مما قرب فيه، فأما ما جرى على استقامة إلى أسفل أعني ابنة الأولاد وأولاد الأولاد وإلى أعلى من أم وجدة وأمهاتهن فمحرم أصلاً، وأما ما انحرف عن الاستقامة وتفرع إلى الجانبين من أخت وبنت أخت وعمة وخالة وبناتهما فكذلك في التحريم إلاّ أن يتباعد الأنسال خمسة أبطن متوالية في الأولاد، فيزول التحريم حينئذ مع بقاء الكراهة، ومنهم من يرى عدة النساء بحسب الطبقات حتى يكون للبرهمن أربعاً ولكشتر ثلاثاً ولبيش اثنتين ولشودر واحدة، ويجوز لكل واحد من أهل الطبقات أن يتزوج في

طبقته وفيما دونها، ولا يحل له أن يتزوج من طبقة فوق طبقته، ويكون الولد منسوباً إلى طبقة الأم دون الأب، فإن كانت امرأة البرهمن مثلاً برهمناً كان الولد كذلك وإن كانت شودرا كانت شودراً، ولكن البراهمة في زماننا وإن حل لهم ذلك لا يفعلونه ولا يتجاوزون في التزويج غير طبقتهم؛ وأما الحيض فإن أكثره بالرؤية ستة عشر يوماً وبالتحقيق هو الأربعة الأيام الأولى، وإتيان المرأة فيها محظور بل قربها في البيت كذلك فإنها حينئذ نجسة، فإذا انقضت الأيام الأربعة واغتسلت طهرت وحل اتيانها، وإن لم ينقطع عنها الدم فإن ذلك ليس بحيض وإنما هو مادة للأجنة، وواجب على البرهمن إذا أراد إتيان النساء طلباً للولد أن يقيم قرباناً للنار يسمى "كَرْبادَهَن" وإنما لا يفعل لأنه يحتاج فيه إلى حضور المرأة والحياء يمنع عن ذلك، فيؤخر ويجمع إلى الذي يتلوه في الشهر الرابع من الحبل ويسمى "سيمَنْتُونَن"، فإذا وضعت المرأة حملها أقيم قربانٌ ثالث بعد الولادة وبين الإرضاع يسمى "جَاتَ كَرْم" ولا يسمى باسم إلاّ بعد انقضاء أيام النفاس، وقربان الاسم يسمى "نَامَ كَرْم". وما دامت المرأة نفساء لم تقرب من آنية ولم يؤكل في دارها شيء ولم يوقد ناراً فيها "برهمن"، وتلك الأيام تكون لبرهمن ثمانية ولكشتر اثني عشر ولبيش خمسة عشر ولشودر ثلاثين، ومن دونهم فغير معدود ليس له في الرسوم حد محدود، وأكثر الرضاع ثلاثة أحوال من غير وجوب، والعقيقة في الثالثة وثقب الأذن عندهم، كما شرط "اصبهبذ كابل" أيام فتحها وإسلامه أن لا يأكل لحم بقر ولا يتلوط، وليس الأمر عندهم كما يُظن ولكنهم لا يشددون في العقوبة عليه، والآفة فيه من جهة ملوكهم، فإن اللواتي تكن في بيوت الأصنام هن للغناء والرقص واللعب لا يرضى منهن "برهمن" ولا سادن بغير ذلك،[1] ولكن ملوكهم جعلوهن زينة للبلاد وفرحاً وتوسعة على العباد، وغرضهم فيهن بيت المال ورجوع ما يخرج منه إلى الجند إلية من الحدود والضرائب، وهكذا كان عمل عضد الدولة وأضاف إليه حماية الرعية من عزّاب الجند.

(1) ينفي أ، يكون العهر المقدس شأناً دينياً، ويعيده إلى السياسة وإلى رغبة الملوك في جمع المال، وهو عكس ماذهب إليه أغلب المؤلفون العرب.

في الدعاوي

القاضي يطالب المدعي بالكتاب المكتوب على المدعى غليه بالخط المعروف المرشح لأمثاله والبينة المثبتة فيه، فإن لم يكن فالشهود بغير كتاب، ولا أُقل في عددهم من أربعة فما فوقها إلاّ أن تكون عدالة الشاهد مقررة عند القاضي فيُجيزها ويقطع الحكم بشهادة ذلك الواحد، من غير أن يترك التجسس في السر والاستدلال بالعلامات في العلانية، وقياس بعض ما يظهر له إلى بعض، والاحتيال لاستنباط الحقيقة كما كان يفعله إياس بن معاوية، فإن عجز المدعي عن إقامة البينة لزم المنكر اليمين، ويجوز أن يصرفه إلى المدعي ويقلبه عليه فيقول له: احلف أنت على صحة دعواك حتى أخرجها إليك؛ والأيمان أجناس كثيرة بحسب مقدار الدعوى، فبالشيء اليسير مع رضاء الخصم باليمين يقول بين يدي خمسة نفر من علماء البراهمة: إن كنت كاذباً فله من ثواب أعمالي ما يساوي ثمانية أضعاف ما يدعيه علي، وفوق هذه اليمين: أن يعرض عليه شرب "البيش" المعروف ببرهمن وهو شر أنواعه، فإنه إن كان صادقاً لم يضره شربه، وفوق هذه: أن يجاء به إلى نهر شديد الجري عميق القرار، أو إلى بئر بعيدة القعر كثيرة الماء فيقول للماء: أنت من أطهار الملائكة عارف بالسر والعلانية فاقتلني إن كنت كاذباً واحرسني إن كنت صادقاً، ثم يحتوشه خمسة نفر ويلقونه فيه، فإنه إن كان صادقاً لم يغرق فيه ولم يمت، وفوق هذه: أن يوجه القاضي كلا الخصمين إلى موضع أشرف أصنام تلك المدينة أو المملكة، فيصوم المنكر عنده ذلك اليوم، ثم يلبس ثياباً جدداً بالغد ويقف هناك مع خصمه، ويصب السدنة على الصنم ماءً ويسقونه إياه، فإنه إن كان كاذباً قاء الدم من ساعته....

في العقوبات والكفارات

مثال الحال فيهم على شبيه بحال النصرانية فإنها مبنية على الخير وكف الشر، من ترك القتل أصلاً ورمي القمصان خلف غاصب الطيلسان، وتمكين لاطم الخد من الخد الأخرى، والدعاء للعدو بالخير والصلوات عليه، وهي لعمري سيرة

فاضلة ولكن أهل الدنيا ليسوا بفلاسفة كلهم، وإنما أكثرهم جهّال ضلاّل لا يقومهم غير السيف والسوط، ومذ تنصّر "قسطنطينوس" المظفر لم يسترح كلاهما[1] من الحركة فبغيرهما لا تتم السياسة، كذلك الهند، فقد ذكروا أن أمور الإيالة والحروب كانت فيما مضى إلى البراهمة وفي ذلك كان فساد العالم من جهة أنهم أجروا السياسة على مقتضى كتب الملة من السيرة العقلية ولم يطّرد ذلك لهم مع ذوي العيث والزعارة، وكاد الأمر يعجزهم عن القيام بما إليهم وجعل السياسة والقتال إلى "كشتر"، ولذلك صار معاش البراهمة من السؤال والكدية، وحصلت العقوبات في الناس بالذنوب من جهة الملوك لا العلماء، فأما أمر القتل فإن القاتل إذا كان برهمناً والمقتول من سائر الطبقات لم يلزمه إلاّ كفارة، وهي تكون بالصوم والصلاة والصدقة، وإن كان المقتول برهمناً أيضاً كان أمره إلى الآخرة ولم يجزه كفارة إذ الكفارة تمحو الذنوب، وليس شيء يمحو من البرهمن كبائر الآثام وعظماها قتل البرهمن، ويسمى وزره "برهم هَت"، ثم قتل البقر ثم شرب الخمر ثم الزنا، وخاصة مع من هو لأبيه أو لأستاذه، على أن الولاة لا يقتصون من "برهمن" أو "كشتر" ولكنهم يستصفون ماله وينفونه من ممالكهم، وأما من دون البراهمة وكشتر فإن قتل بعضهم بعضاً يكفر بكفارة، ولكن الولاة يقيمون فيهم القصاص للاعتبار؛ وأما السرقة فعقوبة السارق بمقدارها، فإنها ربما أوجبت التنكيل بالإفراط والتوسط وربما أوجبت التأديب والتغريم وربما أوجبت الاقتصار على الفضيحة والتشهير، فإن كان المقدار عظيماً سمل الولاة البرهمن أو قطعوه من خلاف، وقطعوا كشتر ولم يسملوه وقتلوا غيرهما، وعقوبة الزانية أن تخرج من بيت الزوج وتنفى....

في المواريث وحقوق الميت فيها

الأصل عندهم في المواريث سقوط النساء منها ما خلا الابنة، فإن لها ربع ما للابن بنص على ذلك في كتاب "مَنُ"، فإن لم تكن متزوجة أنفق عليها إلى وقت

---

[1] يقصد أنه بعد قسطنطين استعملت السلطة الزمنية المسيحية العقاب: السيف والسوط.

التزويج وكان جهازها من ميراثها، ثم قطعت النفقة حينئذ عنها، وأما الزوجة فإنها إن لم تحرق نفسها وآثرت الحياة كان على الوارث رزقها وكسوتها ما دامت، وديون الميت على الوارث يقضيها مما ورث، أو من صلب ماله سواءً خلف الميت شيئاً أو لم يخلف، وكذلك النفقات المذكورة تلزمه على كل حال؛ والأصل في الورثة وهم ذكران لا محالة أن الأسفل عن الميت أوكد أمراً وأحق بالإرث من الذي يعلوه، أعني أن الابن وأولاده أولى من أبن الابن، والأب أولى من الجد.، ثم ما كان في جنبة واحدة من السفل والعلو فالأقرب إلى الميت أولى من الأبعد عنه، أعني أن الابن أولى من ابن الابن والأب أولى من الجد، وما عدل عن الاستقامة النسلية كالإخوة فأضعف ولا يورثون إلاّ عند عدم الأقوى، فمعلوم من ذلك أن ابن الابنة أولى من ابن الأخت، وأن ابن الأخ أولى من كليهما، فإن كانوا عدة في جنس واحد كالأبناء أو كالأخوة فالقسمة بينهم بالسوية، وخنثاهم في جملة الذكران، فإن لم يكن الميت برهمناً، فليس للوالي على تركته سبيل ولكنها تكون للصدقة فقط؛ وأما ما لزم الوارث إقامته من حقوق الميت في السنة الأولى فهو ست عشرة ضيافة يطعم فيها ويتصدق منها في كل واحد من اليوم الحادي عشر والخامس عشر من يوم موته وفي كل شهر مرة، وللتي في سادس الشهور منها مزية على غيرها في الكثرة والجودة، وقبل تمام السنة بيوم وهي تكون له وللأجداد ثم خاتمة السنة وقد انقضت حقوقه بانقضائها، فإن كان الوارث ابناً وجب عليه الحداد والحزن واجتناب النساء طول هذه السنة، ويجب عليهم مع ما ذكرنا من الصدقات الست عشرة أن يهيؤوا فوق باب الدار شبه رف بارز من الجدار مكشوف للسماء يضعون عليه كل يوم قصعة طبيخ وكوز ماء إلى تمام عشرة أيام من وقت الموت، عسى أن الروح لم تستقر بعد فتشرد حول الدار في جوع أو عطش؛ وإلى قريب منه أشار "سقراط" في كتاب "فادن" في النفس الحائمة حول المقابر لما عسى أن يكون فيها من بقية المحبة الجسدانية، وفي قوله: قد قيل في النفس أن من عادتها أن تجمع من كل واحد من أعضاء الجسد شيئاً ينضم ويكون في هذا العالم سكناه وفي الذي بغده إذا فارقت الجسد وانحلت منه بموته، ثم في عاشر هذه الأيام يتصدق باسمه طعام كثير وماء بارد، وبعد اليوم الحادي عشر يوجه كل يوم من الطعام ما يكفي نفساً واحدة ودرهم معه إلى بيت "برهمن" ويداوم ذلك طول أيام السنة ولا يقطع إلى آخرها.

في حق الميت في جسده والأحياء في أجسادهم

كانت أجساد الموتى فيما مضى من الأزمنة الأولى تدفع إلى السماء بأن تلقى في الصحارى مكشوفة لها ويخرج المرضى إليها وإلى الجبال ويتركون فيها، فإن ماتوا كانوا كما قلنا وإن أبلّوا رجعوا بأنفسهم إلى منازلهم، ثم جاء بعد ذلك من تولى وضع السنن وأمرهم بدفعها إلى الريح، فأقبلوا على بناء بيوت مسقفة بحيطان مشبكة يهب الريح منها عليها على مثال الحال في نواويس المجوس، ومكثوا على ذلك برهة إلى أن رسم لهم "نارايِن" دفعها إلى النار فمنذ ذلك الوقت يحرقونها فلا يبقى منها شيء من وضر أو عفونة أو رائحة إلا ويتلاشى بسرعة ولا يكاد يتذكر؛ والصقالبة في زماننا يحرقون الموتى ويتخيل من جهة اليونانيين أنهم كانوا فيهم بين الإحراق وبين الدفن...

فأما الهند فيرون من حق جثة الميت على الورثة أن تغسل وتعطر وتكفن ثم تحرق بما أمكن من صندل أو حطب، وتحمل بعض عظامه المحترقة إلى نهر "كنك" وتلقى فيه ليجري عليها كما جرى على عظام أولاد "سكر" المحترقة فأنقذهم من جهنم وحصلهم في الجنة، وباقي رماده يطرح في بعض الأودية الجارية، ويقبر موضع احتراقه ببناء شبه ميل عليه مجصص، ولا يحرق من الأطفال ما قصر سنه عن ثلاث، ثم يغتسل من يتولى ذلك مع ثيابه يومين بسبب جنابة الميت، ومن عجز عن الإحراق مال به إلى الإلقاء في الصحراء أو في الماء الجاري؛ وأما حق الحي في جسده فلا يميل فيه إلى الإحراق إلا الأرملة التي تؤثر اتباع زوجها أو الذي مل حياته وتبرم بجسده من مرض عياء وزمانة لازمة أو شيخوخة وضعف، ثم لا يفعله مع ذلك ذو فضيلة وإنما يؤثره "بيش" أو "شودر" في الأوقات المرجوة الفاضلة طلباً لحال أفضل مما هو عليه عند العود، ولا يجوز ذلك بالنص لبرهمن أو "كشتر" ولأجل هذا يقتل نفسه من يقتلها منهم في أوقات الكسوف أو يستأجر من يغرقه في نهر "كنك" ويتولى إمساكه حتى يموت؛ وعلى ملتقى نهري "جمن" و"كنك" شجرة

عظيمة تعرف ببرياك من جنس الشجر التي تسمى بر ، وخاصيتها أنه يبرز من فروعها نوعان من الأغصان أحدهما إلى فوق كما سائر الأشجار والآخر إلى أسفل على هيئة العروق غير مورق، فإن دخل الأرض صار للغصن بمنزلة العماد، وهيئ لها ذلك لفرط انبساط فروعها، وعند هذه الشجرة المذكورة يقتل أولئك أنفسهم بأن يصعدونها ويرمون بأنفسهم إلى ماء كنك....

في الصيام وأنواعها

الصيام كلها عندهم تطوع ونوافل ليس منها شيء مفروض، والصوم هو إمساك عن الطعام مدة ما، ثم يختلف بمقدر المدة وبحسب صورة الفعل، فأما الأمر المتوسط الذي به تحصل شريطة الصوم فهو أن يعين اليوم المصوم ويضمر اسم من يتقرب به إليه ويصام لأجله من الله أو أحد الملائكة أو غيرهم، ثم يتقدم هذا الفاعل ويجعل طعامه في اليوم الذي قبل يوم الصوم عند الظهيرة وينظف الأسنان بالتخليل والسواك وينوي صوم الغد، ويمتنع من وقتئذٍ عن الطعام، فإذا أصبح يوم الصوم استاك ثانية واغتسل وأقام فرائض يومه، وأخذ بيده ماءً ورمى به في جهاته وأظهر اسم من يصوم له بلسانه وبقي على حاله إلى غد يوم الصوم، فإذا طلعت الشمس فهو بالخيار في الإفطار إن شاءه في ذلك الوقت وإن شاء أخره إلى الظهيرة، فهذا النوع يسمى "أوب باس" وهو الصوم لأن الأكل إذا كان من الظهيرة إلى الظهيرة يسمى "يك نكد" ولا يسمى صوماً؛ ومنه نوع آخر يسمى "كرجر" وهو: أن يطعم في وقت الظهيرة وفي اليوم الثاني وقت العتمة، ولا يأكل في اليوم الثالث إلا ما يدفع إليه غير مطلوب، ثم يصوم اليوم الرابع، ومنه ما يسمى "براك" وهو: أن يجعل طعامه وقت الظهيرة ثلاثة أيام متوالية، ثم يحوله إلى وقت العتمة ثلاثة أيام متوالية، ثم يصوم ثلاثة أيام متوالية لا يفطر فيها البتة، ومنه نوع يسمى "جندارين" وهو: أن يصوم يوم الاستقبال ويتناول في اليوم الذي يتلوه من الطعام قدر مضغة ملء الفم ويضعفها في اليوم الذي بعده ويجعلها في اليوم الثالث ثلاثة أضعاف إلى أن يبلغ يوم الاجتماع على هذا التزايد، فيصومه ثم يتراجع من المقدار

الذي بلغه طعامه بنقصان مضغة مضغة، إلى أن يفنى عند بلوغ الاستقبال، ومنه نوع يسمى "ماسوّاس" وهو: أن يصوم بالوصال أيام شهر متوالية لا يفطر فيها بتّة؛ ثم يفصّلون ثواب هذا الصوم في الشهور عند العود بعد الممات....

ومن واصل جميع الشهور فلم يفطر في السنة إلاّ اثنتي عشرة مرة مكث في الجنة عشرة آلاف سنة وعاد منها إلى أهل بيت ذي شرف ورفعة وحسب...

و

الإدريسي. أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس الحسيني.

كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق.

مكتبة الثقافة الدينية.

دون مكان وتاريخ

الجزء الأول

مختارات من الإقليمين الأول و الثاني

الجزء التاسع من الإقليم الأول
Sectio nona

وأهل الإقليم الأول كلهم سمر أو سود، فأما أهل الهند والسند والصين وكل من احتضن منهم البحر فألوانهم سمر، وأما أهل الصحارى من الزنج والحبشة والنوبة وسائر السودان الذين سبق ذكرهم فلقلّة الرطوبة البحرية وتوالي إحراق الشمس لهم ومرها عليهم دائماً تفلفلت شعورهم، واسودت ألوانهم وأنتنت أعراقهم، وتقشفت جلود أقدامهم وتشوهت خلقهم، وقلّت معارفهم، وفسدت أذهانهم.......

الجزء السابع
Sectio septima

إن المدائن التي في هذا الجزء السابع من الإقليم الثاني هي كيه وكيز وأرمابيل وبند وقصرقند وفيربوز والحور وقنبلي ومنجابري والديبل والنيرون والمنصورية وونـدان وأصقفه ودزك وماسورجان وقزدار وكيزكانان وقديرا وبسمد والطويران والملتان والجندور والسندور والرور وأتري وقالري وبشرا ومسوام وسدوسان وبانيه ومامهل وكنبايه وسوباره وسندان وسيمور وأساول وفلقهره وراسك وشروسان وكوشه وكشد وسوره ومنهه ومحياك ومالون وقايرون وبلين.............

وفي كل هذه الأقاليم أمم وعالم مختلفو الأديان واللباس والعادات، وها نحن لكل ذلك وأصفون وعنه بما صح من ذلك مخبرون وبالله التوفيق..................

فأما جنوبه ففيه مدينة الديبل ومدينة الديبل كثيرة الناس جدبة الأرض قليلة الخصب ليس بها شجر ولا نخل، وجبالها جرد وسهولها قشفة عديمة النبات وأكثر بنيانهم بالطين والخشب، وإنما سكنها أهلوها بحسب أنها فرضة لبلاد السند وغيرها وتجارات أهلها من وجوه شتى وأسباب متفرقة يتصرفون فيها.

وأيضاً أن مراكب العمانيين تقصدها بأمتعتها وبضائعها وقد ترد عليها مراكب الصين والهند بالثياب والأمتاع الصينية والأفاوية العطرية الهندية فيشترون من ذلك جزافا لأنهم أهل يسار وأموالهم كثيرة ويمسكونها حتى

إذا ما سارت المراكب عنهم وخلت السلع أخرجوا أمتعتهم وباعوا وسافروا إلى البلاد، وقارضوا وتصرفوا في أموالهم كيف شاءوا.

وبين الديبل وموقع نهر مهران الأعظم ستة أميال في جهة المغرب منا.

.... ومهران يأتي من منبعه حتى إذا وصل إلى مدينة قالري التي هي في غربي النهر، وبينهما وبين المنصورة مرحلة، انقسم قسمين وسار معظمه إلى المنصورة ومر الذراع الثاني منه آخذا مع الشمال إلى ناحية سدوسان.................................

ومدينة المنصورة محدثة بناها المنصور من بني العباس في صدر ولايته فنسبت إليه وبنا هذا الملك الملقب بالمنصور أربع مدن بأربعة طوالع وقد رأى في علمه في ذلك أنها لا تخرب أبداً، وأحد هذه البلاد الأربعة بغداد في العراق. وهذه المنصورة في السند والمصيصة على بحر الشام والرافقة بأرض الجزيرة.

والمنصورة مدينة كبيرة فيها بشر كثير وتجار مياسير وأموال ماشية وزروع وحدائق وبساتين، وبناها باللبن والآجر والجص وهي فرجة المساكن ولأهلها نزهات وأيام راحات، والتجار بها كثيرون والأسواق قائمة والأرزاق دارة وزيهم ولباس عامتهم زي العراقيين، وملوكهم يتشبهون بملوك الهند في لباس القراطق وإسبال الشعور. ودراهمهم فضة ونحاس ووزن الدرهم عندهم خمسة دراهم، وربما جلبت إليهم الدراهم الطاطرية فيتعاملون بها. ويصاد بهذه المدينة حوت كثير واللحم بها رخيص والفواكه مجلوبة إليها وبها أيضاً فواكه.

.... والرور مدينة حسنة كثيرة الناس حفيلة كثيرة الجمع عامرة الأسواق نافقة التجارات، وهي حصينة عليها سوران ويمر النهر بها من جهة المغرب وأهلها في رفاهة وخصب عيش وهي في قدرها تضاهي الملتان......

ومدينة قالري على شط نهر مهران السند وفي غربيه وهي مدينة حسنة حصينة محاسنها ظاهرة وخيراتها وافرة ومتاجرها رابحة. وعلى قرب منها بجهة الغرب ينقسم نهر مهران قسمين فيمر معظمه غرباً حتى يصل ظهر المدينة المسماة بالمنصورة وهي في غربيه وينزل القسم الثاني مع الشمال وأكثره في جهة المغرب ثم يمر آخذاً في جهة الشمال، ثم في جهة الغرب حتى يتصل بصاحبه أسفل المنصورة على نحو إثني عشر ميلاً.

ومدينة قالري مدينة متنحية عن الطرق، وقاصدها كثير لحسن معاملات أهلها، ومنها إلى المنصورة مرحلة كبيرة يكون عدد أميالها أربعين ميلاً ومن قالري إلى مدينة شروسان ثلاث مراحل. ومدينة شروسان جليلة المقدار كثيرة العيون والأنهار أسعارها رخيصة ونعمها ممكنة ولأهلها كفاف مال وتجارتهم حسنة والقاصد إليهم كثير والبضائع عندهم نافقة.

ومنها إلى مدينة منجابري ثلاث مراحل غرباً ومدينة منجابري مدينة في وطاء من الأرض حسنة البناء بهيجة الأرجاء ولها مزارع وبها جنات وشرب أهلها من العيون والأنهار ومن هذه المدينة إلى مدينة فيربوز ست مراحل وكذلك من مدينة منجابري إلى الديبل مرحلتان والطريق من الديبل إلى فيربوزعلى منجابري.

..... وأما مدينة فيربوز فمدينة عامرة بالناس والتجار و أهلها أصحاب أموال وفيهم حسن معاملة وسلامة واجتناب الريب، وهم في ذاتهم أعفاء نبلاء ومدينة فيربوز من بلاد مكران. ومن مدنها أيضاً كيز ودزك وراسك وهي مدينة الخروج ومدينة به وبند وقصرقند وأصقفه وفلفهره ومشكى والتيز والبلين وهذه كلها من مدن مكران، وهي بلاد متصلة ونواح واسعة عريضة والغالب عليها المفاوز والقحط والضيق. وأكبر مدنها مدينة كيز وهي تقارب الملتان في مقدارها وبها نخيل كثير ومزارع متصلة وأسعار موافقة وتجارات كثيرة. وبقربها في جهة المغرب مدينة التيز. والتيز على البحر مدينة صغيرة

مشهورة عامرة تقصدها مراكب فارس، ويسافر إليها من مدينة عمان، ومن جزيرة كيش في وسطِ بحر فارس إليها نحو مجرى وافر، ومن التيز إلى كيز نحو من خمس مراحل ومن كيز إلى فيربوز مرحلتان كبيرتان.

وبين مدينة كيز ومدينة أرمابيل إقليمان متجاوران يسمى أحدهما الراهون والآخر كلوان، فأما كلوان فهي من مكران وتنضم إلى أعمالها، والإقليم الثاني المسمى بالراهون من حد المنصورة، وهذان الإقليمان بهما زروع كثيرة ومكاسب جليلة وثمارهما قليلة وإنما عمدة أهلهما على المواشي من الأبقار والأغنام.

ومن أراد النهوض من فيربوز إلى أرض مكران فطريقه على كيز ومن مدينة كيز إلى مدينة أرمابيل من مكران مرحلتان. وهي مدينة على قدر فيربوز أو نحوها وبها عمارات وحدائق ومتنزهات وأهلها مياسير.

ومن مدينة أرمابيل إلى مدينة قنبلي مرحلتان ومدينة قنبلي تقابل أرمابيل في القدر وحسن المباني وكثرة العمارات واتساع الأحوال والمال وبين قنبلي والبحر نحو ميل ونصف ميل وأرمايل وقنبلي مكانهما بين الديبل ومكران.

ومن مدينة فيربوز إلى دزك ثلاث مراحل، ودزك مدينة جليلة كبيرة عامرة وبها تجارات كثيرة وبضائع نافقة وأقاليم متصلة وشرب أهلها من عيون وآبار، وفي جهة الغرب مائلاً مع الجنوب جبل كبير منيع ويسمى الجبل الملح وإنما سمي بذلك لأن أكثر مياهه ملحة وبه عمارات وقرى.

ومن دزك إلى راسك ثلاث مراحل ومدينة راسك أهلها خوارج، ولها إقليمان يدعى أحدهما الخروج والثاني يدعى كيركايان، وبهذه المدينة وأقاليمها قصب السكر كثير والفانيذ يعمل بها كثيراً ويتجهز به منها إلى سائر الآفاق.

وقد يعمل بناحية ماسكان أيضاً سكر كثير وفانيذ وكذلك إقليم قصران يزرع به قصب السكر كثيراً، فيحمل منه السكر والفانيذ كثيراً شرقاً وغرباً و وقصران وماسكان يجاوران الطويران وعامة أهلها والغالب عليهما الشراة.

ويتصل بنواحي كرمان مدينة مشكي وهي عامرة بالناس وفي أهلها منعة وشدة وبأس وبها نخل وزروع وإبل وجمل من الفواكه الصرودية. ولسان أهل مكران فارسي ومكراني، وبهما يتكلمون ولباس عامتهم القراطق ولباس التجار والجلة منهم القمص المكممة والأردية ويتعممون بالفوط والمناديل المصفحة بالذهب مثل زي تجار أهل العراق وفارس. ومن بلاد مكران مدينة فلفهرة وأصقفه وبند وقصرقند وهذه البلاد كلها بلاد تتقارب في القدر وتشتبه أحوال أهلها وبها تجارات وعمارات ومقاصد رابحة.

ومن فلفهرة إلى راسك مرحلتان ومن فلفهرة إلى أصقفة مرحلتان، ومن أصقفة إلى بند مرحلة غرباً، ومن أصقفة إلى دزك ثلاث مراحل ومن بند إلى قصرقند مرحلة ومن قصرقند إلى كيه أربع مراحل.

ومن المنصورة إلى مدينة طويران نحو خمس عشرة مرحلة والطويران مدينة مجاورة للفهرج من بلاد كرمان.

والطويران واد فيه مزارع وعمارات وقصبته تدعى طويران منسوبة إلى الوادي وهي مدينة حصينة لها فرج ومتنزهات وزراعات متصلات. ومنها إلى قزدار أربع مراحل، وهي مدينة عامرة كبيرة صالحة القدر بها أسواق وتجارات وأحوال حسنة ولها أقاليم وقرى عامرة. وبغربيها مدينة كيز كانان، وبها ينزل والي الطويران ومدينة كيز كانان متحضرة كثيرة الناس رخيصة الأسعار ولها بساتين وحدائق وأعناب وفواكه ولا نخل بها.

.... ومدينة الملتان[1] مجاورة لبلاد الهند وهي مدينة نحو المنصورة في الكبر وبعض الناس يجعلها من بلاد الهند وتسمى فرج بيت الذهب، وبها صنم يعظمه أهل الهند ويحجون إليه من أقاصي بلدانها ويتصدقون عليه بأموال جمة وحلي كثير وطيب وشيء يقصر الوصف عنه تعظيماً له وإجلالاً وله خدام وعباد يأوون إليه وينفقون

---

(1) وهي مشهورة لدى العرب بصنمها الشهير، وقد استولى عليها محمود الغزنوي.

ويلبسون من ماله المتصدق به عليه. وسميت الملتان باسم الصنم[1].......................

وليس بالملتان من الهند والسند قوم يعبدون الأوثان إلاّ هؤلاء الذين في هذا القصر مع هذا الصنم، وغير ذلك من أهل الهند والسند إنما يحجون إليه تعظيماً له، ولما عاينوه من أمره وذلك أن ملوك الهند المجاورونَ للملتان إذا قصدوا إليها وأرادوا خربها وانتزاع هذا الصنم منها، تبادر خدامه فأخفوا الصنم وأظهروا كسره وإحراقه فيرجع القاصدون إليها عن خربها، ولولا ذلك لخربت الملتان فيقول المضلون بهذا الصنم إنه نصرة الله في هذا المكان فيعظمونه تعظيماً كثيراً.

.... والغالب على أهل الملتان أنهم مسلمون والحكم فيها للإسلام ورئيسهم مسلم. وبجهة الجنوب من مدينة الملتان إلى مدينة السندور ثلاثة أيام، وهي مدينة عامرة جامعة للخيرات مشهورة البركات، وبها تجار وناس نظاف ولباسهم الثياب المحكمة وزيهم حسن ومعايشهم خصبة ويقال إنها من بلاد الهند. وهي على ضفة نهر عذب يمد نهر مهران ويفرغ فيه قبل أن يتصل بسمد وبعد الملتان.

.... فأما مدينة مامهل فقوم يحسبونها من الهند وقوم يجعلونها من السند، وهي على رأس المفازة المتصلة بينها وبين كنباية والديبل وبانيه. وهي مدينة جامعة عامرة وهي طريق الداخلين من السند إلى بلاد الهند وبها تجارات وحولها عمارات وهي قليلة الفواكه كثيرة الكسب والمواشي ومنها إلى المنصورة تسع مراحل على مدينة بانيه..................

ومن مامهل إلى مدينة كنباية خمس مراحل ومدينة كنباية[2] على ثلاثة أميال من البحر وهي في ذاتها حسنة الشكل وبها الإقلاع والحط وبها جمل بضائع وتجارات من

---

(1) صنم بوذا الشهير، وكانت الملتان مدينة مقدسة وقلعة حربية في الوقت نفسه.

(2) مدينة كنباية، وسيمور، وكجيرات، من أوائل المدن الساحلية الهندية التي استوطنها العرب قبل الغزو الغزنوي، وكنباية وكنبي هو خليج هام على محطات التجارة العربية الهندية والصينية.

كل الآفاق ويخرج منها إلى كل الجهات. وهي أيضاً على خور تدخله المراكب وترسي به وماؤها كثير. وعلى هذه المدينة حصن منيع بنته ولاة الهند عندما تغلب عليها صاحب جزيرة كيش. ومن مدينة كنباية في البحر إلى جزيرة أوبكين مجرى ونصف.

وكذلك من جزيرة أوبكين إلى جزيرة الديبل مجريان وهي أول بلاد الهند وينبت في أرضها الزروع والأرز وفي جبالها تنبت القنا الهندية وأهلها عباد بدود. ومنها إلى جزيرة المند ستة أميال وأهلها لصوص. ومنها إلى كولي ستة أميال. ومن كولي على الساحل إلى مدينة سوبارة نحو خمس مراحل، وهي تبعد عن البحر نحو ميل ونصف وهي مدينة متحضرة عامرة كثيرة المساكن ولها تجارات ومرافق وهي فرضة من فرض البحر الهندي وبها مصائد ومغايص اللؤلؤ. وعليها جزيرة ثارة وهي صغيرة وفيها قليل نارجيل وقسط.

ومن مدينة سوبارة إلى مدينة سندان نحو خمس مراحل وبينها وبين البحر ميل ونصف ميل وهي مدينة متحضرة الأهل، وسكانها أهل حذق ونبالة وهم تجار مياسير متجولون وهي كبيرة القدر والمسافر إليها كثير والخارج عنها كثير. وفي جانب الشرق منها جزيرة تسمى بها وتنسب إليها، وهذه الجزيرة واسعة القطر كثيرة الزرع والنخل والنارجيل وبها تنبت القنا والخيزران وهي في عداد بلاد الهند.

ومن مدينة سندان إلى صيمور خمس مراحل وصيمور[1] مدينة واسعة حسنة جليلة المباني حسنة الجهات وبها نارجيل كثير وقنا وبجبالها كثير من النبات العطر المحمول إلى سائر الآفاق. وفي البحر منها على خمسة أيام جزيرة تسمى ملي وهي جزيرة كبيرة حسنة البقاع قليلة الجبال كثيرة النبات وبجزيرة ملي ينبت شجر الفلفل ولا يكون إلا بها أو بفندرينة أو بجرباتن ولا يوجد منه شيء إلا بهذه البلاد الثلاثة.

---

(1) سيمور/Semour/ على ساحل كمبي، أو خليج كمباية.

وهو نبات له ساق أشبه شيء بساق شجرة العريش وورقه كورق النبات اللبلاب فيه طول ولا تشريف له وله عناقيد مثل عناقيد الشبوقة وكل عنقود منها تكنه ورقه من المطر ويجنى إذا بلغ والفلفل الأبيض منه هو ما كان جني منه في أول بلوغه وقبل ذلك.

.... وأما كنباية وسوبارة وسندان وصيمور فكلها من بلاد الهند. وصيمور بلدة من بلاد الملك المسمى بلهرا[1]. وملكه عظيم وبلاده واسعة العمارات كثيرة التجارات جامعة الخيرات وجباياته وافرة وأمواله مقنطرة وببلاده أيضاً أنواع وصنوف من أفاوية العطر. وتفسير بلهرا ملك الملوك، وهذا الاسم يتوارثه الملوك المستأخذة عن الملوك الماضية، وكذلك سائر الملوك بالهند إذا صار الملك لملك منهم تسمى باسم الملك الذي كان قبله وأسماؤهم متوارثة بينهم لا ينتقلون عنها وقد صار ذلك بينهم سيرة يتبعونها.

وكذلك أيضاً ملوك النوبة وملوك الزنج وملوك غانة وملوك الفرس وملوك الروم يتوارثون الأسماء وقد ذكر أبو القاسم عبيد الله بن خرداذبه في كتابه من هذا ما يجب ذكره في هذا المكان الذي بدأنا به فقال: إن للملوك ألقاباً متوارثة بينهم مثل ملوك الصين لا يسمى أحد منهم إلا البغبوغ والبغبون[2] أيضاً بالنون من آلاف السنين إلى اليوم اسم تورث وتدول بين الصينيين.

ومن ملوك الهند بلهرا وجابة والطافن والجزر وعابة ودمى وقامرون وكل واحد من هذه الأسماء لا يسمى بها إلاّ ملك يملك بلاداً وناحية لا يشركه في ذلك الاسم مشارك ولا ينتقل عنه إنما يسمى بذلك الاسم من ملك ذلك المكان بعينه..................

نجز الجزء السابع من الإقليم الثاني بحمد الله ويتلوه الجزء الثامن منه إن شاء الله تعالى.

---

(1) بلهرا هو ملك السند قبل استيلاء العرب عليها.

(2) هو اسم أطلقه العرب على أباطرة الصين.

الجزء الثامن
Sectio octava

إن هذا الجزء الثامن من الإقليم الثاني تضمن في حصته من البلاد الهندية بلاداً ساحلية على بحر الهند. منها بروج وسندابور وتانة وفندرينه وجرباتن وكلكيان وضنجى وكلكسار ولولوا وكنجه وسمندر.

وفي البلاد البرية مدينة دولقه وجناول ونهروارة والقندهار وزويلة ولمطة وأودغست وكل هذه على رأس المفازة وكابل وخواش وحسك وموريدس وكاديار وتته ودده ومنيبار ومالوه ونياست وأطراسا ونجه وقشمير السفلى وميدره وكارموت وقشمير العليا والقنوج وأسناند.

وفي بحره من الجزائر الهندية جزيرة ملي وجزيرة بليق وتروي بليخ.

.... فأما مدينة بروج فإنها مدينة كبيرة جليلة جميلة حسنة البناء بناؤها بالآجر والجص ولأهلها همم عالية وأحوال وافرة وأموال صامتة وتجارات معروفة وهم وقف على الاغتراب والجول وكثرة الأسفار وهي فرضة من جاء من الصين وفرضة لمن جاء من السند ومنها إلى صيمور يومان.... ومن بروج إلى مدينة نهروارة ثماني مراحل في بر متصل لا جبل به والسفر بينهما يكون على العجل....

فأما مدينة نهروارة فملكها ملك عظيم يسمى بلهرا وله جيوش وفيلة وعبادته صنم البد وهو يحمل تاج الذهب على رأسه ويلبس الحلل المنسوجة من الذهب ويركب الخيل في سائر الأيام. وقد يركب في كل جمعة مرة ويركب حوله نحو مائة امرأة ولا يمشي معه أحد سواهن وقد لبسن القراط المذهبة وتحلين بأحسن الحلية واحتملن الأساور من الذهب والفضة في أيديهن وأرجلهن وأسبلن شعورهن على أردافهن وهن

يتلاعبن ويتدافعن والملك يقدمهن، وأما جملة وزرائه وعظماء رجاله فلا يركبون معه إلاّ إذا خرج محارباً لمن قام علي أو لمن يهتضم شيئاً من عمالاته أو إلى من قصد بلاده من الملوك المجاورين له، وله من الفيلة كثير وهي عمدة حربه.

وهذا الملك متوارث الذات والاسم لا ينتقل عنهم وبلهرا تفسيره ملك الملوك كما قدمناه. ومدينة نهروارة يصلها كثير من تجار المسلمين وبها تجولهم وللمسافرين بها إكرام من ملكها وضبط لما بأيديهم. وبسط العدل في أهل الهند طبيعة هؤلاء لا يعولون على شيء سواه ولفضل عدالتهم وحفظ عقودهم وحسن سيرهم، ذكروا أنهم وجملة أهل تلك البلاد في خير وكثر القاصد إليهم وبلادهم عامرة وأحوالهم راجحة وادعة.

ومن انقياد عوامها للحق وإتباعهم له وكراهتهم للباطل، أن الرجل يكون له عند أحد منهم حق فيلقاه حيث ما لقيه فيخط له خطاً في الأرض كالحلقة، ويدخله الطالب في تلك الحلقة فيدخلها المطلوب طائعاً من ذاته ولا يبرح منها إلا بإنصاف عنه وأداء ما لزمه أو يعفو عنه الذي له الحق فيخرج عن الحلقة. وطعام أهل نهروارة الأرز والحمص والباقلي واللوبيا والعدس والماش والسمك والحيوانات التي تموت موتاً طبيعياً. ولا يذبحون طائراً ولا حيواناً لا كبيراً ولا صغيراً، وأما البقر فإنها محرمة عندهم البتة، فإذا ماتت دفنت وهذا فعلهم في البقر خاصة دون سائر البهائم، وإذا ضعفت البقر عن الخدمة والتصرف رفعت عن التعب وأمر بالنظر إليها وبالعلف من غير أن تستخدم ظهورها إلى أن تموت.

وأهل الهند يحرقون موتاهم ولا قبور لهم.

وإذا مات الملك صنعت له عجلة على قدره عريضة ارتفاعها عن الأرض مقدار شبرين أو نحوهما، وتوضع على العجلة قبة مكللة ويوضع الملك بحلية كفنه على تلك العجلة ويطاف به على المدينة كلها يجره عبيده ورأسه مكشوف لمن يراه وشعره ينجر على تراب الأرض، وينادي عليه مناد بلسان الهندية بكلام تفسيره: بالعربية أيها الناس هذا ملككم فلان بن فلان عاش في ملكه فارحاً قادراً كذا وكذا سنة وها هو قد مات وفتح يده بما معه لا يملك من ملكه شيئاً ولا يدفع عن جسمه أذى، ففكروا فيما

أنتم إليه صائرون وإليه راجعون، وكل هذا باللغة الهندية فإذا فرغ من الطواف به أخرج إلى مكان النار حتى يحترق.

وأهل الهند لا يحزنون كثيراً ولا يقولون بالهموم جملة.

وجملة البلاد الهندية المجاورة للسند الذين قد مازجهم المسلمون يدفنون موتاهم في بيوتهم بالليل تستراً، ويسوون التراب عليهم ولا يبكون ميتاً ولا يحزنون عليه كثيراً كما قدمناه.

والزنا في جميع بلاد بلهرا مباح إلا في المتزوجات. والرجل إن ارتضى نكاح بنته أو أخته أو خالته أو عمته ما لم تكن مزوجات فعل ذلك والأخ يفعل بأخته مثل ذلك. ويقابل مدينة بروج الساحلية في البحر جزيرة ملي وفيها الفلفل كثيراً. ومنها إلى جزيرة سندان مجريان. ومن هذه الجزيرة إلى جزيرة بليق يومان وهي جزيرة عامرة كبيرة، بها نارجيل كثير وموز وأرز، وبها تفترق الطرق إلى جزائر الهند، ومن هذه الجزيرة إلى اللجة العظمى مسيرة يومين، ومن هذه الجزيرة أيضاً إلى جزيرة سرنديب مجرى وزائد.

ومن مدينة بروج على الساحل إلى مدينة سندابور[1] أربع مراحل ومدينة سندابور على خور كبير ترسي به المراكب وهي مدينة تجارات وبها عمارات ومقاصد أرزاق. ومنها إلى مدينة تانه على الساحل أربعة أيام، ومدينة تانه مدينة جليلة على ضفة خور كبير تدخله السفن وتحط به الأرحال. وبجبالها وأرضها تنبت القنا والطباشير يتخذ فيها من أصول القنا ومنها يحمل إلى سائر البلاد من المشارق والمغارب. والطباشير يغش بعظام الفيل المحرقة والصافي منه ما كان من أصول هذا القصب الهندي الشركي كما ذكرناه.

ومن تانه إلى مدينة فندرينه على الساحل أربع مراحل، ومدينة فندرينة على خور واد يأتي من ناحية منيبار وتحط به مراكب التجار من جزائر الهند ومراكب السند أيضاً،

---

(1) اعتبر الدمشقي هذه المدينة قصبة، مشهورة لكونها تضم صنم (بد) الهنود.

ولأهلها أموال ياسرة وأسواق عامرة ومتاجر ومكاسب. وبشمال هذه المدينة وعليها جبل كبير سامي العلو كثير الشجر عامر بالقرى والمواشي وتنبت في حوافيه القاقلة ومنها تحمل إلى سائر أقطار الأرض.

ونبات القاقلة تكون أشبه الأشياء بنبات الشهدانج ولها مزاود فيها بزرها.

ومن مدينة فندرينة إلى مدينة جرباتن خمس مراحل، وهي مدينة عامرة على خور صغير وهي بلد أرز كثير وحبوب كثيرة ويذكر منها ميرة سرنديب وينبت بجبالها شجر الفلفل كثيراً.

ومن جرباتن إلى صنجي وكلكسار مسير يومين وهما مدينتان على البحر عامرتان متقاربتان وفيهما أرز وحبوب كثيرة.

ومنهما إلى كلكيان يوم.

ومن كلكيان إلى اللولوا وكنجة مسيرة يومين وفيهما أرز وحنطة وينبت بأرضهما البقم كثيراً ونبات البقم شبيه بنبات الدفلى وبها نارجيل وفاكهة كثيرة.

ومن كنجه إلى مدينة سمندر ثلاثون ميلاً وهي مدينة واسعة المتاجر كثيرة المنافع لأهلها بضائع وأموال كثيرة والإقلاع منها والحط بها كثير وهي من أعمال القنوج وهو ملك من تلك البلاد.

وهي أيضاً على خور يصل إليها من مدينة قشمير[1].

وفي هذه المدينة حبوب وأرز كثير وحنطة ممكنة ويحمل إليها العود من مسيرة خمسة عشر يوماً في ماء عذب من بلاد كارموت وهناك منابت عود جيد طيب في بخوره ويجلب هناك من جبال قامرون.

---

(1) أو كشمير.

ولهذه المدينة جزيرة كبيرة تسامتها وبينهما مجرى ساعة وهذه الجزيرة عامرة بالناس والتجار من كل الآفاق ومنها إلى جزيرة سرنديب أربعة مجار.

وبالشمال من مدينة سمندر مدينة قشمير الداخلة بينهما سبع مراحل ومدينة قشمير مدينة مشهورة بين بلاد الهند في طاعة الملك القنوج وكذلك من قشمير إلى كارموت أربع مراحل.

ومن مدينة قشمير الداخلة إلى القنوج نحو سبع مراحل وهي مدينة كبيرة حسنة كثيرة التجارات وبها ما يسمى الملك المسمى القنوج. وهي على نهر كبير يمد نهر مسلى بالهند ونهر مسلى ذكره صاحب كتاب العجائب فقال: هو النهر المسمى نهر الطيب ومخرجه من جبال قامرون، ويمر بركن مدينة اسناند ثم يمر حتى ينتهي إلى سفح جبل لونيا فيمر من تحته إلى ركن مدينة كلكيان ويصب في البحر وينبت بضفتي هذا النهر أنواع من الطيب وبذلك سمي. ومن مدينة أسناند إلى مدينة قشمير الخارجة أربع مراحل وقشمير مدينة من مدن الهند المشهورة. وأهلها يحاربون كافر ترك وربما بلغت مضرة الترك الخرلخية إليها.

ومن مدن القنوج[1] مدينة أطراسا وبينها وبين مدينة قشمير الخارجة ست مراحل وهي مدينة على نهر جنجس الهند وهي حسنة كثيرة المباني كثيرة المياه، وهي ثغر من ثغور القنوج تتاخم كابل إلى أرض لهاور.

وهذا الملك القنوج كثير الرجال والفيلة عظيم المملكة شامخ الملك وليس في ملوك الهند البرية ملك عنده من الفيلة ما عنده منها وله همة عالية وعنده عدد وأسلحة وأموال وسطوته مهابة على من يليه. ومن مدينة أطراسا إلى مدينة نياست خمس مراحل وهي على نهر جنجس الهند، وهي مدينة عامرة كثيرة المساكن بها وبها حنطة

---

(1) وهي مقاطعة ومدينة في أقاصي الهند في جهة الشرق بين ذراعي نهر الغانج، وهي قاعدة لملك لهاور، ويسمي الإدريسي ملكها القنوج.

وأرز وحبوب كثيرة. ومنها إلى مدينة ماديار على ضفة جنجس سبع مراحل ومدينة ماديار واسعة العمارات كثيرة القرى والديارن وبها تجارات وأهلها أصحاب أموال طائلة. ومنها إلى مدينة نهروارة سبع مراحل ونهروارة في غربي جنجس وقد سبق ذكرها.

...... ومدينة القندهار[1] مدينة كبيرة القطر كثيرة الخلق وهم قوم يمتازون بلحاهم عن غيرهم، وذلك أنهم يتركون لحاهم تطول حتى يصل الأكثر من لحاهم إلى الركب ودونها، وهي عراض كثيرة الشعر ووجوههم مدورة والمثل يضرب بهم بكبر لحاهم وطولها وزيهم زي الأتراكن وعندهم وفي بلدهم حنطة وأرز وحبوب وأغنام وأبقار.

وهم يأكلون الأغنام الميتة ولا يأكلون البقر البتة كما قد ذكرناه قبل هذا.

ومن مدينة القندهار إلى مدينة نهروارة خمس مراحل بسير العجل وأهل القندهار يحاربون ملك كابل.

وكابل[2] من مدن الهند المجاورة لبلاد طخارستان وهي مدينة جليلة المقدار حسنة البنية وبجبالها عود وبها نارجيل والإهليلج الكابلي المنسوب إليها وينبت في جبالها، ويزرع بأباطحها بصل الزعفران ويرفع منه بها الكثير ويتجهز به منها إلى ما جاورها من البلاد، وهي من غرر البلاد وأحسنها هواء وبها حصن موصوف بالتحصن ولا يوجد الصعود إليه إلاّ من طريق واحد وفيها مسلمون كثيرون ولها ربض فيه الكفار من اليهود.

ولا يتم للملك من ملوك الشاهية عقد بيعة إلاّ بمدينة كابل ويعقد بها عليع شروط قديمة تتم بها البيعة والقصد إليها من الآفاق القريبة والبعيدة. ويزرع بسواد أرض كابل كلها النبلج الذي لا يوجد نظيره في سائر البلاد المحيطة بها كثرة وطيباً ويحمل منها إلى كل الآفاق ويعرف بها.

---

(1) وهي الآن من مدن أفغانستان.

(2) وهي الآن في بلاد أفغانستان.

ويتجهز أيضاً من مدينة كابل بثياب تصنع من القطن حسان تحمل إلى الصين وتخرج إلى بلاد خراسان. وقد يسافر بها إلى السند وأعمالها ويتصرف بها كثيرا.

وفي جبال كابل معادن حديد مشهورة كثيرة النفع وحديدها قاطع حسن.

ولكابل بلاد كثيرة منها أرزلان وخواش وخير ولها قلاع وقرى وعمارات متصلة. ومن مدينة كابل إلى خواش أربع مراحل. ومن خواش إلى حسك خمس مراحل ومن حسك إلى كابل ثلاث مراحل. وهذه البلاد متساوية المقادير وبها متاجر ومتصرفات. ومن مدينة كابل إلى مدينة لمطة أربع مراحل ومدينتا لمطة وزويلة هما على طرف المفازة المتصلة بين الملتان وبلاد سجستان. ولمطة وزويلة بلدان قدرهما قدر متوسط وبهما جمل من الناس من السندية وبعض أهل الهند وقليل من أهل سجستان وبهما مزارع حنطة وأرز وقليل من فواكه وشرب أهل هذه البلاد من عيون وأنهار صغار وجبات وآبار ويعمل بها ثياب قطن حلوة يتجهز بها منها إلى ما جاورها من البلاد.................

الجزء التاسع
Sectio nona

إن الذي تضمن هذا الجزء التاسع من الإقليم الثاني من المدن الهندية والصينية منها مدن الهند وهي أوريسين على ضفة البحر الملح ولوقين وقاقلا وأطراغا. وفيه من بلاد الصين طريغيوقن وقطيغورا وكاشغرا وخيغون وإسقيريا وإشقيرا وبورا وطوخا وإطراغن وقرنابول.

وفي حصة بحره جزيرة أوريسين وجزيرة سناسا وفي كل بلد منها أمور مختصة بها لا توجد بغيرها وها نحن لكل ذلك ذاكرون بحول الله وعونه.

فأما مدينة أوريسين فإنها مدينة صغيرة على الساحل. وإنما المذكور منها جزيرتها لأنها عظيمة المقدار كثيرة الجبال والأشجار وفيها فيلة كثيرة وبها تصاد ويتجهز منها

بأنيابها. وقد اختلف في صيد الفيلة، وأكثر القول في ذلك فمن الناس من قال، إن الصائدين للفيلة يقصدون على مواضع مبيتها والأماكن التي تألفها فيحفرون لها حفائر مثل ما تحفره البرابر لصيد الأسود، وصفة هذه الحفرة يكون أعلاها واسعاً وأسفلها ضيقاً ويسترونها بالخشب الرقاق والحشيش ويسوون بالتراب فوق ذلك حتى تخفى الحفرة، فإذا جاءت الفيلة إلى مواضعها التي من عادتها المبيت فيها أو في طريق مائها التي تعودت الشرب منه، فإذا وافت الحفرة سقط منها واحد على رأسه، وفر الباقي من الفيلة على وجوهها، وصائدوها يكونون هنالك في أماكن لهم ينظرون منها إلى سقوط الفيلة، فإذا نظروا إليها أسرعوا بالجري إلى ما سقط في الحفرة، وفتحوا خواصرها وفتقوا بطونها وتركوها إلى أن تموت، ثم يتعاونون على تجزيرها وإخراجها عن الحفر قطعاً قطعاً ويخرجون أنيابها ويأخذون كعوبها.

وفي كثير من أخبار الهند أن الفيلة في بلادها تمشي قطاراً، وتبيت في الغياض اثنين في واحد وثلثة وأربعة في واحد، ورقادها هو أن تقصد الشجر فتورك على أصولها، ويورك بعضها على بعض، وتنام وقوفاً لغلظ أرساغها وطول مفاصلها فيقصد الصائدون إلى تلك الأشجار بالنهار، فيقطعون أكثرها ويتركون الشجرة القائمة مستهلكة فإذا جن الليل وأتت الفيلة على جري العادة إلى الأشجار التي من عادتها الرقاد بالاعتماد عليها فلا يزال يثقل بعضها على بعض إلى أن تمر الشجرة على أوائلها وتسقط الفيلة مع سقوط الشجر، فلا تقدر أن تقوم فيثب الصائدون إليها بالخشب ويضربون رؤوسها إلى أن تموت، وتستخرج أنيابها وتباع من التجار بأموال كثيرة وتحمل إلى الآفاق وتصرف في كثير من الأعمال المرصعة، وأخبر غير واحد أن النابين الكبيرين من الفيلة يكون وزنهما ستة عشر قنطاراً إلى ما فوقها أو دونها.

مما يحكي التجار المسافرون إلى الهند عن ولادة الفيلة الإناث منها تلد أولادها في المياه الراكدة فتخرج أولادها عند الوضع فتسقط في الماء، فتسرع الأمهات إليها فتقيمها في الماء على سوقها وتخرجها عنه، وتديم لعقها إلى أن تجف وتستدرجها مشياً إلى أن يكمل خلقها فتبارك الله أحسن الخالقين. ولا يدري فيما خلق الله من البهائم ذوات

الأربع أفهم من الفيل ولا أقبل منه للتعليم ومن خواص الفيل أنه لا ينظر في عورة الإنسان.

وملوك الهند تتنافس في اكتساب الفيلة وتتغالى في أثمانها وتنظر الملوك إليها بعين المحافظة عليها وتجلب إلى مرابطها عندهم صغاراً فتنشأ على التأنيس بالناس.

ويصادر بها في القتال لأن الفيل الكبير والمجفف يقاتل على ظهره اثنا عشر رجلاً بالحجف والسيوف والدبابيس المتخذة من الحديد ويقف على رأس كل فيل منها رجل يسوقه بمخطاف يجر به خطمه، ويضرب أعلى رأسه بخشبة أو بمصفع متخذ لذلك وبه يدار الفيل وأمر الفيلة في القتال أنها يحمل بعضها على بعض فيمر الأقوى على الأضعف ولها كرات ورجعات وكل ذلك مشهور من أمر الفيلة مشهود في بلاد الهند.

والفيلة بجزيرة أورسين كثيرة وتستولد بها وتخرج منها إلى سائر البلاد من الهند. وبهذه الجزيرة معادن حديد. وينبت في أكثر جبالها الراوند، والراوند الذي يجلب من بلاد الصين أفضل لأنه أصلب جسماً وأصبغ لوناً وأبلغ فيما يراد منه في إصلاح الكبد وجملة منافعه.

وفي هذه الجزيرة شجر على صفة الخروع إلاّ أنه كثير الشوك وشوكه بارز يمنع من لمسه ويسمى الشهكير، وله عروق سود وملوك الصين والهند تقتنيه لأنهم يدبرون منه سم ساعة وهو مشهور الذكر. وأهل الهند والصين لا يقتلون أحداً من ذوي محارمهم ولا من خدامهم ولا ممن يمكنهم التحيل عليه إلا بالسم.

وفي كل خور من أخوار الهند وأخوار الصين يظهر منها في البحر مما يقابل كل خور أحناش ملمعة بأنواع ألوان وصفات مختلفة من الترقيط، وأهل البحر يعلمونها ويميزونها ويعملون أحناش كل خور منها وأين هي من الأرض بما يعرفون من صفاتها، وبها يستدلون وهذا أيضاً مذكور وتسمى هذه الأحناش باللسان الهندي الميزرة.

ومن أوريسين إلى لوقين ثلاث مراحل على الساحل وهي مدينة حسنة على البحر وعلى ضفة خور عذب والمراكب تدخله، ومنها إلى مدينة طريغيوقن أربع مراحل وهي

مدينة عامرة على ضفة البحر الملح. ويقابل هذه المدينة في البحر جزيرة سناسا وهي جزيرة عامرة على كثيرة الصادر والوارد وبينها وبين الساحل أقل من نصف مجرى. وفيما يذكر أن في هذه الجزيرة بئراً تخرج منها في بعض الأوقات نار محرقة ثم تخمد في بعض الأوقات. ومنها إلى قطيغورا ست مراحل، ومدينة قطيغورا على البحر وهي على خور ماء حلو وهي مدينة جليلة فيها مكاسب ومتاجر وهي محسوبة في بلاد الصين. ومنها إلى الصنف ثلاث مراحل والصنف من بلاد الصين وقد ذكرناها وجزيرتها فيما سلف وتقدم من ذكر الإقليم الأول.

ومن قطيغورا إلى كاشغرا أربع مراحل، ومدينة كاشغرا من بلاد الصين وهي مدينة عامرة كثيرة الخيرات مشتملة البركات فيها متاجر وبضائع وأسفار وحركات منجحة، وهي على نهر صغير يأتي إليها من جهة شمالها من جبل قطيغورا وفي هذا الجبل معادن فضة طيبة فائقة الجودة سهلة التخليص من خبثها.

ومن مدينة كاشغرا إلى مدينة خيغون ثماني مراحل ومدينة خيغون مدينة عامرة من مدن الصين والقاصد إليها كثير وبها التجارات الكثيرة. وبأرضها توجد دواب المسك والزباد أما دواب المسك فهي صنف من أصناف المعز بل هي أشبه بالغزلان لكنها صغار وألوانها صهب إلى الحمرة وجلودها لدنة المجسة، ورعيها أنواع نبات الطيب ولها صرر يجتمع فيها دم يكون دمها أول شيء أحمر، ثم لا يزال يتغير إلى السواد حتى يكون لونه أسود إلى الشقرة فتقلق بها الظباء فتحكها وتقرضها تارة بأظلافها وتارة بالعض بأفواهها إلى أن تسقط.

.... وأما دابة الزباد فهي في هذا الإقليم الثاني من أوله إلى آخره موجودة به وهي دابة تشبه القط بالسواء، لا فرق بينهما لكنها كبيرة وتمسك في أقفاص كبار وتطعم اللحم، فإذا كان في أول الصيف وآخر الربيع ابتدأ الرشح في أخصيتها فمتى نظر إليها وقد اجتمع من الزباد فيها شيء قبض عليها وكبست في أوعية من الخيش وجرد منها ما اجتمع على خصاها من الدرن، فذلك الزباد المحض ثم تعاد إلى أقفاصها فتكون بالحالة الأولى إلى أن يجتمع بها من الدرن ثانية وثالثة ثم تعاد إلى الجرد والأخذ هكذا من أول

الربيع إلى آخر الخريف وهذا الحيوان يكون بالغرب الأقصى كثير في بلاد الملثمين وهو مشهور قد رأيناه عياناً.

ومدينة خيغون عليها حصن حصين وجنات محدقة بها وبساتين لا عنب بها ولا تين البتة ومدينة خيغون على ضفة نهر يصب في نهر خمدان الصين.

ومن مدينة خيغون إلى مدينة إسقيريا أربع مراحل، ومدينة إسقيريا مدينة من مدن الصين على نهر، يمد نهر خمدان، وهي عامرة وبها ملوك وسادات وجلة وعمال، وبها تجتمع أموال الصين التي تصل إلى ملكها الأكبر بعد تخليصها من جميع النوائب، وذلك أن جميع الجبايات المجموعة في بلاد الصين براً أو بحراً يصير بها عمالها إلى مدينة إسقيريا فيدفعونها هناك إلى عمال وأمناء يحصلونها ويحاسبون بها وعليها، ثم ينصرف العمال إلى بلادهم. فإذا اجتمعت الأموال بإسقيريا وكان الوقت المعلوم من العام المؤرخ عندهم، لحمل المال جمعت تلك الأموال بأسرها ورفعت إلى مدينة تاجه وهي مدينة الملك العظمى، فيستودع هناك المال الذي جيء به في خزائن الملك البغبوغ، وهذه سيرة دائمة لا تنقطع ولا يصل إلى بيت مال الملك شيء يحتاج فيه إلى الإخراج منه، وإنما يوصل إليه ما كان مخلصاً من جميع النوائب، وأهل إسقيريا يرمون موتاهم في النهر ولا يدفنون ميتاً البتة وسنذكر نهر خمدان وما يصنع به أهل الصين.

ومن مدينة إسقيريا إلى مدينة طوخا ستة أيام ومدينة طوخا على نهر كلهي الصيني الكبير وهي عامرة بالناس وفيها تجار وبضائع وذخائر ويصنع بها الثياب الطوخية من الحرير القسي، ولها قيمة وافرة ويتجهز منها بها إلى سائر البلاد وهي ثياب مطرفة كالثياب العنابية ومنها ثياب مريشة ويعمر الثوب منها كثيراً.

...... ومن مدينة بورا إلى مدينة قاشغرا السابق ذكرها ثماني مراحل ومن مدينة بورا إلى مدينة إسقيرا سبع مراحل ومن مدينة إسقيرا إلى مدينة كاشغرا ثماني مراحل.

ومدينة إسقيرا على نهر يمد نهر بهنك وأهلها يعبدون الأصنام وهم كفرة، ومنها إلى طريغيوقن سبع مراحل ومن إسقيرا أيضاً إلى أطراغنة أربع مراحل، وهي مدينة على بركة ماء كبيرة عذبة الماء ولا يوجد لوسطها قعر، وماؤها مائل إلى الدكنة وبها

سمك وجوهها كوجه البومة على رؤوسها شبه قلانس الديكة، ويزعم أهل كفران ترك أنها تفعل بالرجال ما يفعل الإسقنقور من كثرة الإنعاظ وغزر الباه.................

.... ومن أنهار الصين نهر كلهى وأهل الصين الساكنون بضفتيه لهم سنة معتادة في هذا النهر إذا أذنب الرجل منهم ذنباً، وأراد تكفير ذلك سار إلى هذا النهر وحوله جماعات الناس يدعون له بالطوبى، يودعونه بالكرامة والخلود فإذا وصل إلى هذا النهر أغرق نفسه فيه حتى يموت.........

الجزء العاشر
Sectio Decima

إن هذا الجزء العاشر من الإقليم الثاني وبه تمام الإقليم الثاني تضمن من البلاد الصينية الشرقية مدينة سوسة الصين وسعلا وطوغما وصينية الصين واسنخوا وشذخو وباجة وبشهيار وقاشا وسارخا وبه الجزائر التي في البحر الشرقي جزيرة النمنج وجزيرة السبارة وفيه من الأنهار الكبار تهر خمدان الصين وهو من الأنهار الكبار المشهورة التي نطقت بها التواريخ وأثبتت ذكرها الكتب.

وها نحن نبتدئ الآن بشرح معلوماتها ونوضح صفاتها بحول الله وعونه فنقول إن مدينة سوسة مدينة مشهورة معلومة مذكورة كثيرة التجارات متصلة العمارات جامعة الخيرات وأموال أهلها كثيرة وتجاراتهم مباركة مؤفورة وقراضهم مفترق في الآفاق ومتصل بكل الأمصار. ويصنع بها الغضار الصيني الذي لا يعدله شيء من فخار الصين جودة، وبها طرز كثيرة مشهورة بعمل الحرير الصيني الرفيع القيمة المحكم الصنعة الذي لا يقرن به غيره، وسوسة الصين على شرقي نهر خمدان الكبير ومنها إلى مدينة قابطوا أربع عشرة مرحلة، وكذلك من سوسة أيضاً إلى مدينة الصين ست عشرة مرحلة ومن سوسة أيضاً إلى مدينة سعلا ثمانية أيام.

ومدينة سعلا على ضفة نهر وهي عامرة بالساكن حسنة المساكن كثيرة التجارات موفورة العمارات وإليها مقصد التجار من كل الأقطار المجاورة لها والمتباعدة عنها بضروب البضائع ونوافق الأمتعة وأنواع من التجارات، وليست بكبيرة القطر لكنها مجتمعة متحضرة ويعمل بها ثياب حرير كثيرة وفخار.

ومنها إلى مدينة صينية الصين سبع عشرة مرحلة ومن سعلا إلى طوغما ثماني مراحل ومدينة طوغما مدينة كبيرة لا حصن عليها، لكنها عامرة وبها جمل بضائع ويتجهز منها بأصناف من التجارات.

ومنها إلى صينية الصين[1] ثماني مراحل وصينية الصين في أقصى الصين، ولا تعدلها مدينة في الكبر وكثرة العامر وسعة التجارات وكثرة البضائع واجتماع التجار إليها من سائر الأقطار ومن بعض المدن الهندية المجاورة للصين، وبهذه المدينة ملك من ملوك الصين من أهل الملك لكنه تحت يد البغبوغ وهذا الملك الأعظم كما حكينا عنه. ومن مدينة الصينية إلى مدينة اسنخوا ثماني مراحل وهي على بطحاء أرض ممتدة، لا ينبت بها شيء إلاّ الزعفران غرساً ومن ذات نفسه برياً، ومنها يتجهز بالزعفران إلى سائر أقطار الصين، ويباع بها منه ما يعم الكل كثرة وطيباً، وقد يعمل بهذه المدينة الحرير والغضار وليس في هذه البلاد التي ذكرنا صنعة أجل عند أهلها من الفخار والرسم ولا فوق الرسم عندهم صنعة.

ومما يحكى في الكتب الصحيحة الأخبار أن ملوك الصين وأكثر ملوك الهند لا يتركون الرسم، بل يقولون به ويتعلمونه، ويتكلفون منه أكثر مما يتكلفه المتعلمون له، حتى أنه لا يولي الملك من أبنائه إذا كان عنده كثرة أولاد إلاّ أرسمهم وأمهرهم في صنعة الرسم.

---

(1) يعتقد أنها مدينة مهابين الحالية، ومعناها الصين الكبرى.

ولم تـزل ملـوك الـهـند تعمـل مـثل هـذا، ولا تقـدم على الرسـم أيضاً والتـصوير صـنعة، وإنما يلحـق بهـا في الفـضل صـنعة الفخـار، وذلـك أنهـم يـسمون صـانع الفخـار خالقاً صغيراً والمصور خالقاً كبيراً.

وكـذلك من مدينة اسنخوا إلى باجة أربع مراحل وهي مدينة الملك المسمى البغبوغ وبهـذه المدينة دار ملكه، وموضـع رجاله وخزائن أمواله ومصون حرمه وعياله. ومما حكـى صاحب كتاب الأخبار عن ملوك الأمصار، أن هذا الملك له أبداً مائة زوجة بمهور وأنقـاد، ومتى لم يملك الملك منهم هـذه العـدة لا يسمى عندهم بملك الملوك وله من الفـيلة أيضاً المعدة للحرب ألف فيل مجففة برجالها وأسلحتها وأمتعتها، ومتى لم تكمل له هذه العدة فليس بملك الملوك عندهم بهذين الشيئين من النساء والفيلة يفتخرون على غيرهم من الملوك. ولا يلي الملك بالصين إلا من ورثه عن آبائه أو إخوته أو أقاربه، وهـم جارون على سنن العدل وطريق الأمان وسيرهـم حميدة مبنية على الحق.

وهذه المدينة على ضفة نهر خمدان، وعلى هذا النهر يصعد إلى هذه المدينة خانفوا وخانكو وغيرهمـا مـن مراقـي الـصين المشهورة ومـن مدينة باجة إلى مدينة شذخو أربع مـراحل ومدينـة شـذخو على نهر صغير يقع في البحر الشرقي وبين مدينة شذخو والبحر أربع مراحل ومن مدينة شذخو إلى مدينة بشهيار تسع مراحل.

ومديـنة بـشهيار مدينة فيها رئيس من قبل البغبوغ له خيول ورجال وحشم وعبيد وملك عظيم وهـو يقاتـل الـترك الـداخلين إلـيه ممـن يجـاوره مـنعم وهـم الـترك المـسمون بالخاقانية والخزلجية ولهـذا الملك خيول مـندوبة لحراسة أبواب هـناك في الجبل العظيم الحاجز بينهم وبين الترك وزيهم وزي الأتراك سواء لا فرق بينهم في ذلك.

ومـن مدينة بـشهيار إلى مدينة قاشـا ثمانـي مـراحل، وهـي مدينة أهلها خوارج عن مـذهب أهـل الصين، وهـم يحرقون موتاهم بالنار على مذهـب الهـندية، ومن مدينة قاشا إلى مدينة شـارخية أربـع مـراحل وهـي مديـنة عامـرة، ومن قاشـا إلى مدينة باجـة عـشر مراحل كذلك من مدينة شارخيا إلى مدينة باجة عشر مراحل.

فأما نهر خمدان الصين فإنه نهر عظيم وعليه عمارات وحكى صاحب كتاب العجائب أن في هذا النهر شجرة عظيمة باسقة يقال إنها من حديد، وتسمى بلسان الهندية برشول وهي مبنية في قعر النهر مثبتة وطولها من فوق الماء نحو من عشرة أذرع في غلظ ذراع وكسر وفي رأسها ثلاث شعب غلاظ مسنونة محدودة كالنار.........................

ز

لأبي حسن علي بن موسى بن سعيد المغربي

كتاب الجغرافيا

تحقيق

اسماعيل العربي

منشورات المكتب التجاري للطباعة

بيروت

الإقليم الأول: سكانه سود وعرضه ست عشرة درجة وسبع وعشرون دقيقة. وهو عشرة أجزاء: ....

الجزء السابع من الإقليم الأول: .... ويقع في ساحل هذا الجزء الشمالي من مدن الهند المشهورة على ألسنة المسافرين السومانات[1]، وهي من بلاد الجزرات وتعرف أيضاً ببلاد اللار. وموضوعها في دخلة البحر، فتحط بها كثيراً مراكب عدن لأنها ليست في جون ولها جون كبير تنزل مادته من الجبل الكبير الذي في شماليها إلى شرقيها، وموضوعها حيث الطول مائة وعشرون درجة، والعرض خمسة عشرة درجة. وفي شرقيها آخر الإقليم الأول على درجة في الطول مدينة تانه. وهي آخر مدن اللار المشهورة على ألسنة التجار. وأهل هذا الساحل الهندي جميعهم كفار يعبدون الأبداد ويسكن معهم المسلمون وتسافر إليهم مراكبهم. وأكثر ما يعبدون صنم السومانات، وهو معظم عند الهنود يسافرون إليه من الأقطار وعليه مبنى أبيض يظهر للمراكب في البحر من بعيد. وأكثر ما ينبت في بلاد اللار البقم، ومنها يجلب اللاكي وهو صمغ أشجارهم.

الجزء الثامن: أول ما يلقاك من أول خطه، حيث العرض خمس عشرة درجة، من مدن الفلفل المشهورة ببلاد ماليبار مدينة صيمور وهي على جون وخور وفي غربيها وداخل منها في الجنوب. وأشهر [ما] على ألسن المسافرين في [هذا] البحر فاكنور، وهي على خور في شرقيها حيث الطول مائة وتسع وعشرون درجة والعرض ثلاث عشرة

(1) وهي كان سكانها يمارسون عبادة سيفا siva وهي ميناء للتجارة المتجهة إلى الصين أو شرق أفريقيا وبلاد العرب.

درجة غير دقيقتين. وفي سمتها من جهة العرض منجرور[1]، وبينهما في الطول درجتان ولها خور في غربيها. وعلى نحو مجراوين من منجرور: الغات الذي تنحدر منه المراكب لأنها إن وقعت في طرقه ضلت ولا تهتدي لمخلص إلاّ أن ييسر الله لها. وهي جبال في البحر يكون الطريق فيها من ميل إلى خمسين ميلاً وآخره مشدود لا مخلص منه والحكايات عنه مستطرفة. وهي من سمت هذه المدينة المذكورة في الإقليم الثاني. وفي شرقي منجرور في جهة مقصودة من المراكب كولم[2]، وهي آخر بلاد الفلفل ومشهورة على ألسن المسافرين، وكثيراً ما ينسب إليها الزنجبيل. وهي حيث الطول مائة وأربع وثلاثون درجة، والعرض اثنتا عشرة درجة، ومنها إلى جزيرة السيلان مجراوان. وهذه الجزيرة طويلة عريضة. قال ابن فاطمة: والتحقيق فيها أن يقال طولها ستمائة ميل وعرضها يقارب ذلك، فيكون دورها نيفاً عن ألفي ميل. وفيها تجويفات من البحر ومدائن غير مشهورة والمذكور منها في الكتب الرامن، وبها تعرف في القديم. والمشهور منها على ألسن المسافرين سيلان، وإليها يُنسب العود السيلاني وليس بالعالي. وموضوعها حيث الطول مائة وتسع وثلاثون درجة وعشرون دقيقة، والعرض سبع درجات ونصف. وكلتا المدينتين على خور ينزل من جبل في ركنها الغربي الشمالي، وبينهما مئتان وخمسون ميلاً. وفي هذه الجزيرة يكون الكركدن، وفي أطرافها العراة الذين يثبون على الشجر لخفتهم. وسماها بطليموس جزيرة العراة. وفي جنوبها جزائر النجبالوس[3]، وهي عدة أكبرها ثلاث، وأهلها سود مشوهون عراة يقطعون على المسافرين وفيهم من يأكل الناس، وهم مجاورون لخط الاستواء وعرض البحر بينهم وبين جزيرة سيلان نحو مجراوين.

---

(1) ذكرها ابن بطوطة على أنها مقصد التجار، ويكثر الفلفل والزنجبيل فيها.

(2) جنوب شاطئ ماليبار، وميناء للسفن التجارية إلى سومطرة والصين.

(3) هي لنكبالوس عند الإدريسي، وهي جزر النكوبار، Nicobar.

الجزء التاسع: أول ما يلقاك من الجزائر الهندية جزيرة نكواره. وهي من الجزر المشهورة على ألسن المسافرين، طولها نحو مائة ميل وعرضها نصف ذلك، وبينها وبين البحر حيث بلاد برقلي نحو نصف مجرى. وبينها وبين أول هذا الجزء درجة. وفي جنوبها جزيرة اندمان بينهما نحو مجراوين وهي على قدرها. وتوجد فيها جميعاً الفيلة ويجهز منها العاج. وفي شرقي هاتين الجزيرتين مع الداخل بالغرب من خط الإقليم الثاني مدينتان من مدن الزامن على جون من البحر والجون بينهما حيث الطول مائة وتسع وأربعون درجة. وفي شرقي ذلك وجنوبه جزائر المهراج[1] وهي كثيرة ومذكورة في الكتب ويوجد فيها الذهب الطيب، وصاحبها من أغنى ملوك الهند وأكثرهم فيلة. وجزيرته الكبيرة التي فيها مدينة المهراج، طولها مئتا ميل ووسعها قريب من مائة ميل. والمدينة في طرفها الغربي حيث الطول مائة وإحدى وخمسون درجة والعرض اثنتا عشرة درجة ونصف. وفي شرقي المدينة خور مادته من جبل شماليها. ويقال إن قصر هذا الملك على جدول متسع وقد فرش قاعة بالفضة وجعل محصور الطرفين لئلا يخرج منه ما يوضع فيه. وسنّة كل ملك منهم منذ ملك هذه الجزائر أن يرمي [الملك] أجرة من ذهب في كل سنة، فإذا كانت موته حسبت الأجرّ وعرف قدر مدته في الملك ورد منها أجرة واحدة وأنفق الغير على الأجناد في هذا الملك القائم. وللأجر المفرد جهة وللآخر جهة فإذا أرادوا أن يعرفوا كم ملكٍ مِلك منهم حسبوا الأجر المفرد بقضيب ولا يخرجونه من مكانه بل يكون في موضع تطلع عليه الشمس فيضاحك ذلك الذهب من خلال الماء. وهناك من فصوص الياقوت والزمرد وحب اللؤلؤ الكبير مما يتنافس فيه مع الملوك ويفخر به عليهم. وذكر [أن] المكان، هو خزانة هذه الزخائر قالوا ولا يعلم أن هذه الجزيرة [قد] انتقلت من نسب واحد إلى غيره، وبذلك يفتخرون على مجاوريهم. والمهراج لقب يتوارثونه. وفي جنوبي جزيرة المهراج جزيرة الجاوه الكبيرة المشهورة التي تقصدها المراكب. أكثر ما فيها من العقاقير الهندية واشتهار أهلها بحسن السيرة مع

(1) المهراج، هو اسم أطلقه العرب على ملك الجزر الاندنوسية (الزابج).

المسافرين. وأولها الغربي حيث الطول مائة وأربع وأربعون درجة. وفي ذلك الركن من مدنها المشهورة على ألسن التجار لامري، والعرض هناك خمس درجات. وفي جنوبيها في الركن الغربي الجنوبي مدينة فنصور، التي ينسب إليها الكافور الفنصوري، وهي مسامتة للأخرى في الطول وعرضها درجة ونصف. وجبال الكافور ممتدة من المدينة إلى قرب آخر الجزيرة من غرب إلى شرق. وفي وسط الجزيرة على جبال الكافور قاعدتها مدينة الجاوه وبها صاحب الجزيرة وما جاورها من الجزر المنسوبة إليها. وإلى هذه المدينة ينسب العود الجاوي الأسود الرصين الذي يغرق في الماء كأنه الزلط، ويقال أنه عرق شجر العود. وموضوع هذه المدينة حيث الطول مائة وتسع وأربعون درجة وعشرون دقيقة والعرض ثلاث درجات، وفي الركن الشرقي الجنوبي مدينة كله[1]، وهي مشهورة على ألسن المسافرين، وإليها ينسب الكلهي المفضل في عوده ودهانه. ويقال أنهم يصنعون مراكبهم من ذلك فلا يكون في بحر الهند مثلها. وهذه المدينة حيث الطول مائة وأربع وخمسون درجة واثنتا عشرة دقيقة. وفي الجانب الشرقي الشمالي مدينة ملاير[2]، وهي مشهورة مقصودة للحط والإقلاع وطولها مقارب لطول كله، وعرضها مقارب لعرض لامري. وكل مدينة من المدن التي ذكرت في هذه الجزيرة على خور ويكون طول هذه الجزيرة ثمانمائة ميل من الغرب للشرق ووسعها دائر على ثلاثمائة ميل وأربعين ميلاً. وحينما تفارقها المراكب المشرفة للصين يخرج لها على اليمين واليسار طرفان يكون وسع البحر بينهما قدر ميلين. والماء هنالك ليس بالعميق ويقال لذلك المكان البنتن. وهنالك جزائر صغار يخرج منها لصوص سودان بسهام مسمومة، ومراكب عدوانية يأخذون السلب ولا يأخذون الأشخاص. قال بعض الثقات المسافرين: كان لنا مركبان في أحدهما البضائع وأنا في الآخر، فسلم الله [المركب] الذي

(1) في شبه جزيرة ملقة المقابلة لسومطرة، اعتبرها ابن الفقيه تابعة للزابج، وعند ابن خرداذبة (ص 66) تابعة لجاوة، في جزء من جزائر المهراج.
(2) يعتقد فران أنها في شبه جزيرة الملايو.

أنا فيه حتى أبلغني إلى الصين. قال رأيت هنالك رابطة بيضاء فيها [...] من البر فتعجبت من كونه هنالك مع أولئك الكفرة. وإذا خرج المسافرون من البنتن أعطوا البشارة على السلامة. ويلقى المشرف على البنتن جزائر قامرون[1]، وا[في] الكبرى منها مدينة الملك، في شرقي مدينة الجاوه. واسم المدينة قامرون. وقد تقدم نسبهم في جزيرة القمر. وهذه الجزيرة حيث الطول مائة وثمان وخمسون درجة والعرض ست درجات، وله جزائر صغار كثيرة في غربيه، وطول الكبرى نحو أربعمائة ميل وعرضها دائر على مائة ميل. وفي غربي جزائره الصغار جزائر مضافة للجاوه فيها العقاقير الهندية والرصاص الكلهي، ومنها جزيرة البركان التي تقدمت من قبل. ومنها جزائر المهوى الذي لا يدرك قعره. وبعد جزائر قمرون الشمالية جبال الكافور، وهي لا تحصى ممتدة في البحر تسير المراكب منها إلى الصين. وهي لقامرون، وقد تغلب عليها أصحاب الصين أو على ما قارب ساحلهم منها. والشجر فيها كشجر الصفصاف في ورقه ولكن الشجرة منها تظل مائة رجل، والكافور صمغها. ويقال أنهم ينقرون الشجرة فتسيل منها قطع الكافور ثم تموت الشجرة بعد ذلك. قال من سار بين هذه الجبال: رأيتها بالليل مثل الكواكب في السماء تنير منها فسألت عنه فقيل لي في كل جبل منها بد، له قوم يعبدون الله فيه وهم يحيون الليل بالمصابيح للسابلة.

الجزء العاشر: أمل ما يلقاك منه جزائر الصين، فأولها من جهة ساحل الصين إلى الجهة الشمالية صندرفولات، وهي من الجزر المذكورة في الكتب. وبينها وبين الساحل الصيني أقل من مجراوين. وطولها نحو مائتي ميل. وأوسعها رأسها الشمالي وهو نحو مائة وخمسين ميلاً. وفي جنوبها جزيرة الصنف المشهورة في الكتب التي ينسب إليها أشرف العود ويقال أنه كالشمع تنطبع فيه الكتابة وهو أبيض. وملوك الصين لا تتركه لغيرها. وطول هذه الجزيرة من الغرب إلى الشرق نحو مائتي ميل والعرض أقل من ذلك. ومدينة الصنف حيث الطول مائة واثنتان وستون درجة والعرض ست درجات. وفي

---

(1) كمبودية.

غربيها جزيرة قمار التي ينسب إليها العود القماري، وهو دون الصنفي وفوق غيره. وعرض البحر بينهما أقل من مجرى. وهي قريبة من جزيرة الصنف في الطول والاتساع ومدينة قمار طولها مائة وست وستون درجة والعرض درجتان. وفي شرق هذه الجزائر الثلاث جزائر الصين الصغار وهي كثيرة ممتدة من الشمال إلى آخر العمارة في الجنوب وانتهاء البحر الهندي المعروف بالأخضر حيث شرقي هذه الجزائر. والطول هناك نحو مائة وسبع وستون درجة ونصف. ويبقى بين هذا البحر الأخضر والبحر الأسود المحيط أرض يمر في غربيها مع شرقي البحر خمدان الذي هو أحد أنهار العالم الكبار الكثيرة الماء. وليس بالصين نهر أطول ولا أوسع منه، ومنبعه من الجبل الكبير الحاجز بين الصين والترك مع خط الإقليم الرابع ومصبه حيث يختلط البحر الهندي مع البحر المحيط في آخر العمارة في الجنوب، فتكون مسافته نحو ثلاثة آلاف ميل وعليه من المدن عدد كبير. والذي يقع عليه في هذا الجزء العاشر مدينة قانطو وهي من حيث الطول تسع وستون درجة، والعرض إحدى عشرة درجة. وفي جنوبيها على شرقيه أيضاً مدينة سوسه وبينهما ست عشرة مرحلة. وهما متقاربتان في الطول، وسوسه أدخل للشرق حيث العرض درجتان. وتصب من أنهار الصين في البحر المحيط الذي في شرقي خمدان ثلاثة أنهار كبار. وتقع في البحر المحيط بأقصى هذا الجزء جزائر السيلي[1]، وهي مثل الجزائر الخالدات في البحر المحيط ليس خلفها عمارة ولكن هذه معمورة فيها خصب وخيرات. وآخرها للشرق جزيرة صنجي التي بها الأصنام المشيرة اللاّ مسلك خلفي. وانتهاء شرقيها حيث الطول مائة وثمانون درجة. وفي جنوبي هذه الجزائر جزيرة الفضة. ذكرها بطليموس وذكر نهرها. ويقال أن أرضها كثيرة الفضة وإلى جانبها في أقصى العمارة في المشرق جزيرة الياقوت، يدور بها من داخلها الجبل الكبير الذي ذكره بطليموس، ويقال أنه مثل جبل الراهون، الذي فيه سرنديب يوجد فيه الياقوت أصنافاً، وآخر هذا الجزء مع خط الاستواء.

---

(1) الجزيرة الكورية.

أجزاء من الإقليم الثاني

الجزء السادس: .... ويقع في هذا الجزء من مدن السند المذكورة في الكتب قنديل التي يتسوق بها المند. وهي بين آخر خليج السند وبحر الهند في البرية حيث الطول ثلاث وتسعون درجة وأربعون دقيقة، والعرض على سمت صحار تسع عشرة درجة وست وخمسون دقيقة. وفي شرقيها جبال الخيزران. وفي أودية هذه الجبال يكون الساج الذي يحمل إلى فارس والعراق في البحر والقنا الهندية التي تحمل إلى الأقطار. وفي شرقيها مصب أنهار المولتان[1]، وهي كرسي ملك من ممالك السند على النهر الغربي منها، حيث الطول مائة درجة وأربع درجات والعرض مع خط الإقليم الثالث. ويقع في دخلة من البر في خليج السند مدينة الدَّيبُل المشهورة[2]، التي يجلب منها المتاع الديبلي، وهي أكبر فرض السند المشهورة وأشهرها. وموضوعها حيث الطول اثنتان وتسعون درجة وإحدى وثلاثون دقيقة والعرض أربع وعشرون درجة وإحدى وثلاثون دقيقة.

الجزء السابع: تقع في جنوبه الساحلي من بلاد الجزرات الهندية كنباية وهي مشهورة يقصدها تجار الهند، وفيها السلمون ولهم فيها مساجد........

الجزء الثامن: يقع فيه من بلاد مليبار التي يجلب منها الفلفل. وفرضتها المشهورة داخلة في الإقليم الأول. ويقع فيه قاعدة بلاد المكنونات أكنوني والجبال والمياه محدقة بها. وهي لكفار الهند حيث الطول مائة وخمس وثلاثون درجة ونصف والعرض ثلاث وعشرون درجة ونصف. وهي على شرقي نهر كنك الكبير المعظم عند الهنود وعلى

---

(1) مدينة مقدسة هي الآن في أفغانستان.

(2) ميناء في أفغانستان في السند، ويعتقد أنها كراتشي.

غربي نهر الصوليان. وينزل إلى أراضيها من المياه والأنهار عدد كبير ويصب الجميع في هذين النهرين. فأما نهر كنك فإنه ينصب في بحر الهند.....

الجزء التاسع: في غربيه بلاد برقلي وفي شرقيها خور فوفل وهو حلو طويل عريض تدخله مراكب المسافرين الكبار، وطوله من بحر الهند نحو أربع بجار، وأصله من بركة كبيرة مع الإقليم الثالث بين جبال بلهرا. وعلى شرقيه عند البحر قاعدة فوفل وهي مشهورة على ألسين المسافرين في البحر للهند وهي لكفار الهند حيث الطول مائة وست وأربعون درجة والعرض مع خط الإقليم الثاني. وفي شرقيها جبال قاقلة ولها بلاد ومدن المذكور منها قاقلة، وهي حيث الطول مائة وخمسون درجة والعرض إحدى وعشرون درجة وخمسون دقيقة. ولها نهر ينزل من جبل في شماليها فيمر على شرقيها وينصب في نهر طراغا الكبير. وفي شرقي بلاد قاقلا الجبل الكبير الممتد من خط الإقليم الرابع، إلى بحر الهند وهو فاصل بينها وبين بلاد الحنبه. والمشهور منها قاعدة الحنبه وهي على شرقي نهر طراغا الكبير وفي شرقيها جبل الصين الفاصل بينها وبين بلاد الحنبه. ومن هناك تمتد الأنهار والجبال في الصين وهي اثنا عشر نهراً واثنا عشر جبلاً بين كل جبلين نهر. فأول ما يقع في هذا الجزء التاسع نهر زيتون، وعلى رأسه فرضة زيتون[1]، المشهورة على ألسن التجار الذين يصلون إلى البلاد الصينية، والمراكب تدخل إليها من بحر الصين قدر خمسة عشر ميلاً، وهي حيث الطول مائة وأربع وخمسون درجة. والعرض سبع عشرة درجة ودقائق. وعلى نهر لوقين وهو الرابع من أنهار الصين مدينة لوقين وهي مشهورة بين فرض الصين، وموضوعها في خور على البحر حيث الطول تسع وخمسون درجة وخمسون دقيقة والعرض يقرب من خط

---

(1) لعلها تسوثونج Tseu _ thoung. في ولاية فو _ كيان Fou _ kian. الصينية أو تسوان شو Tsuen _ chau، ملتقى طريق السفن العابرة إلى الصين.

الإقليم الثاني. وفي شرقيها نهر خمدان الأعظم عليه في آخر هذا الجزء مدينة خانقو[1]، وهي مذكورة في الكتب وموضوعها على شرقيه بقرب خط الإقليم الثاني.

الجزء العاشر: تقع فيه بقية أنهار الصين وجبالها على ما صور في الجغرافيا. وفي شرقي الصين الجبل الفاصل بينهم وبين صين صين. وصور أهل الصين مائلة إلى صور الخلط وهي بين الترك والهنود، ولباسهم متوسط ومن عاداتهم أنهم يكشفون صدورهم. وسلطانهم يقال له البغبور[2]، وقاعدته مدينة تاجه في الإقليم الثالث، ورعيته محصورون بالجبال والحصون فلا يدخل أحد من جهتها ولا يخرج منها إلاّ بإذن. ويقال أن جميع طرق الصين مفروشة بالحجارة، والمزارع عن يمين وشمال، وفي أكثرها الأرز وزعمهم [أنه] يأكله دود يقتله اللبان فلذلك يحمل كثيراً إلى بلادهم من [....] والراوند الصيني... كثير بهذه الأرض. ويقال أن عندهم اللفت يطبخون به وهو أخضر، اللحم. والفيلة عندهم كثيرة وعليها يحملون أثقالهم ومبانيهم أكثرها من خشب الكافور والصنوبر، ويضعون فيها أذهاناً ملاحاً ونقوشاً بديعة من نوع الكلهي، وكذلك مراكبهم. واسم المركب عندهم الزوو[3]، وهو كبير يكون فيه بيت الإنسان وتحته مخزن للبضائع، ويتعاملون بسبائك الذهب والفضة الكبيرة. وعندهم فلوس من النحاس للقليل، وكلامهم صعب وكلام الهنود أحلى منه. وقد صارت مراكبهم في هذا العصر تصل إلى عدن. وفي آخر هذا الجزء من بلاد صين صين مدن معجمة. وآخر المعمور فيه جزيرة العلويين، كان بنو أمية قد بعثوهم إلى ملك الصين وأخبروه أنهم أهل جرائم اقتضت إبعادهم. فلما حضروا عنده أخبروه أنهم من بيت النبوة. فقال: يُحملون إلى الجزيرة التي في آخر صين صين، وهي كثيرة الأفاعي القاتلة، فإن كان كما

---

(1) أو خانفو كانت ميناء لمدينة هانج ـ شو ـ مو Hang ـ chou ـ fou . التي كان العرب يسمونها الخنساء.

(2) اسم أطلقه العرب على أباطرة الصين.

(3) كانت تسمى الزوارق المتوسطة: الزو والكبيرة: جنوك.

زعموا لم تضرهم، وإن قتلتهم أستريح منهم. فحماهم الله منها وسكنوا تلك الجزيرة وتناسلوا. قال البيهقي: ومنهم معظم أشراف العجم الذين يعقلون الضفائر في الرؤوس إشارة لتلك الحيات التي خلصهم الله منها.

أجزاء من الإقليم الثالث

الجزء السادس: أول ما يلقاك منه بطائح الزط[1]، وهم أمة من عورام السند وبواديهم يضرب بها المثل في الركاكة، ومنازلهم في أخصاص كرجالة البرابر على أنهار وبرك وأصلها من نهر البيرون. وفي شرقيهم مدينة البيرون التي ينتسب إليها أبو الريحان البيروني، المتفنن في العلوم القديمة والحديثة وهو تلميذ ابن سينا. وهذه المدينة من فرض بلاد السند التي على خليجهم المالح الخارج من بحر فارس، والنهر المنسوب إليها في شرقيها ينصب في الخليج ومنبعه من جبال كابل المتصلة بجبال تخارستان، وهي هنالك منبع بعض الأنهار [مثل] جيحون الجاري إلى الشمال. وموضوع البيرون حيث الطول إحدى وسبعون درجة واثنتان وخمسون دقيقة. ويمر الخليج فينزل إلى الإقليم الثاني حيث مدينة الديبل التي تقدم ذكرها، ثم يقف مع خط الإقليم الثالث وينصب فيه هناك مهران الكبير على مقربة من الديبل. وفي شرقي ذلك حيث الطول خمس وتسعون درجة ونصف والعرض أربع وعشرون درجة واثنتان وأربعون دقيقة، قاعدة السند وهي المنصورة[2]. والنهر في جنوبيها، ويحدق بها ذراع من مهران يرجع إليه فتصير من ذلك في جزيرة وتقع في شماليه قاعدة كابلستان، كابل التي ينسب إليها الهليج الكابلي.

(1) الزط، يسموا أحياناً النور، كانوا يقطنون على مقربة من نهر مهران بجوار ملتان، ثم استقرت على دفعات على نهر دجلة ثم هاجرت إلى بلاد بيزنطة.
(2) تقع على ذراع نهر مهران.

وفي جبالها عقاقير هندية وكانت من ثغور المسلمين في وجوه الهند وقد حصلت مع السند في إيالة التتر. وموضوعها حيث الطول مائة درجة و العرض ثمان وعشرون درجة، ولها مدن وعماثر عظيمة. وفي غربيها مدينة غزنة العظمى، حيث كان سرير سلطنة محمود بن سبكة صاحب الغزوات المشهورة في الهنود، ثم كان بها سلاطين الغور الذين فتحوا كثيراً من قواعد الهند، وبقايا ممالكهم إلى الآن في مدينة دلهي لم يقدر عليهم التتر. والإسلام عزيز في حوزتهم. وغزنة المذكورة تقع حيث الطول اثنتان وتسعون درجة وإحدى وخمسون دقيقة والعرض ثمان وعشرون درجة وأربع وخمسون دقيقة ولها مدن معجمة.

الجزء السابع: أول ما يلقاك من خط الإقليم الرابع مدينة القندبار[1]، وهي من قواعد بلاد الهند حيث الطول مائة وعشر درجات، ويقال أنها إحدى الاسكندريات التي بناها الاسكندر في الأقطار. ولما فتحها المسلمون بعد كابل صارت ثغراً في وجه الهند، وهي على النهر المنسوب إليها [والذي] ينزل من الجبال المنسوبة إليها التي في غربيها، ويمر [النهر] بجنوبها ويحتضنها منه باع فتبقى في وسط الماء وينزل النهر الصغير في النهر الكبير [الذي ينزل] في مهران. وعلى نهر السند في هذا الجزء، وجبال كفار الهنود في جانبه الجنوبي وفي شماليه، بلاد معجمة للمسلمين. وكفار الهند إلى أن يدخل في بلاد هندوستان التي فتحها غياث الدين الغوري صاحب غزنة، وأخوه شهاب الدين. فأولها من كراسي الملك المشهورة يافون. فيها نائب سلطة من سلطان دلهي، وهي حيث الطول مائة وثلاث وعشرون درجة والعرض ست وعشرون درجة وخمس عشرة دقيقة. ولها بلاد معجمة ورعاياها هنود كفار والجند ترك مسلمون. ومياه هذه البلاد برك من مياه الأمطار يقولون لها البلاحات.

---

[1] تقع حالياً في أفغانستان.

الجزء الثامن: أول ما يلقاك منه بلاد هاشي التي قاعدتها في الإقليم الرابع. وفي شرقيها قاعدة بلهرا[1] ملك ملوك الهند، وهي مدينة القنوج، التي أطال غزوها والتردد عليها السلطان محمود على مسيرة ثلاثة أشهر.... وهي بين ذراعين من نهر كنك المعظم عند الهنود، وتصير بهما جزيرة. وعلى جانبي هذا النهر، في انحداره من هناك حتى بحر الهند، قلاع البراهمة التي لا ترى. وهم عباد الهند الذين ينسبون إلى البرهمن وهو أول حكمائهم وسلاطينهم الذين اجتمعت لهم ممالك الهند وأديانها. وهم لا يرون يؤكل ما فيه روح. والأبداد عندهم، الواحد عندهم يخلد في هذا العالم لأنه صفا وتروحن واستحق ذلك. ولهم في هذا الباب خوارق. وعبادتهم دائرة على رقص الجواري ولعبهن في الأبداد[2]. ومن أراد التقرب منهن حرق نفسه أو دخل إلى نهر كنك المذكور. وهناك شجر القنا في غاية الارتفاع وقوم مرتبون و[لهم] سيوف مسلولة وخناجر قائمة لبعض المتقربين يربط رأسه في طرف قناة ثم يحني عنقه فينزل الرأس وترتفع القناة على شط النهر. وآخر يلقي بنفسه من شاهق على تلك السيوف والخناجر فيقطع. وآخر يغرق نفسه في النهر. ويزعمون أن هذا النهر من الجنة، وأنه متى جعلت فيه القاذورات أظلم جوه وامتلأت أرجاؤه من الرياح و الأمطار والصواعق. وقد جرب ذلك السلطان محمود عند عقبة عوزك، فوجد ذلك صحيحاً... والمشهور من المدن التي على هذا النهر في هذا الجزء عوص. وهي غربيه في جادة الطريق التي يسلكها تجار المسلمين في ساحل المكنونات إلى دلهي. وسكانها من كفار الهنود لكن لهم سياسة في مسلك التجار عليهم، وموضوعها حيث الطول مائة وثلاثة وثلاثون درجة والعرض سبع وعشرون درجة ونصف. ومن شرقي هذا النهر إلى آخر هذا الجزء جبال بلهارا، فيها كثير من بلاد الهند المعجمة. وهذه المملكة عندهم أعظم ممالك الهند ولصاحبها يدين سائر ملوكهم

(1) أطلق العرب اسم بلهرا على عاصمة المملكة وعلى الملك، وهذا الاسم محرف من (مالفا ـ راي) الهندي، ومعناه ملك مالفا.

(2) جمع بد وهي الصنم.

وفيها الفيلة الكثيرة والكركدنات التي تقطع الطرق فلا يسلكها إلاّ الجمع. ويقال أن الفلفل ينبت في مجاري مياهها بحيث لا يصل إليه أحد وتأخذه السيول فيلتقط وينشف.

الجزء التاسع: يمر منه في جبال بلهارا..... وفي شرقي هذا الجبل تقع مدينة أطراغا، .... وهي أربع مدائن على النهر المنسوب إليها وعلى الذراعين الخارجين منه. ومنبع هذا النهر من الجبل الكبير الذي في غربيها.... وفي مدينة أطراغا يكون ملك هذه البلاد وسمته الحنبه. وفي جنوب أطراغا الجبل المنسوب إليها، يمتد إلى أن يتصل بجبل الصين وتتشعب منه جبال فيها الكثير من عقاقير الهند والفيلة الكثيرة.... ويقع باب الصين الأعظم وهو مشيد بالبناء مع الجبل الكبير حيث الطول ستون درجة وعرضه مع خط الإقليم الرابع. وفي شرقيه في آخر الجزء مع خط الإقليم الرابع قاعدة الصين، وهي مدينة تاجه وفيها البغبور ملكهم الكبير. ومن الجبل الكبير الذي في شماليها ينزل خمدان، وهو أكبر أنهار الصين، وتصير المدينة بين ذراعيه جزيرة وينزل منه نهران، نهر يمر على هذا الجزء إلى الجنوب حتى ينصب في بحر الهند والفرع الأعظم يأخذ مشرقاً في الجزء العاشر.

الجزء العاشر: أول ما يلقاك منه بلاد الصين ونهر خمدان إلى الشرق ثم ينصب في بحيرة كبيرة تنصب فيها أنهار صغار من جبل الصين، ثم يخرج من جنوبيها نهر خمدان الكبير وقد عظم فيمر في الإقليم الثالث وما بعده إلى آخر خلف خط الاستواء، في الصحارى [المحيطة] بهذه البحيرة قريباً وبعيداً من عمائر الصين. ومدنه المعجمة كثيرة والمذكور منها ها هنا صينيّة، وهي القاعدة القديمة وبها كان السلطان. وموضوعها حيث الطول مائة وسبع وستون درجة والعرض ست وعشرون درجة ودقائق. [وهي] على شرقي نهر ينصب من جبل الصين وعليه عمائر كثيرة. وفي هذه المدينة يعمل الفخار الصيني ويجلب له الطين من أرض كثيرة الفضة في مشارق الصين. ويقال أن صانعه لا ينتفع به وإنما ينتفع به وارثه. وفي شرقي هذه المدينة جبل صين صين الحائل

بينها وبين الصين. وفي شرقي هذا الجبل من صين صين المعجمة الأسماء ما خمل ذكره في الكتب [وعلى] الألسن. وتقع القاعدة وهي مدينة منزي[1]، التي لم يقدر عليها التتر بحيلة ولا حصار، حيث الطول مائة وست وتسعون درجة وثلاثون دقيقة والعرض ست وعشرون درجة. وهي على نهر مستمر ينزل من الجبل المذكور ويمر مشرقاً ويتسع اتساعاً كبيراً ثم يختلط في آخر العمارة بالبحر المحيط. وينزل إليه من الجبل الكبير الشمالي أنهار كثيرة عليها عمائر صين صين. والحرير المنزي نهاية في الطيب.

[1] لعله اسم محرف للكلمة الصينية tseu _ man. يسميها ماركو باولو mengi.

3

مختارات من التأليف التاريخي

آ

اليعقوبي

أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب الكاتب

ت 292هـ

تاريخ اليعقوبي الجزء الأول

دار العراق

بيروت 1955

ملوك الهند

قال أهل العلم أن أول ملوك الهند الذي اجتمعت عليه كلمتهم برهمن الملك الذي في زمانه كان البدء الأول، وهو أول من تكلم بالنجوم، وأُخذ عنه علمها والكتاب الأول الذي تسميه الهند "السند هند" وتفسيره "دهر الدهور"، ومنه اختصر الأرجهير الأركند، والمجسطي، ثم اختصروا من الأرجهير والأركند، ومن المجسطي كتاب بطليموس، ثم عملوا من ذلك المختصرات والزيجات وما أشبهها من الحساب، ووضع التسعة الأحرف الهندية التي يخرج منها جميع الحساب الذي لا يدرك معرفتها وهي 1 ، 2، 3، 4، 5، 6، 7، 8، 9 فالأول منها واحدة وهو عشرة وهو مائة وهو ألف وهو مائة وألف وهو ألف ألف وهو عشرة آلاف ألف وهو مائة ألف ألف وعلى هذا الحساب أبداً فصاعداً، والثاني وهو اثنان وهو عشرون وهو مائتان وهو ألفان وهو عشرون ألفاً وهو مائتا ألف وهو ألفا ألف وعلى هذا الحساب يجري التسعة الأحرف فصاعداً غير أن بيت الواحد معروف من العشرة وكذلك بيت العشرة معروف من المائة وكذلك كل بيت، وإذا خلا بيت منها يجعل فيه صفر ويكون الصفر دارة صغيرة.

وجعلوا الدنيا سبعة أقاليم.

فالإقليم الأول الهند وحده...... والإقليم الثاني الحجاز حده...... والإقليم الثالث مصر حده مما يلي أرض الحبشة إلى أرض الحجاز...... والإقليم الرابع وهو العراق حده مما يلي الهند والديبل..... الإقليم الخامس الروم حده مما يلي أرض مصر.... والإقليم السادس ياجوج وماجوج حده مما يلي أرض المغرب الترك ومما يلي الخزر.... والإقليم السابع الصين حده مما يلي المغرب ياجوج وماجوج.....

وقالوا كل إقليم من هذه الأقاليم يسع مائة فرسخ في مثلها، وذكر أن قطر الأرض ألفان ومائة فرسخ ومدتها ستة آلاف وثلاث مائة فرسخ، وأنهم قدّروا هذا الفرسخ على ستة عشر ألف ذراع، وذكروا أن الذراع الذي يحيط بأسفل دائرة النجوم وهو فلك القمر مائة ألف فرسخ وخمس وعشرون ألفاً وستمائة وأربعة وستون فرسخاً، وأن قطره من حد رأس الحمل إلى حد رأس الميزان أربعون ألف فرسخ بتقدير هذه الفراسخ التي قدروا بها الأرض، فساعات طول النهار في الإقليم الأول ثلاث عشرة ساعة وفي الثاني ثلاث عشرة ساعة ونصف وفي الثالث أربع عشرة ساعة وفي الرابع أربع عشرة ساعة ونصف، وفي الخامس خمس عشرة ساعة، وفي السادس خمس عشرة ساعة ونصف، وفي السابع ست عشرة ساعة، وكل مدينة كانت في مقادير طول نهارها في هذا القدر فهي متوسطة الإقليم الذي هو فيه، وما كان فيما بين هذه الأقدار فهي من الإقليم الذي هي إليه أقرب في مقدار الساعات. فصار وسط الإقليم الأول على مسيرة نحو من ثلاثين ليلة من خط الاستواء بأرض اليمن مدينة سبأ وما والاها إلى المشرق والمغرب. وذلك فيما دون عدن أبين بقدر عشرة أيام. ووسط الإقليم الثاني مكة وما والاها من ناحية الكوفة والبصرة من المشرق والمغرب، ووسط الإقليم الرابع أصفهان وما والاها مما هو في مثل عرضها من المشرق إلى المغرب، ووسط الإقليم السادس برذعة وما والاها مما هو في مثل عرضها ما بين المشرق إلى المغرب، ووسط الإقليم السابع بجبال الترك وما والاها مما هو في مثل عرضها مما بين المشرق والمغرب.

وقالت الهند أن الله عز وجل خلق الكواكب في أول دقيقة من الحمل وهو أول يوم من الدنيا، ثم سيرها من ذلك الموضع في أسرع من طرفة العين، فجعل لكل كوكب منها سيراً معلوماً حتى يوافي جميعها في عدة أيام السندهند إلى ذلك الموضع الذي خلقت فيه كما كانت كهيئتها الأولى، ثم يقضي الله تبارك وتعالى ما أحب، فقالوا إن جميع أيام الدنيا من السندهند منذ أول ما دارت الكواكب إلى أن تجتمع جميعاً في دقيقة الحمل كما كانت يوم خلقت ألف ألف ألف ألف وخمسمائة ألف ألف

ألف وسبعة وسبعون ألف ألف ألف وسبعمائة ألف ألف، وستة عشر ألف ألف، وأربعمائة ألف وخمسون ألف يوم يكون ذلك شهوراً ستين ألف ألف ألف وثمان مائة ألف ألف وأربعين ألف ألف شهر، ويكون من السنين أربعة آلاف ألف ألف وثلاثمائة ألف ألف وعشرين ألف ألف سنة كاملة بسني الشمس على مدارها، والسنة ثلاثمائة وخمسة وستون يوماً وربع يوم وخمس ساعات وجزء من أربعمائة جزء من ساعة.

ثم اضطرب أمر الملك بالهند فأقام زماناً طويلا وهو ممالك مفترقة في البلاد لكل طائفة مملكة حتى غزتهم الملوك، فخافوا أن يدخل عليهم الوهن وكانوا أهل حكمة ومعرفة وعقول يجازون بها مقدار غيرهم من الأمم، فأجمعوا على تمليك رجل واحد فملكوا زارح وكان عظيم الشأن جليل القدر فعظم ملكه وجل سلطانه حتى سار إلى أرض بابل، ثم تجاوزها إلى ملوك بني إسرائيل وهو الذي غزا بني إسرائيل بعد أن مات سليمان بن داود بعشرين سنة وملك إسرائيل يومئذ رحبعم بن سليمان فضجت بنو إسرائيل إلى الله تعالى فسلط الله على زارح وجيشه الموت فانصرف إلى بلاده.

ومن ملوكهم فور وهو الذي غزا بلاده الاسكندر ولما قتل ملك الفرس وغلب على أرض العراق وما والاها مما كان في مملكة داريوش، وذلك أنه كتب إليه يأمره بالدخول في طاعته وكتب إليه فور أنه يزحف إليه بالجيوش، فبدر الاسكندر فصار إلى بلاده وخرج إليه فور فحاربه فأخرج فور الفيلة وكان العلو على الاسكندر، فكانت لا يقف لها شيء، فعمل الاسكندر تماثيل من نحاس ثم حشاها بالنفط والكبريت وأشعل النار في داخلها، ثم صيرها على عجل وألبسها السلاح، ثم قدمها أمام الصفوف فلما تلاقوا دفعتها الرجال إلى الفيلة، فلما قربت حملت عليها الفيلة بخراطيمها فكانت تلف الخراطيم على ذلك النحاس وهو يلهب ويشتوي وتنصرف منهزمة فتفل كراديس الهند وتهلكهم، ثم دعا الاسكندر فور ملك الهند إلى أن يبارزه فبرز له فقتله الاسكندر مبارزة بعد له، واستباح عسكره.

ومن ملوكهم كيهن وكان رجلاً ذكياً أديباً فملكه الاسكندر بعد فور على جميع أرض الهند، وكان كيهن قد استعمل الفكر فكان أول من قال بالتوهم، وأن الطبيعة تنصرف إلى ما تتوهمه، فما توهمت أنه ينفعها نفعها وإن كان ضاراً، وكان كيهن يأكل البيش وهو السم القاتل. ثم يتوهم أن على قلبه أحمال ثلج فلا يضره ذلك البيش حتى احترقت رطوبته وكان من أصلح خلق الله ذهناً وأحفظه وأذكاه.

ومن ملوكهم دبشلم وهو الذي وضع في عصره كتاب "كليلة ودمنة" وكان الذي وضعه بيدبا حكيم من حكمائهم، وجعله أمثالاً يعتبر بها ويتفهمها ذوو العقول، ويتأدبون بها فكان أول باب منها باب السلطان الذي يسعى إليه البغاة بخاصته وأصحابه المقدمين عنده وكيف ينبغي أن يستعمل الأناة والتثبت ولا يعجل بقوله السعاية وهو باب الأسد والثور. الباب الثاني باب الفحص عن الأمور وكيف تكون العواقب فيها وما يؤدي إليه البغي والتهور والكيد من سوء العاقبة وهو باب الفحص عن خبر دمنة. الباب الثالث باب الأعداء والتحرز منهم والحيلة لهم والكلام الذي يكسب العداوة، وما يجب من مداراة الأعداء وانتهاز الفرصة فيهم عند إمكان الأمر والتضرع لهم، حتى يمكن الانتقام منهم وهو باب البوم والغربان. الباب الرابع باب المشاورة للعلماء والاستعانة بأهل الحزم و الأمانة وإفشاء الأمور إلى أهل العقل وهو باب بلاذ. الباب الخامس باب المعروف وإلى من ينبغي أن يصطنع وكيف يفسد وسوء الشكر إذا وضع غير موضعه وحمله من لا يستحقه، وكيف يعرف موضعه عند أهله الذين يشكرونه، وهو باب السلحفاة والببر والقرد والنجار. الباب السادس باب الظفر بالأمر وإضاعته بعد إمكانه والعجز عن حفظه بعد القدرة عليه وهو باب القرد والغيلم. الباب السابع باب المداراة ومصانعة أهل الشأن واحتراز مودتهم واستمالة أهل الانحراف حتى يتخلص من السوء، وهو باب السنور والجرذ. الباب الثامن باب معرفة السلطان بأعوانه وأقربائه وأهل دخلته واستصلاحه من نالته جفوته منهم، واجتلاب ردأته والاستعانة على أموره بأهل العفاف والمودة وتفقد أحوال أعوانه وحاشيته ومكافأة المحسن ومعاقبة

المسيء على الإساءة، وهو باب الأسد وابن آوى. الباب التاسع باب الإخوان والمتصادقين على صحة موداتهم ومقدار الإخوان وعظم النفع بهم، ومعاونتهم على أمور الشدة والرخاء، وهو باب الحمامة المطوقة. الباب العاشر باب طلب نفع الناس بضر النفس والتفكير في العاقبة وهو باب اللبؤة والأساور.

وقال بعض علماء الهند إن أهل بلاد الهند تواتر عليهم الموت حتى ذهب علماؤهم وضعف الملك. وأنه لما ملك هشران طلب من يحيي له شرائع آبائه فأتاه قفلان، وكان داهية فقال له، إن الناس جزء من الحيوان وإن الحيوان جزء من النامي، وإن النامي جزء من الطبائع الأربع التي هي النار والهواء والأرض والماء. وإن النامي ينقسم على ثلاثة أقسام أحدها النبات وله النمو فقط، والثاني ما يكون في البحر من الأصداف وما أشبهها وله نمو وحس، والثالث الحيوان البري وله نمو وحس وحركة، وأن الحيوان أقل وأحقر من أن يدبرهم الخالق، وإنما يدبرهم ويصرفهم الفلك، فقال له الملك، أرني صورة ما تقول وبرهانه، فوضع النرد وقال، اتفق الناس على أن دور الزمان سنة ومعناها اثنا عشر شهراً ومعناها البروج الاثنا عشر، وعلى أن أيام الشهر ثلاثون يوماً ومعناها لكل برج ثلاثون درجة، وعلى أن الأيام سبعة ومعناها الكواكب السبعة السيارة. ثم جعل تشبيهاً لذلك فوضع عرصة شبيهة بالسنة، وصير فيها أربعة وعشرين بيتاً عدد ساعات الليل والنهار في كل ناحية اثني عشر بيتاً تشبيهاً بشهور السنة والبروج، وصير لها ثلاثين كلباً تشبيهاً بأيام الشهر ودرج البروج، وصير الفصين تشبيهاً بالليل والنهار، وفي كل فص ست جهات لأنه عدد تام له نصف وثلث وسدس في كل فص، إذا سقط من أعلاه إلى أسفله سبع نقط تحت الست واحدة وتحت الخمس اثنتان وتحت الأربع ثلاث تشبيهاً بعدد الأيام والكواكب السبعة السيارة، وهي الشمس والقمر وزحل والمشتري والمريخ وعطارد والزهرة، ثم جعلها محنة بين رجلين وأعطى كل واحد فصاً وقال من أعطيته هذه السبع نقط من أعلاها أكثر من صاحبه بدأ فاجتمع له فصان، فضرب وما ظهر من الفصين تقلب الكلاب عليه، وجعل ذلك

تمثيلاً للحظ الذي يناله العاجز بما جرى له الفلك والحرمان الذي يبتلي به الحازم على حسب ما يجري له الفلك، فلما ظهر ذلك قبله الملك وفشا في أهل المملكة وصار أهل الهند يجري أمورها بما يدبره الكواكب السبعة السيارة.

وملك بلهيت وقد غلب على أهل المملكة هذا الدين وكان له عقل ومعرفة فلما رأى ما عليه أهل مملكته ساءه ذلك، وبلغ منه ثم سأل هل بقي رجل على دين البرهمية فدل على رجل له عقل ودين فأرسل إليه، ، فلما أتاه أكرمه ورفع درجته ثم ذكر له ما قد فشا في أهل مملكته، فقال أيها الملك أنا أقيم برهاناً أضطر به ويعرف به فضل الحازم على العاجز والمجتهد على المقصر والمحتاط على المضيع والعالم على الجاهل فوضع الشطرنج، وتفسيرها بالفارسية "هشت رنج" وهشت ثمانية ورنج صفح وصيرها ثمانية في ثمانية فصارت أربع وستين بيتاً، وصيرها اثنين وثلاثين كلباً مقسومة بين لونين كل لون ستة عشر كلباً، وقسم الستة عشر على ست صور، فالشاه صورة والفرز صورة والفيلان صورة والرخان صورة والفرسان صورة والبيادق صورة، فاشتق ذلك من زوج الزوج وهو أحسن ما يكون في الحساب، لأن الأربعة والستين إذا قسمتها كان لها نصف، اثنان وثلاثون، وهي عدة جميع الكلاب، وإذا نصفت الاثنين والثلاثين كان لها نصف وهو ستة عشر وهو ما لكل واحد من الكلاب، وإذا نصفت الستة عشر كان لها نصف وهو ثمانية وهي عدة بيادق كل واحد فإذا نصفت الثمانية كان لها نصف وهو أربعة وهو الرخان والفرسان من كل واحد، فإذا نصفت الأربعة كان لها نصف وهو اثنان فقد انقسمت أزواجاً ولم يبق في القسم بعد الأزواج إلاّ الواحد الذي يقسمها كلها آحاداً وهو ليس بعدد ولا معدود ولا زوج ولا فرد لأن أول أعداد الفرد ثلاثة.

ثم قال الحكيم ليس شيء أجل من الحرب لأنه يبين فيها فضل التدبير وفضل الرأي وفضل الحزم وفضل الاحتياط وفضل التعبئة وفضل المكيدة وفضل الاحتراس وفضل النجدة وفضل البأس وفضل القوة وفضل الجلد وفضل الشجاعة، فمن عدم منه شيء من هذا عرف موضع تقصيره لأن خطأها لا يستقال والعجز فيها متلف

للمهج، والجهل مبيح للحمى وترك الحزم ذهاب الملك وضعف الرأي جلب للعطب والتقصير سبب للهزيمة، وقلة العلم والتعبئة داعية الانكشاف، وقلة المعرفة بالمكيدة تهور إلى الهلكة، وترك الاحتراس نهزة للعدو، وجعلها على مثال الحرب فإن أصاب ظفر وإن أخطأ هلك، فلما رأى الملك صحة البرهان وتبين فضل حكمة الحكيم وعلم أن قد أصاب وأحسن التمثيل وأبان عما قد عمي عنه، جمع أهل مملكته فعرفهم ما كشف الله عنهم من الغم وأمرهم أن يقيموها ويتأملوها. وقال لهم قد علمنا أن ليس في العالم حي ناطق مفكر ضاحك عاقل إلا الإنسان فلإنسان عليه مدار جميع ما في العالم لأن الفلك يجمع ما فيه خلقه الخالق للإنسان ليعرف به ما يحتاج إليه من زمانه وأوقاته، وكذلك ذلل له جميع ما في الأرض وكل ما خلق الله مما في قعر البحر وجو السماء ورؤوس الجبال، فلما ملك الإنسان جميع ما خلق؟، قسم ذلك الإنسان ثلاثة أقسام، فأكل ثلثاً وسخر ثلثاً وقتل ثلثاً، فأكل الطير والسمك وما شاء من النعم والإبل وسخر البقر والحمير والدواب وقتل السباع والحيات والهوام ثم جعل فيه آلات يعلم بها ويعقل بها ويدرك بها ويفهم ففضل الناس بعضهم بعضاً بالعلم والعقل والفهم.

.... فقولهم في النجوم أصح الأقاويل وكتابهم فيه كتاب "السندهند" الذي منه اشتق كل علم من علوم مما تكلم فيه اليونانيون والفرس وغيرهم، وقولهم في الطب المقدّم، ولهم فيه الكتاب يسمى "سسرد" فيه علامات الأدواء ومعرفة علاجها وأدويتها، وكتاب شرك وكتاب ندان في علامات أربعمائة وأربعة أدواء، ومعرفتها بغير علاج، وكتاب سندهشان وتفسيره صورة النجح، وكتاب فيما اختلفت فيه الهند والروم من الحار والبارد وقوى الأدوية وتفصيل السنة، وكتاب أسماء العقاقير كل عقار بأسماء عشرة، ولهم غير ذلك من الكتب في الطب، ولهم في المنطق والفلسفة كتب كثيرة في أصول العلم منها كتاب طوفا في علم حدود المنطق، وكتاب ما تفاوت فيه فلاسفة الهند والروم، ولهم كثيرة يطول ذكرها ويبعد عرضها.

ودين أهل الهند البرهمية وفيهم عبدة الأصنام ولهم ممالك مختلفة وملوك متفرقة لسعة البلد في طوله وعرضه، فأول ملوكهم مما يتاخم البلاد التي هي اليوم دار الإسلام دانق وهو ملك عظيم القدر واسع المملكة كثير العدة، ثم من بعده رهمى وهو أعظم قدراً وأعز بلاداً وهو على بحر من البحور وفي بلده الذهب وما أشبهه، ثم مملكة بلهرى ثم الكمكم ومن عندهم يأتي الساج ولهم اتساع في البلاد، ثم مملكة الطافن وهم قوم بيض الوجوه، ثم مملكة كنباية ومملكة المايد وهذه الممالك تتاخم الصين وهم يحاربون الصين، ثم مملكة سرنديب ثم مملكة قمار وهي مملكة جليلة القدر عظيمة الأمر يتقدم لملكهم الملوك، ثم مملكة الديبل، ثم الفاربط التاربط خ ل ثم مملكة الصيلمان ولهم في بعض ممالك يليها النساء.

ب

من كتاب
مروج الذهب ومعادن الجوهر

علي بن حسين المسعودي

تـ 346 هـ

السفر الأول

اختيار وتقديم قاسم وهب

ذكر جمل من أخبار الهند وآرائها وبدء ممالكها وملوكها

ذكر جماعة من أهل العلم والنظر والبحث الذين وصلوا الغاية بتأمل شأن هذا العالم وبدئه: أن الهند كانت في قديم الزمان الفرقة التي فيها الصلاح والحكمة؛ فإنه لما تجيلت الأجيال وتحزبت الأحزاب، حاولت الهند أن تضم المملكة، وتستولي على الحوزة[1]، وتكون الرياسة فيهم، فقال كبراؤهم: نحن كنا أهل البدء، وفينا التناهي، ولنا الغاية والصدر والانتهاء، ومنا سرى الأب إلى الأرض، فلا ندع أحداً شاققنا[2] ولا عاندنا وأراد بنا الإغماض[3] إلا أتينا عليه وأبدناه أو يرجع إلى طاعتنا، فأزمعت على ذلك، ونصبت لها ملكاً، وهو البرهمن الأكبر والملك الأعظم والإمام المقدم وظهرت في أيامه الحكمة و تقدمت العلماء، واستخرجوا الحديد من المعادن، وضربت في أيامه السيوف والخناجر وكثير من أنواع المقاتل، وشيد الهياكل ورصعها بالجواهر المشرقة المنيرة، وصور فيها الأفلاك والبروج الاثني عشر والكواكب، وبين بالصورة كيفية العالم، وأرى بالصورة أيضاً أفعال الكواكب في هذا العالم وأحداثها للأشخاص الحيوانية من الناطقة وغيرها، وبين حال المدبر الأعظم الذي هو الشمس، وأثبت في كتابه براهين جميع ذلك، وقرب إلى عقول العوام فهم ذلك، وغرس في نفوس

---

(1) الحوزة: الناحية.

(2) شاققنا: نازعنا ونافسنا.

(3) أراد بنا الإغماض: أي أراد الحط من شأننا والنيل منا.

الخواص دراية ما هو أعلى من ذلك، وأشار إلى المبدأ الأول المعطي سائر الموجودات وجودها الفائض عليها بجوده، وانقاد له الهند وأخصبت بلادها وأراهم وجه مصالح الدنيا، وجمع الحكماء فأحدثوا في أيامه كتاب السند هند[1]، وتفسره دهر الدهور، ومنه فرّعت الكتب ككتاب الأرجهيد والمجسطي كتاب بطليموس[2]، ثم عمل منهما بعد ذلك الزيجات[3]، وأحدثوا التسعة الأحرف المحيطة بالحساب الهندي، وكان أول من تكلم في أوج الشمس[4] وذكر أنه يقيم في كل برج ثلاثة آلاف سنة ويقطع الفلك في ستة وثلاثين ألف، والأوج الآن على رأي البرهمن في وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة في برج الثور وأنه إذا انتقل إلى البروج الجنوبية انتقلت العمارة؛ فصار العامر خراباً، والخارب عامراً، والشمال جنوباً، والجنوب شمالاً، ورتب في بيت الذهب حساب الدور الأول والتاريخ الأقدم الذي عليه عملت الهند في تواريخ البدأة، وظهورها في أرض الهند دون سائر المماليك، ولهم في البدأة خطب طويل أعرضنا عن ذكره؛ إذ كان، كتابنا كتاب خبر لا كتاب بحث ونظر، وقد أتينا على جمل من ذلك في الكتاب الأوسط، ومن الهند من يذكر أن ابتداء العالم في كل سبعين ألف سنة هازروان، وأن العالم إذا قطع هذه المدة عاد الكون فظهر النسل ومرحت البهائم وتغلغل الماء ودب الحيوان وبقل العشب وخرق النسيم الهواء؛ فأما أكثر أهل الهند فإنهم قالوا بكرور منصوبات على دوائر تبتدئ القوى متلاشية شبيهة الشخص،

---

(1) الهند سند: رسالة في الفلك أمر المنصور بترجمتها.

(2) بطليموس: فلكي وجغرافي يوناني (نحو 90 ـ 168) نشأ في الإسكندرية. أشهر مؤلفاته "المجسطي" و "جغرافية بطليموس".

والمجسطي: أقدم كتاب في الفلك وصل إلينا ومعناه الأكبر، دعي كذلك لأهميته. عرّبه عن اليونانية حنين بن إسحق.

(3) الزيجات: ج زيج وهو كتاب في الجداول الفلكية معد لحسابات الرصد الفلكي.

(4) أوج الشمس: عندما تكون الشمس على أبعد مسافة من الأرض. وعكسه الحضيض إذ تصبح الأرض على أقرب مسافة من الشمس.

موجودة القوة، منتصبة الذات، وحدّوا لذلك أجلاً ضربوه، ووقتاً نصبوه، وجعلوا الدائرة العظمى والحادثة الكبرى، وسموا ذلك بعمر العالم، وجعلوا المسافة بين البدء والانتهاء مدة ست وثلاثين ألف سنة مكررة في اثني عشر ألف عام، وهذا عندهم الهازروان الضابط لقوى الأشياء والمدبر لها، وأن الدوائر تقبض وتبسط جميع المعاني التي تستودعها. وأن الأعمار تطول في أول الكر لانفساخ الدوائر، وتمكن القوى من المجال، وتقصر الأعمار في آخر الكر لضيق الدوائر، وكثرة ما يعرض فيها من الأكدار الباترة للأعمار، وذلك أن قوى الأجسام وصفوها في أول الكر تظهر وتسرح، وأن الصفو سابق الكدر، والصافي يبادر الثُفل[1]، والأعمار تطول بحسب صفاء المزاج، وتكامل القوى المدبرة لعناصر أخلاط الكائنات الفاسدات المستحيلات البائدات، وأن آخر المكر الأعظم وغاية البدء الأكبر تظهر الصورة متشوهة والنفوس ضعيفة والأمزجة مختلطة، وتتناقض القوى وتبيد المواسك وترد المواد في الدوائر منعكسة مزدحمة، فلا يحظى ذوو الأعصار بتمام الأعمار، وللهند فيما ذكرنا علل وبراهين في المبادئ الأول وفيما بسطناه من تفريعهم في الدوائر والهازروانات، ورموز وأسرار في النفوس في اتصالها بما علا من العوالم وكيفية بدئها من أعلى إلى أسفل، وغير ذلك مما رتب لهم البرهمن في بدء الزمان، وكان ملك البرهمن إلى أن هلك ثلاثمائة سنة وستين سنة.

[البراهمة]: وولده يعرفون بالبراهمة إلى وقتنا والهند تعظمهم، وهم أعلى أجناسهم وأشرفهم، ولا يغتذون بشيء من الحيوان، وفي رقاب الرجال والنساء منهم خيوط صفر يتقلدون بها كحمائل السيوف، فرقاً بينهم وبين غيرهم من أنواع الهند.

وقد كان اجتمع منهم في قديم الزمان في ملك البرهمن سبعة من حكمائهم المنظور إليهم في بيت الذهب، فقال بعضهم لبعض: اجلسوا حتى نتناظر، فننظر ما قصة العالم، وما سره ومن أين أقبلنا، وإلى أين نمر؟ وهل خروجنا من عدم إلى وجود

---

(1) الثفل: ما ثفل من كل شيء أو ما استقر تحت الشيء من كدره.

حكمة أو ضد ذلك؟ وهل خالقنا المخترع لنا والمنشئ لأجسامنا يجتلب بخلقنا منفعة، أم هل يدفع بفنائنا عن هذه الدار عن نفسه مضرة، أم هل يدخل عليه من الحاجة والنقص ما يدخل علينا؟ أم هل هو غني من كل وجه، فما وجه إفنائه إيانا وإعدامنا بعد وجودنا وآلامنا وملاذنا؟ فقال الحكيم المنظور إليه منهم: أترى أحداً من الناس أدرك الأشياء الحاضرة والغائبة على حقيقة الإدراك؛ فظفر بالبغية واستراح إلى الثقة؟ قال الحكيم الثاني: لو تناهت حكمة البارئ عز وجل في أحد العقول كان ذلك نقصاً من حكمته، وكان الغرض غير مُدرَك، وكان التقصير مانعاً من الإدراك. قال الحكيم الثالث: الواجب علينا أن نبتدئ بمعرفة أنفسنا التي هي أقرب الأشياء منا ونحن أولى بها وهي أولى بنا، من قبل أن نتفرغ إلى علم ما بعد منا. قال الحكيم الرابع: لقد ساء وقوع من وقع موقعاً احتاج فيه إلى معرفة نفسه. قال الحكيم الخامس: من هنا وجب الاتصال بالعلماء الممدودين بالحكمة. قال الحكيم السادس: الواجب على المرء المحب لسعادة نفسه أن لا يغفل عن ذلك، لاسيما إذا كان المقام في هذه الدنيا ممتنعاً و الخروج منها واجباً. قال الحكيم السابع: أنا لا أدري ما تقولون، غير أني أُخرجت إلى هذه الدنيا مضطراً وعشت فيها حائراً وأخرج منها مكرهاً.

فاختلف الهند ممن سلف وخلف في آراء هؤلاء السبعة، وكل قد اقتدى بهم ويمم مذهبهم ثم تفرغوا بعد ذلك في مذاهبهم وتنازعوا في آرائهم والذي وقع عليه الحصر من طوائفهم سبعون فرقة.

قال المسعودي: وقد رأيت أبا قاسم البلخي[1] ذكر في كتاب "عيون المسائل والجوابات"، وكذلك الحسن بن موسى النوبختي[2] في كتابه المترجم بكتاب "الآراء

---

(1) أبو قاسم عبد الله بن أحمد بن محمود البلخي، أحد معتزلة بغداد قضى فيها مدة طويلة ثم عاد إلى وطنه بلخ فمات فيها سنة 319هـ. له "المقالات" و"عيون المسائل".

(2) النوبختي: الحسن بن موسى، ينتسب إلى أسرة شيعية بغدادية فارسية الأصل أنجبت عدداً من رجال الدولة والمتكلمين والفلكيين. والنوبختي متكلم من مؤلفاته "فرق الشيعة" (ت310هـ - 922م).

والديانات" مذاهب الهند وآراءهم، والعلة التي من أجلها أحرقوا أنفسهم في النيران وقطعوا أجسامهم بأنواع العذاب، فما تعرضا لشيء مما ذكرنا، ولا يمّا نحو ما وصفنا.

[خلاف حول البرهمن]: وقد تُنوزع في البرهمن، فمنهم من زعم أنه آدم عليه السلام وأنه رسول الله عز وجل إلى الهند، ومنهم من يقول: إنه كان ملكاً على حسب ما ذكرنا، وهذا أشهر.

[الباهبود]: ولما هلك البرهمن جزعت عليه الهند جزعاً شديداً، وفزعت إلى نصب ملك عليها من أكبر ولده، فكان ولي عهده الموصى له من والده ابنه الباهبود، فسار فيهم سيرة أبيه، وأحسن النظر إليهم، وزاد في بناء الهياكل، وقدم الحكماء وزاد من مراتبهم وحثهم على تعليم الناس الحكمة وبعثهم على طلبها؛ فكان ملكه إلى أن هلك مائة سنة.

[النرد]: وفي أيامه عمل النرد، وأحدث اللعب بها، وجُعل ذلك مثالاً للمكاسب، وإنها لا تُنال بالكَيْس[1] ولا بالحيل في هذه الدنيا، وأن الرزق لا يتأتى فيها بالحذق، وقد ذكر أن أردشير بن بابك أول من صنع النرد ولعب بها، وأرى تقلب الدنيا بأهلها واختلاف أمورها، وجعل بيوتها اثني عشر بيتاً بعدد الشهور، وجعل كلابها ثلاثين كلباً بعدد أيام الشهر، وجعل الفصين مثلاً للقَدَر وتقلبه بأهل الدنيا، وأن الإنسان يلعب بها فيبلغ بإسعاد القدر إياه في مراده باللعب بها ما يريد، وأن الحازم الفطن لا يتأتى له ما تأتى لغيره إلاّ إذا أسعده القدر، وأن الأرزاق والحظوظ في هذه الدنيا لا تُنال إلا بالجدود[2].

[زامان]: ثم ملك زامان بعد الباهبود، فكان ملكه نحواً من خمسين ومائة سنة، ولزامان سير وأخبار وحروب مع ملوك فارس وملوك الصين قد أتينا على الغرر منها فيما سلف من كتابنا.

---

(1) الكيس: العقل.
(2) الجدود: ج جد: الحظ.

ثم ملك فور وهو الذي واقعه الاسكندر، فقتله الاسكندر مبارزةً، وكان مُلك فور إلى أن هلك أربعين ومائة سنة.

[دبشليم]: ثم ملك بعده دبشليم، وهو الواضع لكتاب "كليلة ودمنة" الذي ينسب لابن المقفع[1] وقد صنف سهل بن هرون[2] الكاتب لأمير المؤمنين المأمون كتاباً ترجمه ثعلة وعفرة يعارض به كتاب كليلة ودمنة في أبوابه وأمثاله، يزيد عليه في حسن نظمه، وكان ملكه مائة وعشرين سنة، وقيل غير ذلك.

[بلهيت والشطرنج]: ثم ملك بعده بلهيت، وصنعت في أيامه الشطرنج، فقضى بلعبها على النرد' وبين الظفر الذي يناله الحازم، والبلية التي تلحق الجاهل، وحسب حسابها، ورتب لذلك كتاباً للهند يعرف بطرق جنكا يتداولونه بينهم، ولعب بالشطرنج مع حكمائه، وجعلها مصورة تماثيل مشكلة على صور الناطقين، وغيرهم من الحيوان مما ليس بناطق، وجعلهم درجات ومراتب؛ ومثل الشاه بالمدبر الرئيس، وكذلك ما يليه من القطع، وأقام ذلك مثالاً للأجساد العلوية التي هي الأجسام السماوية من السبعة و الاثني عشر، وأفرد كل قطعة منها بكوكب وجعلها ضابطة للمملكة، وإذا كان عدو من أعدائه، فوقعت منه حيلة في الحروب نظروا من أين يؤتون في عاجل وآجل، وللهند في لعب الشطرنج سر يسرونه في تضاعيف حسابها، ويتغلغلون بذلك إلى ما علا من الأفلاك وما إليه منتهى العلة الأولى.

---

(1) ابن المقفع: (106 ـ 142هـ ـ 724 ـ 759م) عبد الله ابن المقفع من أئمة الكتاب أول من عني في الإسلام بترجمة كتب المنطق. أصله من الفرس. ولد في العراق، كان مجوسياً وأسلم، ولي كتابة الديوان للمنصور العباسي، ترجم كتب أرسطو في المنطق كما ترجم "كليلة ودمنة" عن الفارسية، وله مؤلفات أخرى. اتهم بالزندقة فقتل.

(2) سهل بن هارون (ت215هـ ـ 830م) أديب من أصل فارسي، كان شعوبياً يتعصب على العرب. ولاه المأمون بيت الحكمة. من مؤلفاته "الإخوان" و "تدبير الملك والسياسة".

[أرض الهند]: وأرض الهند أرض واسعة في البر والبحر والجبال، وملكهم متصل بملك الزابج وهي دار مملكة المهراج ملك الجزائر، وهذه المملكة قدر بين مملكة الهند والصين، وتضاف إلى الهند، والهند متصلة مما يلي الجبال بأرض خراسان والسند إلى أرض التبت[1]، وبين هذه الممالك تباين وحروب، ولغاتهم مختلفة وآراؤهم غير متفقة، والأكثر منهم يقول بالتناسخ، وتنقّل الأرواح على حسب ما قدمناه آنفاً، والهند في عقولهم وسياساتهم وحكمتهم وألوانهم وصفاتهم وصحة أمزجتهم وصفاء أذهانهم ودقة نظرهم بخلاف سائر السودان من الزنج والدمادم[2] وسائر الأجناس.

[عادات الهنود]: والهند لا تملّك الملك عليها حتى يبلغ من عمره أربعين سنة، ولا تكاد ملوكهم تظهر لعوامهم إلاّ في كل برهة من الزمان معلومة، ويكون ظهورها للنظر في أمور الرعية لأن في نظر العوام عندها إلى ملوكها خرقاً لهيبتها واستخفافاً بحقها، والرياسات عند هؤلاء لا تجوز إلا بالتخيّر، ووضع الأشياء مواضعها من المراتب السياسية.................................

والهند تمنع من شرب الشراب ويعنفون شاربه، لا على طريق التدين ولكن تنزهاً عن أن يوردوا على عقولهم ما يغشيها، ويزيلها عما وضعت له فيهم، وإذا صح عندهم عن ملك من ملوكهم شربه استحق الخلع عن ملكه إذ كان لا يتأتى له التدبير والسياسة مع الاختلاط، وربما يسمعون السماع والملاهي، ولهم ضروب من الآلات مطربة تفعل في الناس أفعالاً مرتبة من ضحك وبكاء وربما يسقون الجواري فيطربن بحضرتهم، فتطرب الرجال لطرب الجواري. وللهند سياسات كثيرة قد أتينا على ذكر كثير منها، ومن أخبارهم وسيرهم في كتابنا "أخبار الزمان" وفي "الكتاب الأوسط"؛ وإنما نذكر في هذا الكتاب...

---

(1) تبت: مملكة متاخمة لمملكة الصين ومتاخمة من إحدى جهاتها لأرض الهند ومن جهة المشرق لبلاد الهياطلة ومن جهة المغرب لبلاد الترك. ياقوت10/2.

(2) الدمادم: ضرب من النبات يتداوى به. والدمائم أو الدمام: ج دميم وهو الحقير.

ذكر ملوك الصين والترك، وتفرق ولد عابور وأخبار الصين وغير ذلك مما لحق بهذا الباب

أنساب أهل الصين: قد تنازع الناس في أنساب أهل الصين وبدئهم، فذكر كثير منهم أن ولد عابور ابن سوبيل بن يافث بن نوح، لما قسم فالغ بن عامر بن إرفخشذ بن سام بن نوح الأرض بين ولد نوح ساروا يسرةً في الشرق، فسار قوم منهم من ولد أرعو على سمت الشمال، وانتشروا في الأرض فصاروا عدة ممالك: منهم الديلم والجيل والطيلسان والتتر وفرغان[1]، فأهل جبل القبق[2] من أنواع اللكز ثم اللان والخزر زالأنجاد والسرير وكشك، وسائر تلك الأمم المنتشرة في ذلك الصقع، إلى بلاد طوابريده[3] إلى بحر مانطش ونيطش وبحر الخزر إلى البُرغر[4] ومن اتصل بهم من الأمم، وعبر ولد عابور نهر بلخ، ويمم بلاد الصين الأكثر منهم، وتفرقوا عدة ممالك في تلك البلاد وانتشروا في تلك الديار، فمنهم الجيل، وهم سكان جيلان، والأرونسة والصغد، وهم بين بخارى و سمرقند، ثم الفراغنة والشاش، وأستيجاب وأهل بلاد الفارب؛ فبنوا المدن والضياع وانفرد منهم أناس غير هؤلاء فسكنوا البوادي: فمنهم

---

(1) بلاد الديلم هي الجبال المحيطة ببحر الخزر من جهة الجنوب الغربي ومنها خرج بنو بويه. والجيل سكان بلاد ما وراء طبرستان. والطيلسان إقليم واسع من نواحي الديلم والخزر. والتتر سكان آسية الوسطى (منغولية) فرغانة: كورة واسعة بما وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان.

(2) جبل القبق: جبل متصل بباب الأبواب. وهو آخر حدود أرمينية (القفقاس).

(3) المرجح أن المقصود طرابزندة وهي مدينة واقعة على ساحل البحر الأسود من جهة الجنوب الشرقي.

(4) البرغر: مدينة على ساحل مانطس (آزوف). يقطنها نوع من الترك.

الترك والخزلج والطغرغر. ومنهم أصحاب مدينة كوشان، وهي مملكة بين خراسان وبلاد الصين. وليس في أجناس الترك وأنواعهم في وقتنا هذا ـ وهو سنة اثنين وثلاثين وثلاثمئة ـ أشد منهم بأساً، ولا أكثر منهم شوكة؛ ولا أضبط ملكاً، وملكهم أيرخان، ومذهبهم مذهب المانيّة(1)، وليس في الترك من يعتقد هذا المذهب غيرهم؛ ومن الترك الكيماكية والبرسخانية والبدية والجعرية، وأشدهم بأساً الغزية، وأحسنهم صورة، وأطولهم قامة، وأصبحهم وجوهاً الخزلجية، وهم أهل بلاد فرغانة والشاش وما يلي ذلك الصقع، وفيهم كان المُلك، وتنقاد إليه ملوكها، ومن هؤلاء الخواقين كان فرسياب التركي الغالب على بلاد فارس، ومنهم سانة، ولخاقان الترك في وقتنا هذا تنقاد ملوك الترك كلهم منذ خربت المدينة المعروفة بعمات؛ وهي في مفاوز سمرقند، وقد ذكرنا انتقال الملك عن هذه المدينة والسبب في ذلك، في كتابنا المترجم بالكتاب الأوسط، ولحق فريق من ولد عابور بتخوم الهند، فأثرت فيهم تلك البقاع فصارت ألوانهم بخلاف ألوان الترك، ولحقوا بألوان الهند، ولهم حضرٌ وبوادٍ، وسكن فريق منهم ببلاد التبّت، وملّكوا عليهم ملكاً وكان ينقاد إلى ملك خاقان، فلما زال ملك خاقان على ما قدمنا، وسمّى أهل التبت ملكهم بخاقان تشبيهاً بمن تقدم من ملوك الترك، وهو خاقان الخواقين.

وسار الجمهور من ولد عابور على ساحل البحر حتى انتهوا إلى أقاصيه من بلاد الصين؛ فتفرقوا في تلك البقاع والبلاد وقطنوا الديار، وكوروا الكُوَر ومصروا الأمصار ومدنوا المدن، واتخذوا لمملكتهم مدينة عظيمة، وسموها انموا(2)، وبينها وبين ساحل البحر الحبشي ـ وهو بحر الصين ـ مسافة ثلاثة أشهر مدن وعمائر متصلة.

(1) المانية: أو المانوية نسبة إلى مؤسس المذهب ماني (215 ـ 276م). القائل بمبدأ الخير والشر. النور والظلام. أدخل ماني في التصوير الفارسي نسق التصوير الصيني ورسم الملائكة والشياطين.
(2) أنموا: لم أجد لها ذكراً.

نسطرطاس: وكان أول ملك تملك عليهم في هذه الديار وهي انموا "نسرطاس" بن باعور ابن مدتج بن عابور بن يافث بن نوح، فكان ملكه ثلاثمائة سنة ونيفاً، وفرق أهله في تلك الديار، وشقّق الأنهار، وقتل السباع، وغرس الأشجار، وأطعم الثمار، وهلك.

عوون: فملك ولد له يقال له "عوون" فجعل جسد أبيه في تمثال من الذهب الأحمر جزعاً عليه، وتعظيماً له، وأجلسه على سرير من الذهب الأحمر مرصع بالجواهر، وجعل مجلسه دونه، وأقبل يسجد لأبيه وهو في جوف تلك الصورة، هو وأهل مملكته، في طرفي النهار إجلالاً له، وعاش بعد أبيه مائتي سنة وخمسين سنة، وهلك. .

عيثدون: فملك ولد له يقال له "عيثدون"، فجعل جسد أبيه مخزوناً في تمثال من الذهب الأحمر، وجعله دون مرتبة جده على سرير من الذهب ورصعه بأنواع الجواهر وكان يسجد له، ويبدأ بجده الأول ثم بأبيه، وأهل مملكته يسجدون له، وأحسن السياسة للرعية وسوّاهم في جميع أمورهم، وشملهم بالعدل، فكثر النسل، وأخصبت الأرض، فكان ملكه إلى أن هلك نحواً من مائتي سنة.

عيثنان: ثم ملك بعده ولده "عيثنان"، فجعل أباه في تمثال من الذهب الأحمر، وجرى فيه على ما سلف من أفعالهم من السجود والتعظيم، وطال ملكه واتصلت بلاده ببلاد الترك من بني عمه، فعاش أربعمائة سنة، واتخذ في أيامه كثير من المهن مما لطف في الدور من الصنائع.

حراتان: وملك بعده ولده "حراتان"، فأحدث الفلك وحمل فيها الرجال، وحمل لطائف بلاد الصين، وصيرها نحو بلاد السند والهند إلى إقليم بابل وإلى سائر الممالك مما قرب منها وبعد في البحر.

من عادات الصين: وأهل الصين شعوب وقبائل، كقبائل العرب وأفخاذها وتشعبها في أنسابها، ولهم مراعاة لذلك، وحفظ له، وينسب الرجل منهم إلى خمسين أباً إلى أن يتصل بعابور، وأكثر من ذلك، وأقل، ولا يتزوج أهل كل فخذ من

فخذهم، مثال ذلك أن يكون الرجل من مضر فيتزوج في ربيعة، أو ربيعة فيتزوج في مضر، أو من كهلان فيتزوج من حمير، أو من حمير فيتزوج من كهلان، ويزعمون أن في ذلك صحة النسل وقوام البنية، وأنه أصح للبقاء، وأتم للعمر، وأسباباً يذكرونها نحو ما ذكرنا.

قال المسعودي: ومن طرائف أخبار ملوك الصين، أن رجلاً من قريش من ولد هبار بن الأسود[1] لما كان من أمر صاحب الزنج[2] بالبصرة ما كان واشتهر، خرج هذا الرجل من مدينة سيراف[3]، وكان من أرباب البصيرة وأرباب النعم بها، وذوي الأحوال الحسنة؛ ثم ركب منها في بعض مراكب بلاد الهند، يخترق ممالك الهند، إلى أن انتهى إلى بلاد الصين فصار إلى مدينة خانقوا[4]، ثم دعته همته إلى أن صار إلى دار ملك الصين، وكان الملك يومئذ بمدينة حمدان[5]، وهي من كبار مدنهم، ومن عظيم أمصارهم، فأقام بباب الملك مدة طويلة يرفع الرقاع ويذكر أنه من أهل بيت نبوة العرب، فأمر الملك بعد هذه المدة الطويلة بإنزاله في بعض المساكن، وإزاحة العلة من أموره[6] وجميع ما يحتاج إليه، وكتب إلى الملك المقيم بخانقوا يأمره بالبحث عنه، ومسألة التجار عما يدعيه الرجل من قرابة نبي العرب صلى الله عليه وسلم، فكتب صاحب خانقوا بصحة نسبه، فأذن له في الوصول إليه، ووصله بمال واسع، وأعاده إلى العراق، وكان شيخاً فهماً، فأخبر أنه لما وصل إليه وسأله عن العرب، وكيف أزالوا

---

(1) هبار بن الأسود: قرشي، صحابي شاعر. جد الهباريين ملوك السند وكانت قاعدتهم "المنصورة". هجا النبي (ص) قبل إسلامه. أسلم بعد فتح مكة ورحل إلى الشام أيام الفتوح. توفي بعد 15هـ.

(2) صاحب الزنج: علي بن محمد (ت270هـ ـ 883م) ثائر قاد ثورة الزنج في جنوب العراق.

(3) مدينة سيراف: على ساحل الخليج العربي من الجانب الإيراني.

(4) يقول عنها أكثر المؤلفين العرب خنفو وهو ميناء كانتون الحديث بالصين.

(5) كراتشكوفسكي "خمدان" بالخاء المعجمة. وهي سينانفو بالصين.

(6) إزاحة العلة: قضاء الحاجة والطلب.

ملك العجم، فقال له: بالله عز وجل، وما كانت العجم عليه من عبادة النيران والسجود للشمس والقمر من دون الله عز وجل، فقال له: لقد غلبت العرب على أجلّ الممالك وأنفسها وأوسعها ريعاً وأكثرها أموالاً وأعقلها رجالاً وأبعدها صيتاً، ثم قال له: فما منزلة سائر الملوك عندكم؟ فقال: ما لي بهم علم، فقال للترجمان: قل له: إنا نعد الملوك خمسة: فأوسعهم ملكاً الذي يملك العراق، لأنه في وسط الدنيا، والملوك محدقة به، ونجد اسمه ملك الملوك؛ وبعده ملكنا هذا، ونجده عندنا ملك الناس، لأنه لا أحد من الملوك أسوس منا، ولا أضبط لملكه من ضبطنا لملكنا، ولا رعية من الرعايا أطوع لملكها من رعيتنا، فنحن ملوك الناس؛ ومن بعده ملك السباع وهو ملك الترك الذي يلينا، وهم سباع الأنس، ومن بعده ملك الفيلة، وهو ملك الهند، ونجده عندنا ملك الحكمة أيضاً لأن أصلها منهم؛ ومن بعده ملك الروم، وهو عندنا ملك الرجال، لأنه ليس في الأرض أتم خلقاً من رجاله، ولا أحسن وجوهاً منهم؛ فهؤلاء أعيان الملوك والباقون دونهم. ثم قال للترجمان: قل له: أتعرف صاحبك إن رأيته؟ يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال القرشي: وكيف لي برؤيته وهو عند الله عز وجل؟ فقال: لم أرد هذا، وإنما أردت صورته.

فقلت: أجل، فأمر بسفط، فأخرج فوضع بين يديه، فتناول منه درجاً، وقال للترجمان: أره صاحبه؛ فرأيت في الدرج صور الأنبياء، فحركت شفتي بالصلاة عليهم، ولم يكن عندهم أني أعرفهم، فقال لترجمان: سله عن تحريك شفتيه، فسألني؛ فقلت: أصلي على الأنبياء؛ فقال: ومن أين عرفتهم؟ فقلت: بما صور من أمورهم، هذا نوح عليه السلام في السفينة ينجو بمن معه لما أمر الله عز وجل الماء فعم الأرض كلها بمن فيها وسلمه ومن معه، فقال: أما نوح فصدقت في تسميته، وأما غرق الأرض كلها فلا نعرفه، وإنما أخذ الطوفان قطعة من الأرض ولم يصل إلى أرضنا، وإن كان خبركم صحيحاً فعن هذه القطعة، ونحن معاشر أهل الصين والهند والسند وغيرنا من الطوائف والأمم لا نعرف ما ذكرتم، ولا نقل إلينا أسلافنا ما وصفتم، وما ذكرت من ركوب الماء الأرض كلها فمن الكوائن العظام التي تفزع النفوس إلى حفظه

و تتداوله الأمم الناقلة له، قال القرشي: فهبت الرد عليه وإقامة الحجة لعلمي بدفعه ذلك، ثم قلت: وهذا موسى صلى الله عليه وسلم وبنو إسرائيل؛ فقال: نعم على قلة البلد الذي كان به وفساد قومه عليه؛ ثم قلت: هذا عيسى بن مريم عليه السلام على حماره والحواريون معه؛ فقال: لقد كان قليل المدة، إنما كان أمده يزيد على ثلاثين شهراً شيئاً يسيراً؛ وعدد من سائر الأنبياء وأخبارهم ما اقتصرت على ذكر بعضه، ويزعم هذا القرشي، وهو معروف بابن هبار، أنه رأى فوق كل صورة كتابة طويلة قد دون فيها ذكر أسمائهم، ومواضع بلدانهم، ومقادير أعمارهم، وأسباب نبواتهم وسيرهم؛ وقال: ثم رأيت صورة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على جمل وأصحابه محدقون به في أرجلهم نعال عربية من جلود الإبل، وفي أوساطهم الحبال، قد علقوا فيها المساويك[1]؛ فبكيت؛ قال للترجمان: سله عن بكائه؛ فقلت: هذا نبينا وسيدنا وابن عمنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال: صدقت، لقد ملك قومه أجل الممالك، إلا أنه لم يعاين من الملك شيئاً، إنما عاينه مَن بعده ومن تولى الأمر على أمته من خلفائه؛ ورأيت صور أنبياء كثيرة منهم من قد أشار بيده جامعاً بين سبّابته وإبهامه كالحلقة، ومنهم من قد أشار بسبابته نحو السماء كالمُرهب للخليقة بما فوق، وغير ذلك؛ ثم سألني عن الخلفاء وزيهم وكثير من الشرائع، فأجبته على قدر ما أعلم منها؛ ثم قال: كم عمر الدنيا عندكم؟ فقلت: قد تُنوزع في ذلك، فبعض يقول ستة آلاف سنة، وبعض يقول دونها، وبعض يقول أكثر منها؛ فقال: ذلك عن نبيكم؟ فقلت: نعم؛ فضحك ضحكاً كثيراً ووزيره أيضاً، وهو واقف دل على إنكار ذلك، وقال: ما حسبت نبيكم قال ذلك؛ فزللت فقلت: بلى هو قال ذلك، فرأيت الإنكار في وجهه؛ ثم قال للترجمان: قل له ميز كلامك، فإن الملوك لا تُكلّم إلا عن تحصيل[2]، أما زعمت لي أنكم تختلفون في ذلك، فإنكم إنما اختلفتم في قول نبيكم،

---

(1) المساويك: ج مسواك: عود تنظف به الأسنان.
(2) عن تحصيل: عن معرفة وعلم.

وما قالت الأنبياء لا يجب أن يختلف فيه[1]، بل هم مسلم لها، فاحذر هذا وشبهه أن تحكيه؛ وذكر أشياء كثيرة ذهبت عني لطول المدة؛ ثم قال لي: لم عدلت عن ملكك وهو أقرب إليك داراً ونسباً؟ قلت: بما حدث على البصرة، ووقوعي إلى سيراف، ونزعت بي همتي إلى ملكك أيها الملك، لما بلغني من استقامة ملكك، وحسن سيرتك، وكثرة جنودك، وشمول سياستك لسائر رعيتك. فأحببت الوقوع إلى هذه المملكة ومشاهدتها، وأنا راجع عنها إلى بلادي، وملك ابن عمي، ومُخبر بما شاهدت من جلالة هذا الملك، وسعة هذه البلاد وعموم العدل، وحسن شيمك أيها الملك المحمود، وسأقول بكل قول حسن وأثني بكل جميل، فسره ذلك، وأمر لي بجائزة سنية، وخلع شريفة، وأمر بحملي على البريد إلى مدينة خانقوا، وكتب إلى ملكها بإكرامي وتقديمي على من في ناحيته من سائر خواص الناس، وإقامة النزل إلى وقت خروجي عنه، فكنت عنده في أخصب عيش وأنعمه، إلى أن خرجت من بلاد الصين.

مدينة خمدان: قال المسعودي: وأخبرني أبو زيد الحسن بن يزيد السيرافي بالبصرة ـ وكان قد قطنها وانتقل عن سيراف، وذلك في سنة ثلاث وثلاثمائة، وأبو زيد هذا هو ابن عمر ابن زيد بن محمد بن مزد بن ساسياد السيرافي، وكان الحسن بن يزيد من أهل التحصيل والتمييز ـ أنه سأل ابن هبار هذا القرشي عن مدينة خمدان[2] التي بها الملك وصفتها، فذكر سعتها و كثرة أهلها، وأنها مقسومة على قسمين يفصل بينهما شارع عظيم طويل عريض، فالملك ووزيره وقاضي القضاة وجنوده وخصيانه، وجميع أسبابه في الشق الأيمن منه مما يلي المشرق لا يخالطهم أحد من العامة، وليس فيه شيء من الأسواق، بل أنهار في سككهم مطردة، وأشجار عليها منتظمة، ومنازل فسيحة؛ وفي الشق الأيسر مما يلي المغرب الرعية والتجار والميرة والأسواق فإذا وضح النهار،

---

(1) الأصح أن يقال: يجب ألا يختلف فيه.
(2) ورد ذكرها سابقاً.

رأيت فيها قهارمة[1] الملك وغلمانه وغلمان وزرائه ووكلائهم ما بين راكب وراجل قد دخلوا إلى الشق الذي فيه العامة والتجار، فأخذوا بضائعهم وحوائجهم، ثم انصرفوا فلا يعود واحد منهم إلى هذا الشق إلا في اليوم الثاني، وأن هذه البلدان فيها كل نزهة وغيضة حسنة، وأنهار مطردة، إلا النخل فإنه معدوم عندهم.

حذاقة أهل الصين: وأما أهل الصين فمن أحذق خلق الله كفاً بنقش وصنعة وكل عمل لا يتقدمهم فيه أحد من سائر الأمم، والرجل منهم يصنع بيده ما يقدّر أن غيره يعجز عنه؛ فيقصد به باب الملك يلتمس الجزاء على لطيف ما ابتدع، فيأمر الملك بنصبه على بابه من وقته ذلك إلى سنة، فإذا لم يُخرج أحد به عيباً أجاز صانعه وأدخله في جملة صناعه، وإن أخرج أحد فيه عيباً طرحه ولم يجزه، وإن رجلاً منهم صور سنبلة سقط عليها عصفور في ثوب حرير، لا يشك الناظر أنها سنبلة سقط عليها عصفور، فبقي الثوب مدة، وأنه اجتاز به رجل أحدب، فعاب العمل، فأُدخل إلى الملك وأحضر صاحب العمل، فسأل الأحدب عن العيب، فقال: المتعارف عند الناس جميعاً أنه لا يقع عصفور على سنبلة إلا أمالها، وصور هذا المصور السنبلة فنصبها لا ميل فيها، وأثبت العصفور فوقها منتصباً، فأخطأ؛ فصدق الأحدب، ولم يُثب صاحبها بشيء، وقصْدهم بهذا وشبهه الرياضة لمن يعمل هذه الأشياء، ليضطرهم ذلك إلى شدة الاحتراز والحذر وإعمال الفكر فيما يصنعه كل واحد منهم بيده.

ولأهل الصين أخبار عظيمة عجيبة، ولبلادهم أخبار ظريفة سنورد فيما يرد من هذا الكتاب جملاً منها، وإن كنا قد أتينا على سائر الأخبار من ذلك في كتابنا "أخبار الزمان في الأمم الماضية والممالك الدائرة"، وذكرنا في الكتاب الأوسط جملاً لم نتعرض لذكرها في كتاب "أخبار الزمان"، وربما ذكرنا في هذا الكتاب ما لم يتقدم ذكره في ذينك الكتابين، والله أعلم.

---

(1) القهارمة: ج قهرمان: الوكيل. أو أمين الدخل والخرج.

[نهر الهرمند]: وقد تنوزع في مبدأ هذا النهر المعروف بنهر الهرمند، فمن الناس من رأى أن مبدأه من مبدأ نهر الكِنْك، وهو نهر الهند، ويمر بكثير من جبال السند، وهو نهر حاد الانضباب والجريان، عليه يعذب أكثر الهند أنفسها بالحديد وتغرقها زهداً في هذا العالم ورغبة في النقلة عنه، وذلك أنهم يقصدون موضعاً في أعالي هذا النهر المعروف بالكنك، وهناك جبال عالية، وأشجار عادية[1]، ورجال جلوس، وحدائد على ذلك الشجر، وقطع من الخشب، فتأتيهم الهند من الممالك النائية والبلدان القاصية فيسمعون كلام أولئك الرجال المرتبين على هذا النهر وما يقولون من تزهيدهم في هذا العالم والترغيب فيما سواه، فيطرحون أنفسهم من أعالي تلك الجبال العالية على تلك الأشجار العادية والسيوف والحدائد المنصوبة، فيتقطعون قطعاً، ويصيرون إلى هذا النهر أجزاء، وما ذكرنا فموصوف عنهم وما يفعلون على هذا النهر كذلك.

وللهند أخبار عجيبة تجزع من سماعها النفس: من أنواع الآلام والمقاتل التي تألم عند ذكرها الأبدان، وتقشعر منها الأبشار، وقد أتينا على كثير من عجائب أخبارهم في كتابنا "أخبار الزمان".

فلنرجع الآن إلى خبر ملك الهند ومسيره إلى بلاد سجستان، وقصده مملكة السريانيين، ونعدل عما احتذينا من أخبار الهند، فنقول:

كان هذا الملك من ملوك الهند يقال له زنبيل، وكل ملك يلي هذا البلد من أرض الهند يسمى بهذا الاسم زنبيل، إلى هذا الوقت، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاث مئة، وكان بين الهند و ملوك السريانيين حروب عظام نحو من سنة، فقتل ملك السريانيين، واحتوى ملك الهند على الصقع، وملك جميع ما فيه، فسار إليه بعض ملوك العرب، فأتى عليه، وملك العراق، ورد ملك السريانيين، فملكوا عليهم رجلاً منهم يقال له: "تسر" وكان ولد المقتول، فكان ملكه إلى أن هلك ثماني سنين.

---

(1) أشجار عادية: ضخام.

ثم ملك بعده "أهريمون" وكان ملكه اثنتي عشرة سنة.

ثم ملك بعده ابن يقال له "هوريا" فزاد في العمارة، وأحسن في الرعاية، وغرس الأشجار، وكان ملكه إلى أن هلك اثنتين وعشرين سنة.

ثم ملك بعده "ماروب" واستولى على الملك، وكان ملكه مدة خمس عشرة سنة، وقيل: ثلاث وعشرين سنة.

ثم ملك بعده "أزور" و "خلنجاس" ويقال: إنهما كانا أخوين؛ فأحسنا السيرة، وتعاضدا على الملك، ويقال: إن أحد هذين الملكين كان جالساً ذات يوم إذ نظر في أعلى قصره إلى طائر قد أفرخ هناك، وإذا هو يضرب بجناحيه ويصيح، فتأمل الملك ذلك، فنظر إلى حية تنساب إلى الوكر صاعدة لأكل فراخ الطائر، فدعا الملك بقوس فرمى به الحية فصرعها، وسلمت فراخ الطائر، فجاء الطائر بعد هنيهة يصفق بجناحيه وفي منقاره حبة وفي مخاليبه حبتان، وجاء إلى الملك وألقى ما كان في منقاره ومخاليبه، والملك يرمقه، فوقع الحب بين يدي الملك فتأمله، وقال: لأمر ما ألقى هذا الطائر ما ألقى، لاشك أنه أراد مكافأتنا على فعلنا به، فأخذ الحب وجعل يتأمله فلم يعرف مثله في إقليمه، فقال جليس من جلسائه حكيم وقد نظر إلى حيرة الملك في الحب: أيها الملك، ينبغي أن يودع النبات أرحام الأرض فإنها تخرج كنه ما فيه، فتقف على الغاية منه، وأداء ما في مخزونه ومكنونه، فدعا بالأكرة[1] وأمرهم بزرع الحب ومراعاته، وما يكون منه، فزرع، فنبت وأقبل يلتف بالشجر ثم حصرم وأعنب، وهم يرمقونه، والملك يرعاه، إلى أن انتهى في البلوغ وهم لا يقدمون على ذوقه خوفاً أن يكون متلفاً، فأمر الملك بعصر مائه، فلما صار في الآنية عصيراً هدر وقذف بالزبد وفاحت له روائح عبقة، فقال الملك: عليّ بشيخ كبير فأُتي به، فلُدّد[2] له من ذلك في إناء فرآه لونا

---

(1) الأكرة: ج أكار: الفلاحون.

(2) لدد: صب ولبث.

عجيباً، ومنظراً كاملاً، ولوناً ياقوتياً أحمر، وشعاعاً نيراً، ثم سقوا الشيخ فما شرب ثلاثاً حتى مال، وأرخى من مآزره الفضول، وصفق بيديه، وحرك رأسه، ووقع برجليه على الأرض، فطرب، ورفع عقيرته يتغنى، فقال الملك: هذا شراب يذهب بالعقل، وأخاف أن يكون قاتلاً، ألا ترى إلى الشيخ كيف عاد إلى حال الصبا وسلطان الدم وقوة الشباب؟، ثم أمر الملك به فزيد، فسكر الشيخ، فنام، فقال الملك: هلك، ثم أن الشيخ أفاق وطلب الزيادة من الشراب، وقال: لقد شربته فكشف عني الغموم، وأزال عن ساحتي الأحزان والهموم، وما أراد الطائر إلا مكافأتكم بهذا الشراب الشريف، فقال الملك: هذا أشرف شراب أهل الأرض، وذلك أنه رأى شيخاً حَسَن لونه، وقويَ حيْله[1]، وانبسط في نفسه، وطرب في حال طبيعة الحزن وسلطان البلغم، وجاد هضمه، وجاءه النوم، وصفا لونه، واعترته أريحية، فأمر الملك أن يكثر من غرس الكرم، فكثر الغرس للكرم، وأمر أن يمنع العامة من ذلك، وقال: هذا شراب الملوك، وأنا السبب فيه، ....

(1) الحيل: القوة.

ج

أبو الفداء عماد الدين اسماعيل
بن محمد بن عمر
كتاب تقويم البلدان
صاحب حماه ت732هـ
دار صادر بيروت
بدون تاريخ

ذكر الهند

.... لما فرغ من السند انتقل إلى الهند والذي يحيط بالهند من جهة الغرب بحر فارس وتمامه حدود السند وما يصاقبه و يحيط بالهند من جهة الشرق المفاوز الفاصلة بين الهند والصين ويحيط بها من جهة الشمال [بلاد طوائف الأتراك]، وعن بعض المسافرين قال: ومن مدن الهند ناكور وهي مدينة كبيرة على أربعة أيام من دلي[1] ومن مدن الهند جالور قال: وهي على تل تراب نحو قلعة مصياف قال: وهي بين ناكور وبين نهروالة[2] قال: ولم يعص على صاحب دلي من بلاد الجزرات غير جالور المذكورة. وذكر في القانون مدينة من الهند اسمها مندرى قال: وهي بين الفرضة وبين المعبر إلى سرنديب، وعن بعض المسافرين قال: الهند ثلثة =ثلاثة أقاليم، الأول وهو الذي من جهة الغرب ويتصل ببلاد السند وكرمان يقال له الجزرات.... والثاني المنيبار... وهو شرقي الجزرات والمنيبار هي بلاد الفلفل والفلفل في شجرة عناقيد كعناقيد الدخن وشجره ربما التف على غيره من الأشجار كما يلتف الدوالي. وأما الإقليم الثالث فهو المعبر وأوله يقع في شرقي الكولم بنحو ثلثة أو أربعة أيام وهو شرقي المنيبار [قال بعض المسافرين الديو جزيرة في البحر تقابل كنبايت من جهة الجنوب وأهلها سراق وعمارتها أخصاص من القنا وشرب أهلها من الأمطار....]. وعن بعض المسافرين أن من سندابور ومشرقاً إلى هنور من بلاد المنيبار قال: وهنور بليدة حسنة ولها بساتين كثيرة قال:

---

(1) دلهي الحالية.

(2) اعتبرها الإدريسي قاعدة ملك بلهرا، وذكر القلقشندي أنها غرب إقليم المليبار على البحر مسيرة ثلاثة أيام.

وجميع المنيبار مخضرّ بكثرة المياه والأشجار الملتفة، ومن هنور إلى باسرور، وهي بلدة صغيرة قال: ووراءها منجرور قال: وهي من أكبر بلاد المنيبار وملكها كافر وهي شرقي البلاد المذكورة قال: ووراء منجرور بثلثة أيام جبل عظيم داخل في البحر يرى للمسافرين من بعد ويسمى رأس هيلي..... ومنجرور.... قال: ومن أواخر المنيبار تنديور...... وهي بليدة شرقي رأس هيلي ولها بساتين كثيرة. قال: ومن بلاد المنيبار الشاليات........ والشنكلي..... وهما بلدتان إحداهما أهلها يهود وكان قد شذ عن الحاكي أيهما بلد اليهود. والكولم آخر المنيبار وآخر بلاد الفلفل قال وأول بلاد المعبر من جهة المنيبار رأس كمهري..... قال: وهناك جبل وبلد يقال له رأس كمهري. قال: ومن المعبر منيفتّن..... قال: وهي على الساحل قال: وقصبة المعبر بيّرداول........ قال وهي مدينة سلطان المعبر قال: وإليه يجلب الخيول من البلاد قال المهلبي في العزيزي: وبلاد التبت يقع شمالي مملكة قنوج وبينهما مسافة بعيدة.

ذكر الصين

لما فرغ من [ذكر] الهند انتقل إلى [ذكر] الصين والذي يحيط بالصين من الغرب المفاوز التي بين الصين وبلاد الهند ويحيط بها من جهة الجنوب البحار ويحيط بها من جهة الشرق البحر المحيط الشرقي ويحيط بها من جهة الشمال أراضي ياجوج وماجوج وغيرها من الأراضي المنقطعة الأخبار عنا، وقد ذكر أصحاب كتب المسالك والممالك في كتبهم بلاداً كثيرة ومواضع وأنهار وغيرها من إقليم الصين ولم يقع لنا ضبط أسماءها ولا تحقيق أحوالها فصارت كالمجهولة لنا لعدم من يصل من تلك النواحي من المسافرين إلينا لنستعلم منه أخبارها، فأضربنا عن ذكرها [وعن بعض من قدم إلينا من تلك البلاد

أن خانقو=لعلها خانفو وهي كانتون المعروفة في زمانا بالخنساء[1] في شماليها بحيرة حلوة بالقرب منها تسمى سيخو..... ودورها تقدير نصف يوم وعن المذكور أن شنجو المعروفة في زماننا بالزيتون[2] كل منها ومن الخنساء بندر من بنادر الصين والبندر عندهم هو الفرضة وهو بفتح الباء الموحدة وسكون النون وفتح الدال المهملة وفي آخرها راء مهملة].

---

(1) يُعتقد أنها مدينة هانج جو الحالية.

(2) . ربما هي كانتون.

4

مختارات من أدب الرحلات

آ

رحلة السيرافي

السيرافي أبو زيد الحسن

كان حياً403هـ

المجمع الثقافي. أبو ظبي. 1999

رحلتا سليمان التاجر، وابن وهب

باب في البحر الذي بين بلاد الهند والسند

[بحر الهركند]

.... وذكر سليمان التاجر أن في خانفو، وهو مجتمع التجار، رجلاً مسلماً يوليه صاحب الصين الحكم بين المسلمين الذين يقصدون إلى تلك الناحية، يتوخى ملك الصين ذلك، وإذا كان في العيد صلى بالمسلمين وخطب ودعا لسلطان المسلمين، وإن التجار العراقيين لا ينكرون من ولايته شيئاً في أحكامه وعمله بالحق وبما في كتاب الله عز وجل وأحكام الإسلام.

فأما المواضع التي يردونها ويرقون إليها فذكروا أن أكثر السفن الصينية تحمل من سيراف[1] وأن المتاع يحمل من البصرة وعمان وغيرها إلى سيراف فيعبأ في السفن الصينية بسيراف وذلك لكثرة الأمواج في هذا البحر، وقلة الماء في مواضع منه.

والمسافة بين البصرة وسيراف في الماء مائة وعشرون فرسخاً فإذا عُبّي المتاع بسيراف استعذبوا منها الماء، وخطفوا ـ وهذه لفظة يستعملها أهل البحر يعني يقلعون ـ إلى موضع يقال له مسقط وهو آخر عمل عمان، والمسافة من سيراف إليه نحو مائتي فرسخ......... وفي غربي هذا البحر جبال عمان وفيها الموضع الذي يسمى الدُردور وهو مضيق بين جبلين تسلكه السفن الصغار ولا تسلكه السفن الصينية، وفيها الجبلان اللذان يقال لهما كُسير وعُوير[2] وليس يظهر منهما فوق الماء إلا اليسير، فإذا جاوزنا

---

(1) سيراف: مدينة على ساحل بحر فارس.

(2) جبلان عظيمان مشرفان على أقصى بحر عمان. صعبة المسالك وعرة المقصد صعبة المنجى، فلذلك سميت بهذا.

الجبال صرنا إلى موضع يقال له صَحار[1]

.... وهناك [جبل] فيه غنم من بلاد عمان، فتخطف المراكب منها إلى بلاد الهند وتقصد إلى كولم ملي[2]، والمسافة من مسقط إلى كولم ملي شهر على اعتدال الريح، وفي كولم ملي مسلحة[3] لبلاد كولم ملي تجيء السفن الصينية، وبها ماء عذب من آبار فيؤخذ من [السفن] الصينية ألف درهم، ومن غيرها من السفن ما بين عشرة دنانير إلى [عشرين] ديناراً.

وبين مسقط وبين كولم ملي وبين هركند نحو من شهر، وبكولم ملي يستعذبون الماء، ثم تخطف المراكب ـ أي تقلع ـ إلى بحر هركند، فإذا جاوزوه صاروا إلى موضع يقال له لنجبالوس لا يفهمون لغة العرب ولا ما يعرفه التجار من اللغات، وهم قوم لا يلبسون الثياب، بيضاً كسواج[4]، ذكروا أنهم لم يروا منهم النساء[5]، ذلك أن رجالهم يخرجون إليهم من الجزيرة في زواريق منقورة من خشبة واحدة، ومعهم النارجيل، وقصب السكر والموز....

ثم تُخطف المراكب إلى موضع يقال له كلاة بار[6] المملكة والساحل كل يقال له كلاه بار وهي مملكة الزابج[7] مُتيامنة عن بلاد الهند يجمعهم ملك، ولباسهم الفوط[1]

(1) قصبة عمان مما يلي الجبل و(صحار) مدينة طيبة الهواء والخيرات. (ياقوت 3: 393).

(2) هي من بلاد المالبيار الساحلية.

(3) موضع السلاح كالثغر والمرقب الحربي.

(4) جمع كوسج الذي لا شعر له على وجهه ولا لحية.

(5) في بلدان ابن الفقيه: لم ير منهم امرأة.

(6) ياقوت: 4: 475 "كلاه. بلد بأقصى الهند"، وهي منتصف الطريق التجاري بين العرب والصين، وتقع في موقع سنغافورة.

(7) الزابج: في نخبة الدهر: 152 "بحر الرانج من بحر الصين، وبها جزائر الرانج، وفيها النارجيل المسمى جوز الهند"، وهي من الجزر الاندونيسية، يقال لها الزابج أيضاً، ويعتقد أنها سومطرة، وأن الرامني تقع في شمالها.

يلبس السري[2] والدني منهم الفوطة الواحدة، ويستعذبون هناك الماء من آبار عذبة، وهم يؤثرون ماء الآبار على مياه العيون والمطر.

ومسافة ما بين كولم وهي قريبة من هركند إلى كله بار شهر، ثم تسير المراكب إلى موضع يقال له بتومة وبها ماء عذب لمن أراده، والمسافة إليها عشرة أيام.

تخطف المراكب إلى موضع يقال له كدرنج. عشرة أيام، وفيها ماء عذب، لمن أراده، وكذلك جزائر الهند إذا احتفرت فيها الآبار وجد فيها الماء العذب، وبها جبل مشرف وربما كان فيه الهرّاب[3] من العبيد واللصوص.

ثم تسير المراكب إلى موضع يقال له صنف[4] مسيرة عشرة أيام، وبها ماء عذب، ومنه يؤتي بالعود الصنفي، وبها ملك، وهم قوم سمر يلبس كل واحد منهم فوطتين، فإذا استعذبوا منها خطفوا إلى موضع يقال له صندرفولات، وهي جزيرة في البحر، والمسافة إليها عشرة أيام، وفيها ماء عذب، ثم تخطف المراكب إلى بحر يقال له صنجي[5] ثم إلى أبواب الصين، وهى جبال في البحر بين كل جبلين فرجة تمر فيها المراكب [ثم إلى الصين].

---

(1) الفوط: جمع فوطة، ثياب تجلب من (السند) وهي غلاظ قصار تكون (مآزر) أو هي مآزر مخططة.

(2) السري والسري: الغني والفقير.

(3) بمعنى اللصوص وقطاع الطرق كما فسره بعد ذلك.

(4) صنف: قال ياقوت 3: 431 موضع ببلاد الهند أو الصين ينسب إليه العود الصنفي الذي يبخر به. وهو قبالة سواحل الهند ـ الصين ومن المرجح أن يكون خليج سيام، وكوتين.

(5) في (نخبة الدهر): 154 جزيرة (الصنجى) بالجيم إحدى جزائر (المهراج) مملكة متسعة، وهي جزائر متقاربات كبار وصغار، "وبهذه الجزيرة منهن أنواع الطيب والبهار، وبها الكافور والنارجيل العجيب الزائد في الكبر"، وبحر الصنجي أو السنخي يقصدون به بحر الصين.

فإذا سلم الله صندرفولات خطف المراكب إلى الصين في شهر، إلاّ أن الجبال التي تمر بها المراكب مسيرة سبعة أيام.

فإذا جاوزت السفينة الأبواب ودخلت الخور[1] صارت إلى ماء عذب إلى الموضع التي ترسى إليه من بلاد الصين، وهو يسمى خانفو: مدينة، وسائر الصين فيها الماء العذب من أنهار عذبة وأودية ومسالح وأسواق في كل ناحية.

[أخبار بلاد الهند والصين أيضاً وملوكها]

أهل الهند والصين مجمعون على أن ملوك الدنيا المعدودين أربعة.

فأول من يعدون من الأربعة: ملك العرب، وهو عندهم إجماع لا اختلاف بينهم فيه، أنه ملك أعظم الملوك وأكثرهم مالاً وأبهاهم جمالاً، وأنه ملك الدين الكبير الذي ليس فوقه شيء.

ثم يعد ملك الصين نفسه بعد [الملك بلهرا] ملك العرب.

ثم ملك الروم

ثم بلهرا[2] ملك المخرّمي الآذان.

فأما بلهرا هذا فإنه أشرف الهند، وهم له مقرّون بالشرف وكل ملك من ملوك الهند متفرد بملكه غير أنهم مقرون لهذا، فإذا وردت رسله على سائر الملوك صلوا لرسله تعظيما له، وهو ملك يعطي العطاء كما تفعل العرب، وله الخيل والفيلة الكثيرة

---

(1) الخور: الخليج من البحر، وقيل مصب الماء في البحر، وقيل هو مصب المياه الجارية في البحر.

(2) بلهرا: وفي (المسالك والممالك) لابن خرداذبه: 65 "وأعظم ملك الهند (بلهرا) وتفسيره ملك الملوك. انظر (المسالك والممالك).

والمال الكثير، وماله دراهم تدعى الطاطرية[1]......

وبلهرا اسم لكل ملك منهم ككسرى ونحوه، وليس باسم لازم. وملك بلهرا وأرضه أولها ساحل البحر وهي بلاد تدعى الكمكم متصلة على الأرض إلى الصين وحوله ملوك كثيرة يقاتلونه، غير أنه يظهر عليهم...

[معاملات أهل الصين]

ومعاملاتهم بالفلوس وخزائنهم كخزائن الملوك، وليس لأحد من الملوك فلوس سواهم، وهي عين البلاد، ولهم الذهب والفضة واللؤلؤ والديباج والحرير، كل ذلك كثير عندهم، غير أن ذلك متاع، والفلوس عين، وتحمل إليهم العاج واللبان وسبائك النحاس، والذبل[2] من البحر وهي جلود ظهور السلاحف، وهذا البشان الذي وصفنا، هو الكركدن يتخذون من قرونه مناطق، ودوابهم كثيرة، وليس لهم خيل عربية بل غيرها، ولهم حمير وإبل كثيرة لها سنامان، ولهم الغضار الجيد، ويعمل منه أقداح في رقة القوارير يرى ضوء الماء فيه، وهو من غضارٍ[3].

[معاملة أهل الصين للتجار]

وإذا دخل البحريون من البحر قبض الصينيون متاعهم، وصيروه في البيوت وضمنوا الدرك إلى ستة أشهر إلى أن يدخل آخر البحريين، ثم يؤخذ من كل عشرة

---

(1) الطاطرية: ذكرها ابن خرداذبه في المسالك والممالك: قال في الكلام على ملك الطافن "وله الدراهم (الطاطرية).

(2) الذبل: جلد السلحفاة، يتخذ منها الأسورة والأمشاط.

(3) الغضار: خزف أصفر.

ثلاثة ويسلم الباقي إلى التجار، وما احتاج إليه السلطان أخذه بأغلى الثمن وعجّله، ولم يظلم فيه، ومما يأخذون الكافور المنا، بخمسين فكّوجاً والفكوج ألف فلس، وهذا الكافور إذا لم يأخذه السلطان يساوي نصف الثّمن خارجاً.

[عادة أهل الصين في الموت]

وإذا مات الرجل من أهل الصين لم يدفن إلاّ في اليوم الذي مات في مثله من قابل، يجعلونه في تابوت. ويخلونه في منازلهم ويجعلون عليه النّورة[1]، فتمص ماءه ويبقى، والملوك يجعلون في الصبر والكافور، ويبكون على موتاهم ثلاث سنين، ومن لم يبك ضرب بالخشب، كذلك النساء والرجال، ويقولون: إنه لم يحزنك ميتك، ويدفنون في ضريح كضريح العرب، ولا يقطعون عنه الطعام، ويزعمون أنه يأكل ويشرب، وذلك أنهم يضعون عنده الطعام بالليل فيصبحون ولا يجدون منه شيئاً، فيقولون قد أكل، ولا يزالون في البكاء والإطعام ما بقي الميت في منزلهم، فيفتقرون على موتاهم، فلا يبقى لهم نقد ولا ضيعة إلاّ أنفقوه عليه، وقد كانوا قبل هذا يدفنون الملك وما ملك من آلة بيته من ثياب ومناطق، ومناطقهم تبلغ مالاً كثيراً، وقد تركوا ذلك الآن، وذلك أنه نبش بعض موتاهم وأخذ ما كان معه.

[عناية أهل الصين بتعلم الخط والكتابة]

والفقير والغني من أهل الصين والصغير والكبير يتعلم الخط والكتابة.

---

(1) النورة: وتسمى أيضاً الكلس.

[أسماء ملوكهم وعادتهم في الملك]

واسم ملوكهم على قدر الجاه وكبر المدائن، فما كان من مدينة صغيرة يسمى ملكها طوسنج، ومعنى طوسنج أقام المدينة، وما كان من مدينة مثل خانفو فاسم ملكها ديفو، والخصي يدعى الطوقام وخصيانهم منهم مسلولون، وقاضي القضاة يقال له لقشى مامكون ونحو هذا من الأسماء مما لا نضبطه.

وليس يملك أحد منهم لأقل من أربعين سنة، يقولون: قد حنكته التجارب.

والملوك الصغار إذا قعد أحدهم يقعد في مدينته على كرسي في بهو عظيم، وبين يديه كرسي وترفع إليه الكتب التي فيها أحكام الناس، ومن وراء الملك رجل قائم يدعى لينجون إذا زلّ الملك في شيء مما يأمر به وأخطأ رده، وليس يعبئون بالكلام ممن يرفع إليهم دون أن يكتبه في كتاب، وقبل أن يدخل صاحب القصة على الملك ينظر في كتابه رجل قائم بباب الدار ينظر في كتب الناس، فإن كان فيها خطأ رده، فليس يكتب إلى الملك إلاّ كاتب يعرف الحكم ويكتب الكاتب في الكتاب: كتبه فلان بن فلان، فان كان فيه خطأ رجع إلى الكاتب اللوم فيضرب بالخشب، وليس يقعد الملك للحكم حتى يأكل ويشرب لئلا يغلط، وأرزاق كل ملك من بيت مال مدينته.

فأما الملك الأكبر فلا يُرى إلاّ في كل عشرة أشهر، يقول إذا رآني الناس استخفوا بي. والرئاسات لا تقوم إلاّ بالتجبّر، وذلك أن العامة لا تعرف العدل فينبغي أن يستعمل معهم التجبر لنعظم عندها.

وليس على أرضهم خراج ولكن عليهم جزية على الجماجم الذكور حسبما يرون من الأحوال، وإن كان بها أحد من العرب أو غيرهم أخذ منه جزية ماله ليحرز ماله.

وإذا غلا السعر أخرج السلطان من خزائنه الطعام فباعه بأرخص من سعر السوق، فلا يبقى عندهم غلا، والذي يدخل بيت المال إنما هو من الجزية التي على

رؤوسهم، وأظن أن الذي يدخل بيت مال خانفو في كل يوم خمسون ألف دينار على أنها ليست بأعظم مدائنهم.

ويختص الملك من المعادن بالملح، وحشيش. يشربونه بالماء الحار، ويباع منه في كل مدينة بمال عظيم، ويقال له الساخ[1] وهو أكثر ورقاً من الرطبة[2] وأطيب قليلاً وفيه مرارة فيغلى الماء ويذر عليه، فهو ينفعهم من كل شيء.

وجميع ما يدخل بيت المال الجزية والملح وهذا الحشيش.

وفي كل مدينة شيء يدعى الدرا وهو جرس على رأس ملك تلك المدينة مربوط بخيط مادٍ على ظهر الطريق للعامة كافة، وبين الملك وبينه نحو من فرسخ، فإذا حُرك الخيط الممدود أدنى حركة تحرك الجرس، فمن كانت له ظلامه حرك هذا الخيط فيتحرك الجرس منه على رأس الملك فيؤذن له بالدخول حتى ينهي حاله بنفسه ويشرح ظلامته، وجميع البلاد فيها مثل ذلك.

ومن أراد سفراً من بعضها إلى بعض أخذ كتابين من الملك ومن الخصّي، أما كتاب الملك فللطريق باسم الرجل واسم من معه وكم عمره وعمر من معه، ومن أي قبيلة هو، وجميع من ببلاد الصين من أهلها ومن العرب وغيرهم لابد لهم أن ينتموا إلى شيء يعرفون به، وأما كتاب الخصي فبالمال وما معه من المتاع، وذلك لأن في طريقهم مسالح[3] ينظرون في الكتابين، فإذا ورد عليهم الوارد كتبوا: ورد علينا فلان بن فلان الفلاني في يوم كذا، وشهر كذا وسنة كذا ومعه كذا، لئلا يذهب من مال الرجل ولا من متاعه شيء ضياعاً، فمتى ما ذهب منه شيء أو مات، عُلم كيف ذهب، ورُدّ عليه أو على ورثته من بعده.

---

(1) وصف الشاي المعروف لنا حالياً.

(2) الرطبة: اسم خاص بالقضب (البرسيم) ما دام أخضر طرياً رطباً.

(3) مسلحون.

[إنصاف أهل الصين في المعاملات]

وأهل الصين ينصفون في المعاملات والديوان، فإذا كان لرجل على رجل دين كتب عليه كتاباً، وكتب الذي عليه الدين أيضاً كتاباً، وعلمه بعلامة بين أصبعيه الوسطى والسبابة، ثم جمع الكتابان فطويا جميعا، ثم كتب على فصلهما، ثم فرق فأعطى الذي عليه الدين كتابه بإقراره، فمتى جحد أحدهما غريمه، قيل له: أحضر كتابك، فإذا زعم الذي عليه الدين أنه لا شيء له ودفع كتابه بخطه وعلامته وذهب كتاب صاحب الحق، قيل للجاحد الذي عليه الحق: أحضر كتاباً بأن هذا الحق ليس عليك، فمتى ما بين عليك صاحب الحق الذي جحدته فعليك عشرون خشبة على الظهر، وعشرون ألف فكوج فلوساً، والفكوج ألف فلس يكون ذلك قريبا من ألفي دينار، والعشرون الخشبة فيها موته، فليس يكاد أحد ببلاد الصين يُعطي هذا من نفسه مخافة تلف النفس والمال، ولم نر أحداً أجاب إلى ذلك.

وهم يتناصفون بينهم وليس يذهب لأحد حق ولا يتعاملون بشاهد ولا يمين.

وإذا أفلس رجل بمال قوم فحبسه الغرماء بأموالهم عند السلطان وأخذ إقراره، فإن لبث في السجن شهراً أخرجه السلطان فنادى عليه: إن هذا فلان بن فلان أفلس بمال فلان بن فلان فإن يكن له عند أحد وديعة أو كان له عقار أو رقيق أو ما يحيط بدينه أخرج في كل شهر فضرب خشباتٍ على استه، لأنه أقام في الحبس يأكل ويشرب وله مال، فهو يضرب أقر له أحد بمال أو لم يقر له فهو يُضرب على كل حال، يقال: ليس لك عمل إلاّ أخذ حقوق الناس والذهاب بها، ويقال له: احتل حقوق هؤلاء القوم، فإن لم يكن له حيلة، وصح عند السلطان أنه لا شيء له، دعي الغرماء فأعطوا من بيت

مال البغبون[1] وهو الملك الأعظم وإنما سمى البغبون ومعناه ابن السماء، ونحن نسميه المغبون، ثم ينادى: من بايع هذا فعليه القتل، فليس يكاد يذهب لأحد مال، وإن علم أن له عند أحد مالاً ولم يقر المودع بالمال قتل بالخشب، ولم يقل لصاحب المال شيء فيؤخذ المال ويقسم على الغرماء ولا يبايع بعد ذلك.

[الحجر الذي فيه ذكر الأدوية]

ولهم حجر منصوب طوله عشرة أذرع مكتوب فيه نقراً في الحجر ذكر الأدوية والأدواء، داء كذا دواؤه كذا، فان كان الرجل فقيراً أعطي ثمن الدواء من بيت المال.

وليس عليهم خراج في ضياعهم وإنما يؤخذ من الرؤوس على قدر أموالهم وضياعهم، وإذا ولد لأحد ذكر كتب اسمه عند السلطان فإذا بلغ ثماني عشرة سنة أخذت منه الجزية، فإذا بلغ ثمانين سنة لم يؤخذ منه جزية وأجرى عليه من بيت المال، ويقولون: أخذنا منه شاباً ونجري عليه شيخاً.

وفي كل مدينة كتاب ومعلم يعلم الفقراء، وأولادهم من بيت المال يأكلون، ونساؤهم مكشفات الشعور والرجال يغطون رؤوسهم.

وبها قرية يقال لها تايوا في الجبل فهم قصر، وكل قصير ببلاد الصين ينسب إليها.

وأهل الصين أهل جمال وطول وبياض نقي مشرّب حمرة، وهم أشد الناس سواد شعور، ونساؤهم يجزُّون شعورهن.

---

(1) البغبور وفي (المسالك والممالك) لابن خرداذبه: البغبور لقب ملك الصين وكذا في (نخبة الدهر): 149.

[ذكر بلاد الهند]

وأما بلاد الهند فإنه إذا ادعى رجل على آخر دعوى يجب فيها القتل، قيل للمدعى: أتحامله النار فيقول: نعم، فتحمى حديدة إحماءً شديداً حتى يظهر النار فيها، ثم يقال له: ابسط يدك فتوضع على يده سبع ورقات من ورق شجر لهم، ثم توضع على يده الحديدة فوق الورق ثم يمشي بها مقبلا ومدبرا حتى يلقيها عن يده فيؤتى بكيس من جلود فيدخل يده فيه، ثم يختم بختم السلطان، فإذا كان بعد ثلاث أُتي بأرز غير مقشر فيقال له افركه، فإن لم يكن في يده أثر فقد فلح ولا يقتل عليه، ويغرم الذي ادعى عليه مناً من ذهب يقبضه السلطان لنفسه، و ربما غلوا الماء في قدر حديد أو نحاس حتى لا يقدر أحد يدنوا منه ثم يطرح فيه خاتم حديد ويقال أدخل يدك فتناول الخاتم، وقد رأيت من أدخل يده وأخرجها صحيحة، ويغرم المدعي أيضاً مناً من ذهب........

[عادات أهل الهند في إحراق موتاهم وعباداتهم]

وسرنديب آخر الجزائر وهي من بلاد الهند، وربما أحرق الملك فتدخل نساؤه النار فيحترقن معه، وإن شئن لم يفعلن.

وببلاد الهند من ينسب إلى السياحة في الغياض والجبال، وقلّ ما يعاشر الناس ويأكل أحيانا الحشيش وثمر الغياض، ويجعل في إحليله حلقة حديد لئلا يأتي النساء، ومنهم العريان، ومنهم من ينصب نفسه للشمس مستقبلها عرياناً، إلا أن عليه شيئاً من جلود النمور، فقد رأيت رجلا منهم كما وصفت، ثم انصرفت وعدت بعد ست عشرة سنة، فرأيته على تلك الحال، فتعجبت كيف لم تسل عينه من حر الشمس.

[توارثهم الملك والصناعات]

وأهل بيت المملكة في كل مملكة أهل بيت واحد لا يخرج عنهم الملك، ولهم ولاة عهود، وكذلك أهل الكتابة والطب أهل بيوتات لا تكون تلك الصناعة إلاّ فيهم.

وليس تنقاد ملوك الهند لملك واحد بل كل واحد ملك بلاده، وبلهرا ملك الملوك بالهند، فأما الصين فليس لهم ولاة عهود.

[امتناع ملوك الهند عن اللهو والشراب]

وأهل الصين أهل ملاهٍ، وأهل الهند يعيبون الملاهي، ولا يتخذونها، ولا يشربون الشراب ولا يأكلون الخل لأنه من الشراب، وليس ذلك دين ولكن أنفه، ويقولون: أي ملك شرب الشراب فليس بملك، وذلك أن حولهم ملوكاً يقاتلونهم، فيقولون: كيف يدبر أمر ملكه من هو سكران[1]، وربما اقتتلوا على الملك وذلك قليل، لم أر أحداً غلب أحداً على مملكته إلاّ قوم تلو بلاد الفلفل، وإذا غلب ملك على مملكة ولى عليها رجلا من أهل بيت الملك المغلوب، ويكون من تحت يده لا يرضى أهل تلك المملكة إلاّ بذلك.

---

[1] المسعودي: مروج الذهب 1: 84.

[أكل أهل الصين لحم ملوكهم]

فأما بلاد الصين فربما جار الملك الذي من تحت يد الملك الأكبر فيذبحونه ويأكلونه، وكل من قتل بالسيف أكل الصينيون لحمه.

وأهل الهند والصين إذا أرادوا التزويج تهانئوا بينهم، ثم تهادوا، ثم يشهرون التزويج بالصنوج والطبول، وهديتهم من المال على قدر الإمكان.

وإذا أحضر الرجل منهم امرأة فبغت، فعليها وعلى الباغي بها القتل في جميع بلاد الهند، وإن زنى رجل بامرأة اغتصبها نفسها قتل الرجل وحده، فإن فجر بامرأة على رضىً منها قتلا جميعا.

[حكمهم في حد السرقة]

والسرقة[1] في جميع بلاد الصين والهند في القليل منه والكثير القتل، فأما الهند إذا سرق السارق فلساً فما فوقه أخذت خشبة طويلة فيحدد طرفها ثم يقعد عليها على أسته حتى تخرج من حلقه.

وأهل الصين يلوطون بغلمان قد أقيموا لذلك بمنزلة زواني البددة[2].

---

(1) انظر عقوبة السرقة والزناء عند الهنود في كتاب (تحقيق ما للهند من مقوله مقبولة في العقل أو مرذولة) للبيروني: 475 ط حيدر أباد سنة 1277هـ.

(2) البددة: اسم للصنم الذي يُعبد عندهم.

[بناء أهل الصين والهند]

وحيطان أهل الصين الخشب، وبناء أهل الهند حجارة وجص وآجر وطين، وكذلك ربما كان بالصين أيضاً، وليس الصين ولا الهند بأصحاب فرش.

ويتزوج الرجل من الصين والهند ما شاء من النساء.

وطعام الهند الأرز وطعام الصين الحنطة والأرز، وأهل الهند لا يأكلون الحنطة ولا يختتن الهند ولا الصين.

[ديانة أهل الصين والهند]

وأهل الصين يعبدون الأصنام ويصلون لها ويتضرعون إليها ولهم كتب دين.

[عجائب متفرقة]

والهند يطولون لحاهم ربما أربت لحية أحدهم ثلاث أذرع، ولا يأخذون شواربهم، وأكثر أهل الصين لا لحىً لهم خلقةً لأكثرهم.

وأهل الهند إذا مات لأحدهم ميت حلق رأسه ولحيته.

والهند إذا حبسوا رجلاً أو لازموه منعوه الطعام والشراب سبعة أيام وهم يتلازمون.

ولأهل الصين قضاة يحكمون بينهم دون العمال وكذلك أهل الهند.

والنمور والذئاب ببلاد الصين جميعاً، فأما الأسد فليست بكلا الولايتين.

ويقتل قاطع الطريق، وأهل الصين، والهند يزعمون أن البددة تكلمهم وإنما يكلمهم عبادهم.

والصين والهند يقتلون ما يريدون أكله ولا يذبحونه فيضربون هامته حتى يموت.

ولا يغتسل الهند ولا الصين من جنابة، وأهل الصين لا يستنجون إلاّ بالقراطيس، والهند يغتسلون كل يوم قبل الغدا ثم يأكلون.

والهند لا يأتون النساء في الحيض ويخرجونهن عن منازلهم تقززاً منهن.

والصين يأتونهن في الحيض ولا يخرجونهن.

وأهل الهند يستاكون ولا يأكل أحدهم حتى يستاك ويغتسل وليس يفعل ذلك أهل الصين.

وبلاد الهند أوسع من بلاد الصين وهي أضعافها وعدد ملوكهم أكثر، وبلاد الصين أعمر، وليس للصين ولا للهند نخل ولهم سائر الشجر، وثمر ليس عندنا، والهند لا عنب لهم، وهو بالصين قليل، وسائر الفواكه عندهم كثيرة، والرمان بالهند أكثر.

وليس لأهل الصين علم وإنما أصل ديانتهم من الهند، وهم يزعمون أن الهند وضعوا لهم البددة، وأنهم هم أهل الدين، وكلا البلدين يرجعون إلى التناسخ ويختلفون، في فروع دينهم[1].

والطب بالهند والفلاسفة ولأهل الصين أيضاً طب، وأكثر طبهم الكي ولهم علم بالنجوم وذاك بالهند أكثر، ولا أعلم أحداً من الفريقين مسلماً ولا يتكلم بالعربية.

---

(1) انظر "تحقيق ما للهند" للبيروني 38 ـ 44.

وللهند خيل قليل، وهى للصين أكثر، وليس للصين فيلة ولا يتركونها في بلادهم تشاؤماً بها.

وجنود ملك الهند كثيرة ولا يرزقون وإنما يدعوهم الملك إلى الجهاد فيخرجون، ينفقون من أموالهم ليس على الملك من ذلك شيء، فأما الصين فعطاؤهم كعطاء العرب. وبلاد الصين أنزه وأحسن، وأكثر الهند لا مدائن لها، وأهل الصين في كل موضع لهم مدينة محصنة عظيمة، وبلاد الصين أصح وأقل أمراضاً وأطيب هواء لا يكاد يرى بها أعمى ولا أعور ولا من به عاهة، وهكذا كثير ببلاد الهند.

وأنهار البلدين جميعاً عظام فيها ما هو أعظم من أنهارنا، والأمطار بالبلدين جميعاً كثيرة.

وفي بلاد الهند مفاوز كثيرة والصين كلها عمارة، وأهل الصين أجمل من أهل الهند، وأشبه بالعرب في اللباس والدواب، وهم في هيئتهم في مواكبهم شبيه بالعرب يلبسون الأقبية[1] والمناطق وأهل الهند يلبسون فوطتين، ويتحلون بأسورة الذهب والجوهر الرجال والنساء.

ووراء بلاد الصين من الأرض التغزغز[2] وهم من الترك، وخاقان[3] تبّت[4] هذا مما يلي بلاد الترك فأما ما يلي البحر فجزائر السيلا وهم بيض يهادون صاحب الصين، ويزعمون أنهم إن لم يهادوه لم تمطرهم السماء، ولم يبلغها أحد من أصحابنا فيحكى عنهم، ولهم بزاة بيض.................

---

(1) الأقبية: جمع قباء، وهو نوع من الملابس.

(2) التغزغز: جنس من الأتراك يقول ابن خردذابه: 31 "وهم أتراك وفيهم مجوس يعبدون النار، وفيهم زنادقة والملك منهم في مدينة عظيمة لها اثنا عشر باباً من حديدوأهلها زنادقة".

(3) خاقان: يقول ابن خرداذبه: 16 "ملوك الترك والتبت والخزر كلهم يلقبون بخاقان خلا ملك (الخرلنج) فإنهم يسمونه (جبغويه) وملك الصين (بغبور).

(4) هي الآن في بلاد الصين.

الكتاب الثاني
من أخبار الصين والهند

قال أبو زيد الحسن السيرافي: إنني نظرت في هذا الكتاب يعنى الكتاب الأول الذي أمرت بتأمله وإثبات ما وقفت عليه من أمر البحر وملوكه وأحوالهم وما عرفته من أحاديثهم مما لم يدخل فيه، فوجدت تاريخ الكتاب في سنة سبع وثلاثين ومائتين وأمور البحر في ذلك الوقت مستقيمة لكثرة اختلاف التجار إليها من العراق.

[تكذيب المؤلف لخرافة أكل الموتى الطعام]

ووجدت جميع ما حكى في الكتاب على سبيل حق وصدق، إلاّ ما ذكر فيه من الطعام الذي يقدمه أهل الصين إلى الموتى منهم، وأنه إذا وضع بالليل عند الميت أصبحوا فلم يوجد وادعوا أنه أكله، فقد كان بلغنا هذا حتى ورد علينا من ناحيتهم من وثقنا بخبره فسألناه عن ذلك فأنكره، وقال: هي دعوى لا أصل لها كدعوى أهل الأوثان أنها تكلمهم.

وقد تغير بعد هذا التاريخ أمر الصين خاصة، وحدثت فيه حوادث انقطع لها الجهاز[1] إليهم وخرب البلد وزالت رسومه وتفرق أمره وأنا أشرح ما وقفت عليه من السبب في ذلك إن شاء الله:

---

[1] الجهاز والتجهيز: الرحلة والتوجه إليها بمحتاجاتهم.

السبب في تغير أمر الصين عما كان عليه من الإحكام والعدل وانقطاع الجهاز إليه من سيراف: أن نابغاً نبغ فيهم من غير بيت الملك يعرف ببابشو[1] وكان مبتدأ أمره الشطارة[2] والفتوة وحمل السلاح والعبث واجتماع السفهاء إليه، حتى اشتدت شوكته وكثر عدده واستحكم طمعه، فقصد خانفو من بين مدن الصين، وهي المدينة التي يقصدها تجار العرب، وبينها وبين البحر مسيرة أمام يسيرة، وهي على وادٍ عظيم وماء عذب، فامتنع أهلها عليه، فحاصرهم مدة طويلة، وذلك في سنة أربع وستين ومائتين إلى أن ظفر بها، فوضع السيف في أهلها، فذكر أهل الخبرة بأمورهم: أنه قتل من المسلمين واليهود والنصارى والمجوس سوى من قتل من أهل الصين مائة وعشرون ألف رجل، كانوا تبوؤا بهذه المدينة فصاروا بها تجاراً، وإنما عرف مقدار عدد هذه الملل الأربع، لتحصيل أهل الصين بعددهم، وقطر ما كان فيه من شجر التوت وسائر الأشجار، وذكرنا شجر التوت خصوصاً لإعداد أهل الصين ورقه لدود القز حتى يلف الدود، فصار سبباً لانقطاع الحرير خاصة عن بلاد العرب.

ثم قصد بعد تخريب خانفو إلى بلدٍ بلد فأخربه، وعجز ملك الصين عنه إلى أن قارب مدينة الملك وتعرف بخمدان[3] فهرب الملك منه إلى مدينة بمذوَ متاخمة لبلاد التبت فأقام بها، ودامت أيام هذا النابغ وعظم شأنه، وكان قصده ووكده خراب المدن وقتل أهلها إذ لم يكن من بيت ملك ومن يطمع في اتساق الأمر له، فبلغ من ذلك مبلغاً فسد به أمر الصين إلى وقتنا هذا، ولم تزل تلك حال هذا النابغ إلى أن كتب ملك الصين إلى ملك التغزغز من بلاد الترك وبينهم مجاورة ومصاهرة ووجه إليه رسلاً يسأله كشف هذا الرجل عنه، فأنفذ ملك التغزغز ابناً له إلى هذا النابغ في عدد كثير وجموع

---

(1) في مروج الذهب 1 : 138 يانشو.

(2) الشطار: هنا هم اللصوص وقطاع الطرق.

(3) خمدان: من بلاد الصين وقصبتها (خمدان) العظمى وهي على شاطئ نهر (خمدان) الغربي. "نخبة الدهر: 168".

وافرة فأزاله بعد حروب متصلة ووقائع عظيمة، فزعم قوم أنه قتل، وزعم آخرون أنه مات، وعاد ملك الصين إلى بلده المعروف بخمدان وقد أخربه عليه وعلى سبيل ضعف في نفسه ونقص في أمواله وهلاك قواده صناديد رجاله وكفاته، وغلب مع ذلك على كل ناحية متغلب منع من أموالها وتمسك بما في يده منها، فدعت ملك الصين الضرورة لقصور يده إلى قبول العفو منهم بإظهار الطاعة والدعاء له دون السمع والطاعة في الأموال، وما كان من الملوك ينفذ فيه، فصارت بلاد الصين على سبيل ما جرت عليه أحوال الأكاسرة عند قتل الاسكندر لدارا[1] الكبير وقسمته أرض فارس على ملوك الطوائف، وصار بعضهم يعضد بعضاً للمغالبة بغير إذن الملك ولا أمره، فإذا أناخ القوي منهم على الضعيف تغلب على بلاده واجتاح ما فيه وأكل ناسه، كلهم، وذلك مباح لهم في شريعتهم لأنهم يتبايعون لحوم الناس في أسواقهم، وامتدت أيديهم مع ذلك إلى ظلم من قصدهم من التجار.

ولما حدث هذا فيهم التأم إليه ظهور الظُلم والتعدي في نواخذة[2] العرب وأرباب المراكب، فألزموا التجار ما لا يجب عليهم وغلبوهم على أموالهم واستجازوا ما لم يجر الرسم به قديما في شيء من أفعالهم، فنزع الله جل ذكره البركات منهم جميعاً ومنع البحر جانبه ووقع الفناء بالمقدار الجاري من المدبر تبارك اسمه في الربابنة[3] والأدلاء[4] بسيراف وعمان.

---

(1) دارا: هو دار ابن بهمن أحد ملوك الفرس.

(2) نواخذة: جمع ناخوذاه: و(الناخذاه): هو رئيس السفن.

(3) وهو متولي السفينة ومن يجريها والجمع أيضا ربابين.

(4) الأدلاء هو المرشدون للسفن.

[بعض من أحكام أهل الصين في الجنايات]

وذكر في الكتاب طرف من سنن أهل الصين ولم يذكر غيره وهو سبيل المحصن والمحصنة عندهم إذا زنيا القتل، وكذلك اللص والقاتل، وسبيلهم في القتل، أن تشد يدا من يريدون قتله شداً وثيقاً، ثم تطرح يداه في رأسه حتى يصيرا على عنقه، ثم تدخل رجله اليمنى فيما ينفذ من يده اليمنى، ورجله اليسرى فيما ينفذ من يده اليسرى، فتصير قدماه جميعاً من ورائه ويتقبض ويبقى كالكرة لا حيلة له في نفسه ويستغني عن ممسك يمسكه، وعند ذلك تزول عنقه عن مركبها وتتزايل خرزات ظهره عن بطنها وتختلف وركاه ويتداخل بعضه في بعض ويضيق نفسه ويصير في حال لو ترك على ما هو به بعض ساعة لتلف، فإذا بلغ منه ضرب بخشبةٍ لهم معروفةٍ على مقاتله ضربات معروفة لا تتجاوز، فليس دون نفسه شيء، ثم يدفع إلى من يأكله.

[ديوان الزواني]

وفيهم نساء لا يردن الإحصان ويرغبن في الزنا، وسبيل هذه أن تحضر مجلس صاحب الشرط فتذكر زهدها في الإحصان ورغبتها في الدخول في جملة الزواني، وتسأل حملها على الرسم في مثلها، ومن رسمهم فيمن أراد ذلك من النساء أن تكتب نسبها وحليتها وموضع منزلها وتثبت في ديوان الزواني، وتجعل في عنقها خيط فيه خاتم من نحاس مطبوع بخاتم الملك ويدفع إليها منشور يذكر فيه دخولها في جملة الزواني وأن عليها لبيت المال في كل سنة كذا وكذا فلساً، وأن من تزوجها فعليه القتل، فتؤدي في كل سنة ما عليها ويزول الإنكار عنها.

فهذه الطبقة من النساء يرحن بالعشيات عليهن ألوان الثياب من غير استتار فيصرن إلى من طرأ إلى تلك البلاد من الغرباء من أهل الفسق والفساد وأهل الصين، فيقمن عندهم وينصرفن بالغدوات، ونحن نحمد الله على ما طهرنا به من هذه الفتن.

[معاملات أهل الصين بالفلوس والتجارة]

وأما تعاملهم بالفلوس، فالسبب فيه إنكارهم على المتعاملين بالدنانير والدراهم: أن لصاً لو دخل منزل رجل من العرب المتعاملين بالدنانير والدراهم لتهيأ له حمل عشرة آلاف دينار ومثلها من الورق على عنقه، فيكون فيها عطب صاحب المال، وأن لصاً لو دخل إلى رجل منهم لم يحمل أكثر من عشرة آلاف فلس، وإنما ذلك عشرة مثاقيل ذهب.

[فلوس أهل الصين]

وهذه الفلوس معمولة من نحاس وأخلاط من غيره معجونة به، والفلس منها في قدر الدرهم البغلي[1]، وفي وسطه ثقب واسع ليفرد الخيط فيه، وقيمة كل ألف فلس منها مثقال من ذهب، وينظم الخيط منها ألف فلس على رأس كل مائة عقدة، فإذا ابتاع المبتاع ضياعاً أو متاعاً أو بقلاً فما فوقه دفع من هذه الفلوس على قدر الثمن، وهي موجودة بسيراف وعليها نقش بكتابتهم.

---

(1) الدرهم البغلي: ينسب كما يقال إلى البغل وكان يهودياً، يقوم على سك النقود في زمن بني أميه.

[طريقة أهل الصين في بناء بيوتهم]

وأما الحريق ببلاد الصين والبناء وما ذكر فيه فالبلد مبني على ما قيل من خشب ومن قنا مشبك على مثال الشقاق القصب، عندنا ويليط بالطين وبعلاج لهم يتخذونه من حب الشهدانج[1] فيصير في بياض اللب، تدهن به الجدر فيشرق إشراقاً عجيباً، وليس لبيوتهم عتب لأن أملاكهم وذخائرهم وما تحويه أيديهم في صناديق مركبة على عجل تدور بها، فإذا وقع الحريق دفعت تلك الصناديق بما فيها فلم يمنعها العتب من سرعة النفوذ.

[خدم ملوك الصين وخصيانهم]

وأما أمر الخدم فذكر مجملاً وإنما هم ولاة الخراج وأبواب المال، فمنهم من قد سبي من الأطراف فخصي، ومنهم من يخصيه والده من أهل الصين ويهديه إلى الملك تقرباً به إليه، فأمور الملك في خاصته وخزائنه ومن يتوجه إلى مدينة خانفو التي يقصد إليها تجار العرب هم الخدم، ومن سننهم في ركوب هؤلاء الخدم وملوك سائر المدن إذا ركبوا: أن يتقدمهم رجال بخشب تشبه النواقيس يضربون بها، فيسمع من بعد فلا يقف أحد من الرعية في شيء من ذلك الطريق الذي يريد الخادم أو الملك أن يمر فيه، ومن كان على باب دار دخلها وأغلق الباب دونه، حتى يكون اجتياز الخادم أو الملك المملك على تلك المدينة، وليس في طريقه أحد من العامة ترهيباً وتجبراً، ولئلا يكثر نظر العامة إليهم ولا يمتد لسان أحدٍ إلى الكلام معهم.

---

(1) الشهدانج: هو القنب.

[حذق أهل الصين في صناعة الحريري وغيرها]

ولباس خدمهم ووجوه قوادهم فاخر الحرير الذي لا يحمل مثله إلى بلاد العرب عندهم ومبالغتهم في أثمانه.

وذكر رجل من وجوه التجار ومن لا يشك في خبره: أنه صار إلى خصي كان الملك أنفذه إلى مدينة خانفو لتخير ما يحتاج إليه من الأمتعة الواردة من بلاد العرب، فرأى على صدره خالاً يشف من تحت ثياب حرير كانت عليه، فقدر أنه قد ضاعف بين ثوبين منها فلما ألح في النظر، قال له الخصي: أراك تديم النظر إلي صدري فلم ذلك، فقال له الرجل: عجبت من خال يشف من تحت هذه الثياب، فضحك الخصي ثم طرح كم قميصه إلى الرجل، وقال له: أعدد ما علي منها، فوجدها خمسة أقبية بعضها فوق بعض والخال يشف من تحتها.

والذي هذه صفته من الحرير خام غير مقصورٍ، والذي يلبسه ملوكهم أرفع من هذا وأعجب.

[حذق أهل الصين في دقيق الصناعات[1]]

وأهل الصين من أحذق خلق الله كفّاً بنقش وصناعة وكلّ عمل لا يقدمهم فيه أحد من سائر الأمم، والرجل منهم يصنع بيده ما يقدر أن غيره يعجز عنه، فيقصد به باب الملك يلتمس الجزاء على لطيف ما ابتدع، فيأمر الملك بنصبه على بابه من وقته

---

(1) قارن مع مروج الذهب 1 : 146.

ذلك إلى سنة، فإن لم يخرج أحد فيه عيباً جازاه وأدخله في جملة صناعه، وإن أخرج فيه عيب أطرحه ولم يُجازه.

وأن رجلاً منهم صور سنبلة عليها عصفور في ثوب حرير لا يشك الناظر إليها أنها سنبلة وأن عصفوراً عليها، فبقيت مدة وأنه اجتاز بها رجل أحدب فعابها، فأدخل إلى ملك ذلك البلد وحضر صانعها فسأل الأحدب عن العيب، فقال: المتعارف عند الناس جميعاً أنه لا يقع عصفور على سنبلة إلا أمالها، وأن هذا المصور صور السنبلة قائمة لا ميل لها، وأثبت العصفور فوقها منتصباً فأخطأ فصُدّق ولم يُثِب الملك صانعها بشيء، وقصدهم في هذا وشبهه رياضة من يعمل هذه الأشياء ليضطرهم ذلك إلى شدة الاحتراز وإعمال الفكر فيما يصنع كل منهم بيده.

[قصة ابن وهب القرشي وما وقع له مع ملك الصين[1]]

وقد كان بالبصرة رجل من قريش يعرف بابن وهب من ولد هبّار بن الأسود، خرج منها عند خرابها فوقع إلى سيراف، وكان فيها مركب يريد بلاد الصين فنزعت به همته بالمقدار الجاري على أن ركب في ذلك المركب إلى بلاد الصين، ثم نزعت به همته إلى قصد ملكها الكبير، فسار إلى خمدان في مقدار شهرين من المدينة المعروفة بخانفو، وأقام بباب الملك مدة طويلة يرفع الرقاع ويذكر أنه من أهل بيت نبوة العرب، فأمر الملك بعد هذه المدة بإنزاله في بعض المساكن وإزاحة علته فيما يحتاج إليه، وكتب الملك إلى الوالي المستخلف المقيم بخانفو يأمره بالبحث ومساءلة التجار عما يدعيه الرجل من قرابة نبي العرب صلى الله عليه وسلم، فكتب صاحب خانفو بصحة نسبه فأذن له ووصله بمال واسع عاد به إلى العراق، وكان شيخاً فهماً، فأخبرنا: أنه لما وصل إليه

(1) انظر هذه القصة بتوسع في مروج الذهب 1 : 142.

وسأله عن العرب، وكيف أزالوا ملك العجم. فقال له بالله جل ذكره وبما كانت العجم عليه من عبادة النيران والسجود للشمس وللقمر من دون الله، فقال له: لقد غلبت العرب على أجلِّ الممالك وأوسعها ريفاً وأكثرها أموالاً وأعقلها رجالاً وأبعدها صوتاً، ثم قال له: فما منزلة سائر الملوك عندكم فقال ما لي بهم علم، فقال للترجمان قل له إنا نعد الملوك خمسة فأوسعهم ملكاً الذي يملك العراق لأنه في وسط الدنيا، والملوك محدقة به، ونجد اسمه عندنا ملك الملوك وبعده ملكنا هذا ونجده عندنا ملك الناس لأنه لا أحد من الملوك أسوس ولا أضبط لملكة من ضبطنا لملكنا، ولا رعية من الرعايا أطوع لملوكها من رعيتنا، فنحن ملوك الناس، ومن بعدنا ملك السباع هو ملك الترك الذي يلينا، وبعدهم ملك الفيلة وهو ملك الهند، ونجد عندنا ملك الحكمة لأن أصلها منهم، وبعده ملك الروم، وهو عندنا ملك الرجال، لأنه ليس في الأرض أتم خلقاً من رجاله ولا أحسن وجوهاً، فهؤلاء أعيان الملوك، والباقون دونهم.

ثم قال للترجمان قل له أتعرف صاحبك أن رأيته يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت وكيف لي برؤيته وهو عند الله جل وعز، فقال: لم أرد هذا إنما أردت صورته، فقال أجل فأمر بسفط فأخرج فوضع بين يديه فتناول منه درجا، وقال للترجمان: أره صاحبه فرأيت في الدرج صور الأنبياء فحركت شفتي بالصلاة عليهم، ولم يكن عنده أني أعرفهم، فقال للترجمان: سله عن تحريك شفته، فسألني، فقلت: أصلي على الأنبياء، فقال من أين عرفتهم، فقلت مما صور من أمرهم، هذا نوح في السفينة ينجوا بمن معه لما أمر الله جل ذكره الماء فغمر الأرض كلها بمن فيها وسلمه ومن معه، فضحك وقال: أما نوح فقد صدقت في تسميته، وأما غرق الأرض كلها فلا نعرفه وإنما أخذ الطوفان قطعة من الأرض ولم يصل إلى أرضنا ولا أرض الهند، قال ابن وهب: فتهيبت الرد عليه وإقامة الحجة لعلمي بدفعه ذلك، ثم قلت: هذا موسى وعصاه وبنو إسرائيل، فقال: نعم على قلة البلد الذي كان به وفساد قومه عليه، فقلت: وهذا عيسى على حمار والحواريون معه، فقال: لقد كان قصير المدة إنما كان أمره يزيد على ثلاثين شهراً شيئاً يسيراً وعدد من أمر سائر الأنبياء ما اقتصرنا على

ذكر بعضه، وزعم أنه رأى فوق كل صورة لنبي كتابة طويلة قدر أن فيها ذكر أسماءهم ومواقع بلدانهم وأسباب نبؤاتهم، ثم قال: رأيت صورة النبي صلى الله عليه وسلم على جمل وأصحابه محدقون به على إبلهم في أرجلهم نعال عربية وفي أوساطهم مساويك مشدودة، فبكيت، فقال للترجمان: سله من بكائه فقلت هذا نبينا وسيدنا وابن عمي عليه السلام، فقال: صدقت لقد ملك هو وقومه أجل الممالك إلاّ انه لم يعاين ما ملك وإنما عاينه من بعده، ورأيت صور أنبياء ذوى عدد كثير، منهم من قد أشار بيده اليمنى وجمع بين الإبهام والسبابة كأنه يومئ في إشارته إلى الحق، ومنهم قائم على رجله مشير بأصابعه إلى السماء، وغير ذلك، زعم الترجمان أنهم من أنبيائهم وأنبياء الهند، ثم سألني عن الخلفاء وزيهم وكثير من الشرائع ووجوهها على قدر ما أعلم منها، ثم قال: كم عمر الدنيا عندكم، فقلت قد اختلف فيه فبعض يقول: ستة آلاف سنة وبعض يقول دونها، وبعض يقول أكثر منها إلا بيسير، فضحك ضحكاً كثيراً ووزيره أيضاً واقف دلّ على إنكاره ذلك، وقال: ما أحسب نبيكم قال هذا، فزللت وقلت: بلى هو قال ذلك، فرأيت الإنكار في وجهه، ثم قال للترجمان: قل له ميز كلامك فإن الملوك لا تكلّم إلاّ عن تحصيل، أما ما زعمت أنكم تختلفون في ذلك فإنكم إنما اختلفتم في قول نبيكم، وما قالته الأنبياء لا يجب أن يختلف فيه بل هو مسلم فاحذر هذا وشبهه أن تحكيه، وذكر أشياء كثيرة قد ذهبت عني لطول العهد، ثم قال لي: لم عدلت عن ملكك وهو أقرب إليك منا داراً ونسباً، فقلت: بما حدث على البصرة ووقوعي إلى سيراف ونظري إلى مركب ينفذ إلى الصين وما بلغني من جلال ملك الصين وكثرة الخير به فأحببت الوقوع إلى تلك الناحية ومشاهدتها، وأنا راجع عنها إلى بلادي وملك ابن عمي ومخبر بما شاهدت من جلال هذا الملك وسعة هذه البلاد، وسأقول بكل حسن وأثني بكل جميل، فسرّه ذلك وأمر لي بالجائزة السنية، وبحملي على بغال البريد إلى مدينة خانفو، وكتب إلى ملكها بإكرامي وتقديمي على جميع من في ناحيته من سائر الملوك، وإقامة النُزُل لي إلى وقت خروجي، فكنت في أخصب عيش وأنعمه، إلى أن خرجت من بلاد الصين.

[مدينة خمدان ومقر الملك]

فسألناه عن مدينة خمدان التي بها الملك وصفتها، فذكر سعة البلد وكثرة أهله وأنه مقسوم على قسمين يفصل بينهما شارع طويل عريض، فالملك ووزيره وجنوده وقاضي القضاة وخصيان الملك وجميع أسبابه في الشق الأيمن منه، وما يلي المشرق لا يخالطهم أحد من العامة ولا فيه شيء من الأسواق بأنهار في سككهم مطّردة، وأشجار عليها منتظمة ومنازل فسيحة.

وفي الشق الأيسر مما يلي المغرب: الرعية والتجار والميرة والأسواق، وإذا وضح النهار رأيت قهارمة[1] الملك وأسبابه وغلمان داره، وغلمان القواد ووكلائهم من بين راكب وراجل قد دخلوا إلى الشق الذي فيه الأسواق والتجار فأخذوا وظائفهم وحوائجهم، ثم انصرفوا فلم يعد أحد منهم إلى هذا الشق إلاّ في اليوم الثاني[2].

وأن بهذا البلد من كل نزهة وغيضة حسنة وأنهار مطردة إلاّ النخل فأنه معدوم.

[اتصال بحر الصين والهند ببحر الشام[3]]

ومما حدث في زماننا هذا ولم يعرفه من تقدمنا أنه لم يكن أحد يقدّر أن البحر الذي عليه بحر الصين والهند يتصل ببحر الشام= البحر المتوسط ولا يقوم في أنفسهم

---

(1) القهارمة: جمع قهرمان، الوكيل، لفظه فارسية معناها الآمر وصاحب الحكم.
(2) قارن مع مروج الذهب 1: 145.
(3) أنظر هذا الكلام بنصه في مروج الذهب 1:147.يقصد هنا البحر المتوسط.

حتى كان في عصرنا هذا، فإنه بلغنا أنه وجد في بحر الروم خشب مراكب العرب المخروزة التي قد تكسرت بأهلها فقطعها الموج وساقتها الرياح بأمواج البحر فقذفته إلى بحر الخزر، ثم جرى في خليج الروم ونفذ منه إلى بحر الروم والشام، فدل هذا أن البحر يدور على بلاد الصين والسيلا[1] وظهر بلاد الترك والخزر، ثم يصب في الخليج ويفضي إلى بلاد الشام، وذلك أن الخشب[2] المخروز لا يكون إلاّ لمراكب سيراف خاصة، ومراكب الشام، والروم مسمورة غير مخروزة.

وبلغنا أيضاً أنه وجد في بحر الشام عنبر وهذا من المستنكر ولم يعرف في قدم الدهور، ولا يجوز إن كان ما قيل حقاً أن يكون العنبر وقع إلى بحر الشام إلاّ من بحر عدن والقلزم =البحر الأحمر، وهو البحر الذي يتصل بالبحار التي يكون فيها العنبر لأن الله جل ذكره قد جعل بين البحرين حاجزاً، بل هو إن كان صحيحاً مما يقذفه بحر الهند إلى سائر البحار واحداً بعد واحد حتى يفضي به إلى بحر الشام.................

رجع إلى أخبار الصين وذكر بعض أمورهم

كان أهل الصين من شدة التفقد لأمرهم في قديم أيامهم وقبل تغيره في هذا الوقت على حالةٍ لم يسمع بمثلها.

(1) يُعتقد أنها الجزيرة الكورية.
(2) الخشب المخروزة: هي السفن التي تخاط وتخرز بالحبال.

[خبر التاجر الخراساني مع خصي الملك]

وقد كان رجل من أهل خراسان[1] ورد العراق فابتاع متاعاً كثيراً وخرج إلى بلاد الصين، وكان فيه بخل وشح شديد، فجرى بينه وبين خصي للملك كان أنفذه إلى خانفو وهي المدينة التي تقصدها تجار العرب لأخذ ما يحتاج إليه مما يرد في المراكب ـ وكان هذا الخصي من أجلّ خدم الملك وإليه خزائنه وأمواله ـ مشاجرة في أمتعة العاج وغيره، امتنع عن بيعها حتى شرق الأمر بينهما، وحمل الخصي نفسه على انتزاع خيار الأمتعة التي كانت معه واستهان بأمره، فشخص مستخفياً حتى ورد خمدان، وهو بلد الملك الكبير في مقدار شهرين من الزمان وأكثر، فخرج إلى السلسلة التي وصفت في الكتاب، وسبيل من حركها على الملك الكبير أن يباعد إلى مسيرة عشرة أيام على سبيل النفي، ويؤمر بحبسه هناك شهرين، ثم يخرجه ملك تلك الناحية، ويقول: إنك تعرضت لما فيه بوارك وسفك دمك إن كنت كاذباً، وإذ كان الملك قد قرب لك ولأمثالك من وزرائه وملوكه من لا يعوزك الانتصاف بهم، واعلم أنك متى وصلت إلى الملك فلم يكن ما تظلمت منه مما يجب في مثله الوصول إليه، فليس دون دمك شيء لئلا يقدم على ما أقدمت كل من يهم بمثله، فاستقل نقلك وامض لشأنك، فإن

استقال ضربه خمسين خشبة ونفي إلى البلاد التي منها قصد، وإن أقام على تظلمه وصل ففُعل ذلك بالخراساني، فأقام على ظلامته والتمس الوصول، فبعث به ووصل إلى الملك، فسأله الترجمان عن أمره، فأخبره بما جرى عليه من الخادم وانتزاعه من يده ما انتزع.

---

[1] قارن مع المسعودي، في مروج الذهب 1 : 14.

وكان الأمر فيه قد شاع بخانفو وذاع، فأمر الملك بحبس الخراساني وإزاحة علته في مطعمه ومشربه، وتقدم إلى وزيره في الكتاب إلى العمال بخانفو بالفحص عما ادعاه الخراساني وكشفه والصدق عنه، وأمر صاحب الميمنة والميسرة وصاحب

القلب بمثله، وهؤلاء الثلاثة عليهم يدور بعد الوزير أمر جيوشه ويثق بهم على نفسه، وإذا ركب بهم بحرب أو غيره كان كل واحد منهم في مرتبته، فكتب كل واحد منهم وقد كشف عن الأمر بما وقف به على صحة الدعوى من الخراساني، فتتابعت به الأخبار عند الملك من كل جهة، فأشخص الخصي فلما ورد قبض أمواله ونزع خزائنه من يده، وقال له كان حقك القتل إذا عرضتني لرجل قد سلك من خراسان، وهي على حد مملكتي، وصار إلى بلاد العرب، ومنها إلى ممالك الهند، ثم إلى بلدي طلباً للفضل، فأردت أن يعود مجتازاً بهذه الممالك ومن فيها فيقول: إني ظُلمت ببلاد

الصين وغُصب مالي، لكنني أتجافى عن دمك لقديم حرمتك وأوليك تدبير الموتى إذ عجزت عن تدبير الأحياء، وأمر به فجعله في مقابر الملوك يحرسها ويقوم بها.

[ذكر من يتولى القضاء واختبارهم لأمره]

ومن عجيب تدبيرهم في قديم الأيام دون هذا الوقت أمر الأحكام وجلالها في صدورهم، واختيارهم لها من لا يخالج قلوبهم الشك في علمه بشرائعهم وصدق لهجته وقيامه بالحق في كل أحواله، وتجنبه الإغماض عمن جل مقداره حتى يقع الحق موقعه، ويكون عفيفاً عن أموال أهل الضعف وما يجري على يده، فإذا عزموا على تقليد قاضي القضاة أنفذوه قبل تقليده إلى جميع البلدان التي هي أعمدة بلادهم، حتى يقيم في كل بلد شهراً أو شهرين فيبحث عن أمر أهله وأخبارهم ورسومهم، ومن يجب قبول قوله منهم معرفةً يستغني بها عن المسألة، فإذا سلك به هذه الأمصار، ولم يبق في المملكة بلد جليل إلا وطيه، رحل إلى دار المملكة وولي قضاء القضاة وجعل إليه اختيارهم، فيليهم، وعلمه بجميع المملكة ومن يجب أن يقلد في كل بلد من أهله أو

غيرهم. علم من يستغنى بعلمه عن الرجوع إلى من لعله أن يميل فيه أو يقول بغير الحق فيما يسأل عنه، ولا يتهيأ لأحد من قضاته أن يكاتبه بشيء قد علم خلافه أو يزيله عن وجهته، ولقاضي القضاة منادٍ في كل يوم ينادي على بابه يقول: هل من متظلم على الملك المستور عن عيون رعيته، أم من أحدٍ من أسبابه وقواده وسائر رعيته فإني أنوب في ذلك كله عنه لما بسط به يدي وقلدني، يقول ذلك ثلثاً، لأن الملك في عقدهم أن الملك لا يزول عن موضعه حتى تنفذ الكتب من دواوين الملوك بالجور المصرح، وأن يهمل أمر الحكم والحكام، وأنه متى تحفظ من هذين الأمرين، فلم تنفذ الكتب من الدواوين إلاّ بالعدل، ولم يلِ الحكم إلاّ من يقوم بالحق فالملك منتظم.

.... وقد رأينا ممن دخل الصين ذكر: أنه رأى رجلاً حمل على ظهره مسكاً في زقّ وورد من سمرقند راجلاً يقطع بلداً بلداً من مدن الصين حتى صار إلى خانفو وهو مجتمع التجار القاصدين من سيراف.

[ذكر استخراج المسك]

وذلك أن الأرض التي بها ظباء المسك الصينيّ والتبت أرض واحدة لا فرق بينهما، فأهل الصين يجتذبون ما قرب منهم من الظباء وأهل التبت ما قرب منهم وإنما فضل المسك التبتي على الصيني بحالتين:

احديهما أن ظبي المسك يكون في حد التبت رعيه من سنبل الطيب، وما يلي أرض الصين منها رعيه سائر الحشائش.

والحالة الأخرى: ترك أهل التبت النوافج في حالها وغشّ أهل الصين لما وقع إليهم منها، وسلوكهم أيضا في البحر وما يلحقهم من الإيذاء فإذا ترك أهل الصين المسك في نوافجه وأودعت البراني، واستوثق منها وورد أرض العرب كالتبتي في جودته، وأجود المسك كله ما حكّه الظبي على أحجار الجبال إذ كان مادة تصير في سرّته ويجتمع دماً عبيطاً كاجتماع الدم فيما يعرض من الدمامل، فإذا أدرك حكه

وأضجره فيفرع إلى الحجارة حتى يخرقه فيسيل ما فيه، فإذا خرج عنه جف واندمل وعادت المادة تجتمع فيه من ذي قبل.

وللتبت رجال يخرجون في طلب هذا، ولهم به معرفة فإذا وجدوه التقطوه وجمعوه وأودعوه النوافج وحمل إلى ملوكهم، وهو نهاية المسك إذ كان قد أدرك في نوافجه على حيوانه، وصار له فضل على غيره من المسك كفضل ما يدرك من الثمار في شجرة على سائر ما ينزع منه قبل إدراكه، وغير هذا من المسك فإنما يصاد بالشرك المنصوب أو السهام، وربما قطعت النوافج عن الظبي قبل إدراك المسك فيها، وعلى أنه إذا قطع عن ظبائه كان كريه الرائحة مدة من المدد حتى يجف على الأيام الطويلة، وكلما جف استحال حتى يصير مسكاً، وظبي المسك كسائر الظباء عندنا في القد واللون، ودقة القوام، وافتراق الأظلاف، وانتصاب القرون، وانعطافها، ولها نابان دقيقان أبيضان في الفكين قائمان في وجه الظبي، طول كل واحد منهما مقدار فتر، ودونه على هيئة ناب الفيل، فهو الفرق بينها وبين سائر الظباء.

ومكاتبات ملوك الصين للملوك أمصارهم وخصيانهم على بغال البريد مجهزة الأذناب على سبيل بغال البريد عندنا على سكك معروفة.

وأهل الصين مهما وصفناهم من أمرهم يبولون من قيام، وكذلك سائر رعيتهم من أهل بلادهم، فأما الملوك والقواد والوجوه فلهم أنابيب من خشب مدهونة طول كل خشبة منها ذراع، وفي الطرفين ثقبتان تتسع العليا للحشفة فيقف على رجله إذا أراد البول ويباعدها عن نفسه ويبول فيها، ويزعمون أن ذلك أصح لأجسامهم، وأن سائر ما يعتري من وجع المثانة والبول من الاستحجار[1] فيها، إنما هو من الجلوس للبول، وأن المثانة لا تصفوا بما فيها إلاّ مع القيام لذلك.

---

[1] الاستحجار: فعل من الحجر وهو الحجر أي حصى المثانة الذي يترسب فيها.

والسبب في تركهم الشعور على رؤوسهم أعني الرجال امتناعهم من تدوير رأس المولود وتقويه كما يستعمل العرب، وقولهم أن ذاك مما يُزيل الدماغ عن حاله التي خلق عليها، وأنه يفسد الحاسة المعروفة، فرؤوسهم مضطربة يسترها الشعر ويعفّى عليها.

فأما المناكح ببلاد الصين وهم شعوب وقبائل كشعوب بني إسرائيل والعرب وبطونها يتعارفون ذاك بينهم، ولا يزوج أحد منهم قريباً ولا ذا نسب ويتجاوزون ذلك حتى لا تتزوج القبيلة في قبيلتها، مثال ذلك أن بني تميم لا تتزوج في تميم، وربيعة لا تتزوج في ربيعة وإنما تتزوج ربيعة في مضر، ومضر في وبيعة، ويدعون أن ذلك أنجب للولد.

بعض أخبار الهند

في مملكة بلهرا وغيره من ملوك الهند من يحرق نفسه بالنار، وذلك لقولهم بالتناسخ وتمكنه في قلوبهم، وزوال الشك فيه عنهم.

[ذكر إحراق أهل الهند لأنفسهم]

وفي ملوكهم من إذا قعد للملك طُبخ له أرز ثم وضع بين يديه على ورق الموز، وينتدب من أصحابه الثلاثمائة والأربعمائة باختيارهم لأنفسهم لا بإكراه من الملك لهم، فيعطيهم الملك من ذلك الأرز بعد أن يأكل منه، ويتقرب رجل رجل منهم فيأخذ منه شيئاً يسيراً فيأكله، فيلزم كل من أكل من هذا الأرز إذا مات الملك أو قتل أن يحرقوا أنفسهم بالنار عن آخرهم في اليوم الذي مات فيه لا يتأخرون عنه حتى لا يبقى منهم عين ولا أثر.

وإذا عزم الرجل على إحراق نفسه صار إلى باب الملك فاستأذن، ثم دار في الأسواق وقد أُججت له النار في حطب جزل كثير عليها رجال يقومون بإيقادها حتى تصير كالعقيق حرارة والتهاباً، ثم يعدوا، وبين يديه الصنوج دائراً في الأسواق، وقد احتوشه أهله وقرابته، وبعضهم يضع على رأسه إكليلاً من الريحان يملؤه جمراً، ويصب عليه السندروس[1]، وهو مع النار كالنفط، ويمشي وهامته تحترق وروائح لحم رأسه تفوح، وهو لا يتعثر في مشيته، ولا يظهر منه جزع، حتى يأتي النار فيثب فيها فيصير رمادا.

فذكر بعض من حضر رجلاً منهم يريد دخول النار، أنه لما أشرف عليها أخذ الخنجر فوضعه على رأس فؤاده فشقه بيده إلى عانته، ثم أدخل يده اليسرى فقبض على كبده، فجذب منها ما تهيأ له، وهو يتكلم ثم قطع بالخنجر منها قطعة فدفعها إلى أخيه استهانة بالموت وصبراً على الألم، ثم زج بنفسه في النار إلى لعنة الله[2].

.... ولقد أخبرنا بهذا من لا نتهمه وهو اليوم متعارف إذ كانت هذه البلاد من الهند تقرب من بلاد العرب، وأخبارها متصلة بهم في كل وقت، ومن شأنهم إذا أخذت السن من رجالهم ونسائهم وضعفت حواسهم، أن يطالب من صار في هذه الحال منهم أهله بطرحه في النار أو تغريقه في الماء ثقة منهم بالرجعة، وسبيل موتاهم الإحراق.

.............والجوهر الأحمر والأخضر والأصفر مخرجه من جبل سرنديب وهي جزيرة وأكثر ما يظهر لهم في وقت المدود[3] يدحرجه الماء عليهم من كهوف ومغارات ومسائل مياه لهم عليها أرصاد للملك، وربما استنبطوه أيضاً كما تستنبط المعادن فيخرج الجوهر ملصقاً بالحجارة فيكسر عنه.

---

(1) السندروس: حجر صمغي شفاف الجسم كالكهرباء "انظر نخبة الدهر: 181.

(2) انظر ما ورد في رحلة ابن بطوطة.

(3) جمع مد الذي يقابل الجزر.

[ذكر عباد الهند وشعرائها وفلاسفتها]

وللهند عباد وأهل علم يعرفون بالبراهمة وشعراء يغشون الملوك، ومنجمون وفلاسفة وكهان، وأهل زجر للغربان وغيرها، وبها سحرة وقوم يظهرون التخاييل ويبدعون فيها، وذلك بقنوج[1] خاصة، وهو بلد عظيم في مملكة الجوز.

[ذكر البيكرجيين]

وبالهند قوم يعرفون بالبيكرجيين عراة قد غطت شعورهم أبدانهم وفروجهم، وأظفار مستطيلة كالحراب إذ كانت لا تقص إلاّ ما ينكسر منها، وهم على سبيل سياحة، وفي عنق كل رجل منهم خيط فيه جمجمة من جماجم الأنس، فإذا اشتد به الجوع وقف بباب بعض الهنود فأسرعوا إليه بالأرز المطبوخ مستبشرين به فيأكل في تلك الجمجمة، فإذا أشبع انصرف فلا يعود لطلب الطعام إلاّ في وقت حاجته.

[ذكر البد]

وللهند ضروب من الشرائع يتقربون بها فيما زعموا إلى خالقهم جل الله وعز عما يقول الظالمون علواً كبيراً، منها: أن الرجل يبتني في طرقهم الخان للسابلة ويقيم فيه

---

(1) قنوج: موضع بالهند وهو بفتح أوله وتشديد ثانيه (معجم البلدان لياقوت 4:)2409. استولى عليها محمود الغزنوي في القرن الحادي عشر الميلادي، هي بين ذراعي نهر الغانج.

بقالاً يبتاع المجتازون منه حاجتهم، ويقيم في الخان فاجرة من نساء الهند يجريء عليها لينال منها المجتازون، وذاك عندهم مما يثابون عليه، وبالهند قحاب يعرفون بقحاب البد، والسبب فيه أن المرآة إذا نذرت نذراً وولد لها جارية جميلة أتت بها إلى البد وهو الصنم الذي يعبدونه، فجعلتها له ثم اتخذت لها في السوق بيتاً وعلقت عليه ستراً وأقعدتها على كرسي ليجتاز بها أهل الهند وغيرهم من سائر الملل ممن يتجاوز في دينه، فتمكن من نفسها بأجرة معلومة وكلما اجتمع لها شيء من ذلك دفعته إلى سدنة الصنم ليصرف في عمارة الهيكل، والله جل وعز نحمده على ما اختار لنا وطهرنا من ذنوب الكفرة به.

[ذكر الصنم مولتان]

فأما الصنم المعروف بالمولتان وهو قريب المنصورة، فإنه يُقصد من مسيرة أشهر كثيرة ويحمل الرجل منهم العود الهندي القامروني، وقامرون بلد يكون فيه فاخر العود حتى يأتي به إلى هذا الصنم فيدفعه إلى السدنة لبخور الصنم، ومن هذا العود ما قيمة المنا منه مائتي دينار، وربما ختم عليه فانطبع الخاتم فيه للدونته[1] فالتجار يبتاعونه من هؤلاء السدنة.

[ذكر النرجيل وما يتخذ منه]

وبالهند عباد في شرائعهم يقصدون إلى الجزائر التي تحدث في البحر فيغرسون بها النارجيل ويستنبطون بها المياه للأجر وإن يجتاز بها المراكب فتنال منها.

وبعمان من يقصد إلى هذه الجزائر التي فيها النارجيل ومعهم آلات النجار وغيرها، فيقطعون من خشب النارجيل ما أرادوا.......

(1) الذنبية: هم سمر وهم أصحاب اللهو والمعازف واللعب، ذكرهم ضمن طبقات الهند "انظر المسالك والممالك" لابن خرداذبه.

ب

رحلة أبي دلف مسعر بن مهلهل

300هـ 913م ـ 390هـ 1001م

إلى بلاد الصين والهند

ياقوت الحموي، 625هـ ـ 1229م

معجم إلبلدان

قال ياقوت الحموي: قرأت في كتاب عتيق ما صورته: كتب إلينا أبو دلف مسعر بن مهلهل في ذكر ما شاهده ورآه في بلاد الترك والصين والهند قال: ....

ثم انتهينا إلى مقام الباب، وهو بلد في الرمل تكون فيه حجبة الملك، وهو ملك الصين، ومنه يستأذن لمن يريد دخول بلد الصين من قبائل الترك وغيرهم، فسرنا فيه ثلاثة أيام في ضيافة الملك يغير لنا عند رأس كل فرسخ مركوب.

ثم انتهينا إلى وادي المقام فاستؤذن لنا منه وتقدمنا الرسل فأذن لنا بعد أن أقمنا بهذا الوادي، وهو أنزه بلاد الله وأحسنها، ثلاثة أيام في ضيافة الملك، ثم عبرنا الوادي وسرنا يوماً تاماً فأشرفنا على مدينة سندابل، وهي قصبة الصين وبها دار المملكة، فبتنا على مرحلة منها، ثم سرنا من الغد طول نهارنا حتى وصلنا إليها عند المغرب، وهي مدينة عظيمة تكون مسيرة يوم ولها ستون شارعاً ينفذ كل شارع منها إلى دار الملك، ثم سرنا إلى باب من أبوابها فوجدنا ارتفاع سورها تسعين ذراعاً وعرضه تسعين ذراعاً، وعلى رأس السور نهر عظيم يتفرق على ستين جزءاً كل جزء منها ينزل على باب من الأبواب، تتلقاه رحى تصبه إلى ما دونها، ثم إلى غيرها حتى يصب في الأرض، ثم يخرج نصفه تحت السور فيسقي البساتين ويرجع نصفه إلى المدينة، فيسقي أهل ذلك الشارع إلى دار الملك، ثم يخرج في الشارع الآخر إلى خارج البلد. فكل شارع فيه نهران وكل خلاء فيه مجريان كل واحد يخالف صاحبه، فالداخل يسقيهم والخارج يخرج بفضلاتهم، ولهم بيت عبادة عظيم، ولهم سياسة عظيمة وأحكام متقنة، وبيت عبادتهم يقال إنه أعظم من مسجد بيت المقدس وفيه تماثيل وتصاوير وأصنام وبد عظيم، وأهل البلد لا يذبحون ولا يأكلون اللحوم أصلاً، ومن قتل منهم شيئاً من الحيوان قُتل، وهي دار مملكة الهند والترك معاً، ودخلت على ملكهم فوجدته فائقاً في فنه كاملاً في رأيه فخاطبه الرسل بما جاؤوا به من تزويجه ابنته من نوح بن نصر فأجابهم إلى ذلك وأحسن إلي، وإلى الرسل، وأقمنا في ضيافته حتى نجزت أمور المرأة، وتم ما

جهزها به ثم سلمها إلى مائتي خادم وثلاثمائة جارية من خواص خدمه وجواريه وحملت إلى خراسان إلى نوح بن نصر فتزوج بها........

...... وخرجت من كابل إلى سواحل البحر الهندي متياسراً، فسرت إلى بلد يعرف بمندورقين منابت غياض القنا وشجر الصندل ومنه يحمل الطباشير، وذلك أن القنا إذا جف وهبت عليه الريح احتك بعضه ببعض، واشتدت فيه الحرارة للحركة فانقدحت منه نار فربما أحرقت منها مسافة خمسين فرسخاً أو أكثر من ذلك فالطباشير الذي يحمل إلى سائر الدنيا من ذلك القنا، فأما الطباشير الجيد الذي يساوي مثقاله مائة مثقال أو أكثر فهو شيء يخرج من جوف القنا إذا هز، وهو عزيز جداً، وما يفجر من منابت الطباشير حمل إلى سائر البلاد وبيع على أنه توتيا الهند، وليس كذلك لأن التوتيا الهندي هو دخان الرصاص القلعي، ومقدار ما يرتفع منه كل سنة ثلاثة أمنان أو أربعة أمنان ولا يتجاوز الخمسة، ويباع المن منه بخمسة آلاف درهم إلى ألف دينار.

وخرجت منها إلى مدينة يقال لها كولَم، لأهلها بيت عبادة وليس فيه صنم وفيها منابت الساج والبقم، وهو صنفان وهذا دونٌ والامرون هو الغاية، وشجر الساج مفرط العظم والطول ربما جاوز مائة ذراع وأكثر، والخيزران والقنا بها كثير جداً، وبها شيء من السنْدَروس قليل غير جيد والجيد منه بالصين، وهو من عرعر ينبت على باب مدينتها الشرقي، والسندروس شبه الكهربائية وأحلّها وفيها مغناطيس يجذب كل شيء إذا أحمي بالدلك، وعندهم الحجارة التي تعرف بالسندانية يعمل بها السقوف، وأساطين بيوتهم من خرز أصلاب السمك الميت ولا يأكلونه، ولا يذبحون، وأكثرهم يأكل الميتة، وأهلها يختارون للصين ملكاً إذا مات ملكهم. وليس في الهند طب إلاّ في هذه المدينة، وبها تعمل غضائر تباع في بلداننا على أنه صيني وليس هو صيني لأن طين الصين أصلب منه وأصبر على النار وطين هذه المدينة الذي يعمل منه الغضائر المشبه بالصيني يخمر ثلاثة أيام لا يحتمل أكثر منها وطين الصين يخمر عشرة أيام ويحتمل أكثر منها، وخزف غضائرها أدكن اللون وما كان من الصين أبيض وغيره من الألوان شفافاً وغير شفاف فهو معمول في بلاد فارس من الحصى والكلس القلعي والزجاج يعجن

على البوائن وينفخ ويعمل بالماسك كما ينفخ الزجاج مثل الجامات وغيرها من الأواني...

وسرت من مدن السواحل إلى الملتان، وهي آخر مدن الهند مما يلي الصين وأولها مما يلينا وتلي أرض السند، وهي مدينة عظيمة جليلة القدر عند أهل الهند والصين لأنها بيت حجهم ودار عبادتهم مثل مكة عند المسلمين، وبيت المقدس عند اليهود والنصارى، وبها القبة العظمى والبد الأكبر، وهذه القبة سمكها في السماء ثلاثمائة ذراع وطول الصنم في جوفها مائة ذراع، وبين رأسه وبين القبة مائة ذراع، وبين رجليه وبين الأرض مائة ذراع، وهو معلق من جوفها لا بقائمة من أسفله يدعم عليها ولا بعلاقة من أعلاه تمسكه؛ قلت: هذا هو الكذب الصراح لأن هذا الصنم ذكره المدائني في فتوح الهند والسند، وذكر أن طوله عشرون ذراعاً، قال أبو دلف: البلد في يد يحيى بن محمد الأموي هو صاحب المنصورة أيضاً، والسند كله في يده، والدولة بالملتان للمسلمين ومُلاك عقرها ولد عمر بن علي بن أبي طالب، والمسجد الجامع مصاقب لهذه القبة، والإسلام بها ظاهر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بها شامل؛ وخرجت منها إلى المنصورة، وهي قصبة السند، والخليفة الأموي مقيم بها يخطب لنفسه ويقيم الحدود ويملك السند كله بره وبحره، ومنها إلى البحر خمسون فرسخاً، وبساحلها مدينة الديبل، وخرجت من المنصورة إلى بغانين، وهو بلد واسع يؤدي أهله الخراج إلى الأموي وإلى صاحب بيت الذهب، وهو بيت من ذهب في صحراء تكون أربعة فراسخ ولا يقع عليها الثلج ويثلج ما حولها، وفي هذا البيت رصد الكواكب، وهو بيت تعظمه الهند والمجوس....

ج

ـ رحلة سلاّم الترجمان

إلى بلاد يأجوج و مأجوج

ابن خرداذبه

المسالك و الممالك

أبو القاسم عبد الله بن عبد الله 300هـ

مكتبة المثنى. بغداد بدون مكان وتاريخ

صفة سد ياجوج و ماجوج

فحدثني سلاّم الترجمان أن الواثق بالله لما رأى في منامه كأن السد الذي بناه ذو القرنين بيننا وبين ياجوج وماجوج قد انفتح فطلب رجلا يخرجه إلى الموضع فيستخبر خبره فقال أشناس ما هاهنا أحد يصلح إلاّ سلاّم الترجمان وكان يتكلم بثلثين لسانا، قال فدعا بي الواثق وقال: أريد أن يخرج إلى السد حتى تعاينه وتجيئني بخبره وضم إلي خمسين رجلا شباب أقوياء ووصلني بخمسة آلاف دينار وأعطاني ديتي عشرة آلاف درهم وأمر فأعطي كل رجل من الخمسين ألف درهم ورزق سنة وأمر أن يهيأ للرجال اللبابيد وتغشى بالأديم واستعمل لهم اللستبانات بالفراء والركب الخشب وأعطاني مائتي بغل لحمل الزاد والماء فشخصنا من سرّ من رأى بكتاب من الواثق بالله إلى إسحاق بن إسماعيل صاحب أرمينية وهو بتفليس في إنفاذنا وكتب لنا إسحاق إلى صاحب السرير وكتب لنا صاحب السرير إلى ملك اللاّن و كتب لنا ملك اللاّن إلى فيلان شاه وكتب لنا فيلان شاه إلى طرخان ملك الخزر فأقمنا عند ملك الخزر يوماً وليلة حتى وجه معنا خمسة أدلاء فسرنا من عنده ستة وعشرين يوماً فانتهينا إلى أرض سوداء منتنة الرائحة و كنا قد تزودنا قبل دخولها خلاً نشمه من الرائحة المنكرة فسرنا فيها عشرة أيام، ثم صرنا إلى مدن خراب فسرنا فيها عشرين يوماً فسألنا عن حال تلك المدن فخُبرنا أنها المدن التي كان ياجوج وماجوج يتطرقونها فخربوها، ثم صرنا إلى حصون بالقرب من الجبل الذي فيه شعبة منه السد وفي تلك الحصون قوم يتكلمون بالعربية والفارسية مسلمون يقرؤون القرآن لهم كتاتيب ومساجد فسألونا من أين أقبلنا فأخبرناهم أنّا رسل أمير المؤمنين فأقبلوا يتعجبون و يقولون أمير المؤمنين فنقول نعم فقالوا شيخ هو أم شاب فقلنا شاب فعجبوا أيضاً فقالوا أين يكون فقلنا بالعراق في مدينة يقال لها سرّ من رأى فقالوا ما سمعنا بهذا قط.

وبين كل حصن من تلك الحصون إلى الحصن الآخر فرسخ إلى فرسخين أقل وأكثر، ثم صرنا إلى مدينة يقال لها أيكة تربيعها عشرة فراسخ ولها أبواب حديد يرسل الأبواب من فوقها وفيها مزارع وأرحاء داخل المدينة وهي التي كان ينزلها ذو القرنين بعسكره بينها وبين السد مسيرة ثلاثة أيام وبينها وبين السد حصون وقرى حتى تصير إلى السد في اليوم الثالث وهو جبل مستدير ذكروا أن ياجوج وماجوج فيه وهما صنفان ذكروا أن ياجوج أطول من ماجوج ويكون طول أحدهم ما بين ذراع إلى ذراع ونصف وأقل وأكثر، ثم صرنا إلى جبل عالي عليه حصن والسد الذي بناه ذو القرنين هو فج بين جبلين عرضه مائتا ذراع وهو الطريق الذي يخرجون منه فيتفرقون في الأرض فحفر أساسه ثلثين ذراعا إلى أسفل وبناه بالحديد والنحاس حتى ساقه إلى وجه الأرض ثم رفع عضادتين مما يلي الجبل من جنبتي الفج عرض كل عضادة خمس وعشرون ذراعا في سمك خمسين ذراعا الظاهر من تحتهما عشر أذرع خارج الباب وكله بناء بلبن من حديد مغيب في نحاس تكون اللبنة ذراعاً ونصفا في ذراع ونصف في سمك أربع أصابع ودروند حديد طرفاه على العضادتين طوله مائة وعشرون ذراعاً قد ركب على العضادتين على كل واحدة بمقدار عشر أذرع في عرض خمس أذرع وفوق الدروند بناء بذلك اللبن الحديد في النحاس إلى رأس الجبل وارتفاعه مد البصر يكون البناء فوق الدروند نحواً من ستين ذراعاً وفوق ذلك شرف حديد في طرف كل شرفة قرنتان تنثني كل واحدة منهما على الأخرى طول كل شرفة خمس أذرع في عرض أربع أذرع وعليه سبع وثلثون شرفة، وإذا باب حديد مصراعين معلقين عرض كل مصراع خمسون ذراعاً في ارتفاع خمس وسبعين ذراعاً في ثخن خمس أذرع وقائمتاهما في دوارة على قدر الدروند لا يدخل من الباب ولا من الجبل ريح كأنه خلق خلقة وعلى الباب قفل طوله سبع أذرع في غلظ باع في الاستدارة والقفل لا يحتضنه رجلان وارتفاع القفل من الأرض خمس وعشرون ذراعا وفوق القفل بقدر خمس أذرع غلق طوله أكثر من طول القفل وقفيزاه كل واحد منهما ذراعان وعلى الغلق مفتاح معلق طوله ذراع ونصف وله اثنتا عشرة دندانكة كل دندانكة في صفة دستج الهواوين واستدارة المفتاح

أربعة أشبار معلق في سلسلة ملحومة بالباب طولها ثماني أذرع في استدارة أربعة أشبار والحلقة التي فيها السلسلة مثل حلقة المنجنيق وعتبة الباب عوضها عشر أذرع في بسط مائة ذراع سوى ما تحت العضادتين والظاهر منها خمس أذرع وهذه الذراع كلها بالذراع السوداء، ومع الباب حصنان يكون كل واحد منهما مائتي ذراع في مائتي ذراع وعلى باب هذين الحصنين شجرتان وبين الحصنين عين عذبة وفي أحد الحصنين آلة البناء التي بني بها السد من القدور الحديد والمغارف الحديد على كل ديكدان أربع قدور مثل قدور الصابون وهناك بقية من اللبن الحديد قد التزق بعضه ببعض من الصدأ.

ورئيس تلك الحصون يركب في كل يوم اثنين وخميس وهم يتوارثون ذلك الباب كما يتوارث الخلفاء الخلافة يجيء راكباً ومعه ثلثة رجال على عنق كل رجل مرزبة ومع الباب درجة فيصعد على أعلى الدرجة فيضرب القفل ضربة في أول النهار فيسمع لهم جلبة مثل كور الزنابير ثم يخمدون فإذا كان عند الظهر ضربه ضربة أخرى ويصغي بأذنه إلى الباب فتكون جلبتهم في الثانية أشد من الأولة ثم يخمدون فإذا كان وقت العصر ضرب ضربة أخرى فيضجون مثل ذلك ثم يقعد إلى مغيب الشمس ثم ينصرف الغرض في قرع القفل أن يسمع من وراء الباب فيعلموا أن هناك حفظة ويعلم هؤلاء أن هاولئك لم يحدثوا في الباب حدثاً، وبالقرب من هذا الموضع حصن كبير يكون عشرة فراسخ في عشرة فراسخ تدميره مائة فرسخ، قال سلاّم فقلت لمن كان بالحضرة من أهل الحصون هل عاب من هذا الباب شيء قط قالوا ما فيه إلا هذا الشق والشق كان بالعرض مثل الخيط دقيق فقلت تخشون عليه شيئا فقالوا لا إن هذا الباب ثخنه خمس أذرع بذراع الإسكندر يكون ذراعاً ونصفاً بالأسود كل ذراع واحدة من ذراع الإسكندر قال فدنوت وأخرجت من خفّي سكينا فحككت موضع الشق فأخرج منه مقدار نصف درهم وأشده في منديل لأريه الواثق بالله، وعلى فرد مصراع الباب الأيمن في أعلاه مكتوب بالحديد باللسان الأول فإذا جاء وعد ربي جعله دكّاء وكان وعد ربي حقاً وننظر إلى البناية وأكثره مخطط ساف أصفر من نحاس وساف أسود من حديد، وفي الجبل محفور الموضع الذي صبّ فيه الأبواب وموضع القدور التي كان يخلط فيها النحاس والموضع

الذي كان يغلي فيه الرصاص والنحاس وقدور شبيهة بالصفر لكل قدر ثلث عُرى فيها السلاسل والكلاليب التي كان يمد بها النحاس إلى فوق السور، وسألنا من هناك هل رأيتم من ياجوج وماجوج أحداً فذكروا أنهم رأوا مرة عدداً فوق الجبل فهبت ريح سوداء فألقتهم إلى جانبهم وكان مقدار الرجل في رأى العين شبراً ونصفاً والجبل من خارج ليس له متن ولا سفح ولا عليه نبات ولا حشيش ولا شجرة ولا غير ذلك وهو جبل مسلنطح قائم أملس أبيض.

فلما انصرفنا أخذ الأدلاء بنا إلى ناحية خراسان.................................

د

رحلة ابن بطوطة

المسماة

تحفة النظار في غرائب الأمصار

وعجائب الأسفار

دار الشروق العربي

بيروت وحلب. بدون تاريخ

وصوله إلى وادي السند ومواصلات الهند[1]

قال الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة رحمه الله تعالى:

ولما كان تاريخ الغرة من شهر المحرم مفتتح عام أربعة وثلاثين وسبعمائة وصلنا إلى وادي السند المعروف ببنج آب، ومعنى ذلك المياه الخمس. وهذا الوادي من أعظم أودية الدنيا، وهو يفيض في أوان الحر، فيزرع أهل تلك البلاد على فيضه، كما يفعل أهل الديار المصرية في فيض النيل. وهذا الوادي هو أول عمالة السلطان المعظم محمد شاه ملك الهند والسند.......

ومدينة دهلي على مسيرة خمسين يوماً. وإذا كتب المخبرون إلى السلطان من بلاد السند يصل الكتاب إليه في خمسة أيام بسبب البريد. والبريد ببلاد الهند صنفان، فأما بريد الخيل فيسمونه الوُلاق أوُلاق بضم الواو وآخره قاف، وهو خيل تكون للسلطان، في كل مسافة أربعة أميال، وأما بريد الرجالة، فيكون في مسافة الميل الواحد منه ثلاث رتب، ويسمونها الداوة بالدال المهمل والواو، والداوة هي ثلث ميل، والميل عندهم يسمى الكُروة بضم الكاف والراء، وترتيب ذلك أن يكون في كل ثلث ميل قرية معمورة، ويكون بخارجها ثلاث قباب يقعد فيها الرجال، مستعدين للحركة، قد شدوا أوساطهم. وعند كل واحد منهم مقرعة مقدار ذراعين، بأعلاها جلاجل نحاس، فإذا خرج البريد من المدينة أخذ الكتاب بأعلى يده والمقرعة ذات الجلاجل باليد الأخرى يشتد بمنتهى جهده.

[1] العناوين مني ـ الكيلاني.

فإذا سمع الرجال الذين بالقباب صوت الجلاجل تأهبوا. فإذا وصلهم. أخذ أحدهم الكتاب من يده ومر بأقصى جهده، وهو يحرك المقرعة حتى يصل إلى الدواة الأخرى. ولا يزالون كذلك حتى يصل الكتاب إلى حيث يراد منه.

وهذا البريد أسرع من بريد الخيل وربما حملوا على هذا البريد الفواكه المستطرفة بالهند من فواكه خراسان يجعلونها في الأطباق، ويشتدون بها حتى تصل إلى السلطان. وكذلك يحملون الكبار من ذوي الرتب، يجعلون الرجل على سرير، ويرفعونه فوق رؤوسهم ويسيرون به شداً. وكذلك يحملون الماء لشرب السلطان، إذا كان بدولة أباد، يحملونه من نهر الكنك الذي تحج الهنود إليه، وهو على مسيرة أربعين يوماً منها......

سلطان الهند محمد شاه

من عادة ملك الهند السلطان أبي المجاهد محمد شاه إكرام الغرباء ومحبتهم وتخصيصهم بالولايات والمراتب الرفيعة. ومعظم خواصه وحجابه ووزرائه وقضاته وأصهاره غرباء. ونفذ أمره بأن يسمى الغرباء في بلده الأعزة. فصار لهم ذلك اسماً وعلماً. ولا بد لكل قادم على هذا الملك من هدية يهديها إليه، ويقدمها وسيلة بين يديه. فيكافئه السلطان عليها بأضعاف مضاعفة.....

الكركدن

ولما أجزنا نهر السند المعروف بنج آب دخلنا غيضة قصب لسلوك الطريق لأنه في وسطها، فخرج علينا الكركدن، وصورته أنه حيوان أسود اللون عظيم الجرم، ورأسه كبير متفاوت الضخامة، ولذلك يضرب به المثل فيقال: الكركدن رأس بلا بدن، وهو دون الفيل ورأسه أكبر من رأس الفيل بأضعاف. وله قرن واحد بين عينيه، طوله نحو

ثلاثين أذرع، وعرضه نحو شبر... ورأيته مرة أخرى ونحن مع ملك الهند، دخلنا غيضة قصب وركب السلطان على الفيل وركبنا معه الفيلة، ودخلت الرجالة والفرسان في فأثاروه وقتلوه واستاقوا رأسه إلى المحلة.

مدينة جَنَاني

وسرنا من نهر السند يومين ووصلنا إلى جناني... مدينة كبيرة على ساحل نهر السند لها أسواق مليحة، وسكانها طائفة يقال لهم السامرة، استوطنوها قديماً واستقر بها أسلافهم حين فتحهًا على أيام الحجاج بن يوسف، حسبما أثبت المؤرخون في فتح السند.

...... وهؤلاء الطائفة المعروفون بالسامرة لا يأكلون مع أحد ولا ينظر إليهم أحد حين يأكلون، ولا يصاهرون أحداً من غيرهم، ولا يصاهر إليهم أحد... ثم سافرنا من مدينة جناني إلى أن وصلنا إلى مدينة سِيوسِتان وهي مدينة كبيرة، وخارجها صحراء ورمال، لا شجر بها إلاّ شجر أم غيلان. ولا يزرع على نهرها شيء، ما عدا البطيخ. وطعامهم الذرة والجلبان ويسمونه المُشنْكِ...، ومنه يصنعون الخبز، وهي كثيرة السمك والألبان الجاموسية. وأهلها يأكلون السقنقور، وهى دويبة شبيهة بأم حُبين التي يسميها المغاربة حنيشة الجنة إلاّ أنها لا ذنب لها. ورأيتهم يحتفرون الرمل ويستخرجونها منه ويشقون بطنها ويرمون بما فيه ويحشونه بالكركم، وهم يسمونه زردشوبة، ومعناه العود الأصفر، وهو عندهم عوض الزعفران. ولما رأيت تلك الدويبة وهم يأكلونها استقذرتها فلم آكلها.......

...... وسافرت مع علاء الملك خمسة أيام، ووصلنا إلى موضع ولايته، وهو مدينة لاهَرِي[1]......، مدينة حسنة على ساحل البحر الكبير، وبها مصب نهر السند في البحر،

---

[1] لارا بندر.

فيلتقي بها بحران، ولها مرسى عظيم يأتي إليه أهل اليمن وأهل فارس وغيره. بذلك عظمت جباياتها وكثرت أموالها. أخبرني الأمير علاء الملك المذكور أن مجبى هذه المدينة ستون لكّاً[1]، في السنة.

.... وسافرت من مدينة بكار فوصلت إلى مدينة أُوجه... وهي مدينة كبيرة على نهر السند، لها أسواق حسنة وعمارة جيدة....

ولقيت بمدينة أوجه الشيخ العابد الزاهد الشريف قطب الدين حيدر العلوي، وألبسني الخرقة، وهو من كبار الصالحين. ولم يزل الثوب الذي ألبسنيه معي، إلى أن سلبني كفار الهنود في البحر. ثم سافرت من أوجه إلى مدينة ملتان... وهي قاعدة بلاد السند، ومسكن أمير أمرائه. وفي الطريق إليها على مسافة عشرة أميال الوادي المعروف بخسرو أباد، وهو من الأودية الكبار، لا يجاز إلاّ بالمراكب. وبه يبحث عن أمتعة المجتازين أشد البحث وتفتش رحالهم.

.... ولما مضى من وصولنا إلى ملتان شهران، وصل أحد حجاب السلطان، وهو شمس الدين البوشنجي، والملك محمد الهروي الكتوال، بعثهما السلطان لاستقبال خداوند زاده. وقدم معهم ثلاثة من الفتيان بعثتهم المخدومة جهان أم السلطان لاستقبال زوجة خداوند زاده المذكور. وأتوا بالخلع لهما ولأولادهما، ولتجهيز من قدم من الوفود، وأتوا جميعاً إلي، وسألوا لماذا قدمت، فأخبرتهم أني قدمت للإقامة في خدمة خوند عالم وهو السلطان، وبهذا يدعى في بلاده. وكان أمر أن لا يترك أحد ممن يأتي من خراسان يدخل بلاد الهند، إلاّ إن كان برسم الإقامة. فلما أعلمتهم أني قدمت للإقامة، استدعوا القاضي والعدول، وكتبوا عقداً علي، وعلى من أراد الإقامة من أصحابي. وأبى بعضهم ذلك. وتجهزنا للسفر إلى الحضرة.

---

(1) اللك: صرف اللك، حسب ابن بطوطة، عشرة آلاف دينار من ذهب الهند.

وبين ملتان وبينهما مسيرة أربعين يوماً في عمارة متصلة. وأخرج الحاجب وصاحبه الذي بعث معه ما يحتاج إليه في ضيافة قوام الدين، واستصحبوا من ملتان نحو عشرين طباخاً... وترتيب ذلك الطعام أنهم يجعلون الخبز، وخبزهم الرقاق، وهو شبه الجراديق، ويقطعون اللحم المشوي قطعاً كبيرة، بحيث تكون الشاة أربع قطع أو ستاً، ويجعلون أقراصاً مصنوعة بالسمن تشبه الخبز المشترك ببلادنا، ويجعلون في وسطها الحلواء الصابونية، ويغطون كل قرص منها برغيف حلواء يسمونه الخشتى، ومعناه الآجري، مصنوع من الدقيق والسكر والسمن. ثم يجعلون اللحم المطبوخ بالسمن والبصل والزنجبيل الأخضر في صحاف صينية ثم يجعلون شيئاً يسمونه سموسك، وهو لحم مهروس مطبوخ باللوز والجوز والفستق والبصل والأبازير، موضوعة في جوف رقاقة مقلوة بالسمن. يضعون أمام كل إنسان خمس قطع من ذلك أو أربعاً، ثم يجعلون المطبوخ بالسمن عليه الدجاج، ثم يجعلون لقيمات القاضي ويسمونه الهاشمي، ثم يجعلون القاهرية. ويقف الحاجب على السماط قبل الأكل، ويخدم إلى الجهة التي فيها السلطان، ويخدم جميع من حضر لخدمته. والخدمة عندهم حط الرأس نحو الركوع، فإذا فعلوا ذلك، جلسوا للأكل. ويؤتي بأقداح الذهب والفضة والزجاج مملوءة بماء النبات وهو الجلاب محلولاً في الماء، ويسمون ذلك الشربة، ويشربونه قبل الطعام. ثم يقول الحاجب: بسم الله: فعند ذلك يشرعون في الأكل. فإذا أكلوا أتوا بأكواز الفقاع فإذا شربوه أتو بالتنبول والفوفل: وقد تقدم ذكرهما، فإذا أخذوا التنبول والفوفل قال الحاجب: بسم الله: فيقومون ويخدمون مثل خدمتهم أولاً، وينصرفون.

ثم سافرنا من مدينة ملتان، وهم يجرون هذا الترتيب على ما سطرناه، إلى أن وصلنا إلى بلاد الهند. وكان أول بلد، دخلنا مدينة أبوهَر[1]، وهي أول تلك البلاد الهندية، صغيرة حسنة كثيرة العمارة، ذات أنهار وأشجار. وليس هناك من

---

[1] جنوب لاهور على الحدود الهندية الباكستانية الحالية.

أشجار بلادنا شيء. ما عدا النبق، لكنه عندهم عظيم الجرم، تكون الحبة منه بمقدار حبة العفص، شديد الحلاوة. ولهم أشجار كثيرة، ليس يوجد منها شيء ببلادنا ولا بسواها.

أشجار بلاد الهند وفواكهها:

منها العنبة.... وهي شجرة تشبه أشجار النارنج، إلاّ أنها أعظم أجراماً[1] وأكثر أوراقاً وظلها أكثر الظلال، غير أنه ثقيل فمن نام تحته وعك. وثمرها على قدر الإجاص الكبير. فإذا كان أخضر قبل تمام نضجه أخذوا ما سقط منه، وجعلوا عليه الملح[2]، وصيروه كما يصير الليم والليمون ببلادنا. وكذلك يصيرون أيضا الزنجبيل الأخضر وعناقيد الفلفل. ويأكلون ذلك مع الطعام، يأخذون بأثر كل لقمة يسيرا من هذه المملوحات فإذا نضجت العنبة في أوان الخريف، اصفرت حباتها فأكلوها كالتفاح. فبعضهم يقطعها بالسكين، والآخر يمصها مصاً. وهي حلوة يمازج حلاوتها يسير حموضة. ولها نواة كبيرة يزرعونها فتنبت منها الأشجار، كما تزرع نوى النارنج وغيرها. والشَّكي والبَرْكي. وهي أشجار عادية، أوراقها كأوراق الجوز، وثمرها يخرج من أصل الشجر، فما اتصل منه بالأرض فهو البركي، وحلاوته أشد وطعمه أطيب، وما كان فوق ذلك فهو الشكي وثمره يشبه القرع الكبار، وجلوده تشبه جلود البقر، فإذا اصفر في أوان الخريف قطعوه وشقوه. فيكون في داخل كل حبة المائة والمائتان. فما بين ذلك من حبات تشبه الخيار، بين كل حبة وحبة صفاق أصفر اللون، ولكل حبة نواة تشبه الفول الكبير، وإذا شويت هذه النواة أو طبخت يكون طعمها كطعم الفول،

---

(1) جمع جرم، ومعناه: الجسم، فالمراد: أعظم حجماً من شجرة النارنج، والله أعلم.

(2) أي: حفظوه مكبوساً بالملح، أو: خللوه بتعبير آخر ليكون من المشهيات مع الطعام.

إذ ليس يوجد هنالك. ويدخرون هذه النوى في التراب الأحمر فتبقى إلى سنة أخرى. وهذا الشكي والبركي هو خير فاكهة بلاد الهند. والتَّنْدو وهو ثمر شجر الأبنوس، وحباته قدر حبات المشمش، ولونها، وهو شديد الحلاوة، والجوز وأشجاره عادية ويشبه ثمرة الزيتون، وهو أسود اللون، ونواه واحدة كالزيتون، والنارنج الحلو، وهو عندهم كثير. وأما النارنج الحامض فعزيز الوجود. ومنه صنف ثالث يكون بين الحلو والحامض، وثمره على قدر الليم وهو طيب جداً، وكنت يعجبني أكله، ومنها المهْوَا وأشجاره عادية وأوراقه كأوراق الجوز، إلاّ أن فيها حمرة وصفرة، وثمره مثل الإجاص الصغير شديد الحلاوة. وفي أعلى كل حبة منه حبة صغيرة بمقدار حبة العنب مجوفة وطعمها كالعنب.

إلاّ أن الإكثار من أكلها يحدث في الرأس صداعاً، ومن العجب أن هذه الحبوب إذا يبست في الشمس كان طعمها كطعم التين، وكنت آكلها عوضاً عن التين إذ لا يوجد ببلاد الهند، وهم يسمون هذه الحبة الأنْكُور وتفسيره بلسانهم العنب. والعنب بأرض الهند عزيز جداً، ولا يكون بها إلاّ في موضع بحضرة دهلي، وببلاد أخرى، ويثمر مرتين في السنة. ونوى هذا الثمر يصنعون منه الزيت، ويستصبحون[1] به. ومن فواكههم فاكهة يسمونها كَسيرا يحفرون عليها الأرض، وهي شديدة الحلاوة تشبه

القسطل. وببلاد الهند من فواكه بلادنا الرمان، ويثمر مرتين في السنة. ورأيته ببلاد جزائر ذيبة المهل لا ينقطع له ثمر، ويسمونه أنَار، وأظن ذلك هو الأصل في تسمية الجلنار، فإن جل بالفارسية الزهر، ونار الرمان.

أما عن الحبوب التي يزرعها أهل الهند ويقتاتون بها، فأهل الهند يزرعون

مرتين في السنة. فإذا نزل المطر عندهم في أوان القيظ زرعوا الزرع الخريفي، وحصدوه بعد ستين يوماً من زراعته. ومن هذه الحبوب الخريفية عندهم الكُذْرُو، وهو

(1) أي: يتخذونه وقوداً للمصابيح.

نوع من الدخن. وهذا الكذرو هو أكثر الحبوب عندهم. ومنها القال بالقاف وهو شبه أنلي، ومنها الشاماخ، وهو أصغر حباً من القال. وربما نبت الشاماخ من غير زراعة، وهو طعام الصالحين وأهل الورع والفقراء والمساكين. يخرجون لجمع ما نبت منه من غير زراعة، فيمسك أحدهم قفة كبيرة بيساره، وتكون بيمناه مقرعة يضرب بها الزرع فيسقط في القفة. فيجمعون منه ما يقتاتون به جميع السنة. وحب هذا الشاماخ صغير جداً وإذا جمع جعل في الشمس، ثم يدق في مهارس الخشب، فيطير قشره ويبقى لبه أبيض. ويصنعون منه عصيدة يطبخونها بحليب الجواميس، وهي أطيب من خبزه، وكنت آكلها كثيراً ببلاد الهند وتعجبني. ومنها الماش، وهو نوع من الجلبان، ومنها المُنج... وهو نوع من الماش إلاّ أن حبوبه مستطيلة ولونه صافي الخضرة، ويطبخون المنج مع الأرز ويأكلونه بالسمن ويسمونه كشرى... وعليه يفطرون في كل يوم. وهو عندهم كالحريرة ببلاد المغرب. ومنها اللوبيا وهي نوع من الفول، ومنها الموث بضم الميم وهو مثل الكذرو، إلاّ أن حبوبه أصغر، وهو من علف الدواب عندهم، وتسمن الدواب بأكله، والشعير عندهم لا قوة له، وإنما علف الدواب من هذا الموث، أو الحمص يجرشونه ويبلونه بالماء ويطعمونه الدواب، ويطعمونها عوضاً من القصيل أوراق الماش، بعد أن تسقى الدابة السمن عشرة أيام، في كل يوم مقدار ثلاثة أرطال أو أربعة، ولا تركب في تلك الأيام. وبعد ذلك يطعمونها أوراق الماش كما ذكرنا شهراً أو نحوه وهذه الحبوب التي ذكرناها هي الخريفية وإذا حصدوها بعد ستين يوماً من زراعتها ازدرعوا الحبوب الربيعية، وهي: القمح والشعير والحمص والعدس. وتكون زراعتها في الأرض التي كانت الحبوب الخريفية مزدرعة فيها. وبلادهم كريمة طيبة التربة. وأما الأرز فإنهم يزرعونه ثلاث مرات في السنة، وهو من أكبر الحبوب عندهم. ويزدرعون السمسم وقصب السكر مع الحبوب الخريفية التي تقدم ذكرها. ولنعد إلى ما كنا بسبيله فأقول سافرنا من مدينة أبو هر، في صحراء مسيرة يوم، في أطرافها جبال منيعة يسكنها كفار الهنود، وربما قطعوا الطريق. وأهل بلاد الهند أكثرهم كفار فمنهم رعية تحت ذمة المسلمين، يسكنون القرى، ويكون عليهم حاكم من المسلمين يقدمه العامل أو الخديم

الذي تكون القرية في إقطاعه، ومنهم عصاة محاربون يمتنعون بالجبال ويقطعون الطريق.

ولما أردنا السفر من مدينة أبو هر، خرج الناس منها أول النهار، وأقمت بها إلى نصف النهار في لمة من أصحابي، ثم خرجنا، ونحن اثنان وعشرون فارساً. منهم عرب ومنهم أعاجم، فخرج علينا في تلك الصحراء ثمانون رجلاً من الكفار وفارسان. وكان أصحابي ذوي نجدة وعُتيٍّ، فقاتلناهم أشد القتال، فقتلنا أحد الفارسين منهم وغنمنا فرسه، وقتلنا من رجالهم نحو اثني عشر رجلاً وأصابتني نشابة، وأصابت فرسي نشابة ثانية، ومن الله بالسلامة منها، لأن نشابهم لا قوة لها، وجرح لأحد أصحابنا فرس عوضناه له بفرس الكافر، وذبحنا فرسه المجروح، فأكله الترك من أصحابنا وأوصلنا تلك الرؤوس إلى حصن أبي بَكْهَر فعلقناها على سوره. وكان وصولنا في نصف الليل إلى حصن أبي بكهر المذكور وسافرنا منه فوصلنا بعد يومين إلى مدينة أُجُودَهَن[1]، مدينة صغيرة هي للشيخ الصالح فريد الدين البذاوني الذي أخبرني الشيخ الصالح الولي برهان الدين الأعرج بالإسكندرية أني سألقاه، فلقيته والحمد لله، وهو شيخ ملك الهند، وأنعم عليه بهذه المدينة. وهذا الشيخ مبتلي بالوسواس والعياذ بالله، فلا يصافح أحداً ولا يدنو منه، وإذا ألصق ثوبه بثوب أحد غسل ثوبه. دخلت زاويته ولقيته وأبلغته سلام الشيخ برهان الدين، فعجب وقال: أنا دون ذلك. ولقيت ولديه الفاضلين معز الدين، وهو أكبرهما ولما مات أبوه تولى الشياخة بعده، وعلم علم الدين. وزرت قبر جده القطب الصالح فريد الدين البذاوني، منسوبة إلى مدينة "بذاون" بلد السنبل ولما أردت الانصراف عن هذه المدينة، قال لي علم الدين: لا بد لك من رؤية والدي فرأيته وهو في أعلى سطح له، وعليه ثياب بيض وعمامة كبيرة لها ذؤابة وهي مائلة إلى جانب. ودعا لي وبعث إلي بسكر ونبات.

[1] مدينة شرق البنجاب.

حرق الميت وزوجته

ولما انصرفت عن هذا الشيخ، رأيت الناس يهرعون من عسكرنا، ومعهم بعض أصحابنا. فسألتهم ما الخبر؟ فأخبروني أن كافراً من الهنود مات، وأججت النار لحرقه، وامرأته تحرق نفسها معه. ولما احترقا جاء أصحابي وأخبروا أنها عانقت الميت حتى احترقت معه. وبعد ذلك كنت في تلك البلاد أرى المرأة من كفار الهنود متزينة راكبة، والناس يتبعونها من مسلم وكافر، والأطبال والأبواق بين يديها، ومعها البراهمة، وهم كبراء الهنود. وإذا كان ذلك ببلاد السلطان استأذنوا السلطان في إحراقها فيؤذن لهم فيحرقونها. ثم اتفق بعد مدة أني كنت بمدينة أكثر سكانها الكفار تعرف بأبجري[1]، وأميرها مسلم من سماسرة السند، وعلى مقربة منها الكفار العصاة، فقطعوا الطريق يوماً، وخرج الأمير المسلم لقتالهم، وخرجت معه رعية من المسلمين والكفار، ووقع بينهم قتال شديد، مات فيه من رعية الكفار سبعة نفر ـ وكان لثلاثة منهم ثلاث زوجات ـ فاتفقن على إحراق أنفسهن. وإحراق المرأة بعد زوجها عندهم أمر مندوب إليه غير واجب، لكن من أحرقت نفسها بعد زوجها أحرز أهل بيتها شرفاً بذلك، ونسبوا إلى الوفاء، ومن لم تحرق نفسها، لبست خشن الثياب، وأقامت عند أهلها بائسة ممتهنة لعدم وفائها. ولكنها لا تكره على إحراق نفسها. ولما تعاهدت النسوة الثلاث اللائي ذكرناهن على إحراق أنفسهن، أقمن قبل ذلك ثلاثة أيام في غناء وطرب وأكل وشرب، كأنهن يودعن الدنيا. ويأتي إليهن النساء من كل جهة.

وفي صبيحة اليوم الرابع أتيت كل واحدة منهن بفرس فركبته، وهي متزينة متعطرة، وفي يمناها جوزة نارجيل تلعب بها، وفي يسراها مرآة تنظر فيها وجهها،

---

(1) في بعض طبعات الكتاب: بأحجري. وهي بإقليم مادبا ـ براديش.

والبراهمة يحفون بها، وأقاربها معها، وبين يديها الأطبال والأبواق والأنفار. وكل إنسان من الكفار يقول لها: أبلغي السلام إلى أبي أو أخي أو أمي أو صاحبي، وهي تقول: نعم، وتضحك إليهم. وركبت مع أصحابي لأرى كيفية صنعهن في الاحتراق. فسرنا معهن نحو ثلاثة أميال، وانتهينا إلى موضع مظلم كثير المياه والأشجار متكاثف الظلال، وبين أشجاره أربع قباب، في كل قبة صنم من الحجارة. وبين القباب صهريج ماء قد تكاثفت عليه الظلال، وتزاحمت الأشجار فلا تتخللها الشمس. فكان ذلك الموضع بقعة من بقع جهنم، أعاذنا الله منها، ولما وصلن إلى تلك القباب، نزلن إلى الصهريج، وانغمسن فيه، وجردن ما عليهن من ثياب وحلي، فتصدقن به. وأتيت كل واحدة منهن بثوب قطن خشن غير مخيط، فربط بعضة على وسطها، وبعضه على رأسها وكتفيها. والنيران قد أضرمت على قرب من ذلك الصهريج، في موضع منخفض، وصب عليها روغن كنجت كنجد، وهو زيت الجُلْجُلان[1] فزاد في اشتعالها. وهنالك نحو خمسة عشر رجلاً بأيديهم حزم من الحطب الرقيق، ومعهم نحو عشرة بأيديهم خشب كبار، وأهل الأطبال والأبواق وقوف ينتظرون مجيء المرأة، وقد حجبت النار بملحفة، يمسكها الرجال بأيديهم لئلا يدهشها النظر إليها. فرأيت إحداهن لما وصلت إلى تلك الملحفة، نزعتها من أيدي الرجال بعنف و قالت لهم: مارا ميترساني ازاطش آنش من ميدانم أواطش است رهاكني مارا، وهي تضحك، ومعنى هذا الكلام أبالنار تخوفونني؟ أنا أعلم أنها نار محرقة. ثم جمعت يديها على رأسها خدمة للنار، ورمت بنفسها فيها. وعند ذلك ضربت الأطبال والأنفار والأبواق، ورمى الرجال ما بأيديهم من الحطب عليها. وجعل الآخرون تلك الخشب من فوقها لئلا تتحرك، وارتفعت الأصوات وكثر الضجيج. ولما رأيت ذلك كدت أسقط عن فرسي لولا أصحابي تداركوني بالماء، فغسلوا وجهي وانصرفت. وكذلك يفعل أهل الهند أيضاً في الغرق. يغرق كثير منهم أنفسهم في نهر الكنك، وهو الذي إليه يحجون. وفيه

[1] الجلجلان: ثمرة الكزبرة، أو حب السمسم.

يرمى برماد هؤلاء المحرقين. وهم يقولون: إنه من الجنة. وإذا أتى أحدهم ليغرق نفسه يقول لمن حضره: لا تظنوا أني أغرق نفسي لأجل شيء من أمور الدنيا أو لقلة مال، إنما قصدي التقرب إلى كُساي، وكساي بضم الكاف والسين المهمل اسم الله عز وجل بلسانهم، ثم يغرق نفسه. فإذا مات أخرجوه وأحرقوه ورموا برماده في البحر المذكور.

إلى دهلي دلهي

.... ثم سافرنا من حانسي فوصلنا بعد يومين إلى مسعود أباد. وهي على عشرة أميال من حضرة دهلي، وأقمنا بها ثلاثة أيام. وحانسي ومسعود أباد هما للملك المعظم هوشنج... ابن الملك كمال كُرك. وكان سلطان الهند الذي قصدنا حضرته غائباً عنها بناحية مدينة قنوج، وبينها وبين حضرة دهلي عشرة أيام، وكانت بالحضرة والدته وتدعى المخدومة جهان. وجهان اسم الدنيا. وكان بها أيضاً وزيره خواجه جهان المسمى أحمد بن إياس، الرومي الأصل. فبعث الوزير إلينا أصحابه ليلتقونا.....

... وكتب إلى السلطان بخبرنا، وبعث الكتاب مع الدواة، وهي بريد الرجالة، حسبما ذكرناه، فوصل إلى السلطان، وأتاه الجواب في تلك الأيام الثلاثة التي أقمناها بمسعود أباد. وبعد تلك الأيام خرج إلى لقائنا القضاة والفقهاء والمشايخ وبعض الأمراء، و يسمون الأمراء ملوكاً. فحيث يقول أهل ديار مصر وغيرها أمير يقولون هم الملك. وخرج إلى لقائنا الشيخ ظهير الدين الزنجاني، وهو كبير المنزلة عند السلطان. ثم رحلنا من مسعود أباد فنزلنا بمقربة من قرية تسمى بالَم وفي غد ذلك اليوم وصلنا إلى حضرة دهلي قاعدة بلاد الهند.... وهى المدينة العظيمة الشأن الضخمة الجامعة بين الحسن والحصانة، وعليها السور الذي لا يعلم له في بلاذ الدنيا نظير، وهي من أعظم مدن الهند بل مدن الإسلام كلها بالمشرق.

ومدينة دهلي كبيرة المساحة كثيرة العمارة، وهي الآن أربع مدن متجاورات متصلات، إحداها المسماة بهذا الاسم دهلي وهي القديمة من بناء الكفار. وكان

افتتاحها سنة أربع وثمانين وخمسمائة، والثانية تسمى سيري، وتسمى أيضاً دار الخلافة، وهي التي أعطاها السلطان لغياث الدين حفيد الخليفة المستنصر العباسي لما قدم عليه، وبها كان سكنى السلطان علاء الدين وابنه قطب الدين، وسنذكرهما، والثالثة تسمى أباد باسم بانيها السلطان تغلق والد سلطان الهند الذي قدمنا عليه. وكان سبب بنائه لها أنه وقف يوماً بين يدي السلطان قطب الدين، فقال له: يا خوند عالم كان ينبغي أن تبني هنا مدينة. فقال له السلطان متهكماً: إذا كنت سلطانا فابنها. فكان من قدر الله أن كان سلطاناً فبناها، وسماها باسمه. الرابعة تسمى جهان بناه، وهي مختصة بسكن السلطان محمد شاه ملك الهند الآن الذي قدمنا عليه، وهو الذي بناها. وكان أراد أن يضم هذه المدن الأربع تحت سور واحد فبنى منه بعضاً وترك باقيه، لعظم ما يلزم في بنائه.

والسور المحيط بمدينة دهلي لا يوجد له نظير. عرض حائطه أحد عشر ذراعاً، وفيه بيوت يسكنها السمار وحفاظ الأبواب، وفيها مخازن للطعام ويسمونها الأنبارات، ومخازن للعدد، ومخازن للمجانيق، والرعادات ويبقى الزرع بها مدة طائلة لا يتغير، ولا تطرقه آفة. ولقد شاهدت الأرز يخرج من بعض تلك المخازن ولونه قد أسود، ولكن طعمه طيب. ورأيت أيضاً الكُذْرو يخرج منها. وكل ذلك من اختزان السلطان بَلَبن منذ تسعين سنة. ويمشي في داخل السور الفرسان والرجال من أول المدينة إلى آخرها. وفيه طيقان مفتحة إلى جهة المدينة يدخل منها الضوء وأسفل هذا السور مبني بالحجارة، وأعلاه بالآجر، وأبراجه كثيرة متقاربة. ولهذه المدينة ثمانية وعشرون باباً، وهم يسمون الباب دروازة. فمنها دروازة بذوان، وهي الكبرى، ودروازة المندوي، وبها رحبة الزرع، ودروازة جُل بضم الجيم وهي موضع البساتين، ودروازة شاه: اسم رجل، ودروازة بَالَم: اسم قرية قد ذكرناها، ودروازة نجيب: اسم رجل، ودروازة كمال كذلك، ودروازة غزنة، نسبة إلى مدينة غزنة التي في طرف خراسان، وبخارجها مصلى العيد وبعض المقابر، ودروازة البَجَالصة بفتح الباء والجيم والصاد المهمل، وبخارج هذه الدروازة مقابر دلهي، وهي مقبرة حسنة يبنون فيها القباب. ولا بد عند كل

قبر من محراب، وإن كان لا قبة له، ويزرعون بها الأشجار المزهرة مثل قُل[1] كل شنبو وريبول راي بيل والنسرين وسواها. والأزاهير هنالك لا تنقطع في فصل من الفصول.

وجامع دهلي كبير المساحة، حيطانه وسقفه وفرشه كل ذلك من الحجارة البيض المنحوتة، أبدع نحت، ملصقة بالرصاص أتقن إلصاقة؛ لا خشبة به أصلاً. وفيه ثلاث عشرة قبة من حجارة، ومنبره أيضاً من الحجر، وله أربعة من الصحون. وفي وسط الجامع العمود الهائل الذي لا يدري من أي المعادن هو. ذكر لي بعض حكمائهم أنه يسمى هَفْت جُوش بفتح الهاء وسكون الفاء وتاء معلوة وجيم مضموم وآخره شين معجم، ومعنى ذلك سبعة معادن، وأنه مؤلف منها. وقد جلي من هذا العمود مقدار السبابة، ولذلك المجلو منه بريق عظيم، ولا يؤثر فيه الحديد. وطوله ثلاثون ذراعاً، وأدرنا به عمامة فكان الذي أحاط بدائرته منها ثماني أذرع. وعند الباب الشرقي من أبواب المسجد صنمان كبيران جداً من النحاس مطروحان بالأرض، قد ألصقا بالحجارة، ويطأ عليها كل داخل إلى المسجد أو خارج منه. وكان موضع هذا المسجد بدخانة، وهو بيت الأصنام، فلما افتتحت جعل مسجداً، وفي الصحن الشمالي من المسجد الصومعة التي لا نظير لها في بلاد الإسلام. وهي مبنية بالحجارة الحمر، خلافاً لحجارة سائر المسجد، فإنها بيض. وحجارة الصومعة منقوشة، وهي سامية الارتفاع، وفحلها من الرخام الأبيض الناصع، وتفافيحها من الذهب الخالص، وسعة ممرها بحيث تصعد فيه الفيلة. حدثني من أثق به أنه رأى الفيل حين بنيت يصعد بالحجارة إلى أعلاها. وهي من بناء السلطان معز الدين ناصر الدين ابن السلطان غياث الدين بلبن. وأراد السلطان قطب الدين أن يبني بالصحن الغربي صومعة أعظم منها فبنى مقدار الثلث منها، واخترم دون تمامها. وأراد السلطان محمد إتمامها، ثم ترك ذلك تشاؤماً. وهذه الصومعة من عجائب الدنيا في ضخامتها وسعة ممرها، بحيث تصعده ثلاثة من

(1) في بعض طبعات الكتاب: مثل: قل شنّبه.

الفيلة متقاربة. وهذا الثلث المبني منها مساوٍ لارتفاع جميع الصومعة التي ذكرنا أنها بالصحن الشمالي.

وصعدتها مرة فرأيت معظم دور المدينة، وعاينت الأسوار على ارتفاعها وسموها منحطة، وظهر لي الناس في أسفلها كأنهم الصبيان الصغار. ويظهر لناظرها من أسفلها أن ارتفاعها ليس بذلك، لعظم جرمها وسعتها. وكان السلطان قطب الدين أراد أن يبني أيضاً مسجداً جامعاً بسيري المسماة دار الخلافة، فلم يتم منه غير الحائط القبلي والمحراب. وبناؤه بالحجارة البيض والسود والحمر والخضر. ولو كمل لم يكن له مثل في البلاد. وأراد السلطان محمد إتمامه، وبعث عرفاء البناء ليقدروا النفقة فيه، فزعموا أنه ينفق في إتمامه، خمسة وثلاثون لكاً فترك ذلك استكثاراً له. وأخبرني بعض خواصه أنه لم يتركه استكثاراً، لكنه تشاءم به لما كان السلطان قطب الدين قد قتل قبل تمامه.

ويقع بخارج دهلي الحوض العظيم المنسوب إلى السلطان شمس الدين لَلْمِش، ومنه يشرب أهل المدينة، وهو بالقرب من مصلاها. وماؤها يجتمع من ماء المطر. وطوله نحو ميلين وعرضه على النصف من طوله. والجهة الغربية من ناحية المصلى مبنية بالحجارة مصنوعة أمثال الدكاكين، بعضها أعلى من بعض، وتحت كل دكان درج ينزل عليها إلى الماء، وبجانب كل دكان قبة حجارة فيها مجالس للمتنزهين والمتفرجين. وفي وسط الحوض قبة عظيمة من الحجارة المنقوشة مجعولة طبقتين. فإذا كثر الماء في الحوض، لم يكن سبيل إليها إلاّ في القوارب. فإذا قلّ الماء دخل إليها الناس. وداخلها مسجد. وفي أكثر الأوقات يقيم بها الفقراء المنقطعون إلى الله المتوكلون عليه، وإذا جف الماء في جوانب هذا الحوض زرع فيها قصب السكر والخيار والقثاء والبطيخ الأخضر. والأصفر وهو شديد الحلاوة صغير الجرم. وفيما بين دهلي ودار الخلافة حوض الخاص وهو أكبر من حوض السلطان شمس الدين. وعلى جوانبه نحو أربعين قبة، ويسكن حوله أهل الطرب، وموضعهم يسمى طرب آباد. ولهم سوق هنالك من أعظم الأسواق، ومسجد جامع ومساجد سواه كثيرة. وأخبرت أن النساء المغنيات الساكنات هنالك يصلين التراويح في شهر رمضان بتلك المساجد مجتمعات، ويؤم بهن الأئمة،

وعددهن كبير، وكذلك الرجال المغنون......

..... وحدثني الفقيه العالم العلامة قاضي القضاة بالهند والسند كمال الدين محمد بن البرهان الغزنوي الملقب بصدر الجهان، أن مدينة دهلي افتتحت من أيدي الكفار في سنة أربع وثمانين وخمسمائة. وقد قرأت أنا ذلك مكتوباً على محراب الجامع الأعظم بها. وأخبرني أيضاً أنها افتتحت على يد الأمير قطب الدين أيبك، وكان يلقب سياه سالار، ومعناه مقدم الجيوش. وهو أحد مماليك السلطان المعظم شهاب الدين محمد بن سنام الغوري ملك غزنة وخراسان، المتغلب على ملك إبراهيم ابن السلطان الغازي محمود ابن سبكتكين الذي ابتدأ فتح الهند.

... وكان السلطان شمس الدين لَلْمِش، أول من ولي الملك بمدينة دهلي مستقلاً به وكان قبل تملكه مملوكاً للأمير قطب الدين أيبك وصاحب عسكره نائباً عنه، فلما مات واستقل بالملك، وكانت مدته عشرين سنة. وكان عادلاً صالحاً فاضلاً، ومن مآثره أنه اشتد في رد المظالم وإنصاف المظلومين وأمر أن يلبس كل مظلوم ثوباً مصبوغاً وأهل الهند جميعاً يلبسون البياض فكان متى قعد للناس أو ركب فرأى أحداً عليه ثوب مصبوغ نظر في قضيته ونصفه ممن ظلمه ثم إنه أعيا في ذلك[1] فقال: إن بعض الناس تجري عليهم المظالم بالليل، وأريد تعجيل إنصافهم، فجعل على باب قصره أسدين مصورين من الرخام موضوعين على برجين هنالك، وفي أعناقهما سلسلتان من الحديد فيهما جرس كبير، فكان المظلوم يأتي ليلاً فيحرك الجرس، فيسمعه السلطان وينظر في أمره للحين وينصفه. ولما توفي السلطان شمس الدين خلف من الأولاد الذكور ثلاثة وهو ركن الدين الوالي بعده، ومعز الدين، وناصر الدين، وبنتاً تسمى رضية هي شقيقة معز الدين منهم فتولى بعده ركن الدين كما ذكرناه....

(1) أي أعجز غيره من الحكام أن يلحقوا به ويصنعوا صنيعه من العدل.

ولما ملك خسرو خان آثر الهنود، وأظهر أموراً منكرة، منها النهى عن ذبح البقر على قاعدة كفار الهنود، فإنهم لا يجيزون ذبحها، وجزاء من ذبحها عندهم أن يخاط في جلدها ويحرق. وهم يعظمون البقر ويشربون أبوالها للبركة، وللاستشفاء إذا مرضوا. ويلطخون بيوتهم وحيطانهم بأرواثها. وكان ذلك مما بغّض خسرو خان إلى المسلمين وأمالهم عنه إلى تغلق، فلم تطل مدة ولايته ولا امتدت أيام ملكه....

.... أن السلطان تغلق كان من الأتراك المعروفين بالقَرَونَة، وهم قاطنون بالجبال التي بين بلاد السند والترك. وكان ضعيف الحال، فقدم بلاد السند في خدمة بعض التجار، وكان كُلوانياً له، والكُلواني بضم الكاف المعقود هو واعي الخيل جلوبان، وذلك على أيام السلطان علاء الدين، وأمير السند إذ ذاك أخوه أُولُوخان فخدمه تغلق، وتعلق بجانبه، فرتبه في البيّاة، وهم الرجالة. ثم ظهرت نجابته في فأثبت في الفرسان، ثم كان من الأمراء الصغار وجعله أولوخان أمير خيله. ثم كان بعد ذلك من الأمراء الكبار، وسمي بالملك الغازي، ورأيت مكتوباً على مقصورة الجامع بملتان، وهو الذي أمر بعملها، إني قاتلت التتر تسعاً وعشرين مرة، فهزمتهم. فحينئذ سُمّيت بالملك الغازي. ولما ولي قطب الدين ولاه مدينة دِبال بور وعمالتها وجعل ولده الذي هو الآن سلطان الهند أمير خيله، وكان يسمى جَونَه ولما ملك تسمى بمحمد شاه. ثم لما قتل قطب الدين وولي خسرو خان أبقاه الله على إمارة الخيل. فلما أراد تغلق الخلاف كان له ثلاثمائة من أصحابه الذين يعتمد عليهم في القتال، وكتب إلى كشلو خان، وهو يومئذ بملتان، وبينهما وبين دبال بور ثلاثة أيام، يطلب منه القيام بنصرته، ويذكره نعمة قطب الدين، ويحرضه على طلب ثأره. وكان ولد كشلو خان بدهلي فكتب إلى تغلق أنه لو كان ولدي ضدي لأعنتك على ما تريد. فكتب تغلق إلى ولده محمد شاه يعلمه بما عزم عليه، ويأمره أن يفر إليه ويستصحب معه ولد كشلو خان، فأدار ولده الحيلة على خسرو خان. وتمت له كما أراد، وحينئذ أظهر تغلق الخلاف، وجمع العساكر وخرج معه كشلو خان في أصحابه، وبعث السلطان أخاه خان خانان لقتالهما، فهزماه شر هزيمة، وفر عسكره إليهما، ورجع خان خانان إلى أخيه، وقتل أصحابه، وأخذت خزائنه وأمواله وقصد تغلق حضرة دهلي.

فقصد تغلق وأصحابه موقفه، والسلطان هنالك يعرف بالشطر جتر[1] الذي يرفع فوق رأسه، وهو الذي يسمى بديار مصر القبة، والطير، ويرفع بها في الأعياد. وأما بالهند والصين فلا يفارق السلطان في سفر ولا حضر. فلما قصده تغلق وأصحابه حمي القتال بينهم وبين الهنود. وانهزم أصحاب السلطان ولم يبق معه أحد، وهرب فنزل عن فرسه ورمى بثيابه وسلاحه، وبقي في قميص واحد، وأرسل شعره بين كتفيه كما يفعل فقراء الهند، ودخل بستاناً هنالك. واجتمع الناس على تغلق، وقصد المدينة، فأتاه الكتوال بالمفاتيح، ودخل القصر ونزل بناحية منه....

..... واستقام الملك لتغلق أربعة أعوام. وكان عادلاً فاضلاً.

ولما مات السلطان تغلق استولى ابنه محمد على الملك من غير منازع له ولا مخالف عليه.. فلما ملك تسمى بمحمد، واكتنى بأبي المجاهد. وكل ما ذكرت من شأن سلاطين الهند، فهو مما أخبرت به وتلقيته أو معظمه من الشيخ كمال الدين بن البرهان الغزنوي قاضي القضاة. وأما أخبار هذا الملك فمعظمها مما شاهدته أيام كوني ببلاده.

وكان هذا الملك أحب الناس في إسداء، العطايا وإراقة الدماء. فلا يخلو بابه عن فقير يغنى أو حي يقتل. وقد شهرت في الناس حكاياته في الكرم والشجاعة، وحكاياته في الفتك والبطش بذوي الجنايات. وهو أشد الناس مع ذلك تواضعاً وأكثرهم إظهاراً للعدل والحق. وشعائر الدين عنده محفوظة. وله اشتداد في أمر الصلاة والعقوبة على تركها.

دار السلطان وإدارته للملك

ودار السلطان بدهلي تسمى دار سَرَى، ولها أبواب كثيرة. أما الباب الأول فعليه جملة من الرجال موكلون به، ويقعد به أهل الأنفار والأبواق والصرنايات. فإذا جاء

---

(1) المظلة الواقية من المطر.

أمير أو كبير ضربوها، ويقولون في ضربهم: جاء فلان. وكذلك أيضاً في البابين الثاني والثالث. وبخارج الباب الأول دكاكين يقعد عليها الجلادون، وهم الذين يقتلون الناس. فإن العادة عندهم أنه متى أمر السلطان بقتل أحد قتل على باب المشور=المجلس، ويبقى هنا ثلاثاً وبين البابين الأول والثاني دهليز كبير، فيه دكاكين مبنية من جهتيه، يقعد عليها أهل النوبة من حفاظ الأبواب. وأما الثاني فيقعد عليه البوابون الموكلون به. وبينه وبين الباب الثالث دكانة كبيرة يقعد عليها نقيب النقباء، وبين يديه عمود ذهب يمسكه بيده، وعلى رأسه كلاه من الذهب مجوهرة في أعلاها ريش الطواويس والنقباء بين يديه على رأس كل واحد منهم شاشية مذهبة، وفي وسطه منطقه، وبيده سوطاً نصابه من ذهب أو فضة، ويفضي هذا الباب الثاني إلى مشور كبير متسع يقعد به الناس. وأما الباب الثالث فعليه دكاكين يقعد فيها كتاب الباب. ومن عوائدهم أن لا يدخل على هذا الباب أحد إلاّ من عينه السلطان لذلك. ويعين لكل إنسان عدد من أصحابه. وناسه يدخلون معه. وكل من يأتي إلى هذا الباب يكتب الكتاب أن فلاناً جاء في الساعة الفلانية من الساعات إلى آخر النهار، ويطالع السلطان بذلك بعد العشاء الآخرة. ويكتبون أيضاً بكل ما يحدث من الباب من أمور. وقد عين من أبناء الملوك من يوصل ما يكتبونه إلى السلطان. ومن عوائدهم أيضاً أنه من غاب عن دار السلطان ثلاثة أيام فصاعداً لعذر أو لغير عذر، فلا يدخل هذا لباب بعدها إلاّ بإذن من السلطان. فإن كان له عذر من مرض أو غيره، قدم بين يديه هدية مما يناسب إهداءها إلى السلطان... وهذا الباب الثالث يفضي إلى المشور الهائل الفسيح المسمى هَزَار أسطون ومعنى ذلك ألف سارية، وهو سواري من خشب مدهونة، عليها سقف خشب منقوش أبدع نقش، يجلس الناس تحتها. وبهذا المشور يجلس السلطان الجلوس العام.

وكان أكثر جلوسه بعد العصر، وربما جلس أول النهار. وجلوسه على مصطبة مفروشة بالبياض فوقها مرتبة. ويجعل خلف ظهره مخدة كبيرة، وعن يمينه متكأ، وعن يساره مثل ذلك. وقعوده كجلوس الإنسان للتشهد في الصلاة، وهو جلوس أهل الهند كلهم. فإذا جلس وقف أمامه الوزير، ووقف الكتاب خلف الوزير، وخلفهم

الحجاب، وكبير الحجاب هو فيروز ملك ابن عم السلطان ونائبه، وهو أدنى الحجاب من السلطان، ثم يتلوه خاص حاجب، ثم يتلوه نائب خاص حاجب، ووكيل الدار ونائبه، وشرف الحجاب وسيد الحجاب، وجماعة تحت أيديهم. ثم يتلو الحجاب النقباء، وهم نحو مائة. وعند جلوس السلطان ينادى الحجاب والنقباء بأعلى أصواتهم: بسم الله. ثم يقف على رأس السلطان الملك الكبير قبولة وبيده المذبة يشرد بها الذباب، ويقف مائة من السلحدارية عن يمين السلطان ومثلهم عن يساره، بأيديهم الدرق والسيوف والقسي. ويقف في الميمنة والميسرة بطول المشور قاضي القضاة ويليه خطيب الخطباء ثم كبار الفقهاء ثم كبار الشرفاء والمشايخ ثم إخوة السلطان وأصهاره ثم الأمراء الكبار ثم كبار الأعزة وهم الغرباء ثم القواد. ثم يؤتى بستين فرساً مسرجة ملجمة بجهازات سلطانية، فمنها ما هو بشعار الخلافة، وهي التي لجمها ودوائرها من الحرير الأسود المذهب، ومنها ما يكون من الحرير الأبيض المذهب. ولا يركب بذلك غير السلطان، فيوقف النصف من هذه الخيل عن اليمين والنصف عن الشمال، بحيث يراها السلطان. ثم يؤتى بخمسين فيلاً مزينة بثياب الحرير والذهب، مكسوة أنيابها بالحديد إعداداً لقتل أهل الجرائم، وعلى عنق كل فيل فيّاله وبيده شبه الطبرزين من الحديد يؤدبه به، ويقومه لما يراد منه، وعلى ظهر كل فيل شبه الصندوق العظيم يسع عشرين من المقاتلة، وأكثر من ذلك ودونه على حسب ضخامة الفيل وعظم جرمه، وفي أركان هذا الصندوق أربعة أعلام مركوزة. وتلك الفيلة معلمة أن تخدم السلطان وتحط رؤوسها. فإذا خدمت قال الحجاب: بسم الله بأصوات عالية. ويوقف أيضاً نصفها عن اليمين ونصفها عن الشمال خلف الرجال الواقفين. وكل من يأتي من الناس المعينين للوقوف في الميمنة أو الميسرة يخدم عند موقف الحجاب، ويقول الحجاب: بسم الله. ويكون ارتفاع أصواتهم بقدر ارتفاع صوت الذي يخدم. فإذا خدم انصرف إلى موقفه من الميمنة أو الميسرة لا يتعداه، ومن كان من كفار الهنود يخدم، ويقول له الحجاب والنقباء: هداك الله، ويقف عبيد السلطان من وراء الناس كلهم، بأيديهم الترسة والسيوف، فلا يمكن الدخول بينهم إلاّ بين يدي الحجاب القائمين بين يدي السلطان.

وإن كان بالباب أحد ممن قدم على السلطان بهدية دخل الحجاب إلى السلطان على ترتيبهم، يقدمهم أمير حاجب ونائبه خلفه، ثم خاص حاجب ونائبه خلفه، ثم وكيل الدار ونائبه، ثم سيد الحجاب وشرف الحجاب. ويخدمون في ثلاثة مواضع. ويعلمون السلطان بمن في الباب. فإذا أمرهم أن يأتوا به جعلوا الهدية التي ساقها بأيدي الرجال يقومون بها أمام الناس بحيث يراها السلطان ويستدعى صاحبها....

وإذا كانت ليلة العيد[1] بعث السلطان إلى الملوك والخواص وأرباب الدولة والأغرة والكتاب والحجاب والنقباء والقواد والعبيد وأهل الأخبار الخلع التي تعمهم جميعاً. فإذا كانت صبيحة العيد زينت الفيلة بالحرير والذهب والجواهر، ستة عشر فيلاً لا يركبها أحد، إنما هي مختصة بركوب السلطان. ويرفع عليها ست عشرة شطراً جترا من الحرير مرصعة بالجوهر، قائمة كل شطر منها ذهب خالص. وعلى كل فيل مرتبة حرير مرصعة بالجوهر. ويركب السلطان فيلاً منها، وترفع أمامه الغاشية وهي ستارة سرجة، وتكون مرصعة بأنفس الجوهر. ويمشي بين يديه عبيده ومماليكه. وكل واحد منهم تكون على رأسه شاشية ذهب، وعلى وسطه منطقة ذهب، وبعضهم يرصعها بالجوهر. ويمشي بين يديه أيضاً النقباء، وهم نحو ثلثمائة. وعلى رأس كل واحد منهم أقروف ذهب، وعلى وسطه منطقة ذهب، وفي يده مقرعة نصابها ذهب، ويركب قاضي القضاة صدر الجهان كمال الدين الغزنوي وقاضي القضاة صدر الجهان ناصر الدين الخوارزمي وسائر القضاة وكبار الأعزة من الخراسانيين والعراقيين والشاميين والمصريين والمغاربة. كل واحد منهم على مطية، وجميع الغرباء عندهم يسمون الخراسانيين، ويركب المؤذنون على الفيلة وهم يكبرون. ويخرج السلطان من باب القصر على هذا الترتيب، والعساكر تنتظره، كل أمير بفوجه على حدة معه طبوله وأعلامه، فيقدم السلطان وأمامه من ذكرناه من المشاة وأمامهم القضاة والمؤذنون

---

[1] في عام 1334م.

يذكرون الله تعالى، وخلف السلطان مراتبه وهي الأعلام والطبول والأبواق والأنفار والصرنايات، وخلفهم جميع أهل دخلته، ثم يتلوهم أخو السلطان مبارك خان بمراتبه وعساكره، ثم يليه ابن أخ السلطان بهرام خان بمراتبه وعساكره، ثم يليه ابن عمه ملك فيروز بمراتبه وعساكره. ثم يليه الوزير بمراتبه وعساكره، ثم يليه الملك مجير بن ذي الرجا بمراتبه وعساكره، ثم يليه الملك الكبير قبولة بمراتبه وعساكره، وهذا الملك كبير القدر عنده عظيم الجاه كثير المال.....

... فإن كان عيد الأضحى أتى السلطان بجمل فنحره برمح يسمونه النيزة بعد أن يجعل على ثيابه فوطة توقياً من الدم، ثم يركب الفيل ويعود إلى قصره.

ويفرش القصر يوم العيد، ويزين بأبدع الزينة، وتضرب الباركة على المشور كله وهي شبه خيمة عظيمة، تقوم على أعمدة ضخام كثيرة، تحفها القباب من كل ناحية، ويصنع به أشجار من حرير ملون فيها شبه الأزهار، ويجعل منها ثلاثة صفوف بالمشور. ويجعل بين كل شجرتين كرسي ذهب عليه مرتبة مغطاة، وينصب السرير الأعظم في صدر المشور[1] وهو من الذهب الخالص كله مرصع القوائم بالجواهر، وطوله ثلاثة وعشرون شبراً وعرضه نحو النصف من ذلك، وهو منفصل، وتجمع قطعه فتتصل، وكل قطعة منها يحملها جملة رجال لثقل الذهب، وتجعل فوق المرتبة، ويرفع الشطر المرصع بالجواهر على رأس السلطان. وعندما يصل على السرير ينادي الحجاب والنقباء بأصوات عالية: بسم الله. ثم يتقدم الناس للسلام....... فإذا فرغ الناس من السلام، وضع لهم الطعام على حسب مراتبهم، وينصب في ذلك اليوم المبخرة العظمى، وهي شبه برج من خالص الذهب منفصلة، فإذا أرادوا اتصالها وصلوها.......

(1) المشور: المجلس.

مأدبة السلطان

والطعام بدار السلطان على صنفين: طعام الخاص وطعام العام. فأما الخاص فهو طعام السلطان الذي يأكل منه. وعادته أن يأكل في مجلسه مع الحاضرين، ويحضر لذلك الأمراء والخواص وأمير حاجب ابن عم السلطان وعماد الملك سرتيز، وأمير مجلس. ومن شاء السلطان تشريفه أو تكريمه من الأغرة أو كبار الأمراء دعاه فأكل معهم، وربما أراد أيضاً تشريف أحد من الحاضرين، فأخذ إحدى الصحاف بيده، وجعل عليها خبزة ويعطيه إياها، فيأخذها المعطى، ويجعلها على كفه اليسرى، ويخدم بيده اليمنى إلى الأرض. وربما بعث من ذلك الطعام إلى من هو غائب عن المجلس، فيخدم كما يصنع الحاضرون، ويأكله مع من حضره. وقد حضرت مرات الطعام الخاص، فرأيت جملة الذين يحضرون له نحو عشرين رجلاً.

وأما الطعام العام فيؤتى به من المطبخ، وأمامه النقباء يصيحون: بسم الله. ونقيب النقباء أمامهم، بيده عمود ذهب، ونائبه معه بيده عمود فضة، فإذا دخلوا من الباب الرابع، وسمع من بالمشور أصواتهم، قاموا قياماً أجمعين، ولا يبقى أحد قاعداً إلاّ السلطان وحده. فإذا وضع الطعام بالأرض، اصطفت النقباء صفاً ووقف أميرهم وتكلم بكلام يمدح فيه السلطان ويثني عليه، ثم يخدم ويخدم النقباء لخدمته، ويخدم جميع من بالمشور من كبير وصغير. وعادتهم أنه من سمع كلام نقيب النقباء حين ذلك وقف إن كان ماشياً، ولزم موقعه إن كان واقفاً، ولا يتحرك أحد، ولا يتزحزح عن مقامه، حتى يفرغ ذلك الكلام. ثم يتكلم أيضاً نائبه كلاماً نحو ذلك، ويخدم النقباء وجميع الناس مرة ثانية. وحينئذ يجلسون، ويكتب كتاب الباب معرفين بحضور الطعام وإن كان السلطان قد علم بحضوره، ويعطي المكتوب لصبي من أبناء الملوك موكل بذلك، فيأتي به إلى السلطان فإذا قرأه عين من شاء من كبار الأمراء لترتيب الناس

وإطعامهم. وطعامهم الرقاق والشواء والأقراص ذوات الجوانب المملوءة بالحلواء، والأرز والدجاج والسمك، وقد ذكرنا ذلك وفسرنا ترتيبهم وعادتهم، أن يكون في صدر سماط الطعام القضاة والفقهاء والخطباء والشرفاء والمشايخ، ثم أقارب السلطان، ثم الأمراء الكبار، ثم سائر الناس. ولا يقعد أحد إلاّ في موضع معين له، فلا يكون بينهم تزاحم البتة........ فإذا فرغوا من الأكل أتوا بالفقاع في أكواز القصدير. فإذا أخذوه قال الحجاب: بسم الله، ثم يؤتي بأطباق التنبول والفوفل، فيعطى كل واحد غرفة من الفوفل المهشوم، وخمس عشرة ورقة من التنبول مجموعة مربوطة بخيط حرير أحمر. فإذا أخذ الناس التنبول قال الحجاب: بسم الله، فيقفون جميعاً، ويخدم الأمير المعين للإطعام، ويخدمون لخدمته، ثم ينصرفون. وطعامهم مرتان في اليوم الواحد إحداهما قبل الظهر والأخرى بعد العصر.

.... وكان السلطان قد بعث هدية إلى الخليفة بديار مصر أبي العباس، وطلب منه أن يبعث له أمر التقدمة على بلاد الهند والسند، اعتقاداً منه في الخلافة فبعث إليه الخليفة أبو العباس ما طلبه مع شيخٍ من شيوخ بديار مصر ركن الدين. فلما قدم عليه، بالغ في إكرامه، وأعطاه عطاءً جزلاً. وكان يقوم له متى دخل عليه ويعظمه، ثم صرفه وأعطاه أموالاً طائلة....

.... ولما دخلنا من الباب الثالث ظهر لنا المشور الكبير المسمى هزار اسطون استون ومعنى ذلك ألف سارية، و به يجلس السلطان الجلوس العام. فخدم الوزير عند ذلك حتى قرب رأسه من الأرض. وخدمنا نحن بالركوع، وأوصلنا أصابعنا إلى الأرض، وخدمتنا لناحية سرير السلطان، وخدم جميع من معنا. فلما فرغنا من الخدمة، صاح النقباء بأصوات عالية: بسم الله وخرجنا......

..... ولما تقدمنا للطعام، خدم الحجاب والنقباء، وخدمنا لخدمتهم. ثم أتوا بالشربة فشربنا. وقال الحجاب: بسم الله، ثم أكلنا، وأتوا بالفقاع والتنبول، وقال الحجاب: بسم الله، فخدمنا جميعاً. ثم دعينا إلى موضع هنالك، فخلع علينا حلل الحرير المذهبة، وأتوا بنا إلى باب القصر، تحت ثياب غير مخيطة من حرير وكتان. فأعطي كل

واحد منا نصيبه منها. ثم أتوا بطيفور ذهب فيه الفاكهة اليابسة، وبطيفور مثله فيه الجلاب، وبطيفور ثالث فيه التنبول. ومن عادتهم أن الذي يخرج له ذلك، يأخذ الطيفور بيده، ويجعله على كاهله، ويخدمه بيده الثانية إلى الأرض. فأخذ الوزير الطيفور بيده قصد أن يعلمني كيف أفعل إيناساً منه وتواضعاً ومبرة، جزاه الله الخير. ففعلت كما فعل. وانصرفنا إلى الدار المعدة لنزولنا بمدينة دهلي، وبمقربة من دروازة بالم[1] منها، وبعث لنا الضيافة.

ولما وصلنا إلى الدار التي أعدت لنزولي وجدت فيها ما يحتاج إليه من فرش وبسط وحصر وأوان وسرير الرقاد، وأسرتهم بالهند خفيفة الحمل، يحمل السرير منها الرجل الواحد ولا بد لكل أحد أن يستصحب السرير في السفر، يحمله غلامه على رأسه، وهو أربع قوائم مخروطة، يعرض عليها أربعة أعواد، وتنسج عليها ضفائر من الحرير والقطن، فإذا نام الإنسان عليه لم يحتج ما يرطبه به، لأنه يعطي الرطوبة من ذاته. وجاءوا مع السرير بمضربين ومخدتين ولحاف، كل ذلك من الحرير وعادتهم أن يجعلوا للمضربات واللحوف اللحف وجوهاً تغشيها وأتوا تلك الليلة برجلين أحدهما الطاحوني ويسمونه الخراص والثاني الجزار ويسمونه القصاب فقالوا لنا خذوا من هذا كذا وكذا من الدقيق، ومن هذا كذا وكذا من اللحم، لأوزان لا أذكرها الآن وعادتهم أن يكون اللحم الذي يعطون بقدر وزن الدقيق، وهذا الذي ذكرناه في ضيافة أم السلطان وبعدها وصلتنا ضيافة السلطان وسنذكرها. ولما كان من غير ذلك اليوم ركبنا إلى دار السلطان، وسلمنا على الوزير، فأعطاني بدرتين، كل بدرة من ألف دينار دراهم، وقال لي: هذه سر ششتي ثستي ومعناه لغسل رأسك. وأعطاني خلعة من المرعز، وكتب جميع أصحابي وخدامي وغلماني، فجعلوا أربعة أصناف، فالصنف الأول منها أعطي كل واحد منهم مائتي دينار، والصنف الثاني أعطي كل واحد منهم مائة وخمسين ديناراً والصنف الثالث أعطي كل واحد منهم مائة دينار.

---

(1) جنوب غربي المدينة.

والصنف الرابع أعطي كل واحد منهم خمسة وسبعين ديناراً، وكانوا نحو أربعين وكان جملة ما أعطوه أربعة آلاف دينار ونيفاً. وبعد ذلك عينت ضيافة السلطان، وهي ألف رطل هندية من الدقيق، ثلثها من الميرا وهو الدرمك، وثلثاها من الخشكار وهو المدفون، وألف رطل من اللحم، ومن السكر والسمن والسليف والفوفل أرطال كثيرة، لا أذكر عددها والألف من ووق التنبول والرطل الهندي عشرون رطلاً من أرطال المغرب، وخمسة وعشرون من أرطال مصر، وكانت ضيافة خداوند زاده أربعة آلاف رطل من الدقيق، ومثلها من اللحم، مع ما يناسبها مما ذكرناه.

الدفن وما يحيط به من عادات وطقوس

ولما كان بعد شهر ونصف من مقدمنا توفيت بنت لي سنها دون السنة. فاتصل خبر وفاتها بالوزير، فأمر أن تدفن في زاوية بناها خارج دروازة بالم، بقرب مقبرة هنالك لشخنا إبراهيم القونوي، دفناها بها وكتب بخبرها إلى السلطان فأتاه الجواب في عشي اليوم الثاني، وكان بين متصيد السلطان وبين الحضرة مسيرة عشرة أيام وعادتهم أن يخرجوا إلى قبر الميت صبيحة الثالث من دفنه، ويفرشون جوانب القبر بالبسط وثياب الحرير، ويجعلون على القبر الأزاهير، وهي لا تنقطع هنالك في فصل من الفصول كالياسمين وقل شبه كل شبو وهي زهر أصفر، وريبول وهو أبيض، والنسرين وهو على صنفين أبيض وأصفر، ويجعلون أغصان النارنج والليمون بثمارها، وإن لم يكن فيها ثمار علقوا منها حبات بالخيوط ويصبون على القبر الفواكه اليابسة وجوز النارجيل، ويجتمع الناس ويؤتى بالمصاحف فيقرأون القرآن، فإذا ختموا أتوا بماء الجلاب فسقوه الناس، ثم يصب عليهم ماء الورد صباً، ويعطون التنبول ويصرفون.

ولما كان صبيحة الثالث من دفن هذه البنت، خرجت الصبح على العادة، وأعددت ما تيسر من ذلك كله، فوجدت الوزير قد أمر بترتيب ذلك، وأمر بسراجة فضربت على القبر، وجاء الحاجب شمس الدين الفوشنجي الذي تلقانا بالسند،

والقاضي نظام الدين الكرواني وجملة من كبار أهل المدينة، ولم آتِ إلاّ والقوم المذكورون، قد أخذوا مجالسهم، والحاجب بين أيديهم، وهم يقرأون القرآن فقعدت مع أصحابي بمقربة من القبر. فلما فرغوا من القراءة، قرأ القراء بأصوات حسان، ثم قام القاضي فقرأ رثاء في البنت المتوفاة، وثناء على السلطان. وعند ذكر اسمه قام الناس جميعاً قياماً فخدموا ثم جلسوا، ودعا القاضي دعاء حسناً، ثم أخذ الحاجب وأصحابه براميل ماء الورد وصبوا على الناس، ثم داروا عليهم بأقداح شربة النبات، ثم فرقوا عليهم التنبول، ثم أتي بإحدى عشرة خلعة لي ولأصحابي ثم ركب الحاجب وركبنا معه إلى دار السلطان، فخدمنا للسرير على العادة، وانصرفت إلى منزلي فما وصلت إلاّ وقد جاء الطعام من دار المخدومة جهان، ما ملأ الدار ودور أصحابي، وأكلوا جميعاً. وأكل المساكين. وفضلت الأقراص والحلواء والنبات، فأقامت بقاياها أياماً، وكان فعل ذلك كله بأمر السلطان وبعد أيام جاء الفتيان من دار المخدومة جهان بالدولة وهي المحفة التي يحمل فيها النساء، ويركبها الرجال وهي شبه السرير، سطحها من ضفائر الحرير أو القطن، وعليها عود شبه الذي على البوجات عندنا، معوج من القصب الهندي المغلوق، ويحملها ثمانية رجال في نوبتين: يستريح أربعة، ويحمل أربعة، وهذه الدول بالهند كالحمير بديار مصر، عليها ينصرف أكثر الناس فمن كان له عبيد حملوه، ومن لم يكن له عبيد اكترى رجالاً يحملونه. وبالبلد منهم جماعة يسيرة، يقفون في الأسواق وعند باب السلطان، وعند أبواب الناس للكري، وتكون دول النساء مغشاة بغشاء حرير. وكذلك كانت هذه الدولة التي أتى الفتيان بها من دار أم السلطان، فحملوا فيها جاريتي، وهي أم البنت المتوفاة وبعثت أنا معها عن هدية جارية تركية فأقامت الجارية أم البنت المتوفاة عندهم ليلة، وجاءت في اليوم الثاني وقد أعطوها ألف دينار دراهم، وأساور ذهب مرصعة، وتهليلاً من الذهب مرصعاً وقميص كتان مزركشاً بالذهب وخلعة حرير مذهبة وتختاً بأثواب ولما جاءت بذلك أعطيته لأصحابي وللتجار الذين لهم علي الدين، محافظة على نفسي، وصوناً لعرضي لأن المخبرين يكتبون إلى السلطان بجميع أحوالي. وفي أثناء إقامتي أمر السلطان أن يعين

لي من القرى ما يكون فائدة خمسة آلاف دينار في السنة، فعينها لي الوزير وأهل الديوان، وخرجت إليها فمنها قرية تسمى بَدَلي، وقرية تسمى بَسَهي، ونصف قرية تسمى بَلَرة، وهذه القرى على مسافة ستة عشر كروهاً وهو الميل، بصدي يعرف بصدي هندبت، والصدي عندهم مجموع مائة قرية من قرى بلاد الهند، وأحواز المدينة مقسومة أصداء، وكل صدي له جوطري، وهو شيخ من كفار تلك البلاد، ومتصرف، وهو الذي يضم مجابيها. وكان قد وصل في ذلك الوقت سبي من الكفار، فبعث الوزير إلي عشر جوار منه، فأعطيت الذي جاء بهن واحدة منهن، فما رضي بذلك، وأخذ أصحابي ثلاثاً صغار منهن، وباقيهن لا أعرف ما اتفق لهن. والسبي هنالك رخيص الثمن، لأنهن قذرات لا يعرفن مصالح الحضر، والمعلمات رخيصات الأثمان، فلا يفتقر أحد إلى شراء السبي. والكفار ببلاد الهند في بر متصل وبلاد متصلة مع المسلمين والمسلمون غالبون عليهم وإنما يمتنع الكفار بالجبال والأوعار، ولهم غيضات من القصب، وقصبهم غير مجوف، ويعظم ويلتف بعضه على بعض، ولا تؤثر فيه النار، وله قوة عظيمة فيسكنون تلك الغياض، وهي لهم مثل السور، وبداخلها تكون مواشيهم وزروعهم، و فيها المياه مما يجتمع من ماء المطر فلا يقدر عليهم إلا بالعساكر القوية من الرجال الذين يدخلون تلك الغياض، ويقطعون تلك القصب بآلات معدة لذلك..........

السحرة الجوكية

وأخبرني محمد التوفيري من أهلها، وكان جاراً لي بها أنه دخل داره ليلاً وافترس صبياً من فوق السرير. وأخبرني غيره أنه كان مع جماعة في دار عرس فخرج أحدهم لحاجة فافترسه أسد فخرج أصحابه في طلبه، فوجدوه مطرحاً بالسوق وقد شرب دمه، ولم يأكل لحمه. وذكروا أنه كذلك فعله بالناس. ومن العجب أن بعض الناس أخبرني أن الذي يفعل ذلك ليس سبع، وإنما هو آدمي من السحرة المعروفين بالجوكية، يتصور

في صورة سبع. ولما أخبرت بذلك أنكرته، وأخبرني جماعة. ولنذكر بعضاً من أخبار هؤلاء السحرة.

فهؤلاء الطائفة تظهر منهم العجائب، ويروى أن أحدهم يقيم الأشهر لا يأكل ولا يشرب، وكثير منهم تحفر لهم حفر تحت الأرض وتبنى عليه، فلا يترك له إلاّ موضع يدخل منه الهواء. ويقيم بها الشهور. وسمعت أن بعضهم يقيم كذلك سنة ورأيت بمدينة منجرور رجلاً من المسلمين ممن يتعلم منهم، قد رفعت له طبلة، وأقام بأعلاها، لا يأكل ولا يشرب مدة خمسة وعشرين يوماً، وتركته كذلك. فلا أدري كم أقام بعدي. والناس يذكرون أنهم يركّبون حبوباً، يأكلون، الحبة منها لأيام معلومة وأشهر، فلا يحتاج في تلك المدة إلى طعام ولا شراب. ويخبرون بأمور مغيبة والسلطان يعظمهم ويجالسهم. ومنهم من يقتصر في أكله على البقل، ومنهم من لا يأكل اللحم وهم الأكثرون. والظاهر من حالهم أنهم عودوا أنفسهم الرياضة. ولا حاجة لهم في الدنيا وزينتها. ومنهم من ينظر إلى الإنسان فيقع ميتاً من نظرته وتقول العامة: إنه إذا قتل بالنظر، وشق عن صدر الميت، وجد دون قلب. ويقولون: أكل قلبه. وأكثر ما يكون هذا في النساء. والمرأة التي تفعل ذلك تسمى كفتار..................

.... وقد بعث إلى السلطان يوماً وأنا عنده بالحضرة، فدخلت عليه وهو في خلوة، وعنده بعض خواصه ورجلان من هؤلاء الجوكية، وهم يلتحفون بالملاحف، ويغطون رؤوسهم لأنهم ينتفونها بالرماد، كما ينتف الناس آباطهم. فأمرني بالجلوس فجلست فقال لهما: إن هذا العزيز من بلاد بعيدة في فأرياه ما لم يره، فقالا نعم. فتربع أحدهما، ثم ارتفع عن الأرض حتى صار في الهواء فوقنا متربعاً. فعجبت منه، وأدركني الوهم فوقعت على الأرض. فأمر السلطان أن أسقى دواء عنده، فأفقت وقعدت، وهو على حاله متربع. فأخذ صاحبه نعلاً له من شكارة كانت معه فضرب بها الأرض كالمغتاظ فصعدت إلى أن علت فوق عنق المتربع وجعلت تضرب في عنقه، وهو ينزل قليلاً قليلاً حتى جلس معنا. فقال السلطان: إن المتربع هو تلميذ صاحب النعل. ثم قال: لولا أني أخاف على عقلك لأمرتهم أن يأتوا بأعظم مما رأيت. فانصرفت عنه، وأصابني الخفقان، ومرضت، حتى أمر لي بشربة أذهبت ذلك عني.

ولنعد لما كنا بسبيله فنقول: سافرنا من مدينة برون إلى منزل أمواري ثم منزل كجرا، وبه حوض عظيم طوله نحو ميل، وعليه الكنائس فيها الأصنام، قد مثل بها المسلمون. وفي وسطه ثلاث قباب من الحجارة الحمر على ثلاث طباق، وعلى أركانه الأربعة قباب. ويسكن هنالك جماعة من الجوكية، وقد لبدوا شعورهم، وطالت، حتى صارت في طولهم، وغلبت عليهم صفرة الألوان من الرياضة. وكثير من المسلمين يتبعونهم ليتعلموا منهم، ويذكرون أن من كان به عاهة من برص أو جذام يأوي إليهم مدة طويلة فيبرأ بإذن الله تعالى. وأول ما رأيت هذه الطائفة بمحلة السلطان طرمشيرين ملك تركستان، وكانوا نحو الخمسين. فحفر لهم غاراً تحت الأرض، وكانوا مقيمين به لا يخرجون إلاّ لقضاء حاجة. ولهم شبه القرن[1] يضربونه أول النهار وآخره، وبعد العتمة. وشأنهم كله عجب. ومنهم الرجل الذي صنع للسلطان غياث الدين الدامغاني سلطان بلاد المعبر حبوباً بأكلها تقويه على الجماع، وكان من أخلاطها برادة الحديد فأعجبه فعلها، فأكل منها أزيد من مقدرات الحاجة فمات. وولي ابن أخيه ناصر الدين فأكرم هذا الجوكي ورفع قدره.

ثم سافرنا إلى مدينة جنّديري[2]. مدينة عظيمة لها أسواق حافلة يسكنها أمير أمراء تلك البلاد عز الدين البنتاني وهو المدعو بأعظم ملك، وكان خيراً فاضلاً يجالس أهل العلم.... ثم سرنا من جنديري إلى مدينة ظهار... وهي مدينة المالوة، أكبر عمار تلك البلاد، وزرعها كثير، خصوصاً القمح. ومن هذه المدينة تحمل أوراق التنبول إلى دهلي وبينهما أربعة وعشرون يوماً، وعلى الطريق بينهما أعمده منقوش عليها عدد الأميال فيما بين كل عمودين. فإذا أراد المسافر أن يعلم عدد ما سار في يومه، وما بقي له إلى المنزل وإلى المدينة التي يقصدها قرأ النقش الذي في الأعمدة فعرفه. ومدينة ظهار إقطاع للشيخ إبراهيم الذي من أهل ذيبة المهل.

---

(1) القرن: البوق.
(2) في إقليم كوتا.

سافرنا من مدينة أجين إلى مدينة دولة آباد[1]، وهي المدينة الضخمة العظيمة الشأن الموازية لحضرة دهلي، في رفعة قدرها واتساع خطتها. وهي منقسمة ثلاثة أقسام: أحدها دولة آباد وهو مختص بسكنى السلطان وعساكره، والقسم الثاني اسمه الكَتَكَة، والقسم الثالث قلعتها التي لا مثل لها ولا نظير في الحصانة وتسمى الدويقير. وبهذه المدينة سكنى الخان الأعظم قطلوخان معلم السلطان وهو أميرها، والنائب عن السلطان بها، وببلاد صاغر وبلاد التلنك[2] وما أضيف إلى ذلك، وعمالتها مسيرة ثلاثة أشهر، عامرة كلها لحكمه ونوابه فيها. وقلعة الدويقير التي ذكرناها في قطعة حجر في بسيط من الأرض، قد نحتت وبني بأعلاها، يصعد إليها بسلم مصنوع من جلود ويرفع ليلاً. ويسكن بها المفردون وهم الزماميون بأولادهم. وفيها سجن أهل الجرائم العظيمة في جيوب بها. وبها فيران ضخام أعظم من القطوط[3]، والقطوط تهرب منها، ولا تطيق مدافعتها لأنها تغلبها. ولا تصاد إلاّ بحبل تدار عليها. وقد رأيتها هناك، فعجبت بها.

وأهل بلاد دولة آباد هم قبيل المرهتة الذين خص الله نساءهم بالحسن، وخصوصاً في الأنوف والحواجب. ولهن من طيب الخلوة والمعرفة بحركات الجماع ما ليس لغيرهن. وكفار هذه المدينة أصحاب تجارة. وأكثر تجارتهم في الجواهر، وأموالهم طائلة. وهم يسمون الساهة وأحدهم ساهٍ بإهمال السين، وهم الأكارم بديار مصر. وبدولة آباد العنب والرمان. ويثمران مرتين في السنة. وهي من أعظم البلاد مجبى، وأكبرها خراجاً، لكثرة عمارتها واتساع عمالتها. وأخبرت أن بعض الهنود التزم مغارمها وعمالتها جميعاً. وهي كما ذكرناها مسيرة ثلاثة أشهر، بسبعة عشر كروراً، والكرور مائة لك واللك مائة ألف دينار. ولكنه لم يف بذلك، فبقي عليه بقية، وأخذ ماله وسلخ جلده.

---

(1) ربما هي مدينة أحمد أباد الحالية.
(2) مملكة هندية عاصمتها وارانكل.
(3) يقصد القطط.

وبمدينة دولة آباد سوق للمغنين والمغنيات تسمى سوق طرب آباد، من أجمل الأسواق وأكبرها. فيه الدكاكين الكثيرة. كل دكان له باب يفضي إلى دار صاحبه. وللدار باب سوى ذلك. والحانوت مزين بالفرش، وفي وسطه شكل مهد كبير، تجلس فيه المغنية أو ترقد، وهي متزينة بأنواع الحلي، وجواريها يحركن مهدها. وفي وسط السوق قبة عظيمة مفروشة مزخرفة، يجلس فيها أمير المطربين بعد صلاة العصر من كل خميس، وبين يديه خدامه ومماليكه. وتأتي المغنيات طائفة بعد أخرى، فيغنين بين يديه ويرقصن إلى وقت المغرب، ثم ينصرف. وفي تلك السوق المساجد للصلاة. ويصلي الأئمة فيها التراويح في شهر رمضان. وكان بعض سلاطين الكفار بالهند إذا مر بهذه السوق ينزل بقبتها، وتغني المغنيات بين يديه. وقد فعل ذلك بعض سلاطين المسلمين أيضاً. ثم سافرنا إلى مدينة نَذَرْبار... مدينة صغيرة، يسكنها المرهتة، وهم أهل الإتقان في الصنائع والأطباء والمنجمون وشرفاء المرهتة هم البراهمة، وهم الكتريون أيضاً. وأكلهم الأرز والخضر ودهن السمسم. ولا يرون بتعذيب الحيوان ولا ذبحه. ويغتسلون للأكل كغسل الجنابة، ولا ينكحون في أقاربهم إلاّ فيمن كان بينهم سبعة أجداد. لا يشربون الخمر، وهي عندهم أعظم المعائب. وكذلك هي ببلاد الهند عند المسلمين. ومن شربها من مسلم جلد ثمانين جلدة، وسجن في مطمورة ثلاثة أشهر، لا تفتح عليه إلاّ حين طعامه.....

ثم سافرنا من صاغر المذكورة إلى كِنْبَاية[1]... وهي على خورٍ منِ البحر، وهو شبه الوادي، تدخله المراكب وبه المد والجزر. وعاينت المراكب به مُرْساةً في الوحل حين الجزر، فإذا كان المد عامت في الماء. وهذه المدينة من أحسن المدن في إتقان البناء وعمارة المساجد..... وكان لقندهار سلطان كافر جَالَنْسي... وهو تحت حكم الإسلام، ويعطي لملك الهند هدية كل عام. لما وصلنا إلى قندهار خرج إلى استقبالنا، وعظمنا أشد التعظيم، وخرج عن قصره فأنزلنا به. وجاء إلينا من عنده من كبار المسلمين كأولاد خواجه بهره. ومنهم الناخوذة إبراهيم، له ستة من المراكب مختصة له. ومن هذه المدينة

---

(1) كمباي.

ركبنا البحر في مركب لإبراهيم المذكور تسمى الجاكر.. وجعلنا فيه من خيل الهدية سبعين فرساً، وجعلنا باقيها مع خيل أصحابنا في مركب أخي إبراهيم المذكور يسمى منورت.... وأعطانا جالنسي مركباً جعلنا فيه ظهير الدين وسنبل وأصحابهما، وجهزه لنا بالماء والزاد والعلف. وبعث معنا ولداً في مركب يسمى العكيري... وهو شبه إلا أنه أوسع منه. وفيه ستون مجذافاً. ويسقف حين القتال حتى لا ينال الجذافين شيء من السهام ولا الحجارة.

.... ثم سافرنا منها ووصلنا في اليوم الثاني إلى مدينة قوقة وهي ضم القاف الأولى وفتح الثانية، مدينة كبيرة عظيمة الأسواق، فرسينا[1] على أربعة أميال منها بسبب الجزر، ونزلت في عشاري مع بعض أصحابي حين الجزر لأدخل إليها فوحل العشاري في الطين، وبقي بيننا وبين البلد نحو ميل.

.... وكان لقوقة سلطان يسمى دُنْكُول وكان يظهر الطاعة لملك الهند، وهو في الحقيقة عاص..............................

بلاد المليبار

مدينة هنور

وسافرنا تلك الساعة. وبالغد وصلنا إلى مدينة هِنَوْر[2] وهي على خور كبير تدخله المراكب الكبار. والمدينة على نصف ميل من البحر. وفي أيام البشكال، وهو المطر، يشتد هيجان هذا البحر وطغيانه، فيبقى مدة أربعة أشهر لا يستطيع أحد ركوبه إلاّ للتصيد فيه.

---

(1) الأصح فرسونا.

(2) هنور لعلها هوناڤار وتقع على مصب نهر شاراواتي. وهي أول بلاد المليبار غربي سندابور من بلاد الكجرات، كما يقول القلقشندي.

وأهل مدينة هنور شافعية المذهب، لهم صلاح ودين وجهاد في الحرب وقوة، وبذلك عرفوا، حتى أذلهم الزمان بعد فتحهم لسندابور، وسنذكر ذلك. ولقيت من المتعبدين بهذه المدينة الشيخ محمد الناقوري، أضافني بزاويته. وكان يطبخ الطعام بيده استقذاراً للجارية والغلام. ولقيت بها الفقيه إسماعيل معلم كتاب الله تعالى وهو ورع حسن الخلق كريم النفس، والقاضي بها نور الدين علي، والخطيب لا أذكر اسمه. ونساء هذه المدينة وجميع هذه البلاد الساحلية لا يلبسن المخيط، وإنما يلبسن ثيابا غير مخيطة. تحتزم إحداهن بأحد طرفي الثوب وتجعل باقيه على رأسها وصدرها. ولهن جمال وعفاف. وتجعل إحداهن خرص ذهب في أنفها. ومن خصائصهن أنهن جميعاً يحفظن القرآن الكريم. ورأيت بالمدينة ثلاثة عشر مكتباً لتعليم البنات، وثلاثة وعشرين لتعليم الأولاد. ولم أر ذلك في سواها. ومعاش أهلها من التجارة في البحر. ولا زرع لهم. وأهل بلاد المليبار. يعطون للسلطان جمال الدين في كل عام شيئاً معلوماً، خوفاً منه لقوته في البحر... وكان أيام إقامتي يدعوني للافطار.... وترتيبه أن يؤتى بمائدة نحاس يسمونها خونجة، ويجعل عليها طبق نحاس يسمونه الطَالَم، وتأتى جارية حسنة ملتحفة بثوب حرير فتقدم قدور الطعام بين يديه، ومعها مغرفة نحاس كبيرة، فتغرف بها من الأرز مغرفة واحدة، وتجعلها في الطالم، وتصب فوقها السمن، وتجعل مع ذلك عناقيد الفلفل المملوح والزنجبيل الأخضر والليمون المملوح والعنبا[1]، فيأكل الإنسان لقمة، ويتبعها بشيء من تلك الموالح. فإذا تمت الغَرفة التي جعلها في الطالم غرفت غرفة أخرى من الأرز، وأفرغت دجاجة مطبوخة في سكرجة، فيؤكل بها الأرز أيضاً. فإذا تمت الغَرفة الثانية، وغرفت وأفرغت لوناً آخر من الدجاج تؤكل به. فإذا تمت ألوان الدجاج، أتوا ألوان من السمك، فيأكلون بها الأرز أيضاً. فإذا فرغت ألوان السمك، أتوا بالخضر مطبوخة بالسمن، والألبان فيأكلون بها الأرز، فإذا فرغ ذلك كله أتوا بالكوشان، وهو اللبن الرائب، وبهذا يختمون طعامهم. فإذا وضع علم أنه لم يبق شيء

---

[1] العنبا: ثمر المنغا.

يؤكل بعده. ثم يشربون على ذلك الماء السخن، لأن الماء البارد يضر بهم في فصل نزول المطر. ولقد أقمت عند هذا السلطان في كرة أخرى أحد عشر شهراً، لم آكل خبزاً، إنما طعامهم الأرز. وبقيت أيضاً بجزائر المهل[1] و سيلان وبلاد المعبر والمليبار ثلاث سنين لا آكل فيها إلاّ الأرز، حتى كنت لا أستسيغه إلاّ بالماء. ولباس هذه السلطان ملاحف الحرير والكتان والرقاق، يشد في وسطه فوطة، ويلتحف ملحفتين: إحداهما فوق الأخرى....

وبعد ثلاثة أيام وصلنا إلى بلاد المُلَيْبار وهي بلاد الفلفل. وطولها مسيرة شهرين على ساحل البحر من سندابور إلى كولم، والطريق في جميعها بين ظلال الأشجار. وفي كل نصف ميل بيت من الخشب فيه دكاكين يقعد عليها كل وارد وصادر من مسلم وكافر. وعند كل بيت منها بئر يشرب منها ورجل كافر موكل بها. فمن كان كافراً سقاه في الأواني. ومن كان مسلماً سقاه في يديه. ولا يزال يصب له حتى يشير له أن يكف. وعادة الكفار ببلاد المليبار أن لا يدخل المسلم دورهم، ولا يطعم في أوانيهم. فإن طعم فيها كسروها وأعطوها للمسلمين. وإذا دخل المسلم موضعاً منها لا يكون فيه دار للمسلمين، طبخوا الطعام وصبوه له على أوراق الموز وصبوا عليه الإدام. وما فضل عنه تأكله الكلاب والطير. وفي جميع المنازل بهذا الطريق ديار المسلمين ينزل عندهم المسلمون فيبيعون منهم جميع ما يحتاجون إليه، ويطبخون لهم الطعام. ولولاهم لما سافر فيه مسلم. وهذا الطريق الذي ذكرنا أنه مسيرة شهرين. ليس فيه موضع شبر فما فوقه دون عمارة. وكل إنسان بستانه على حدة وداره في وسطه. وعلى الجميع حائط خشب. والطريق يمر في البساتين. فإذا انتهى إلى حائط بستان كان هنالك درج خشب يصعد عليها ودرج آخر ينزل عليها إلى البستان الآخر. هكذا مسيرة الشهرين.

---

[1] هي جزر المالديف.

ولا يسافر أحد في تلك البلاد بدابة ولا تكون الخيل إلاّ عند السلطان وأكثر ركوب أهلها في دولة على رقاب العبيد أو المستأجرين. ومن لم يستطع أن يركب في دولة[1]، مشى على قدميه كائناً من كان. ومن كان له رحل أو متاع من تجارة وسواها اكترى رجالاً يحملونه على ظهورهم، فنرى هنالك التاجر ومعه المائة فما دونها أو فوقها يحملون أمتعته، وبيد كل واحد منهم عود غليظ له زج حديد، وفي أعلاه مخطاف حديد، فإذا أعيا ولم يجد دُكّانَةً يستريح عليها، ركز عوده بالأرض، وعلق حمله منه، فإذا استراح أخذ حمله من غير معين، ومضى به. ولم أر طريقاً آمن من هذا الطريق. وهم يقتلون السارق على الجوزة الواحدة. فإذا سقط شيء من الثمار لم يلتقطه أحد، حتى يأخذها صاحبه. وأخبرت أن بعض الهنود مروا على الطريق فالتقط أحدهم جوزة. وبلغ خبره إلى الحاكم، فأمر بعود، فركز في الأرض وبرى طرفه الأعلى، وأدخل في لوح خشب حتى برز منه. ومد الرجل على اللوح، وركز في العود وهو على بطنه حتى خرج من ظهره، وترك عبرة للناظرين. ومن هذه العيدان على هذه الصورة بتلك الطريق كثير ليراها الناس فيتعظوا. ولقد كنا نلقى الكفار بالليل في هذه الطريق فإذا رأونا تنحوا عن الطريق حتى نجوز. والمسلمون أعز الناس بها، غير أنهم كما ذكرنا لا يؤاكلونهم ولا يدخلونهم دورهم. وفي بلاد المليبار اثنا عشر سلطاناً من الكفار. منهم القوي الذي يبلغ عسكره خمسين ألفاً، ومنهم الضعيف الذي عسكره ثلاثة آلاف. ولا فتنة بينهم البتة، ولا يطمع القوي منهم في انتزاع ما بيد الضعيف. وبين بلاد أحدهم وصاحبه باب خشب منقوش فيه اسم الذي هو مبدأ عمالته، ويسمونه باب أمان فلان. وإذا سافر مسلم أو كافر بسبب جناية من بلاد أحدهم ووصل إلى باب أمان الآخر أمن على نفسه. ولم يستطع الذي هرب عنه أخذه، وإن كان القوي صاحب العدد والجيوش. وسلاطين تلك البلاد يورثون ابن الأخت ملكهم دون أولادهم. ولم أر من يفعل ذلك إلا مسوفة أهل الثلم اللثام، وسنذكرهم فيما بعد. وإذا أراد السلطان من

---

(1) محمل يشبه المحفة.

أهل بلاد المليبار منع الناس من البيع والشراء آمر بعض غلمانه، فعلق على الحوانيت بعض أغصان الأشجار بأوراقها، فلا يبيع ولا يشتري ما دامت عليها تلك الأغصان.

وشجرات الفلفل شبيهة بدوالي العنب، وهم يغرسونها إزاء النارجيل، فتصعد فيها كصعود الدوالي إلاّ أنها ليس لها عسلوج، وهو الغزل كما للدوالي. وأوراق شجره تشبه آذان الخيل. بعضها يشبه أوراق العليق، ويثمر عناقيد صغاراً. حبها كحب أبي قنينة، إذا كانت خضراء. وإذا كان أوان الخريف قطفوه وفرشوه على الحصر في الشمس. كما يصنع بالعنب عند تزبيبه. ولا يزالون يقلبونه حتى يستحكم يبسه، ثم يبيعونه من التجار. والعامة ببلادنا يزعمون أنهم يقلونه بالنار. وبسبب ذلك يحدث فيه التكريش، وليس كذلك، وإنما يحدث ذلك فيه بالشمس. ولقد رأيته بمدينة قالقوط، يصب للكيل، كالذرة ببلادنا. وأول مدينة دخلناها من بلاد المليبار مدينة أبي سَرور بفتح السين، وهي صغيرة على خور كبير، كثيرة أشجار النارجيل. وكبير المسلمين بها الشيخ جمعه المعروف بأبي ستة، أحد الكرماء. أنفق أمواله على الفقراء والمساكين حتى نفذت. وبعد يومين منها وصلنا إلى مدينة فاكَنور. وهي مدينة كبيرة على خور بها قصب السكر الكثير الطيب الذي لا مثيل له بتلك البلاد. وبها جماعة من المسلمين يسمى كبيرهم بحسين السلاط، وبها قاض وخطيب. وعمر بها حسين المذكور مسجداً لإقامة الجمعة..................

السفن الصينية المتنوعة ومراسيها

.... ثم سافرنا من مدينة بدفتن إلى مدينة فَنْدرينا. مدينة كبيرة حسنة ذات بساتين وأسواق. وبها للمسلمين ثلاث محلات، في كل محلة مسجد والجامع بها على الساحل، وهو عجيب، له مناظر ومجالس على البحر. وقاضيها وخطيبها رجل من أهل عمان، وله أخ فاضل. وبهذه البلدة تشتو مراكب الصين. ثم سافرنا منها إلى مدينة قالقوط... وهي إحدى البنادر العظام ببلاد المليبار. يقصدها أهل الصين والجاوة وسيلان والمهل

وأهل اليمن وفارس. ويجتمع بها تجار الآفاق. ومرساها من أعظم مراسي الدنيا، وكان سلطان قالقوط كافراً يعرف بالسامري، وهو شيخ مسن يحلق لحيته، كما تفعل طائفة الروم، رأيته بها، وسنذكره إن شاء الله. وأمير التجار بها إبراهيم شاه بندر من أهل البحرين فاضل ذو مكارم، يجتمع إليه التجار، ويأكلون في سماطه. وقاضيها فخر الدين عثمان فاضل كريم، وصاحب الزاوية بها الشيخ شهاب الدين الكازروني، وله تعطى النذور التي ينذر بها أهل الهند والصين للشيخ أبي إسحاق الكازروني نفع الله به. وبهذه المدينة الناخوذة مثقال، الشهير الاسم، صاحب الأموال الطائلة والمراكب الكثيرة لتجارته بالهند والصين واليمن وفارس.

.... وأقمنا بمرساها، وبه يومئذ ثلاثة عشر من مراكب الصين ونزلنا بالمدينة. وجعل كل واحد منا في دار. وأقمنا ننتظر زمان السفر إلى الصين ثلاثة أشهر، ونحن في ضيافة الكافر، وبحر الصين لا يسافر فيه إلاّ بمراكب الصين. ولنذكر ترتيبها.

ومراكب الصين ثلاثة أصناف: الكبار تسمى الجنوك، واحدها جُنْك، والمتوسطة اسمها الزّوّ. والصغار اسم أحدها الكَكَم. ويكون في المركب الكبير منها اثنا عشر قلعاً فما دونها إلى ثلاثة، وقلعها من قضبان الخيزران منسوجة كالحصر لا تحط أبداً، ويديرونها بحسب دوران الريح. وإذا أرسوا تركوها واقفة في مهب الريح، ويخدم في المركب منها ألف رجل، منهم البحرية ستمائة، ومنهم أربعمائة من المقاتلة تكون فيهم الرماة وأصحاب الدرق والجرخية، وهم الذي يرمون بالنفط. ويتبع كل مركب كبير منها ثلاثة: النصفي والثلثي والربعي. ولا تصنع هذه المراكب إلا بمدينة الزيتون من الصين، أو بصين كلان، وهي صين الصين. ضخام جداً، موصولة بالعرض والطول بمسامير ضخام، طول المسمار منها ثلاثة أذرع. فإذا التأم الحائطان بهذه الخشب صنعوا على أعلاهما فرش الأسفل، ودفعوهما في البحر، وأتموا عمله، وتبقى تلك الخشب والحائطان موالية الماء ينزلون فيغتسلون ويقضون حاجتهم. وعلى جوانب تلك الخشب تكون مجاذيفهم، وهي كبار كالصواري، يجتمع على أحدها العشرة والخمسة عشر رجلاً، ويجذفون وقوفاً على أقدامهم. ويجعلون للمركب أربعة ظهور، ويكون فيه

البيوت والمصاري والغرف للتجار، والمصرية[1]، منها يكون فيه البيوت والسنداس، وعليها المفتاح يسدها صاحبها، و معه الجواري والنساء، وربما كان الرجل في مصريته فلا يعرف به غيره ممن يكون بالمركب، حتى يتلاقيا إذا وصلا بعض البلاد. والبحرية يسكنون فيه أولادهم ويزدرعون الخضر والبقول والزنجبيل في أحواض خشب، ووكيل المركب كأنه أمير كبير، وإذا نزل إلى البر مشت الرماة والحبشة بالحراب والسيوف والأطبال والأبواق والأنفار أمامه. كذلك مدة إقامته. ومن أهل الصين من تكون له المراكب الكثيرة، يبعث بها وكلاءه إلى البلاد. وليس في الدنيا أكثر أموالاً من أهل الصين.

السفر إلى الصين

ولما حان وقت السفر إلى الصين، جهز لنا السلطان السامري جنكاً من الجنوك الثلاثة عشر التي بمرسى قالقوط. وكان وكيل الجنك يسمى بسليمان الصفدي الشامي، وبيني وبينه معرفة. فقلت له: أريد مصرية لا يشاركني فيها أحد، لأجل الجواري. ومن عادتي أن لا أسافر إلاّ بهن. فقال: إن تجار الصين قد اكتروا المصاري ذاهبين وراجعين. ولصهري مصرية أعطيكها، لكنها لا سنداس فيها. وعسى أن تمكن معاوضتها. فأمرت أصحابي فأوسقوا ما عندي من المتاع، وصعد العبيد والجواري إلى الجنك، وذلك في يوم الخميس. وأقمت لأصلي الجمعة وألحق بهم. وصعد الملك سنبل وظهير الدين مع الهدية. ثم أن فتى لي يسمى بهلال أتاني غدوة الجمعة فقال: أن المصرية التي أخذناها بالجنك ضيقة لا تصلح، فذكرت ذلك للناخوذة، فقال: ليس في ذلك حيلة، فإن أحببت أن تكون في الككم ففيه المصاري على اختيارك. فقلت: نعم. وأمرت أصحابي، فنقلوا الجواري والمتاع إلى الككم. واستقروا به قبل صلاة الجمعة. وعادة هذا البحر أن

---

(1) المصرية: غرفة في السفينة.

يشتد هيجانه كل يوم بعد العصر ، فلا يستطيع أحد ركوبه. وكانت الجنوك قد سافرت، ولم يبق منها إلا الذي فيه الهدية، وجنك عزم أصحابه على أن يشتوا بفندرينا، والككم المذكور، فبتنا ليلة السبت على الساحل، لا نستطيع الصعود إلى الككم، ولا يستطيع من فيه النزول إلينا. ولم يكن بقي معي إلاّ بساط أفترشه. وأصبح الجنك والككم يوم السبت على بعد من الموسى. ورمى البحر بالجنك الذي كان أهله يريدون فندرينا، فتكسر. ومات بعض أهله، وسلم بعضهم، وكانت فيه جارية لبعض التجار عزيزة فرغب في إعطاء عشرة دنانير ذهباً لمن يخرجها. وكانت قد التزمت خشبة في مؤخر الجنك. فانتدب لذلك بعض البحرية الهرمزين فأخرجها، وأبى أن يأخذ الدنانير، وقال: إنما فعلت ذلك لله تعالى. ولما كان الليل رمى البحر بالجنك الذي كانت فيه الهدية، فمات جميع من فيه. ونظرنا عند الصباح إلى مصارعهم، ورأيت ظهير الدين قد انشق رأسه، وتناثر دماغه، والملك سنبل قد ضرب مسمار في أحد صدغيه، ونفذ من الآخر. وصلينا عليهما ودفناهما. ورأيت الكافر سلطان قالقوط[1] في وسطه شقة بيضاء كبيرة قد لفها من سرته إلى ركبته، وفي رأسه عمامة صغيرة، وهو حافي القدمين، والشطر بيد غلام فوق رأسه، والنار توقد بين يديه في الساحل، وزبانيته يضربون الناس لئلا ينتهبوا ما يرمي البحر. وعادة بلاد المالبيار أن ما انكسر من مركب، يرجع ما يخرج منه للمخزن إلاّ في هذا البلد خاصة، فإن ذلك يأخذه أربابه. ولذلك عمرت، وكثر تردد الناس إليها. ولما رأى أهل الككم ما حدث عن الجنك، رفعوا قلعهم وذهبوا، ومعهم جميع متاعي وغلماني وجواري، وبقيت منفرداً على الساحل، ليس معي إلاّ فتىً أعتقته. فلما رأى ما حل بي ذهب عني، ولم يبق عندي إلاّ العشرة الدنانير التي أعطانيها الجوكي، والبساط الذي كنت أفترشه. وأخبرني الناس أن ذلك الككم لا بد له أن يدخل مرسى كولم، فعزمت على السفر إليها، وبينهما مسيرة عشر في البر أو في النهر أيضاً لمن أراد ذلك. فسافرت في النهر، واكتريت رجلاً من المسلمين

---

(1) كاليكوت.

يحمل لي البساط. وعادتهم إذا سافروا في ذلك النهر أن ينزلوا بالعشي فيبيتوا بالقرى التي على حافتيه، ثم يعودوا إلى المركب بالغدو. فكنا نفعل ذلك. ولم يكن بالمركب إلاّ مسلم اكتريته، وكان يشرب الخمر عند الكفار إذا نزلنا ويعربد علي، فيزيد خاطري. ووصلنا في اليوم الخامس من سفرنا إلى كُنْجي كَري...، وهي بأعلى جبل هنالك. يسكنها اليهود، ولهم أمير منهم، ويؤدون الجزية لسلطان كولم.

وجميع الأشجار التي على هذا النهر أشجار القرفة والبقم، وهي حطبهم هنالك. ومنها كنا نوقد النار لطبخ طعامنا في ذلك الطريق. وفي اليوم العاشر وصلنا مدينة كَولَم، وهي أحسن بلاد المليبار، وأسواقها حسان، وتجارها يعرفون بالصُّوليين. لهم أموال عريضة، يشتري أحدهم المركب بما فيه، ويسوقه من داره بالسلع. من بلاد العراق. وهو رافضي، ومعه أصحاب له على مذهبه، وهم يظهرون ذلك. وقاضيها فاضل من أهل قزوين. وكبير المسلمين بها محمد شاه بندر، وله أخ فاضل كريم اسمه تقي الدين. والمسجد الجامع بها عجيب، عمره التاجر خواجه مهذب. وهذه المدينة أول ما يوالي الصين من بلاد الماليبار. وإليها يسافر أكثرهم. والمسلمون بها أعزة محترمون. وكان سلطان كولم كافراً يعرف بالتِرَوري. وهو معظم للمسلمين. وله أحكام شديدة على السراق والدعار......................................

بلاد المعبر

فسافرنا بقصد بلاد المعبر. وقويت الريح، وكاد الماء يدخل في المركب، ولم يكن لنا رئيس عارف..... وحينئذ جاء إلينا بعض الكفار في قارب لهم، ونزلنا معهم إلى الساحل ببلاد المعبر، فأعلمناهم أنا من أصحاب سلطانهم، وهم تحت ذمته. فكتبوا إليه بذلك. وهو على مسيرة يومين في الغزو، كتبت أنا إليه بما اتفق علي، وأدخلنا أولئك الكفار إلى غيضة عظيمة، فأتونا بفاكهة تشبه البطيخ تثمرها، شجرة المقل. وفي داخلها شبه قطن، فيه عسلية يستخرجونها، ويصنعون منها حلواء يسمونها التل، وهي تشبه

السكر. وأتوا بسمك طيب وأقمنا ثلاثة أيام. ثم وصل من جهة السلطان أمير يعرف بقمر الدين معه جماعة من فرسان ورجال، وجاءوا بالدولة وبعشرة خيول، فركبت وركب أصحابي وصاحب المركب وإحدى الجاريتين، وحملت الثانية في الدولة، ووصلنا إلى حصن هَرْكَاتُو وبتنا. وتركت فيه الجواري وبعض الغلمان والأصحاب، ووصلنا في اليوم الثاني إلى محلة السلطان. وسلطان بلاد المعبر هو غياث الدين الدامغاني.

.... وكانت بلاد المعبر تحت حكم السلطان محمد ملك دهلي.... وعادتهم بالهند أن لا يدخل أحد على السلطان دون خف. ولم يكن عندي خف، فأعطاني بعض الكفار خفاً. وكان هنالك من المسلمين جماعة، فعجبت من أن الكافر كان أتم مروءة منهم. ودخلت على السلطان، ودخلت على السلطان، فأمرني بالجلوس، ودعا القاضي الحاج صدر الزمان بهاء الدين. وأنزلني في جواره في ثلاثة من الأخبية، وهم يسمونها الخيام. وبعث بالفرش وبطعامهم. وهو الأرز واللحم. وعادتهم هنالك أن يسقوا اللبن الرائب على الطعام. كما يفعل ببلادنا..... وعادتهم أن يصنعوا على المحلة سوراً من خشب، يكون له أربعة أبواب. ويسمونه الكُتْكَر، ويصنعون على دار السلطان كتكراً ثانياً، ويصنعون خارج الكتكر الأكبر مصاطب، ارتفاعها نحو نصف قامة، ويوقدون عليها النار بالليل. ويبيت عندها العبيد والمشاءون، ومع كل واحد منهم. حزمة من رقيق القصب. فإذا أتى أحد الكفار ليضربوا على المحلة ليلاً، أوقد كل واحد منهم الحزمة التي بيده، فعاد الليل شبه النهار، لكثرة الضياء......

إلى بلاد الصين

ثم سافرنا عن بلاد طوالسي فوصلنا بعد سبعة عشر يوماً والريح مساعدة لنا، ونحن نسير بها أشد السير وأحسنه إلى بلاد الصين. واقليم الصين متسع، كثير الخيرات والفواكه والزرع والذهب والفضة، لا يضاهيه في ذلك إقليم من أقاليم الأرض.

ويخترقه النهر المعروف بآب حياة، معنى ذلك ماء الحياة، ويسمى أيضاً نهر السبر السرو، كاسم النهر الذي بالهند ومنبعه من جبال بقرب مدينة خان بالق تسمى كوه بوزنه، معناه جبل القرود. ويمر في وسط الصين مسيرة ستة أشهر إلى أن ينتهي إلى صين الصين. وتكتنفه القرى والمزارع والبساتين والأسواق كنيل مصر، إلاّ أن هذه أكثر عمارة وعليه النواعير الكثيرة.

وببلاد الصين السكر الكثير مما يضاهي المصري، بل يفضله، والأعناب والإجاص. وكنت أظن أن الإجاص العثماني الذي بدمشق لا نظير له، حتى رأيت الإجاص الذي بالصين. وبها البطيخ العجيب، يشبه بطيخ خوارزم وأصفهان. وكل ما ببلادنا من الفواكه فإن بها مثله وأحسن منه. والقمح بها كثير جداً، ولم أر قمحاً أطيب منه، وكذلك العدس والحمص.

وأما الفخار الصيني فلا يصنع منه إلاّ بمدينة الزيتون وبصين كلان. وهو من تراب جبل هنالك، توقد فيه النار كالفحم، وسنذكر ذلك، ويضيفون إليه حجارة عندهم. ويوقدون النار عليها ثلاثة أيام، ثم يصبون عليها الماء، فيعود الجميع تراباً، ثم يخمرونه. فالجيد منه ما خمر شهراً كاملاً، ولا يزاد على ذلك. والدون ما خمر عشرة أيام. وهو هنالك بقيمة الفخار ببلادنا أو أرخص ثمناً. ويحمل إلى الهند وسائر الأقاليم، حتى يصل إلى بلادنا بالمغرب. وهو أبدع أنوع الفخار.

ودجاج الصين وديوكها ضخمة جداً، أضخم من الإوز عندنا. وبيض الدجاج عندهم أضخم من بيض الإوز، عندهم فلا ضخامة لها. ولقد اشترينا دجاجة، فأردنا طبخها، فلم يسع لحمها في برمة واحدة، فجعلناها في برمتين. ويكون الديك بها على قدر النعامة. وربما انتتف ريشها، فيبقى بضعة حمراء. وأول ما رأيت الديك الصينى بمدينة كولم، فظننته نعامة وعجبت منه، فقال لي صاحبه: إن ببلاد الصين ما هو أعظم منه. فلما وصلت إلى الصين رأيت مصداق ما أخبرنى به من ذلك.

وأهل الصين كفار يعبدون الأصنام، ويحرقون موتاهم كما تفعل الهنود. وملك الصين تتري من ذرية تنكيز خان. وفي كل مدينة من مدن الصين مدينة للمسلمين،

ينفردون بمكانهم. ولهم فيها المساجد لإقامة الجمعات وسواها. وهم معظمون محترمون. وكفار الصين يأكلون الخنازير والكلاب. ويبعونها في أسواقهم. وهم أهل رفاهية وسعة عيش، إلاّ أنهم لا يحتفلون في مطعم ولا ملبس. وترى التاجر الكبير منهم الذي لا تحصى أمواله كثرة، وعليه جبة قطن خشنة. وجميع أهل الصين إنما يحتفلون في أواني الذهب والفضة. ولكل واحد منهم عكاز يعتمد عليه في المشي، ويقولون هو الرِّجل الثالثة. والحرير عندهم كثير جداً، لأن الدودة تتعلق بالثمار وتأكل منها فلا تحتاج إلى كثير مؤونة، ولذلك كثر، وهو لباس الفقراء والمساكين بها، ولولا التجار لما كانت له قيمة. ويباع الثوب الواحد من القطن عندهم بالأثواب الكثيرة من الحرير. وعادتهم أن يسبك التاجر ما يكون عنده من الذهب والفضه قطعاً، تكون القطعة منها من قنطار فما فوقه وما دونه، ويجعل ذلك على باب داره. ومن كان له خمس قطع منها، جعل في إصبعه خاتماً، ومن كانت له عشر جعل خاتمين، ومن كان له خمس عشرة سموه السِّتي، وهو بمعنى الكارمي بمصر. ويسمون القطعة الواحدة منها بَرْكالة.

وأهل الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم. وجميع ما يتحصل ببلادهم من ذلك يسكبونه قطعاً، كما ذكرناه، وإنما بيعهم وشراؤهم. بقطع كاغد[1]، كل قطعة منها بقدر الكف، مطبوعة بطابع السلطان، وتسمى الخمس والعشرون قطعة منها، بَالِشْت، وهو بمعنى الدينار عندنا، وإذا تمزقت تلك الكواغد في يد إنسان حملها إلى دار كدار السكة عندنا، فأخذ عوضها جدداً ودفع تلك. ولا يعطي على ذلك أجرة ولا سواها، لأن الذين يتولون عملها لهم الأرزاق الجارية من قبل السلطان، وقد وكل بتلك الدار أمير من كبار الأمراء. وإذا مضى الإنسان إلى السوق بدرهم فضة أو دينار يريد شراء شيء، لم يؤخذ منه، ولا يلتفت عليه، حتى يصرفه بالبالشت، ويشتري به ما أراد.

---

(1) نقد ورقي حريري.

وجميع أهل الصين والخطا[1]، إنما فحمهم تراب عندهم، منعقد كالطَّفل عندنا، ولونه الطَّفل، تأتي الفيلة بالأحمال منه، فيقطعونه قطعاً على قدر قطع الفحم عندنا، ويشعلون النار فيه. فيتقد كالفحم، وهو أشد حرارة من نار الفحم. وإذا صار رماداً عجنوه بالماء ويبسوه وطبخوا به ثانية. ولا يزالون يفعلون به كذلك إلى أن يتلاشى. ومن هذا التراب يصنعون أواني الفخار الصيني، ويضيفون إليه حجارة سواه، كما قلنا.

وأهل الصين أعظم الأمم إحكاماً للصناعات، وأشدهم إتقاناً فيها، وذلك مشهور من حالهم، قد وصفه الناس في تصانيفهم فأطنبوا فيه، وأما التصوير فلا يجاريهم أحد في إحكامه، من الروم ولا من سواهم. فإن لهم فيه اقتداراً عظيماً. ومن عجيب ما شاهدت لهم من ذلك، أني ما دخلت قط مدينة من مدنهم، ثم عدت إليها، إلاّ ورأيت صورتي وصور أصحابي منقوشة في الحيطان والكواغد، موضوعة في الأسواق.

ولقد دخلت إلى مدينة السلطان فمررت على سوق النقاشين، ووصلت إلى قصره مع أصحابي، ونحن على زى العراقيين. فلما عدت من القصر عشياً، مررت بالسوق المذكورة، فرأيت صورتي وصور أصحابي منقوشة في كاغد قد ألصقوه بالحائط. فجعل الواحد منا ينظر إلى صورة صاحبه لا تخطئ شيئاً من شبهه.

وذكر لي السلطان أمرهم بذلك، وأنهم أتوا إلى قصره ونحن به، فجعلوا ينظرون إلينا ويصورون صورنا، ونحن لم نشعر بذلك، وتلك عادة لهم في تصوير كل من يمر بهم. وتنتهي حالهم في ذلك إلى أن الغريب إذا فعل ما يوجب فراره عنهم، بعث صورته إلى البلاد، وبحث عنه. فحيثما وجد شبه تلك الصورة أخذ. قال ابن جزي: هذا مثل ما حكاه أهل التأريخ من قضية سابور ذي الأكتاف، ملك الفرس، حين دخل إلى بلاد الروم متنكراً، وحضر وليمة صنعها ملكهم، وكانت صورته على بعض

[1] شمال الصين.

الأواني فنظر إليها بعض خدام قيصر، فانطبعت على صورة سابور. فقال الملكه: إن هذه الصورة تخبرني أن كسرى معنا في هذا المجلس. فكان الأمر على ما قاله، وجرى فيه ما هو مسطور في الكتب.

وعادة أهل الصين إذا أراد جنك من جنوكهم السفر، صعد إليه صاحب البحر وكتابه، وكتبوا من يسافر فيه من الرماة والخدم والبحرية، وحينئذ يباح لهم السفر. فإذا عاد الجنك إلى الصين، صعدوا إليه أيضاً وقابلوا ما قيدوه بأشخاص الناس، فإن فقدوا أحدا ممن قيدوه، طالبوا صاحب الجنك. فإما أن يأتي ببرهان على موته أو فراره، أو غير ذلك مما يحدث عليه، وإلاّ أخذ فيه. فإذا فرغوا من ذلك أمروا صاحب المركب أن يملي عليهم تفصيلاً ما فيه من السلع، قليلها وكثيرها، ثم ينزل من فيه، ويجلس حفاظ الديوان لمشاهدة ما عندهم. فإن عثروا على سلعة قد كتمت عنهم، عاد الجنك بجميع ما فيه مالاً للمخزن وذلك نوع من الظلم ما رأيته ببلاد الكفار ولا المسلمين إلاّ بالصين، اللهم إلاّ أنه كان بالهند ما يقرب منه.

إذا قدم التاجر المسلم على بلد من بلاد الصين خيّر في النزول عند تاجر من المسلمين المتوطنين معيّن أو في الفندق، فإن أحب النزول عند التاجر حصر ماله، وضمنه التاجر المستوطن، وأنفق عليه منه بالمعروف. فإذا أراد السفر بحث عن ماله، فإن وجد شيئاً منه قد ضاع، أغرمه التاجر المستوطن الذي ضمنه، وإن أراد النزول بالفندق، سلم ماله لصاحب الفندق وضمنه، وهو يشتري له ما أحب ويحاسبه، فإن أراد التسري اشترى له جارية، وأسكنه في دار يكون بابها في الفندق، وأنفق عليهما. والجواري رخيصات الأثمان، إلا أن أهل الصين أجمعين يبيعون أولادهم وبناتهم، وليس ذلك عيباً عندهم غير أنهم لا يجبرون على السفر مع مشتريهم، ولا يمنعون أيضاً منه إن اختاروه. وكذلك إن أراد التزوج تزوج. وأما إنفاق ماله في الفساد فشيء لا سبيل له إليه. ويقولون: لا نريد أن يسمع في بلاد المسلمين أنهم يخسرون أموالهم في بلادنا، فإنها أرض ضلال.

وبلاد الصين آمن البلاد وأحسنها حالاً للمسافرين. فإن الإنسان يسافر منفرداً مسيرة تسعة شهور. وتكون معه الأموال الطائلة فلا يخاف عليها. وترتيب ذلك أن لهم في كل منزل ببلادهم فندقا، عليه حاكم يسكن به في جماعة من الفرسان والرجال، فإذا كان بعد المغرب أو العشاء، جاء الحاكم إلى الفندق، ومعه الكاتب لكتابة أسماء من يبيت به من المسافرين، وختم عليها، وأقفل باب الفندق عليهم. فإذا كان بعد الصبح جاء ومعه كاتبه فدعا كل واحد باسمه، وكتب به تفصيلا، وبعث معهم من يوصلهم إلى المنزل الثاني له، ويأتيه ببراءة من حاكمه أن الجميع قد وصلوا إليه. وإن لم يفعل طلبه لهم. وهكذا العمل في كل منزل ببلادهم من صين الصين إلى خان بالق[1]. وفي هذه الفنادق جميع ما يحتاج إليه المسافر من الأزواد، وخصوصاً الدجاج والإوز. وأما الغنم فهي قليلة عندهم. ولنعد إلى ذكر سفرنا فنقول: لما قطعنا البحر، كانت أول مدينة وصلنا إليها مدينة الزيتون. وهذه المدينة ليس بها زيتون[2]، ولا بجميع بلاد أهل الصين والهند، ولكنه اسم وضع عليها، وهي مدينة عظيمة كبيرة، تصنع بها ثياب الكمخا والأطلس، وتعرف بالنسبة إليها، وتفضل على الثياب الخنساوية والخنبالقية. ومرساها من أعظم مراسي الدنيا، أو هو أعظمها. رأيت به نحو مائة جنك كبار، وأما الصغار فلا تحصى كثرة. وهو خور كبير من البحر يدخل في البر حتى يختلط بالنهر الأعظم. وهذه المدينة وجميع بلاد الصين، يكون للإنسان بها البستان والأرض وداره في وسطها. كمثل ما هي بلدة سجلماسة ببلادنا. وبهذا عظمت بلادهم. والمسلمون ساكنون بمدينة على حدة....... جاء إلى كبار التجار، فيهم شرف الدين التبريزي... وهؤلاء التجار لسكانهم في بلاد الكفار، إذا قدم عليهم المسلم فرحوا به أشد الفرح، وقالوا: جاء من أرض الإسلام. وله يعطون زكوات أموالهم، فيعود غنياً، كواحد منهم..... ولما عرف صاحب الديوان أخباري، كتب إلى القان، وهو ملكهم الأعظم،

---

(1) بكين.

(2) قال عنها المؤلفون العرب خانفو أو خانقو، وهي كانتون.

يخبره بقدومي من جهة ملك الهند. فطلبت منه أن يبعث معي من يوصلني لبلاد الصين صين الصين[1]، و يسمونه صين كلان، لأشاهد تلك البلاد، وهي في عمالته، بخلال ما يعود جواب القان. فأجاب إلى ذلك، وبعث معي من أصحابي من يوصلني. وركبت النهر، في مركب يشبه أجفان بلادنا الغزوية، إلاّ أن الجذافين يجذفون فيه قياماً، وجميعهم في وسط المركب.....

(1) لعلها مهاجين الحالية، ومعناها الصين الكبرى.

5

مختارات من مصنفات العجيب

آ

من

عجائب الهند:

لبرزك بن شهريار الناخذاه الرامهرمزي

القرن الرابع الهجري

تحقيق: عبد الله محمد الحبشي

المجمع الثقافي

أبو ظبي 2000

وبعد فإن الله تبارك اسمه وجل ثناؤه، خلق العجائب عشرة أجزاء فجعل تسعة منها في ركن المشرق، وجزءاً في ثلاثة أركان الأرض، التي هي المغرب والشمال والجنوب، ثم جعل في الصين والهند ثمانية أجزاء منها وجزءاً في باقي المشرق.

[بعض من عجائب الهند]

فمما في الهند ما حدثنا به أبو محمد الحسن بن عمرو بن حمويه بن حرام بن حمويه النجيرمي، بالبصرة قال: كنت بالمنصورة[1] في سنة ثمان وثمانين ومائتين، وحدثني بعض مشايخها ممن يوثق به أن ملك الرا[2]، وهو أكبر ملوك بلاد الهند والناحية التي هو بها بين قشمير[3] الأعلى وقشمير الأسفل، وكان يسمى مهروك بن رائق، كتب في سنة سبعين ومائتين إلى صاحب المنصورة، وهو عبد الله بن عمر بن عبد العزيز يسأله أن يفسر له شريعة الإسلام بالهندية، فأحضر عبد الله هذا رجلا كان بالمنصورة أصله من العراق حدّ[4] القريحة حسن الفهم شاعراً، قد نشأ ببلاد الهند وعرف لغاتهم على اختلافها، فعرّفه ما سأله ملك الرا فعمل قصيده وذكر فيها ما يحتاج إليه وأنفذها إليه، فلما قرأت على ملك الرا استحسنها، وكتب إلى عبد الله يسأله حمل صاحب القصيدة، فحمله إليه، وأقام عنده، ثلاث سنين، ثم انصرف عنه، فسأله عبد الله عن أمر ملك الرا فشرح له أخباره، وأنه تركه وقد أسلم قلبه ولسانه، وأنه لم يمكنه إظهار الإسلام خوفا من بطلان أمره وذهاب ملكه..............

---

(1) المنصورة. بلد بأرض السند وهي قصبتها مدينة كبيرة كثيرة الخيرات.
(2) الراء بلد بالهند بين قشمير الأعلى وقشمير الأسفل.
(3) سيأتي ذكرها.
(4) لعله: حاد القريحة.

وحدثني: أن لأهل قشمير[1] الأعلى يوم عيد في كل سنة يجتمعون فيه ويصعد خطيبهم على منبر ومعه جرّة من طين غير مطبوخ، فيخطب، ثم يقول: وقوا أنفسكم وأموالكم واحفظوها. ويعظهم ثم يقول: انظروا إلى هذه الجرة من طين وقيت وحفظت فبقيت، وأن لتلك الجرة على ما يقولون أربعة آلاف سنة.....................

[ذكر سرطانات البحر الكبيرة]

وحدثني: أنه سمع في حداثته أن مردويه بن زرايخت، وكان أحد ربانية الصين وبلاد الذهب، ذكر أنه يجتاز بناحية جزيرة الزابج[2] وأنه سلك في بعض الأيام بين قرنين ظاهرين في البحر قدر أنهما جبلين في الماء وأنه لما جاوزهما غاصا، في البحر، فقدر أنهما ظفري سرطان، فقلت لأبي محمد: أحكي عنك هذه الحكاية؟ فقال لي: قد سمعت بها وهو شيء عظيم ما أدري ما أقول فيه إلاّ أن السرطان يعظم في البحر جداً..............................

[ضخامة طيور الهند]

وحدثني الحسن بن عمرو وغيره عن جماعة المشائخ بالهند من أمر طيور الهند والزابج وقمار والصنف، وغيرها من نواحي الهند بأمر عظيم، وأكبر ما رأيت من ريش الطيور قطعة من ريش طائر أسفل ريشه أرانيها أبو العباس السيرافي. طولها نحو ذراعين، قدرنا أنها تسع قِربة ماء[3].

---

(1) قشمير: مدينة متوسطة لبلاد الهند مجاورة لقوم من الترك فاختلط نسلهم بهم.

(2) الزابج: في نخبة الدهر: 152 "بحر الرانج، بالراء المهملة من بحر الصين، وفيها النارجيل المسمى جوز الهند.يعتقد أنها سومطرة الاندونيسية.

(3) يعني في تجويف قصبتها.

وحدثني إسمعيلويه الناخوذا: أنه رأى أسفل ريشةً ببعض بلاد الهند عند رجل من كبار تجارهم كانت إلى جانب داره يصب فيها كالدن العظيم، فتعجبت من ذلك، فقال لي: لا تعجب من هذا حدثني بعض النواخذة الزنج أنه رأى عند ملك سرة أصل ريشة يسع خمساً وعشرين قربة ماء.

في الأصل فلا يمكنه النهوض، ثم ذبحوه وحدثني أبو الحسن علي بن شادان السيرافي قال: أن بعض أهل شيراز حدثه أن بالقرب من شيراز قرية خربها الطائر.

قال: فقلت له كيف خربها.

فقال: حُدِّثنا أن طائراً سقط في بعض الأيام على سطح دار في القرية فخسف السطح وسقط إلى أسفل الدار، فصاح من في الدار وهربوا منه فاجتمع أهل القرية فدخلوا فوجدوا الطير قد ملأ الدار، فلم يتمكنوا من أخذه فأثخنوه بالضرب وكان ثقيلا وقطعوه في الدار واقتسموا لحمه.... وطبخ أهل القرية اللحم في بقية يومهم وأكلوه مع عيالهم وصبيانهم.... فلما مضت أربعة أيام أو خمسة ماتوا حتى لم يبق منهم أحد ممن أكل لحم الطائر إلاّ مات، ....

[عادة ملوك الهند في رسم النابهين]

وقد قيل أن بعض ملوك الهند صوّر محمد بن بابشاد لحالته في النواخذة ومضى اسمه في البحر، ومن رسمهم أن يصوروا كل من له نباهة وقدر ومحل من سائر أصناف الناس.......................

[طريقة سحرة الهند في صيد الطيور والتماسيح]

وحدثني من أقام بالهند زماناً: أن فيهم كهنة، وأن فيهم من يخرج إلى الصحراء فيرى الطيور تطير في الهواء، فيخطّ في الأرض دارة[1] تحت الطيور، فلا تزال تدور في جو فوق الخط إلى أن تقع فيه ثم لا تخرج عنه البته، فيدخل إلى جوف الخط ويأخذ منها ما يريد ويطلق عن بقيتهم.

وكذلك أيضا يُرى في الصحراء طيوراً ترعى فيخط حولها خطاً بعيداً يدور عليها، فما تبرح منه البتة ويدخل إليها فيأخذ منه حاجته.

وحدثني من رأى بعض هذه الطبقة بصندابورة[2] وهو يجيء إلى خورها ومعه خشبة فيتكلم عليها بشيء، ثم يرمي الخشبة في الخور، فتمضي الخشبة إلى موضع، ثم تقف فلا تبرح فيطلع في دونيج ويمضي هو إلى موضع الخشبة، فيخرج تمساحاً فيقلته.

وخور صندابور فيه أمر عظيم من التماسيح، لا تعقر بين الدور أحداً، فإذا خرج الإنسان إلى خارج لا يقدر أن يضع إصبعه في الماء إلاّ اختطفه التمساح، وأهل سريرة يقولون أن معهم طلسم للتمساح.

---

(1) لعلها: دائرة.

(2) في رحلة السيرافي صندرفولات ، هي جزيرة من جزر البحر على بحر الصنف من الصين، وفي رحلة ابن بطوطة سندابور ذكرها ضمن جزر الهند.

[من أخبارهم في الزجر]

وحدثني من رأى ببلاد الهند خلقاً كثيراً يزجرون[1]، وأن بعض التجار من أهل سيراف حدثه: أنه أراد الخروج من صامور[2] إلى سو بارة[3] طريق البر، فقال لصاحب السلطان: يضم إليه رجلا يخفره في طريقه، فضم إليه أحد من كان بين يديه من الباتك[4] وهو الرجالة.

قال: فخرجنا فلما صرنا بظاهر صيمور جلسنا عند ثلاج[5] ـ وهو بركة ماء ـ وجرام ـ وهو البستان ـ نأكل، شيئاً، وفي جملته أرز، فنعق غراب.

فقال الهندي للسيرافي: تعرف ما يقول الغراب.

قال: لا.

قال: يقول لا بد أن آكل من هذا الأرز الذي أكلتموه.

قال: فعجبت من قوله لأنا كنا قد أكلناه جميعه حتى لم يبق منه شيء، ثم نهضنا وأخذنا نمشي، فما سرنا فرسخين حتى لقيتنا خمسة أنفس أو ستة من الهند، فلما رآهم الهندي اضطرب، وقال لي: أن أقاتل هؤلاء.

قلت: ولم؟

---

(1) الزجر: العيافة وهو ضرب من التكهن.
(2) أو صيمور: ذكرها الدمشقي ص173ضمن مدن الهند الساحلية.
(3) ذكرها الدمشقي من سواحل الهند.
(4) من اللفظة الهندية وهم الرجالة.
(5) والثلاج هو بركة الماء في كلام أهل الهند.

قال: لأن بيني وبينهم عداوة.

فلما كلمني بما أراد جردوا خناجرهم واجتمعوا عليه فقتلوه وشقوا بطنه حتى خرج ما فيه، ووقع عليّ من الفزع مالا يمكّني معه المشي، فسقطت كالباهت العقل.

فقالوا لي: لا تفزع فإن هذا بيننا وبينه عداوة، وأنت لا بأس عليك.

ومضوا وتركوني، فما تباعدوا حتى سقط غراب لا أشك في أنه ذلك الغراب، فجعل يلتقط الأرز الذي خرج من جوفه.

[خبر التاجر اليهودي]

ومن طريف أخبار تجار البحر ومن ركبه واستغنى فيه، ما حدث عن إسحق ابن اليهودي، وكان رجلاً يتصرف مع الدلالين بعمان، فوقع بينه وبين رجل من اليهود خصومة، فهرب من عمان إلى بلاد الهند، ومعه نحو مائتي دينار، لم يكن يملك سواها، وغاب عن البلد نحو ثلاثين سنة لا يعرف له خبر.

فلما كان في سنة ثلثمائة ورد عمان، فحدثني غير واحد من إخواننا البحريين: أنه ورد عمان من الصين في مركب لنفسه، وجميع ما فيه له، وأنه قاطع أحمد بن هلال صاحب عمان عن المركب لئلا يحصي ما فيه ويعشر عليه على ألف ألف درهم ونيف، وأنه باع على أحمد بن مروان دفعة واحدة مائة ألف مثقال من المسك الفائق، وقدر ابن مروان أنه ليس معه غير هذا المقدار فباع على أحمد بن مروان بُرُداً[1] بأربعين ألف دينار دفعة أخرى، وباع على رجل آخر بعشرين ألف دينار دفعة أخرى، فاستقاله أحمد بن

---

[1] برد ثياب ملطخة وأردية.

مروان فنقصه في كل مثقال درهماً نقرة[1] فكانت الحطيطة[2] مائة ألف درهم، وكانت معه طريفة من طرف التجار، فطار اسمه في البلاد، وحسده الخلق..........

[ذكر الأشجار المصنوعة من حرير]

وتذاكرنا أمر إسمعيلويه بن إبراهيم بن مرداس، فقيل لي: إنه وصل في سنة سبع عشرة وثلاثمائة، وكان وصوله منذ خطف من كله وإلى أن دخل بكلاء[3] عمان ثمانية وأربعين يوماً، وورد في تلك السنة كاوان[4] من سرنديب وبلغ عشور مركبه ستمائة ألف دينار لا مركب إسمعيلويه.

حدثني عن كاوان هذا: أنه قال أدخلني بغبور[5] الصين إلى بستان بخانفوا مقدار عشرين جريباً[6] فيه نرجس ومنثور[7] وشقايق[8] وورد وسائر الأنوار[9] فعجبت من اجتماع الأنوار الصيف والشتاء في وقت واحد في بستان واحد.

---

(1) في القاموس ن ق ر النقرة القطعة المذابة أي السبيكة من الذهب والفضة وفي صبح الأعشى3 : 439 الدراهم النقرة التي يكون ثلثاها من فضة وثلث من نحاس.

(2) أي المحطوط من جملة الحساب أو المعفو عنه.

(3) أي مرفأ عمان والمكلا الموضع التي تستر فيه السفن من الريح ومنه اسم المكلاء مرفأ حضرموت.

(4) كاوان اسم صاحب المركب، وكأن جزيرة كاوان منسوبة إليه أو أحد قبيل هذا الرجل قال ياقوت: جزيرة كاوان أو بني كاوان جزيرة عظيمة وهي جزيرة لافت من بحر فارس بين عمان والبحرين (ياقوت: معجم البلدان 2: 139).

(5) البغبور: لقب ملك الصين.

(6) الجريب مكيال قدر أربعة اقفزة.

(7) منثور: جنس زهر.

(8) يعني شقايق النعمان نوع من الورد.

(9) الأنوار: جمع نور بفتح النون واسكان الواو الزهر الأبيض.

فقال لي: كيف ترى.

فقلت: ما رأيت حسنة، إلا وهذا أحسن، ولا طرفة إلا وهذا أطرف منها، فقال لي: جميع ما ترى من الأشجار والأنوار معمولة من الحرير.

[فتفقدته بعد أن قال لي هذا فوجدت الورد والأنوار من الحرير]الصيني، قد عمل وضفر وحبك ونسج وسوي، ومن رآه لم يشك فيه أنه شجر ونَور لا يغادر شيئاً.................................

[ذكر استقبال أهل الصين لحاجب الملك]

وحدثني داربزين السيرافي، وهو أخو امرأة عبيد الله بن أيوب، وعبيد الله خال عبد الله بن الفضل القاضي، قال: كنت بخانفوا ـ وهي قصبة الصين الأكبر ـ يوماً، إذ قيل: في غد يدخل البلد أحد من حجاب بغبور، قد وافى بعض النواحي، فجلس الناس من غد في الطريق الذي يجتاز للنظر إليه، وابتدأ أصحابه يدخلون طلوع الشمس، قطعة إلى وقت العصر، ثم أدخل الحاجب نفسه، وإذا معه من الرجال نحو مائة ألف فارس................

[عادة أهل الهند في قتل أنفسهم]

وحدثني من أثق لقوله: أنه شاهد ببعض بلاد الهند رجلين......[1] منهم قد بقينا، وحفر كل واحد منهما بئرا وملأها بعد أن قام فيها على رجله سرجيناً[2]، وجعل فيه

---

(1) بياض في الأصل.

(2) سرجينا: السرجين. الزبل معرب.

ناراً ووسّطا بينهما نرداً، وجعلا يلعبان بها ويمضغان التانبول، ويغنيان والنار تعمل فيهما من أسفل إلى أن بلغت النار إلى قلوبهما فطفيا ولم يظهر منهما تألم ولا تغير.

وقال: إنه لا يعلم هل حدثه هذا الرجل أنهما ماتا في اليوم الأول أو جلسا يلعبان إلى اليوم الثاني وماتا فيه..........

[سبب شد أهل الهند شعورهم]

وحدثني عبد الواحد بن عبد الرحمن الفسوي ــ وهو ابن أخي أبي حاتم الفسوي، وقد سافر سنين كثيرة في البحار ـ أن الهند كانت تشد شعورها مثل القلانس على الرؤوس، وكانت سيوفها مستقيمة قائمة، فوقع بين طائفة منهم وبين طائفة أخرى حرب، فاستظهرت إحداهما على الأخرى فتحكموا عليهم، وقالوا: ما نرجع عنكم إلاّ أن تجعلوا شعوركم ساجدة لشعورنا، وسيوفكم ساجدة لسيوفنا.

فصارت الفرقة المستظهر عليها تشدّ شعورها منكوسة، وسيوفهم مقوسة، وهو القراطل[1] فالرسم باق إلى اليوم على هذا في تلك الطوائف.

وحدثني علي بن محمد بن سهل المعروف بسرور، وقد دخل تتبه ودبابد هذه الدور بها راكبة على الماء وسائر أهلها بهم الشبكرة[2] صغيرهم وكبيرهم لكثرة أكلهم الغيلم[3] وهو ذكر السلاحف، وأن كل واحد منهم يشد من باب منزله إلى الماء حبلا في وتد، فإذا اصفرّت الشمس أخذتهم الشبكرة، فيخرج الواحد من بيته ويمسك الحبل إلى الماء ليقضي حاجته، ويتطهر ويعود إلى منزله، فلا يزال كذلك إلى الغد ضَحوة

---

(1) وهو السيف باللغة السنسكريتية.

(2) الشبكرة العشا معرب(لا يرى ليلاً).

(3) الغيلم: السلحفاة الذكر.

النهار حتى تنبسط الشمس ويضيء النهار، وأن مجّان الغرباء إذا دخلوا بلادهم أخذوا حبل هذا فجعلوه مشدوداً على باب هذا، وحبل هذا على باب هذا، فيخرج الواحد منهم إلى الماء ويعود إلى منزله الآخر فيدخله، فيقع بينهما الشر، ويقول له: دخلت بيتي متعمداً.........

[ذكر لصوص الهند]

وببلاد الهند لصوص يجيء منهم جماعة من بلد إلى بلد فيعبثون على التجار الموسرين إما غريب وإما هندي، فيقبضون عليه في بيته أو في السوق أو في الطريق، ويجردون في وجهه السكاكين ويقولون له: أعطنا كذا وكذا وإلا قتلناك.

فإن تقدم إليهم أحد يمنعهم من الرجل آو سلطان قتلوه، ولم يبالوا عنده أن يقتلوا أو يقتلوا هم أنفسهم بعد، كل ذلك عندهم سواء إذا طالبوا الإنسان لم يسع أحداً أن يكلمهم ولا يتعرض لهم خوفاً من نفسه، ويمضي معهم فيجلس حيث شاؤوا من سوقه أو داره أو دكانه أو في بستانه، فيجمع لهم المال الذي قد قاطعوه عليه والمتاع، وهم مع ذلك يأكلون ويشربون وسكاكينهم مجردة، فإذا جمع ما وافقوه عليه أحضر من يحمله معهم ومضى وهم محيطون به حتى يبلغوا أماكنهم التي يأمنون فيها على أنفسهم، فيطلقونه من هناك ويأخذون المتاع والمال.

وحدثني محمد بن مسلم السيرافي، وكان مقيماً بتانه[1]، نيفاً وعشرين سنة، وقد سافر إلى أكثر بلاد الهند، وعرف أحوال أهلها ومعاملتهم معرفة جيدة، ثم أن اثني عشر نفساً جاؤوا إلى صيمور و تانه، فقبضوا على رجل من التجار هندي له أب يملك مالاً عظيما والأب شديد المحبة به، لا ولد له سواه، فقبضوا عليه في وسط منزله،

---

(1) في تقويم البلدان لأبي الفدا: 359 تانة: من جزرات في الجهة الشرقية من الهند منها، غربي المنيبار قال ابن سعيد هي آخر مدن اللار مشورة على ألسن التجار وأهل هذا الساحل الهندي.

وطالبوه بعشرة آلاف دينار أو نحو ذلك، وكان هذا بعض ما يملكه أبوه، فوجه إلى أبيه يعرفه ما نزل به ويسأله أن يشتريه ويخلصه منهم.

فجاء إليهم فكلمهم ورفق بهم ليأخذوا منه ألف دينار أو نحو ذلك فأبوا، وقالوا: لم نأخذ إلاّ عشرة آلاف دينار.

فلما رآهم على هذه الحالة مضى إلى الملك وعرّفه القضية، وقال: هذا شيء لا دواء له، ومتى لم يقع بهؤلاء القوم نكاية، لم يكد أحد أن يقيم عندكم.

فقال له: كيف نصنع وإن كلمناهم قتلوا ابنك.

فقال له: كيف العمل.

قال: قتلهم سهل علي، وإنما أخاف أن يقتلوا إبنك، ولا ولد لك غيره.

فقال: ما أبالي هؤلاء يطلبون مالاً عظيماً، ولا يجوز لي أن أفقر نفسي وأخلص ولدي بأي وجه، أيها الملك نجمع العشب حول الدار، ونسد بابها ونضرمها بالنار عليهم.

فقال له: يحترق ابنك وعيالك.

فقال: احتراقهم أهون عندي من ذهاب مالي.

فوجه الملك وسد باب الرجل وضرم الباب بالنار، فاحترق القوم وولده وعياله، وجميع ما كان في الدار.

[عادة أهل الهند في إحراق الكبار منهم]

قيل: إن في بلاد الهند الأعلى الرسم في إحراق الشيوخ والعجايز باق.

[ذكر قاعدة ملوك الهند في الجلوس]

وكان من رسم ملوك بلاد الذهب والزابج أن لا يجلس أحد بين أيديهم من المسلمين والغرباء كائناً من كان وسائر أهل ممالكهم إلاّ مربعاً، ويسمى ذلك البرسيلا[1]، فمن مد رجليه أو قعد غير تلك القعدة، فعليه غرامة كلّة ثقيلة بحسب ما يملك، فاتفق أن كان عند ملك من ملوكهم يقال له سرناتاكله، رجل من النواخذة، يقال له: جهود كوتاه له موضع ومحل.

وكان شيخاً مسناً، وجلس بين يديه فطال عليه الأمر ولم يقم سرناتا، وكانوا في حديث لهم، فأخذ جهود كوتاه يحدثهم بحديث آخر، فأدخل في حديثه ذكر الكنعد، فقال: وعندنا بعمان سمك يقال له الكنعد تكون الواحدة كذا ومد رجله وقبض على نصف فخذه، ومنه ما يكون مثل هذا، ومد الرجل الأخرى وقبض على حقوه.

فقال لوزيره: إن لهذا الرجل سبباً، فأنّا كنا في حديث وخرج منه إلى حديث السمك فما السبب في ذلك.

فقال: أيها الملك هذا رجل شيخ قد أسن وضعف، ولا يحتمل أن يجلس هكذا، فلما تعب جعل لاستراحته سبباً ووجهاً.

فقال: الصواب أن نرفع هذا الرسم عن المسلمين الغرباء خاصة، فرفع عنهم، فهو إلى اليوم رسم أن يجلس المسلمون بين أيديهم كما يشتهون، ويجلس غيرهم على الرسم الأول برسيلا فإن غير جلسته كانت عليه الغرامة.

---

(1) إن هذه اللفظة كانت تستعمل في جزر الهند ومعناها جلسة القرفصا وهو يجلس أمام الملك دون أن يمد رجله.

[ذكر كهنة الهند]

ذكرت في فصل قبل هذا أمر عبّاد الهند وزهادهم، وهم عدة أصناف، منهم البيكور[1] وأصلهم من سرنديب، وهم يحبون المسلمين ويميلون إليهم ميلاً شديداً، وهم في الصيف عراة حفاة يستترون بشيء وربما جعل الواحد منهم على سوءته خرقة أربع أصابع في مثل ذلك، مشدودة بخيط في الوسط[2]، وفي الشتاء يتشحون بالحشيشة[3]، ومنهم من يلبسون الإزار مرقعاً من كل لون على لون المرقعة للشهرة، ويلوثون أبدانهم برماد عظام الموتى من الهند الذين أحرقوا، ويحلقون رؤوسهم وينتفون لحاهم وشواربهم، ولم يحلقوا شعر العانة ولا شعر الإبطين، وفي الأكثر [لا] يقصون أظفارهم، ومع الواحد منهم قحف[4] رأس إنسان ميت، فيه يأكل ويشرب على سبيل الاتعاظ بذلك والتواضع............................

---

(1) في رحلة السيرافي: وبالهند قوم يعرفون بالبيكرجيين عراة قد غطت شعورهم أبدانهم وفروجهم، وأظفارهم مستطيلة كالحراب إن كانت لا تقص إلا ما ينكسر منها، وهم على سبيل سياحة، وفي عنق كل رجل منهم خيط فيه جمجمة من جماجم الأنس، فإذا اشتد به الجوع وقف بباب بعض الهنود فأسرعوا إليه بالأرز المطبوخ مستبشرين به فيأكل في تلك الجمجمة، فإذا أشبع انصرف فلا يعود لطلب الطعام إلاّ في وقت حاجته.

(2) في تحقيق ما للهند للبيروني: 144 في ذكر عادات الهند المرذولة: منها أنهم لا يحلقون من الشعر وأصلهم العري لشدة الحر ويضفرون اللحى ويعملون في ترك شعر العانة. ويكتفون من اللباس بخرقة قدر إصبعين يشدها على عورته بخيطين.

(3) الحشيشة دون نسبة والحصر الحشيشية: نسبة إلى الحشيش اليابس وكأنها نوع من الحصر الخفيفة.

(4) قحف الرأس: العظم الذي فوق الدماغ وما انفلق من الجمجمة فانفصل.

وفي مذهب أهل الهند أن الشراب على الرجال حرام وهو للنساء حلال ومن الهند من يشربه سراً.

..... وحكى: أن هذا (الرجل)هو الذي رقى التمساح في خور صندابور فهو إلى الساعة لا يؤذي أحداً البتة في خور صندابور وكذلك خور سريرة لا يؤذي فيه التمساح اليوم أحداً، وقد كان قبل هذا لا يتمكن أحد أن يدنو من الماء إلا ثبته[1] التمساح.

وقد كان في الخور منه شيء عظيم يجاوز الحد، فوقع إليهم رجل هندي، فقال: لملك سريرة أنا أرقي التمساح لا يؤذي أحدا في الخور.

فقال له: افعل حتى أعطيك كذا وكذا.

ثم هرب الرجل فلم يقدر عليه، فلما كان بعد مدة دخل إلى سريرة رجل هندي صاحب رقي وكهانة فصادف بسريرة صديقاً.

فقال له: أريك شيئاً ظريفاً؟

فقال: نعم، فجلس على الخور وتكلم بكلامه، ثم قال: إن شئت فادخل الخور فإن التمساح لا يؤذيك وإن شئت فأحضر من يدخل وإن شئت دخلت أنا.

فقال له: تدخل أنت، فدخل هو، ثم دخل الآخر، ثم دخل الآخر، فجعل التمساح يطوف بهم ولا يؤذيهم، ثم صعدوا.

فقال له: تحب أن أخلي عنهم؟

فقال: افعل.

وطرحوا كلباً فقطعه التمساح، فبلغ الملك خبره فأحضره، وقال: عندك كذا وكذا.

فقال: نعم.

---

(1) أي تمكن منه .

فركب الملك إلى الخور فأحضر معه رجلين يريد قتلهما، فقال له: تكلم على الخور فتكلم، فأدخل أحد الرجلين الخور، فأطافت به التماسيح فلم تؤثر به البتة ولم تعرض له........

[حد السرقة عند أهل الهند]

والسرقة عند الهند عظيمة، فإذا سرق الهندي في بلاد الهند قتله الملك إن كان الهندي وضيعاً أو لا مال له، وإن كان له مال أخذ الملك ماله بأسره أو غرّمه غرامة عظيمة، وكذلك اشترى شيئاً مسروقاً بعد علمه بذلك غرم الغرامة العظيمة، ومجازاة السرقة عندهم القتل، وإن سرق مسلم ببلاد الهند ردّ الحكم في أمره إلى هنرمن، المسلمين ليعمل فيه بما توجبه حكم الإسلام. والهنرمن هو مثل القاضي في بلاد الإسلام ولا يكون الهنرمن إلا من المسلمين.

[ذكر أمور مستقذرة]

وحدثني: أن الجليل[1] من تجار الهند والجند وغيرهم، أو الجليلة[2] من النساء، وإن كانت حظية الملك، يجتاز بروث البقر والجواميس، فان كان معه من يحمله وإلاّ جعل علامة ليُعلم أن ذلك قد صار في حيز[3] آخر. فإذا وجد من يحمله أخذه.

والهند يأكلون الميتة وذلك أنهم يأخذون الشاة أو الطير فيضربون رأسه حتى يموت فإذا مات أكلوه، وقيل لبعض كبارهم بصيمور وسوبارة اجتاز بفأرة ميتة فأخذها بيده ودفعها إلى ابنه أو غلامه وحملها إلى منزله وأكلها، والفأر عندهم من أنظف ما يؤكل.

---

(1) الجليل هنا بمعنى العظيم أو الرجل من علية القوم.
(2) أي العظيمة من النساء كسابقه.
(3) أي صار في حوزة آخر، أي في ملكه.

[صفة بركة]

ومما يحكى لي عن بعض ملوك الصين ـ وهو من الحكايات ـ أن له بركة عظيمة يجيئها الماء من فرسخ، ثم يفتح الماء عنها فينضب كله وهي فارغة، فإذا أحب أن تملأ ماء، أمر بفتح الماء عليها من الموضع الذي يجيء منه، ثم تطرح اللؤلؤ مع الماء، فيجري الماء إلى البركة في نهاية الصفاء واللؤلؤ فيه إلى أن تمتلئ البركة من اللؤلؤ، ويفيض الماء على جوانبها، ثم يقطع الماء عنها، ويبقى اللؤلؤ مثل الحصى.............................

[ذكر الفيلة المعلمة]

وأخبرني بعضهم: أنه شاهد ببعض بلدان الهند فيلة تتصرف في حوائج أربابها، وأن للفيل يدفع إليه الوعاء الذي يشتري فيه الحوائج وفيه الودع[1] وهو نقد القوم، وأنموذج الحاجة كائناً ما كانت، فيكون معه في الوعاء شيء من ذلك الجنس والنقد، ويمضي إلى البقال، فإذا رآه البقال نزل من جميع شغله ولو كان على رأسه من يشتري منه كائناً من كان، وأخذ الوعاء من الفيل فعد الودع الذي فيه ونظر ما يريد بأنموذج متاعه ودفع إليه. أجود ما عنده من ذلك النوع بأرخص سعر ويستزيده فيزيده وربما عد البائع الودع فغلط فيه فيشوّشه[2] الفيل بخرطومه، فيعيد البقال عده ثانية ويمضي الفيل بما اشتراه، فربما استقلّه صاحبه فيضربه، فيعود إلى البقال فيشوّش متاعه ويخلط بعضه ببعض، فإما أن يزيده أو يرد عليه الودع، وأن الفيل الذي هذه صورته يكنس ويرش

---

(1) ذكر ابن بطوطة في رحلته أن الودع عملة سائدة عند بعض أهل تلك الجزائر.

(2) يوشوش أي تكلم بكلام خفيف أو كلام مختلط غير مفهوم.

ويدق الأرز بمدقة يأخذها بخرطومه فيدق، ورجل يجمع عليه الأرز ويطحن الأرز ويستقي الماء، وذلك أنه يأخذ الوعاء الذي يستقي فيه الماء وفي الوعاء حبل، مشدود يدخل خرطومه فيه ويحمله ويقضي جميع الحوائج ويركبه صاحبه في حوائجه البعيدة، ويركبه الصبي ويمضي عليه إلى الصحراء فيقطع الحشيش وورق الشجر بخرطومه ويدفعه إلى الصبي فيجمعه في وعاء معه ويحمله فيكون ذلك طعامه، وأنه إذا كان على هذه الصفة يبلغ مالاً عظيماً وقيل عشرة آلاف درهم............

[ذكر سوق للجن بنواحي قشمير]

ومن أعجب العجائب ما حدثني به بعض البحريين....: أن بنواحي قشمير الأعلى في موضع يقال له ترناراپين وادياً، فيه بساتين وأشجار ومياه تجري فيه، سوق للجن يسمع فيه ضجيجهم في البيع والشراء، ولا ترى أشخاصهم، وأن ذلك لم يزل يعرف على دوام الأيام بذلك الموضع.

فقلت للرجل: سمعت أن بها سوقا قائما أبداً أو في وقت دون وقت.

فقال: ما سألت عن هذا..........

ب

مقتطفات

من كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر

الشيخ الإمام العالم العلامة

شمس الدين أبي عبد الله محمد أبي طالب الأنصاري الصوفي

الدمشقي شيخ الربوة

طبع في مدينة بطرسبورغ المحروسة

في مطبعة الأكادمية الإمبراطورية

1865م

دين الهند

.... وعمن كان يدين بدين الصابئة الهنود وكانت تقول بأزل العالم وأنه معلول بذات علة العلل، ويعظمون الكواكب ويصورون لها صوراً ويمثلونها بها، ويسمون كل صورة منها بدّاً= صنم يقرّبون إليه القرابين ألف سنة، ثم يتخذون غيرها، والكفار منهم إلى عصرنا على ذلك، وفي الملتان من أرض السند بيت، ولما فتح المسلمون الملتان سنة تسع وثمانين من الهجرة وجدوا في البيت الذي فيه الصنم ما ملئ به بيت طوله عشرة أذرع وعرضه ثمانية أذرع وسمكه اثنا عشر ذراعاً، كان يلقى الذهب فيه من كوة في وسطه من أعلاه، وكان المرتب لخدمة هذا الصنم سبعة آلاف سادن فسمي الملتان من هذا التاريخ فرج الذهب. وقيل أن محمود بن سبكتكين قصدهم سنة ست عشرة وأربعماية فوجد لهم صنماً اسمه البد، كان بمدينة صومنات ففتح المدينة وأخذ البد وكان حجراً مربعاً فجعله عتبة لباب جامع غزنة، وكان أهل الهند يعظمون هذا الصنم[1] ويحجون إليه في كل ليلة كسوف ويزعمون أن الأرواح إذا فارقت الأجساد اجتمعت إليه فينشئها مع من ينشئ على مذهب التناسخ، وأن المد والجزر إنما هو عبادة البحر له على قدر استطاعته، وكانوا يحملون لهذا البد الماء كل يوم من بحر الكنك= نهر الغانج ليغسلوه............

---

(1) صنم، ولعله مشتق من (بوذا) الذي اقترن بالأصنام.

الباب السابع

في وصف الممالك الشرقية الكبار والأسقاع والكور التي ملكها المسلمون وجاسوا خلالها وذكر أمصارها ووصف ما فيها ويشتمل على أربعة عشر فصلاً.

الفصل الأول: في وصف سواحل الصين الأقصى وسواحل الهند التي بلغتها التجار ويسمى بالجزيرات بأقصى المشرق فيما هو ذلك في خط الاستواء وفيما وراءه في الجنوب بساحل بحر الظلمات وفيما هو بعد خط الاستواء إلى عرض الإقليم الأول.

والغرض أن نبتدي أبدا بذكر ما هو في الصين الداخل وأقصى المشرق إلى آخر حده، وذكر ما يليه من مغربه نسقاً في عرض بعد عرض وإقليم بعد إقليم حتى نبلغ أقصى ساحل البحر المحيط المغربي، ثم نعود ونذكر ما في أقصى الشرق مما يلي أقصى المشرق المذكور من شماله وإلى أقصى المغرب من شماله، وكذلك أبدا حتى نصل بالذكر إلى حدود إقليم الظلمة التي هي وراء الأقاليم السبعة كما تقدم ذكرها، فمن البلاد التي نبدأ بذكرها ووصف مدنها الأمصار الكبار وكورها المشهوزة بلاد صين الصين وخمدان وتاجه وتبري، وما هو داخل أبواب صين الصين وجبال بلهرا إلى حدود المعبر الكبير بساحل البحر الهند وجبال جهكة الهنود وبلاد الخيزران، فالأقصى المشرقي من بلاد صين الصين الواغلة في الجنوب خلف خط الاستواء، وهي مدينة صينية المصر الجامع والقصبة وهي على ساحل بحر الصنف والمحيط، وبها ملك خمدان ومستقر المملكة، وأهلها كفار يعبدون الأصنام، ويعظمون صنماً منها مصاغاً بالذهب يسمونه تموز، ويقولون أنه عرس روحانية الشمس، ويزعمون أن له بيتاً بأقصى وسط الأرض يعنون بذلك بيت المقدس، وأن على بيت المقدس سبعة أسوار، سور من نار وسور من ذهب وسور من رخام وسور من حجارة وسور من فضة وسور من حديد وسور من نحاس. ويقولون أن في التورية اسم هذا الصنم تموز وكذبوا لعنهم الله بما قالوا

أفكاً كبيراً يعرف اليهود ذلك وإن اسمه باسم شهر تموز. وبساحل صينية مغاص الدر ومنها يدخل من يدخل إلى المحيط من بحر جزائر السيلي. وراء أرض أصطيفون، إلى جزائر الواقواق الواغلة خلفه بالمحيط المظلم. ومن مصبها على بحر خمدان خمدان وتوتيا وبركوه وعرمض وتغرغوه ولكل مدينة كورة وسقع، وكل هذه خلف خط الاستواء وإلى خمس درج عرضاً في الشمال بعد الخط حيث الطول مابة وستون وإلى مابة وست وستين. ثم يلي ملك صينية شمالاً ملك خمدان الأكبر من بلاد صين الصين وقصبته العظمى خمدان، وهو على شاطي نهر خمدان الغربي، ويحيط بها جزيرة مخالطة بنهر منه يكون سعته ثلاثة أيام في مثلها، على ذلك النهر جسور من جهات يعبر العابر عليها إلى خمدان. ولها من المدن الكبار على نهر خمدان إلى ساحل بحر المحيط الزفتي وساحل بحر الصنف خان وخانوا وخلفار وداراب وكولا ورعلوا وصنطا وصقموا وصيرمه. وجميع هؤلاء كفار عباد أصنام صابية. ومعادن الذهب عندهم كثيرة وصورهم ذميمة وخلقهم قردية ولهم من التخييل =الابتكارات والصناعات ما لغيرهم من أهل صين الصين. ثم يلي ذلك من الشمال بلاد الصنف ومدينتهم الكبرى مدينة الصنف على ساحل البحر، وأهلها مسلمون ونصارى وعباد أصنام ووصلت دعوة المسلمين إليها في زمن عثمان رضي الله عنه. وفيما نزل العلويّون الفارون من بني أمية والحجاج ودخلوا البحر الزفتي واستوطنوا بالجزيرة المعروفة بهم إلى الآن. وجزيرة صبح وجزيرة القلعة المضيئة، ومن مدن الصنف خلبا وثوبا وكروي وسحوتا وسمطار وخليفات وببلادهم غالب الأفاوية والبهار. ويلي ذلك شمالاً بلاد خالفور وهي أوسع بلاد صين الصين وطولها من حدود بحر الصنف وإلى آخر نهر خمدان، ثم إلى أذيال جبال النشادر بأقصى مشرق صين الصين، ومن مدنها ستة فوارب وعباب وسمقطر وطالق وبلقان وسلفار، وأهل هذه البلاد أيضاً مسلمون ونصارى وعباد أصنام، والمسلمون أقل عدداً وأقواهم مدداً ولهم العلو عليهم والحكم لهم وبلادهم شبيهة ببلاد الهند في المزاج واللون والعيش وغالب زرعهم الرز والماش، ويجمعون بينهما ويسمون المجموع منهما كشلي يأكلونه بالشيرج. ثم يلي هذه البلاد شمالاً بلاد خانقو

وهو متسع حدوده من ساحل بحر مهراج والصنف وإلى سواحل نهر خمدان الغربية ومن مدن خانقو أربعة كبار أمهات وهي غابوا وغينوا وملكان وقصيان، ومدينة خانقو بساحل نهر خمدان الغربي. ويلي بلاد خانقو من جهة الشمال والمشرق بلاد تبري وهم طائفة بين الخطا[1] والترك والصين في الخلق والأخلاق ولهم قوة وبأس وصناعة محكمة، وهم كفار عباد أصنام جهلة ولهم أربع مدن كبار وهي قرمزا وحرمزا وتبرما وعلفورا، ويحد بلادهم من جهة الشمال أذيال جبال بلهرا ومن جهة المشرق البحر المحيط المشرقي وذلك آخر الإقليم الأول. ويلي بلاد تبري من جهة المغرب بلاد خمدان الأصغر، وهي كثيرة الأنهار والأشجار والطير والمعادن، ومدينتها الكبرى خمدان على بحيرة تسمى بها. وأهلها ما بين مسلمين ونصارى ويهود والكفار بها أكثر عدداً والمسلمون أشد قوة واستعلاء، ولها من المدن ثلاثة جوجو وجماقا وخميروا. ثم يليها من مغربها بلاد آخر صين الصين، وتسمى شين وماشين بالفارسية، وقصبتها الكبرى مدينة تاجه بها التجار المسلمون، ودار الملك شين وماشين، ولها من المدن بساحل بحر المهراج الشمالي أربع مدن وهي كله ولاوري ومهراج وبلهور، وتتصل هذه المملكة بأبواب الصين، وهي جبال ودربندات وعقبات، لا مسالك لأحد فيها إلا بنفسه مع صعوبة، ولها مجاز عليه باب وحراس بالبدل كما على باب الحديد بين التتار وبلاد بركة آلان، وهي متاخمة لجزرات الهند وآخر بلاد الصين، وبلاد بلهرا بحدها ونحو طولها من جهة الشمال، ثم يلي ذلك من الغرب بلاد الجزرات الهندية وفيها بساحل بحر المعبر والمهراج مدن ذوات أسقاع وكور وأعمال كبار، فمنها مدينة القص ساحلية فرضة لها عمل وسقع. ومدن صغار ونحو عشرة آلاف قرية كلها هنود جهلة عباد البدود، ثم يليها مدينة كير الساحلية أيضاً لها سقع كبير، ثم يلي ذلك مدينة بزانه وسقعها نحو من

---

[1] الخطا شمال الصين.

ألف قرية ساحلية ولها خور نحو نصف يمد ويجزر ويأتي من جبال بلهرا[1]، ثم مدينة ركله ساحلية، ثم مدينة منجروسه، وسقعها مشترك وبه نحو من خمسة عشر ألف قرية ولها حصون نحو من سبعين حصناً، كلها بجبال بلهرا المتصلة من أبواب الصين إلى آخر بلاد الجزرات. ويلي سواحل الجزرات سواحل بلاد الار، وهي مملكة سومنات[2]، وقصبة الار كلها السومنات مدينة ساحلية متسعة بها علماء الهنود وعبادهم، وبها البد الذي تعبده الهنود، وهي في جهة البحر للقاصد إليها من عدن، والبد عبارة عن صنم من حجر عند طائفة الهنود صورته إحليل إنسان وفرج امرأة مصنوعان من حجر أو من ذهب أو من حديد، عند طائفة منهم يسمون ذلك العلة القريبة في اتحاد نوع الإنسان، فأما الصنم فإنه يكون على كرسي من ذهب وهو مضمخ بالمسك في رأسه إلى الكرسي ومقلد بعقود الياقوت والجوهر ويكون أمامه أطباق ذهب مملوءة من الأحجار الشريفة الثمينة والكرسي على مقعد مستدير يسع عشرة رجال، ثم أسفله درجة طولها ذراع وعرضها ذراعان وهي مستديرة أوسع من المقعد كأنها دائرة حوله، ثم تحتها درجة ثانية وثالثة إلى تسع درج، وعلى كل درجة من الأصنام ما قد ملأها على صورة الرجال، وبين الدرج سلالم صغار يطلعون السدنة فيها وينزلون، وفي بعضها أبواب إلى الداخل مصنوعة من الحجارة ومن الخشب المدهونة، وهذه الأصنام أكثرها تماثيل الملوك وعظماء الهنود، ولهذا البد في كل يوم ألف قدّ طعام يطبخ من الكشلي، ثم يوضع قدام البد سماط وهي حارة كلها شديدة الحرارة تكشف أغطيتها ويضرب لها نوبة بالطبول والصنوج والمعازف والأبواق من الصدف والقرن والنحاس بأيدي سدنات خادمات أبكار، وتغلق أبوابه على ذلك الطعام بمقدار ما ينقطع بخاره الذي يرتفع منه، وهو حار ويزعمون أن ذلك البخار غذاء أرواح موتاهم اللائذين بالبد بعد موتهم،

---

[1] بلهرا: اسم مملكة ولقب لملكة، ويعتقد أن اسمها محرف عن الكلمة الهندية malva _ day أي ملك مالفا.

[2] سومنات: مدينة هندية فيها أماكن مقدسة للهنود، تقع في مقاطعة كجرات.

وأن البد والأصنام لها روحانيات تغتذي بتلك الأبخرة التي للطعام، ثم يفتحون الأبواب ويفرقون الطعام على السدنة والسدنات وعلى الفقراء والضعفاء المرتبين على ذلك السماط. ومن طوائف المتعبدين والعلماء طائفة يسمون الجوكية أصحاب مخارق وشعبذة وتخييلات[1]، وطائفة يسمون بوكية أصحاب رياضات وتجريد يزيلون بالنورة ما على أبدانهم من الشعر، لا يمشون حيث مشوا، ولا يوجدون حيثما وجدوا أبداً إلاّ وهم أزواج صاحب ومصحوب، ومن خلّتهم أن أحدهما يستمتع بالآخر فيما بين فخذيه طباً منه وإخراجاً للفضلة المؤذية من المني على الوجه الطبيعي، وفي رقبة المصحوب جرس معلق إذا وجد الجوع جاء إلى درب أو سوق أو زقاق أو باب البد، ثم يحرك الجرس تحريكاً مخصوصاً فيتبادر إليه من سبق من سامعيه فيغرف له كشلي، ويناوله إياه فيأتي به إلى صاحبه فيضعه بين يديه ثم يتأخر عنه المصحوب فيأكل ذلك الصاحب منه ما شاء ثم يتأخر فيأتي المصحوب فيأكل ما شاء ثم يترك الباقي، فيأتي الدافع له فيأخذ ما بقي بركة له ولأهله، ومن شأن البركة أيضاً أنهم يتولون حرق جثث ملوكهم وعظامهم ويدخرون رمادهم في موضع حريز، فإذا ركب ملك الوقت كان في موكبه منهم اثنان بيد كل واحد منهما صحفة من ذهب فيها من ذلك الرماد، ويذرون منه على وجوههم وأبدانهم شيئاً فشيئاً إشارة إلى أن هذا مصيرك أيها الملك ففكر فيه ولا تظلم ولا تفعل فيه إلاّ الخير. ومن طوائفهم البراهمة عباد النار يزعمون أن إبراهيم عليه السلام رسول الله إليهم وأن آدم رسول الله بشراً أولاً، وأنهما جعلا قبلة السجود النار، يتوجه المتوجه إليها بالعبادة والسجود، والبراهمة من علماء الهنود، ومن شأنهم أنهم يغيرون لا شيئاً من أبدانهم، ما هو مخلوق فيهم كالأظفار والشعر النابت فيراهم الرائي كالوحوش، وحكى السمرقندي أن ملك بروص زار الصنم فرأى في عنقه عقداً فوق القيمة فنزعه منه ثم تقلد به فعارضوه السدنة، فقال: إنه خلعه علي فإن أنكرتم كسرته وإن صدقتم فقد خلعه علي فصدقوا ظاهراً.

---

(1) تحدث عنهم ابن بطوطة طويلاً، يتعامل معهم على أنهم ما بين السحرة والمتعبدين الهندوس.

ومدينة كنباية[1] كبيرة خطيرة وبها جامع حسن للمسلمين وكنيسة قديمة للنصارى وبد كبير للهنود وبيت نار للمجوس، ومدينة بروص ولها سقع عظيم ولها نحو من أربعة آلاف قرية ولها خور طوله يومان يمد ويجزر وتعبر إليه المراكب من البحر ولها الفلفل والخيزران كثير والله أعلم.

الفصل الثاني: في وصف البلاد الساحلية الهندية من حدود الجزرات شرقاً وإلى آخر بلاد الصولبان وبلاد كرورا غرباً.

فأول بلاد الساحل الهندي بعد مدينة بروص بلاد الكنك، والكنونات، يحدق بها الجبال وهي على شرقي الكنك[2] والكنك هو النهر الذي تقدم ذكره وذكر عبادتهم له، ومدينة برقلي على مصب نهر الكنك وعلى ساحل البحر، ومدينة فوفل ولها سقع كبير، وبها مغاص اللؤلؤ الصغار. ومدينة خورنل وهي حلّة للمراكب الهندية والبحرية. وتوساري، لها خور عظيم تعبر فيه المراكب من البحر، ومدينة دوق ساحلية، وأكانتي ساحلية وسوباره ساحلية، وساهي ساحلية وتانه ساحلية، وتانش ساحلية بها مسجد جامع للمسلمين، ثم فرضة كثيرة التجار والأموال ومدينة هبار جبلية ساحلية، ولهذه البلاد نحو من عشرين ألف قرية ونحو ثلاثين حصناً، ويلي هذه البلاد من غربها بالساحل بلاد بلوان وفيها من المدن ذنوه ساحلية، ومدينة قرثاله وسكبيس ومدينة سندابور وهي القصبة وبها بد للهنود وجامع للمسلمين، ومدينة هنور ساحلية ولها سقع حسن، ولهذه البلاد نحو من عشرة آلاف قرية عامرة. ثم يلي ذلك مدينة منيبار[3] وتسمى بلاد الفلفل وفيها من المدن الأمهات فاكنور ساحلية كبيرة أهلها هنود وعجم وعرب مسلمون، ومدينة صيمور ساحلية، بها خور تعبره المراكب أكبر من خور

---

(1) على خليج كنبي، أو كنباية.

(2) نهر الغانج.

(3) على ساحل المليبار.

فاكنور وأوسع وهما يمدان ويجزران ومدينة منجرور على نهر يعرف بها يصب في البحر، ويمد ويجزر عندها ولها الفلفل كثير. ومدينة هرقلية ساحلية لها سقع كبير ونحو ألف قرية جبلية وساحلية. ومدينة هيلي، ومدينة جرفتّان، ساحلية وأهلها كفار، ومدينة دهفتّان ومدينة بدَفتّان، ومدينة فندرينة؛ وغالب أهلها يهود وهنود ومسلمون ونصاريها قليل. ومدينة شنكلي ومعظم أهلها يهود، ومدينة كولم[1] وهي آخر بلاد الفلفل. ويلي هذه البلاد بلاد الصولبان وفيها المعبر[2] الصغير والمعبر الكبير وهما ساحلان يحمل إليهما البضائع من البلاد الغربة0، والمعبر الصغير فرضة لمدينة كنكار ومدينة منكله ومدينة الليبور. وبها دار المملكة وبها بد صغير العمارة، ثم المعبر الكبير وعليه من المدن كبري وكيبر، وهي مدينة حسنة وأهلها يخلطون، ومدينة قيرة كبيرة ومدينة قين، ومدينة أباطو، ودفتن وتندا وقصبتها مدينة فاتني، وقد استولى عليها الخراب وبجبلها المسمى كاورد بركان عظيم يحذف النار ليلاً ونهاراً، ويلي هذه البلاد بلاد كرورا وهي آخر ما ينتهي إليه التجار، وفيه من المدن كرورا وهي القصبة وجرام الذهب، وهو بد مقصود من الهند يأتونه من مسيرة سنة بأنواع من التعبدات التي يرونها، فمنهم من يمشي على ركبه زحفاً أبداً من مكانه حتى يصل إليه. ومنهم من يلقي نفسه من قامته على وجهه إلى الأرض ثم يقوم ويفعل ذلك أبداً حتى يصل أو يموت في طريقه. ومنهم من يظفر شعره قروناً ملفوفة بالمشاق والقطن ويسقيها بما أمكن من السليط والسمن والدهن، ويأخذ بيده خنجراً ماضياً ثم يقصد بيت النار ومعه جماعة من أصحابه ومحبيه ومن السدنة يزفونه إلى النار، فإذا قاربها أخذ النار بيده فيشعل قرونه ثم يمد يده إلى جلدة بطنه ويقطعها ستاً بالخنجر ويدخل يده إلى كبده ويخرجها ويقطع منها قطعة يعطيها لأخص أصحابه ويلقي نفسه في النار فتحرقه النار،

---

(1) أو كلي ملي في جنوب شاطئ مليبار.

(2) وهو كروماندل على خليج البنغال من الساحل الشرقي للهند.

ثم إذا صار رماداً أخذوا رماده وذروه في نهر الكنك، أو جعلوه في ماء من نهر الكنك وذروه على أجسامهم يتبركون بذلك، والهنود بجملتهم قائلون بالتناسخ....

الفصل الخامس: في وصف البلدان الهندية وما هم مشرقها بأرض الصين وما هو شمالها وهي أربعة أسقاع الصين الخارج وهندستان وسجستان.

وأما الصين الخارج فهو من شمال جبال بلهرا وتبري وتسمى عابور وسابور وبانيهم عابور بن شرميل بن يافث بن نوح نزل بولده وولده في تلك الأرض فبنوا المدن، وأثاروا الأرض، واستخرجوا المعادن، وهم أحذق الناس بمهن الصناعات، وحد بلادهم من المشرق البحر المحيط المشرقي ومن القبلة جبال البلهرا وبلاد تبري، ومن الغرب بلاد تبت وزرقيا، ومن الشمال بلاد قرقز، ومشرق الخطا. قال أبو عمر بن عبد البر في كتاب القصد والأمم إلى معرفة انساب الأمم، أن وراء الصين أمماً، منهم أمة إذا طلعت الشمس يأوون إلى مغارات فما يخرجون منها حتى تغرب الشمس، وأمة يلتحفون شعورهم، وأمة عور لا شعور لهم، وأكثر ما يأكلون سمك البحر وخشخاش الأرض. ويلي هذه البلاد ببلاد خارج الصين وفيها من المدن أربع طناج وبها صنم منحوت من جبل متصل بالجبل، وعليه قبة عجيبة البناء والارتفاع، ومدينة هراجو، ومدينة زعرر، ولها دار الملك وأهل براريها قوم بين الترك والخطا والصين يسمون زرقيا، يرحلون وينزلون كالعرب والتتار، ثم يليهم من مغربهم أبواب الصين الخارجة، وهي جبال خارجة متصلة مسكونة بطوائف من الصين، وبها من الحصون مابة حصن، وليس لهم مدينة محصورة، ثم يلي ذلك من مغربه بلاد هندستان، ومعناه بالعربية بلاد هند، وهي مملكة خطيرة يركب لملكها فيما بلغنا أربع مابة ألف فارس، ويقاد بين يديه ألف فيل، وقصبة هذا السقع مدينة دلي= دلهي، وهي معربة دهله، ولها جانبان أحدهما يسكنه الملكة وجنده وهم ترك ومسلمون، والآخر يسكنه الرعية وهم هنود كفار، ولها من البلاد الجليلة بيتاً ومدينة أوجاهي، ومدينة بلاهور، ومدينة كابور، ومدينة بردان، ومدينة أو، ومدينة سبسار، ومدينة نكبولي، وفي بر هذا السقع

من البلاد الهندية البرية مدينة قشمير، ويقال أنها من بناء كي قاوس أحد ملوك الطبقة الثانية من الفرس، ولها ناحيتان خارجة وداخلة، فالخارجة تشتمل على نيف وسبعين ألف قرية والداخلة تشتمل على فوق مابة ألف قرية، وهي صرودية أي باردة داخلة في الإقليم الثالث، ومن أمصار الهند البرية الخطيرة مدينة قنوج[1]، وكانت مقر ملوك الهند ذكر المسعودي أن مقدار عملها مابة وعشرون فرسخاً سندية في مثلها، والفرسخ السندي ثمانية أمثال، تشتمل على مابة ألف وثمانية آلاف قرية، وبين الناحيتين جبال شاهقة فيها أبواب الصين، التي يعبر السالك إلى الصين منها وقد تقدم وصفها. ثم يلي هذا السقع سقع زابلستان وهو سقع عظيم واسع قصبته غزنة وكانت ثغراً تجاه الهند ومقر السلطان محمود بن سبكتكين....

.... وأما الصين، فزعم أن فالغ لما قسم الأرض بين ولد نوح عليه السلام، أعطى لبني يافث الشرق، فعمل عابور بن سويد ابن يافث فلكاً مثل فلك نوح عليه السلام، ثم أتى سفينة فركب فيه بولده وقطع البحر الشرقي، فنزل بولده في تلك الأرض فبنوا المدن والآثار والمعادن وأجروا الأنهار وغرسوا الأشجار، ثم هلك وملك من بعده ولده صابور، وهو أبو الصين، وهم شعوب وقبائل حتى أن الرجل يبلغ بنسبه إلى عابور، وهم أحذق الناس بالمهن والصناعات، لاسيما التصوير، حتى أن الرجل يفرق في تصويره بين ضحك الهازئ والشامت والمتعجب والمسرور، وبلادهم قسمان صين داخلة، وصين خارجة، ويسمى صين الصين، وبين الحيزين حاجز لها جبال منيعة، لها أبواب يعبر منها إلى التبت. وحكى أبو عمر ابن عبد البرّ في كتاب القصد والأمم إلى معرفة أنساب الأمم، أن وراء صين الصين أمماً، منهم أمة إذا طلعت الشمس يأوون إلى مغارات، فلا يخرجون منها حتى تغرب، وأمة يلتحفون بشعورهم، وأمة لا شعور لهم وأكثر ما يأكلون سمك البحر وحشاش الأرض. قال ويحاذيهم من ناحية الشمال، أمة

---

(1) قنوج كانت مدينة عامرة عندما غزاها محمود الغزنوي، في القرن الحادي عشر ميلادي، اعتبرها أبو حسن المغربي عاصمة ملك بلهرا. بين ذراعي الغانج.

شقر عراة يتناكحون كما تتناكح البهائم تجتمع الجماعة على المرأة الواحدة. قال وبمشرق الأرض عند مطلع الشمس أمة متولدة بين السباع والناس، ذوو عيون مدورة، وأنياب بارزة محددة، وأذناب وأظفار معقفة بأصابع قصار، يسكنون الجبال طعامهم الحوت ودواب البحر، ولهم زروع ودواب يركبونها والله أعلم.....

6

مختارات من المدونات
الموسوعية والمعجمية

آ

مختارات من

"مسالك الأبصار في ممالك الأمصار"

شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري

ت 749هـ

السفر الثالث

تحقيق: د. أحمد عبد القادر الشاذلي

المجمع الثقافي – أبو ظبي
2003

هذه مملكة عظيمة الشأن، لا تقاس في الأرض بمملكة سواها لاتساع أقطارها، وكثرة أموالها وعساكرها وأبهة سلطانها في ركوبه ونزوله ودست ملكه[1]، وفي صيتها وسمعتها كفاية، ولقد كنت أسمع من الأخبار الطائحة والكتب المصنفة ما يملأ العين والسمع، وكنت لا أقف على حقيقة أخبارها، لبعدها منا، وتنائي ديارها عنا، فلما شرعت في تأليف هذا الكتاب، وتتبعت ثقاة الرواة، وجدت أكثر مما كنت أسمع وأجلّ مما كنت أظن، وحسبك ببلاد في بحرها الدر، وفي برها الذهب، وفي جبالها الياقوت والماس، وفي شعابها العود[2] والكافور[3]، وفي مدتها أسرة الملوك، ومن وحوشها الفيل والكركدن[4]، ومن حديدها سيوف الهند، وبها معادن الحديد والزئبق والرصاص، ومن بعض منابتها الزعفران[5]، وفي بعض أوديتها البلور، خيراتها موفورة، وأسعارها رخية، وعساكرها لا تعد، وممالكها لا تحد، لأهلها الحكمة ووفور العقل، أملك الأمم لشهواتهم، وأبذلهم للنفوس فيما يظن به الزلفى.

قال محمد بن عبد الرحيم الأقليني الغرناطي[6]، في تحفة الألباب[7]: والملك العظيم والعدل الكبير والنعمة الجزيلة والسياسة الحسنة والرخاء الدائم والأمن الذي لا

---

(1) دست ملكه: قاعدة ملكه، وكلمة دست فارسية بمعني قاعدة ومقر.

(2) العود: شجر ينبت في الهند، ذو رائحة ذكية ـ أحسن أنواع البخور.

(3) الكافور نبات يزرع بالهند وإيران، أوراقه بيضاء اللون معطرة (فهرنك رازي681/ فهرنك عميد 1611/2).

(4) الفيل والكركدن: حيوانان مستأنسان ـ الفيل.

(5) الزعفران نبات منه الأصفر والأحمر، تستخدم زهوره في الأطعمة بالإضافة إلى رائحتها الذكية.

(6) هو محمد بن عبد الرحيم بن سليمان بن ربيع المازني القيسي الأندلسي الغرناطي ولد بغرناطة 473 هـ ومات بدمشق565هـ.

(7) تحفة الألباب: رحلة ورد اسمها تحفة الأحباب ونخبة الأعجاب.

خوف معه في بلاد الهند والصين، وأهل الهند أعلم الناس بأنواع الحكمة والطب والهندسة والصناعات العجيبة، التي لا يقدر على منالها، وفي جبالهم وجزائرهم ينبت شجر العود والكافور وجميع أنواع الطيب كالقرنفل، وجوزيوا[1]، والسنبل[2]، والدارصيني[3] والقرفة والسليخة[4]،

والقاقلة[5]، والكبابة[6]، والبسباسة[7]، و أنواع العقاقير، وعندهم غزال المسك وقط الزباد، ويخرج من بلادهم أنواع اليواقيت، وأكثرها من جزيرة سرنديب[8].

وقد حكى ابن عبد ربه، في العقد الفريد، عن نعيم بن حماد قال: بعث ملك الهند إلى عمر بن عبد العزيز كتاباً فيه: من ملك الأملاك؛ الذي هو ابن ألف ملك و تحته[9] بيت ألف ملك، وفي مربطه ألف فيل، وله نهران ينبتان العود و الأكوة[10] والجوز والكافور؛ الذي يوجد ريحه على اثني عشر ميلاً، إلى ملك العرب؛ الذي لا يشرك بالله شيئاً، أما بعد... فإني بعثت بهدية وما هي هدية ولكنها تحية، وقد أحببت أن تبعث إليّ رجلاً يعلمني ويفهمني الإسلام والسّلام، يعني بالهدية الكتاب.

---

(1) جوزبوا: جوز الطيب، ينمو في الهند، قشرته تسمى بسباسة وجوزبوا هو تمر الشجرة التي تشبه البلوط ـ.

(2) السنبل: نبات له أوراق طويلة وورود بلون البنفسج يباع للزينة ويستخدم في أعياد النوروز.

(3) الدارصيني: نوع من الأفاوية شبيه بالقرنفل، استعمله العرب قديماً على أنه البهارات، شجرته بالهند والصين.

(4) السليخة: دهن ثمرة شجرة البان ولحاء شجرة طيبة الرائحة شبيهة بالدارصيني.

(5) القاقلة: شجرة لها زهور بيضاء شبيهة بالصنوبر تنمو بالهند، تستخدم في الطعام شبيهة بالهيل.

(6) الكبابة: شجيرة تنمو في الهند وجاوة وسومطرة ثمارها بلون القهوة وأقل حدة من الفلفل الأسود طعمها حار.

(7) البسباسة: لحاء جوز الطيب.

(8) سرنديب: سيلان /سيرلنكا الحالية.

(9) التخت: هو العرش، و كرسي الحكم.

(10) الأكو: فاكهة شبيهة بالطماطم ـ تستخدم كفاكهة وفي الطب، وهي أنواع، أسود وأصفر.

حدثني الشيخ العارف المبارك.... قال: إن هذه المملكة متسعة غاية الاتساع، يكون طولها ثلاث سنين وعرضها مابين سومنات[1] وسرنديب[2] إلى غزنة وطولها من العرصة المقابلة لعدن إلى سد الإسكندر، عند مخرج البحر الهندي من البحر المحيط، متصلة المدن ذوات المنابر والأسرة والأعمال والقرى والضياع والرساتيق[3] والأسواق، لا يقطع بينها ولا يفصل بينها خراب.

قلت وفيما ذكره من هذه المسافة طولاً وعرضاً نظراً إذ لا يفي جميع المعمورة بهذه المسافة، اللهم إلاّ إن كان مراده أن هذه مسافة من يتنقل فيها حتى يحيط بجميعها مكاناً فيحتمل على ما فيه.

قال: وفي طاعة هذا السلطان؛ أهل قراجل[4] لهم منه هدية وأمان، على قطائع تحمل إليه منهم، يتحصل منها مال، وهذا جبل قراجل به معادن ذهباً يحصل منها ما لا يحصى وجميع هذه البلاد برا وبحرا مجموعة لسلطانها القائم الآن، إلاّ الجزائر الموغلة في البحر، فأما الساحل فلم يبق به قيد فتر[5] إلاّ بيده، فتح مغالقه، و ملك معاقله، وله الآن السكة[6] والخطبة في جميع هذه البلاد، لا يشاركه فيها مشارك.

.... و حدثني الفقيه العلامة سراج الدين أبو الصفا، عمر بن أحمد الشبلي العوضي من إقليم عوض[7] من الهند، وهو من أعيان الفقهاء؛ الذين يحضرون حضرة

---

(1) سومنات: موضع على المحيط الهندي في شبه جزيرة كاثباوار بالكجرات، استولى عليهاالسلطان محمود الغزنوي أوائل القرن الخامس الهجري.

(2) سرنديب: سيلان/ وسيرلانكا الحالية.

(3) الرساتيق جمع مفرده رستاق والرستاق معرب وتعني القرية والريف وتأتي بالعربية رستاق ورزداق.

(4) أهل قراجل: يُعتقد أنه جبال هملايا.

(5) فتر مقياس يعادل الشبر.

(6) السكة: ضرب العملة والسكة والخطبة دليلان على سيطرته واستيلائه على البلاد.

(7) يُعتقد أنها أوده التي هي الآن ايوديا وكانت من قبل: الله آباد.

السلطان بدهلي[1]: أن أمهات الأقاليم التي في مملكة هذا السلطان ثلاثة وعشرون إقليماً وهي: إقليم دهلي، وإقليم الدواكير، وإقليم الملتان[2] وإقليم كهران، وإقليم سامانا، وإقليم سيوستان، وإقليم وجا، وإقليم هاس، وإقليم سرستي، وإقليم المعبر، وإقليم تلنك، وإقليم كجرات، وإقليم بدوان، وإقليم عوض، وإقليم القنوج، وإقليم لكنوتي، وإقليم بهار، وإقليم كره، وإقليم ملاوه، وإقليم نهاور، وإقليم كلانور، وإقليم حاجنكز، وإقليم تلنج، وإقليم دورسمند، وهذه الأقاليم تشتمل على ألف مدينة ومائتي مدينة، كلها مدن ذوات بنايات كبار أو صغار، إذ بجميعها الأعمال والقرى العامرة الآهلة، ولا أعرف ما عدد قراها، وإنما أعرف إقليم القنوج مائة وعشرون لكاً[3] كل لكٍ مائة ألف قرية، فيكون إثني عشرالف ألف قرية، وإقليم تلنك، وهو ستة وثلاثون لكاً، فيكون ثلاثة آلاف ألف وستمائة ألف قرية، وإقليم مالوه أكبر من القنوج، ولكني لم أحرر كم عدده، وأما المعبر فيشتمل على عدة جزائر كبار، كل واحدة منها مملكة جليلة مثل كولم وفتن والسيلان وميلبار:

.... و مدينة دهلي[4]هي قاعدة الملك، ثم بعدها قبة الإسلام، وهي مدينة الدواكير، جددها هذا السلطان، وسماها قبة الإسلام، قال: ودهلي في الإقليم الرابع، قلت: وهكذا قال الملك المؤيد صاحب حماه رحمة الله في تقويم البلدان[5]، ونقله عمن يوثق به من أهل هذا الشأن.

قال الشيخ مبارك: وأما قبة الإسلام فتكون في الثالث، وفارقتها وما تكاملت، ولي الآن عنها ست سنين، وما أظنها تكون قد تكملت، لعظم ما حصل الشروع فيه

---

(1) دهلي: مدينة بشمال الهند، ، تقع على نهر جمنة حسب ابن بطوطة ،وهي دلهي الحالية.

(2) الملتان من بلاد الهند ذكره ابن حوقل بأنها أكبر من المنصورة .

(3) لك: كلمة هندية تعني مائة ألف.

(4) هي مدينة دلهي الحالية.

(5) تقويم البلدان لعماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر، أبو الفداء متوفى سنة772هـ

من اتساع خطة المدينة، وعظم البناء، وإن هذا السلطان كان قد قسمها على أن تبنى محلات، لأهل كل طائفة محلة، الجند في محلة، والوزراء والكتاب في محلة، والقضاة والعلماء في محلة، والمشايخ والفقراء في محلة، والتجار والكُساب في محلة، وفي كل محلة ما يحتاج إليه من المساجد والمآذن والأسواق والحمامات والطواحين والأفران وأرباب الصنايع من كل نوع حتى الصّباغ والصباغين، والدباغين، حتى لا تحتاج أهل محلة إلى أخرى في بيع ولا شراء، ولا أخذ ولا عطاء، لتكون في محلة كأنها مدينة مفردة قائمة بذاتها، غير مفتقرة في شيء إلى سواها، و ليس في هذه المملكة خراب، إلاّ تقدير عشرين يوماً مما يلي غزنة[1] لتجاذب صاحب الهند وصاحب تركستان[2] وما وراء النهر[3] بأطراف المنازعة أو جبال معطلة أو شعراء، مشتبكة، ومتحصلات تلك من نبات العطر والأفاويه والعقاقير الداخلة في أدوية الطب أعوّد نفعاً من الغلات المزدرعة بما لا يقاس.

قلت: وقد أوقفني الفاضل نظام الدين يحيى بن الحكيم على تأليف قديم في البلاد، وذكر فيه أن قرى جميع الملتان مائة ألف قرية وستة وعشرون ألف قرية مثبتة في الديوان وهو ودهلى في الرابع، ومعظم المملكة في الثاني و الثالث، و كلها فسيحة، وبلادها صحيحة، إلاّ مزارع الأرز، فإنها وخيمة، وبقاعها ذميمة.

وحكى في ذلك التأليف :أن محمد بن يوسف الثقفي[4]، أصاب بالسند أربعين بهاراً من الذهب، كل بهار ثلاثمائة، وثلاثة وثلاثون مناً[5] قال: ومن بلاد غزنة

---

(1) غزنة: مدينة عامرة بأفغانستان الحالية، كانت قاعدة لملك السلطان محمود الغزنوي.

(2) تركستان: اسم جامع لجميع الترك وأول حدهم من جهة المسلمين فاراب.

(3) ما وراء النهر وهي البلاد الواقعه بعد نهر جيحون المعروف بآمودريا وهي ضمن بلاد التركستان وفيها بخارى وسمرقند وخوارزم و فرغانة.

(4) محمد بن يوسف الثقفي هو محمد بن القاسم الثقفي أول من فتح السند سنة66هـ.

(5) المن: نوع من الوزن، يختلف من بلد لآخر وهو يعادل الآن4 كيلو في الإمارات.

والقندهار آخر حده، وسألت الشيخ مبارك: كيف بر الهند وضواحيه؟ فقال لي أن به أنهاراً ممتدة، تقارب ألف نهر كباراً وصغاراً، منها ما يضاهي النيل عظماً، ومنها ما هو دونه، ومنها ما هو دون هذا المقدار وما هو مثل بقية الأنهار، وعلى ضفاف الأنهار، القرى والمدن، و به الأشجار الكثيفة، والمروج الفيح، وهي بلاد معتدلة، كل أوقاتها ربيع، وتهب بها الأهوية، و يتنسم النسيم اللطيف، وتتوالى بها الأمطار مدة أربعة أشهر وأكثرها في أخريات الربيع، إلى ما يليه من الصيف، و بها أنواع من الحبوب والحنطة والأرز والشعير والحمص والقدس، والماش[1] واللوبيا والسمسم وأمّا الفول فلا يكاد يوجد فيها.

قلت: أظن عدم وجود الفول بها لأنها بلاد حكماء وعندهم أن الفول يفسد جوهر العقل، ولهذا حرّمته الصابئة[2]، قال: و بها من الفواكه شيء من التين والعنب والرمان الكثير الحلو والمر والحامض والموز والخوخ والأترج[3]، والليمون واللبم والنارنج والجميز والتوت الأسود المسمى بالفرصاد، والبطيخ الأصفر والأخضر، والخيار والقثاء والعجور والتين، والعنب هو أقل ما يوجد من بقية هذه الأنواع، وأما السفرجل فيوجد بها ويجلب إليها، وأما الكمثرى والتفاح فهما أقل وجوداً من السفرجل، و بها فواكه أخر لا تعهد في مصر والشام والعراق وهي العنبا والمهوا واللكح والكريكا وايجلى والفكي والنغزك، وغير ذلك من الفواكه الفائقة اللذيذة، فأما النارجيل وهو المسمى بالجوز هندي، لا يعادله شيء، وهو أخضر مملوء بدهنه، وأما الحمر وهو المسمى بالتمر هندي فهو شجر بري يلو الجبال، والنارجيل والموز بدهلى أقل مما حولها من بلادها على أنه الموجود الكثير، وأما قصب السكر فإنه

(1) الماش: نوع من الحبوب يشبه العدس، يطبخ، أبيض من الداخل وأخضر من الخارج.
(2) الصابئة: فرقة دينية عقائدها خليط بين اليهودية والمسيحية، عدها القرآن الكريم ضمن أهل الكتاب، ومنهم عبدة أصنام في حران.
(3) أترج: ضرب من الحمضيات بين البرتقال والليمون وهو الكباد.

بجميع هذه البلاد كثير ممتهن، ومنه نوع أسود جف صلب العيدان، وهو أجوده للامتصاص لا للإعتصار، وهو مما لا يوجد في سواها، ويعمل من بقية أنواعه السكر الكثير العظيم الرخيص من السكر النبات والسكر المعتاد، ولكنه لا يجمد بل يكون كالسميد الأبيض، و بها الأرز؛ على ما حدثني الشيخ مبارك بن مجد شاذان؛ على أحد وعشرين نوعاً، و عندهم اللفت والجزر والقرع والباذنجان والهليون[1] والزنجبيل، وهم يطبخونه إذا كان أخضر، كما يطبخ الجزر، وله طعم طيب لا يعادله شيء، وبها السلق والبصل والفوم والشمار[2] والصعتر[3] وأنواع الرياحين من الورد والنيلرفر[4] والبنفسج والبان وهو الخلاف، والنرجس، وهو العبهر[5]، وثامر الحناء، وهو الفاغية، وكذلك الشيرج[6]، ومنه وقيدهم[7]، وأما الزيت فلا يأتيهم إلاّ جلباً، وأما العسل فأكثر من الكثير، وأما الشمع فلا يوجد إلاّ في دور السلطان، ولا يسمح فيه لأحد، وما لا يحصى من الدواب السائمة من الجواميس والأبقار والأغنام والمعز، ودواجن الطير من الدجاج والحمام البلدي والوز، وهو أقل أنواعه، فأما الدجاج الهندي فيكاد أن يكون كالأوز في عظم المقدار، وكل هذا يباع بأرخص الاسعار، وأقل الأثمان، وأما السمن واللبن على اختلاف أنواعه فكثير لا يعبأ به ولا له قيمة، ويباع بأسواقها من الأطعمة المنوعة كالشواء والأرز والمطجن والمقلي والمنوع والحلوى المنوعة على خمسة وستين نوعاً، والفقاع والأشربة ما لا يكاد يرى في مدينة سواها، و بها من

---

[1] الهليون: نوع من العشب يفسد سم الثعبان ولدغات الهوام.

[2] الفوم: الثوم. والشمار: الشمر.

[3] الصعتر هو الزعتر، وهو نبات صحراوي له أوراق ذات نكهة طيبة، يستخدم كعلاج لأمراض الرئة والمعدة.

[4] النيلوفر هو عشب ذو ألوان مختلفة يخدم للزينة .

[5] العبهر: هو النرجس والياسمين.

[6] الشيرج: زيت السمسم معرب .

[7] وقيد يعني وقود.

أصـحاب الـصنائع للـسيوف والقـسي والـرماح وأنـواع الـرماح والـزردا، والـصواغ والزراكش[1] والسراجين وغير ذلك من أرباب كل صنف مما يختص بالرجال والنساء وذوي السيوف والأقلام وعامة الناس ما لا يحصى لهم عدد، وأما الجمال فقليلة لا تكون إلاّ للسلطان ومن عنده من الخانات[2] والأمراء والوزراء وأكابر أرباب الدولة، وأما الخيل فكثيرة وهي نوعان المخطوط ص16 : عرّاب[3] وبراذين[4]، وأكثرها مما لا يُحمد فعله، ولهذا تجلب إلى الهند من جميع ما جاورها من بلاد الترك، وتقاد إليها العرّاب من البحرين وبلاد اليمن والعراق على أن في دواخل الهند خيلا عراباً كريمة الأحساب، يتغالى في أثمانها، ولكنها قليلة، ومتى طال مكث الخيل بها إنحلت، وأما البغال والحمر فما يعاب عندهم ركوبها، ولا يستحسن فقيه ولا ذو علم ركوب بغلة، فأما الحمار فإن ركوبه عندهم مذلة كبرى، وعار عظيم، بل ركوب الكل الخيل، وأمّا الأثقال فخاصتهم يحمل على الخيل، وعامتهم يحمل على البقر، يحمل عليها الأكفاء، فيحمل عليها، وهي سريعة المشي، ممتدة الخطا.

وسألت الشيخ مبارك عن مدينة دهلى، وما هي عليه، فحدثني أن دهلي مدائن جمعت مدينة، ولكل واحدة اسم معروف، وإنما دهلى واحدة منها، وقد صار يطلق على الجميع اسمها، وهي ممتدة طولاً وعرضاً، يكون دور عمرانها[5] أربعين ميلاً، بناؤها بالحجر والآجر، وسقوفها بالأخشاب، وأرضها مفروشة بحجر أبيض شبيه بالرخام، ولا يبنى بها أكثر من طبقتين، وفي بعضها طبقة واحدة، ولا يفرش بالرخام إلاّ السلطان.

---

(1) الزراكش جمع مفرده زركش وتعني وضع خطوط ذهبية على الثوب.

(2) الخانات جمع مفرده خان وهي كلمة تركية الأصل بمعنى رئيس وأمير وتطلق على رؤساء الترك والتاتار.

(3) العراب: الخيول العربية ذات الأصول الكريمة.

(4) براذين جمع مفرده برذون وهو الحصان التاتاري والبغل والحصان غير الأصيل.

(5) دور عمرانها أي محيط عمرانها.

قال الشيخ أبو بكر بن الخلال: هذه دور دهلي العتيقة، فأما ما أضيف إليها فغير ذلك، قال: و جملة ما يطلق عليه الآن اسم دلي[1] أحد و عشرون مدينة، وبساتينها على استقامة، كل خط اثنا عشر ميلاً من ثلاث جهاتها، فأما الغربي فعاطل لمقاربة جبل لها به، وفي دهلي ألف مدرسة، و بها مدرسة واحدة للشافعية، وسائرها للحنفية، ونحو سبعين مارستاناً[2]، وتسمى بها دور الشفاء، وفيها وفي بلادها من الخوانق[3] والربط[4] عدة ألفين مكاناً، و بها الديارات[5] العظيمة والأسواق الممتدة، والحمامات الكثيرة، وجميع مياها من آبار محتفرة قريبة المستقى، أعمق ما يكون سبعة أذرع، عليها السواقي، وأما مشرب أهلها فمن ماء المطر في أحواض وسيعة تجتمع فيها الأمطار، كل حوض يكون قنطرة، علوه سهم وأزيد، وبها الجامع المشهور المئذنة' التي قال أنه ما على بسيط الأرض لها شبيه في سمكها وارتفاعها' وقال الشيخ برهان الدين بن الخلال البزي الصوفي أن علوها ستمائة ذراع في الهواء.

قال الشيخ مبارك: وأما قصور السلطان ومنازله بدهلي فإنها خاصة بسكونه و سكن حريمه و مقاصير جواريه و حظاياه[6]، ولا يكون به أحد منهم إلاّ إذا حضروا للخدمة، ثم ينصرف كل واحد إلى بيته، وخدمتهم مرتين في كل نهار في بكرة كل يوم وبعد العصر منه، ورتب الأمراء على هذه الأنواع، أعلاهم قدراً الخانات ثم الملوك ثم

---

(1) يقصد دهلي، أي دلهي.
(2) مارستان: دار الشفاء، المستشفى.
(3) الخوانق جمع مفرده خانقاه وهي مكان تجمع الصوفية، لعقد مجالس الذكر والعبادة.
(4) الرُبط جمع مفرده رباط، تماثل الخانقاه في وظيفتها بالإضافة إلى كونها أماكن على الطرق للتجار والمسافرين كما أنها أماكن متقدمة للقتال.
(5) الديارات جمع ديار.
(6) حظاياه جمع مفرده حظية وهن الجواري أصحاب فنون الغناء والموسيقى.

الأمراء، ثم الأصبهلارية[1] ثم الجند، وفي خدمته ثمانون خاناً أو أزيد، وعسكره تسعمائة ألف فارس من هؤلاء، منهم من هو بحضرته، ومنهم في سائر البلاد، يجري عليهم كلهم ديوانه[2]، ويشتملهم إحسانه. وعساكره من الأتراك والخطا والفرس والهند، ومنهم البهالوين[3]، والشكار[4]، ومن بقية الأنواع والأجناس، كلهم بالخيل المسومة، و السلاح الفائق والتجمل الظاهر الزائد، وغالب الأمراء والجند تشتغل بالفقه، ويتمذهبون خاصة وأهل الهند عامة لأبي حنيفة رضي الله عنه، وله[5] ثلاثة آلاف فيل محققة، تلبس في الحروب البركصطوانات[6] الحديد المذهب، وأما في أوقات السلم فتلبس جلال الديباج[7] والوشى وأنواع الحرير، وتزين بالقصور والأسرة المصفحة، وتشد عليها البروج من الخشب المسمرة، ويتبوأ بها رجال الهند مقاعد القتال، ويكون على الفيل من عشرة رجال إلى ستة رجال على قدر احتمال الفيل، وله عشرون ألف مملوك أتراك.

قال البرس وعشرة آلاف خادم خصي، وألف خزندار[8] وألف بشمقدار[9] وله مائتا ألف عند ركابيه، تلبس السلاح، وتمشي في ركاب السلطان، وتقاتل رجّالة بين

---

(1) كلمة فارسية تعني قائد الجيش.

(2) الديوان: الكتاب يكتب فيه أهل الجيش وأهل العطية، وأول من وضعه الخليفة الراشد عمر بن الخطاب.

(3) البهالوين: جمع مفرده بهلوان، و معناه البطل والشجاع.

(4) الشطار وهم العيارين والفتوة، وكانوا في القديم مشاة يسيرون أمام موكب السلاطين والأمراء.

(5) أي للسلطان.

(6) البركصطوانات: هي كلمة فارسية تعني غطاء من الصلب يضعونه أثناء الحرب على الجسم أو على الجياد والفيلة.

(7) الديباج: لفظ فارسي ديبا بمعنى حرير وعربت ديباج.

(8) خزندار: الخازن من الكلمة العربية خزانة واللاحقة دار، أي القائم بأعمال الخزانة.

(9) بشمقدار م وباشماق تركية بمعنى حذاء وباشماقدار حامل الحذاء.

يديه، وليس يستخدم أحد من الخانات والملوك والأمراء والأصفهلارية[1] أجناداً، يقطع لهم الإقطاعات من قبلهم، كما هو في مصر والشام، بل ليس يتكلف الواحد منهم إلاّ نفسه وعدته من الجند، استخدامهم للسلطان، وأرزاقهم من ديوانه، ويبقى كلما تعين لذلك الخان أو الملك أو الأمير أو الأصفهلار خاص لنفسه، والحجاب وأرباب الوظائف وأصحاب الأشغال من أرباب السيوف من الخانات والملوك والأمراء، لكل رتبة من يناسبها على مقدارها، فأما الأصفهلارية فلا يؤهل منهم أحد لقرب السلطان، وإنما يكون منهم نوع الولاة، ومن يجري مجراهم، والخان يكون له عشرة آلاف فارس، والملك ألف فارس، والأمير مائة فارس، والأصفهلارية دون ذلك.

وأما أرزاقهم فيكون للخانات والملوك والأمراء والأصفهلارية بلاد مقررة عليهم من الديوان، إن كانت لا تزيد فإنها لا تنقص، والغالب أن تجيء أضعاف ما عبرت به.

ولكل خان لكان[2]، كل لك مائة ألف تنكة[3] كل تنكة ثمانية دراهم، هذا خاص له، لا يخرج منه لجندي من أجناده شيء، ولكل ملك ستين ألف تنكة إلى خمسين ألف تنكة، ولكل أمير منه أربعين ألف تنكة إلى ثلاثين ألف تنكة، والأصفهلارية من عشرين ألف تنكة وما حولها، وأما الجند فكل جندي من عشرة آلاف تنكة إلى ألف تنكة، وأما المماليك السلطانية، فكل مملوك من خمسة آلاف تنكة إلى ألف تنكة، وطعامهم وكساويهم وعليقهم والجند والمماليك ليس لهم بلاد وإنما يأخذون أموالهم نقدا من الخزانة، وأما أولئك فبلاد تلك غيرها.

---

(1) قواد الجيش.

(2) لكان: مثنى لك، والك مائة ألف.

(3) تنكّه: هي عملة فضية وذهبية، ولكنها في الغالب فضية.

قال: والآن إن لم يزد متحصلات البلاد المقتطعة لهم عن المعبر[1] وإلاّ فما تنقص، ومنهم من يحصل له قد عبرته مرتين وأكثر.

وأما العبيد فكل عبد منهم في كل شهر منان[2] من الحنطة والأرز طعاماً لهم، وفي كل يوم ثلاثة أسيار[3] لحم مما يحتاج إليه، وفي كل شهر عشر تنكات بيضا، وفي كل سنة أربع كساوي.

ولهذا السلطان دار طراز[4]، فيها أربعة آلاف قزاز[5] تعمل الأقمشة المنوعة للخليع[6] والكساوي والإطلاقات، مع ما يحمل له من قماش الصين والعراق والإسكندرية، وهو يفرق كل سنة مائتي ألف كسوة كاملة، مائة ألف كسوة في الربيع، ومائة ألف كسوة في الخريف.

فأما كسوة الربيع فغالبها من القماش الإسكندري، عمل الإسكندرية وأما كساوي الخريف فكلها حرير من عمل دار السلطان الطراز بدهلي وقماش الصين والعراق، و يفرق على الخوانق و الربط الكساوي، وله أربعة آلاف زركشي[7] يعمل الزراكش لباقي الحريم، ويعمل في مستعملاته، ولما يخلعه على أرباب دولته، ويعطي لنسائهم.

ويفرق في كل سنة عشرة آلاف فرس عربي من الخيل العراب المسومة، منها ما هو مسرج وملجم ومنها ما هو عربي بلا سرج ولا لجام، والمسرجات والملجمات على

---

(1) المعبر الأراضي المحددة لكل صاحب وظيفة، تعادل كلمة إقطاع، و تعني خراج أيضاً.

(2) منان مثنى من، نوع من الوزن.

(3) أسيار جمع مفرده سير، وهو وزن يعادل 16 مثقالاً.

(4) دار طراز: أي تعني دار النقش والتطريز.

(5) قزاز: وهو صانع القز، والقز والخز واحد وهو الحرير الخام.

(6) الخليع: الملابس التي تخلع على الأمراء وأصحاب الوظائف وتسمى خلعاً.

(7) الزركشي: مُذهِب، القائم بصناعة الملابس الموشاة بالذهب.

أنواع منها ما هو محلي، ثم إن تلك الملبسات والملجمات. منها ما هو بالذهب، ومنها ما هو بالفضة، فأما ما يعطى من الخيل والبراذين، فإنه بلا حساب، يعطى جسارات جسارات، ويفرق مئيناً مئيناً[1].

وهو على كثرة الخيل ببلاده، وكثرة ما يجلب إليه يتطلبها من كل قطر، ويبذل فيها الأثمان، لكثرة ما يعطى ويطلق، وهي مع هذا غالية الثمن، مربحة المكاسب، لمن يتاجر فيها، لكثرة المكاسب والعساكر وجمهرة الخلق.

وحدثني علي بن منصور العقيلي من أمراء عرب البحرين، وهم ممن يجلبون من البحرين الخيل، إلى هذا السلطان؛ أن لأهل هذه البلاد علامة في الفريس، يعرفونها بينهم، متى ما رأوها في فرس اشتروه بما عسى يبلغ ثمنه.

ولهذا السلطان نائب من الخانات يسمى أميرت أقطاعه يكون قدر إقليم عظيم نحو العراق، ووزير؛ أقطاعه يكون قدر إقليم العراق وله أربعة نواب، يسمى كل واحد منهم شق[2]، لكل منهم أربعين ألف تنكة إلى عشرين ألف تنكة، وله أربعة دبيران أي كتاب سر، لكل واحد مدينة من المدن البنادر العظيمة الدخل، ولكل واحد منهم بقدر ثلاثمائة كاتب أصغر من فيهم وأضيق رزقا له عشرة تنكة.

وأما أكابرهم فله قرى وضياع، وفيهم من له خمسون قرية، ولصدر جهان[3] وهو اسم قاضي القضاة، وهو في وقتنا كمال الدين بن البرهان، عشرة قرى، يكون متحصلها قريب من ستين ألف تنكة ويسمى صدر الإسلام، وهو أكبر نواب الحكم بالقضاء، ولشيخ الإسلام وهو شيخ الشيوخ مثله، وللمحتسب قرية، يكون متحصلها قريب ثمانماية آلاف تنكة.

---

(1) مئات مئات.

(2) شق: عربية بمعنى ناحية، وجاءت منها شقدار أي صاحب الناحية.

(3) صدر جهان: قاضي القضاة.

وله ألف طبيب، ومائتا طبيب وعشرة آلاف بزدار[1] تركب الخيل، وتحمل الطيور المعلمة للصيد، وثلاثة آلاف سواق، تسوق لتحصيل الصيد، وخمسمائة نديم، وألف ومائتان نفراً من الملاهي، غير مماليك الملاهي، وهم ألف مملوك، برسم تعليم الغناء خاصة، وألف شاعر من اللغات الثلاثة العربية والفارسية[2] والهندية[3] من زوي الذوق اللطيف، يجري على هؤلاء كلهم ديوانه، وتدر عليهم مواهبه، ومتى بلغه أن أحداً من ملاهيه غنى لأحد، قتله، وساءلته عما لهؤلاء من الأرزاق، فقال: لا أعلم من أرزاق هؤلاء إلاّ ما للندماء، فإن لبعضهم قريتين، ولبعضهم قرية، و لكل واحد منهم من أربعين ألف تنكة إلى ثلاثين ألف تنكة إلى عشرين ألف تنكة على مقاديرهم من الخلع والكساوى والإفتقادات.

قال الشيخ أبو بكر بن الخلال البزي الصوفي: وله مائتا تبع تسافر بأمواله في البلاد تبتاع له ولكل واحد منهم في كل مدينة ألف تنكة قال الشيخ مبارك: ويمد لهذا السلطان السماط أوقات الحزم في طرفي النهار مرتين، في كل يوم، ويطعم منه عشرون ألف نفر مثل الخانات والملوك والأمراء والأصفهلارية وأعيان الجند، أما طعامه الخاص، فيحضر معه عليه الفقهاء، مائتا فقيه في الغداء والعشاء، ليأكلوا معه ويجثوا بين يديه.

قال الشيخ أبو بكر بن الخلال البزى: سألت طباخ السلطان كم يذبح في مطابخه كل يوم؟ فقال: يذبح ألفين وخمسمائة رأس من البقر، وألفين رأس من الغنم غير الخيل المسمنة، وأنواع الطير.

---

(1) بزدار: بز رداء كتاني أو قطني، وبزدار صاحب القماش.

(2) كانت الفارسية هي اللغة المستعملة في بلاد سلاطين الهند المسلمين لأنها لغة الجيش.

(3) اللغة الهندية ليست هي الأردية، فالأردية هي لغة المسلمين واللغة الهندية هي اللغة المأخوذة عن السنسكريتية.

قال الشيخ مبارك: ولا يحضر مجلس هذا السلطان من الجند إلاّ الأعيان ومن دعته ضرورة الحضور لكثرة عددهم، وكذلك مجالسه الخاصة لا يحضر بها جميع أرباب الخدم من الندماء والمغاني إلاّ بالنوَب، وكذلك أرباب الوظائف مثل الدبيران[1] والأطباء، ومن يجري مجراهم لا يحضرون إلاّ بالنوب، وأما الشعراء................

قال: وقال لنا بلغني أن الشيخ برهان الدين الصاغرجي شيخ سمرقند مزيد في العلوم والزهد، وأنه لا يثبت عنده مالاً، فأعطوه أربعين ألف تنكة يتزود بها إلى الملتان[2]، ثم إذا دخل بلادنا جدنا عليه بالأموال، ثم قال: وإن لم تجدوه أعطوا هذا المبلغ لأهله، ليوصلوه إليه إذا جاء، وعرفوه بأننا نطلبه ليتزود إلى الملتان.

قال: فلما وصلنا إلى سمرقند، وجدناه، وقد دخل إلى بلاد الصين، فأعطينا المال لجاريته، وعرّفناها برغبة السلطان فيه، وحثه على طلبه وحدثني الفقيه أبو الصفاء عمر بن إسحاق الشبلي أن هذا السلطان لا يفارق العلماء سفراً ولا حضراً[3]، قال: وكنا معه في بعض غزواته، فلما كنا في أثناء الطريق جاءته من مقدمة عساكره كتب البشرى بالفتوح، ونحن بين يديه، فحصل له السرور، وقال: هذا ببركة هؤلاء العلماء، ثم أمر بأن يدخلوا بيت المال، و يحملوا من بيت المال ما قدروا عليه، ومن كان منهم ضعيفاً يستنيب من يحمل من ذلك المال عنه، قال: فدخلوا إلى الخزانة، ولم أدخل أنا ولا كثير من أمثالي لأننا لم نكن من تلك الطبقة، وحمل أولئك كل واحد كيسين، كل كيس عشرة آلاف درهم إلاّ واحد منهم، فإنه حمل ثلاثة أكياس، اثنين تحت إبطيه، وآخر فوق رأسه، فلما رآهم السلطان ضحك تعجباً من حرص الذي حمل الثلاثة، وسأل عن بقية الجماعة، ممن لم يدخل مثلي، فقيل له إن هؤلاء دون

---

(1) دبيران جمع مفرده دبير: وتعني الكاتب.

(2) الملتان: إقليم بالسند تقع عند ألتقاء فرعي نهر السند، مملكة إسلامية.

(3) عكس السفر ويعني الإقامة.

أولئك لأن هؤلاء من المدرسين وهؤلاء من المعيدين، فأمر لكل واحد منا بعشرة آلاف درهم، ففرقت علينا.

قال: ومنار الشرع عنده قائم، وسوق أهل العلم لديه رائج، يشار إليهم بالتوقير والإجلال، وهم في غاية المحافظة على ما ينقام به ناموسهم من اصطلاح الظاهر والباطن والمداومة على قراءة العلم، وإقرائه، والتحري في كل أمورهم، والاقتصاد في جميع أحوالهم، وهذا السلطان لا يتأنى عن الاجتهاد في الجهاد براً وبحراً، لا يثنى عنه عنانه ولا سنانه، ولا يزال هذا دأبه، نصب عينه، ودبر أذنه، وقد بلغ مبلغاً عظيماً في إعلاء كلمة الإيمان، ونشر الإسلام في تلك الأقطار، حتى سطع في ذلك السواد ضوء الإسلام، وبرقت في تلك الأنواء بوارق الهدى، وهدم بيوت النيران، وكسر البدود[1] والأصنام، وأخلا البر ممن ليس ببر إلاّ من هو تحت عقد الذمة، واتصل به الإسلام إلي أقصى المشرق، وقابل مطلع الشمس لألاء الصباح المشرق، وأوصل راية الأمة المحمدية كما قال أبو نصر العتيبي[2] إلى حيث لم تصل إليه راية ولا تليت به سورة ولا آية، فعمر الجوامع والمساجد..............

حدثني كل هؤلاء أن الجارية الخادمة لا يتعدى ثمنها بمدينة دهلي ثمان تنكات، واللواتي يصلحن للخدمة والفراش خمس عشرة تنكة، وأما غير دهلي فأرخص من هذه الأثمان.

قال لي أبو الصفاء عمر بن أبي إسحاق الشبلي أنه اشترى عبداً مراهقاً نفاعاً بأربعة دراهم، وقس على مثل هذا، قال: ومع رخص قيمة الرقيق، وهو أنه يوجد من الجواري الهنديات من يبلغ ثمنها عشرين ألف تنكة وأكثر وهكذا......

---

(1) البدود جمع بد، وهو الصنم.

(2) أبو نصر محمد بن عبد الجبار العتيبي من أدباء ومؤرخي القرن الرابع والخامس الهجريين، له كتاب تاريخ يميني باسم السلطان محمود الغزنوي توفي427هـ والعبارة عن محمود الغزنوي أصلاً.

قالوا: إن ملاح الهنديات أكثر حسناً من الترك والقفجاق مع ما يتميزن به من التخريج العظيم والتفنن الفاتن، وغالبهن ذهبيات الألوان، وفيهن بيض ذوات بياض ساطع مختلطاً بالحمرة، وعلى كثرة وجود الترك والقبجاق والروم وسائر الأجناس عندهم، لا يفضل أحد على ملاح الهنديات سواهن لكمال الحسن والحلاوة وأمور أخرى تدق عنها العبارة.

حدثني سراج الدين عمر الشبلي أنه لا يلبس ثياب الكتان المجلوبة إلى هذه المملكة من الروس[1]، والإسكندرية إلا من لبسه السلطان منهم وإلا قميصهم و ثيابهم من القطن الرفيع، قال: تعمل منه ثياب شبيهات بالمقاطع البغدادية، ولكن أين المقاطع البغدادية والنصافي[2] منها، لرفعتها ولطافة بشرتها، فإن بعضها يوازي اللوانس[3] في رفعتها مع الصنق والمآبية.

وحدثني الشيخ مبارك انه لا يلبس ولا يركب بالسروج الملبسة أو المحلاة بالذهب إلاّ من أنعم السلطان عليه بشي، منها، فإذا أنعم عليه بشيء من المحلى بالذهب، كان إذناً له في اتخاذ ما شاء منه، أما عامة ركوبهم ففي الملبس المحلى بالفضة.

قال: والسلطان ينعم على من في خدمته على اختلاف أنواعهم من أرباب السيف والقلم والعلم، بكل شيء جليل ونوع نفيس من البلاد[4] والأموال، والجواهر والخيول والسروج المحلاة بالذهب والمناطق الذهبية[5] والأقمشة المختلفة الأنواع والأجناس إلاّ الفيلة فإنها لا تكون إلاّ له، لا يشاركه فيها مشارك من جميع الناس،

---

(1) الروس: قوم يسكنون روسيا من أصل سلافي وهي مملكة واقعة غربي سيبيريا وشمالي الممالك الإسلامية.

(2) النصافي نوع من القماش الجيد.

(3) لوانس قماش جيد.

(4) أي البلاد التي يقطعها السلطان.

(5) المناطق ما يلف حول الوسط.

قال: والفيلة لها رواتب كثيرة لعلوفاتها، فإنها لعل هذه الثلاثة آلاف فيل في لا يكفيها إلاّ دخل مملكة كبيرة، فسألته: كم لها؟ قال: تختلف أجناسها وأشكالها، وعلى قدر اختلافها، علوفاتها، وأنا أقول لك أكثر ما يريد كل فيل في كل يوم، وأقل ما يريد، أما أكثر ما يريد في كل يوم أربعون رطلاً من الأرز، وستون رطلا من شعير، وعشرون رطلاً من سمن، ونصف حمل حشيش، وأما ما تريده سواسها[1]، والقومة عليها فجملة كثيرة وأمور كثيرة، قال: وشحنة[2] الفيل رطل كبير من أكابر الدولة.

قال الشبلي: يكون أقطاعه قدر إقليم كبير مثل العراق وهيئته، وفوق ملوك هذه المملكة في مواقف الحرب.. أن يقف السلطان في القلب وحوله الأئمة والعلماء والرماة قدامه وخلفه، وتمتد الميمنة والميسرة موصولة بالجناحين، وأمامه الفيول الملبسة بالأركسطوانات الحديد، وعليها الأبراج المسمرة فيها المقاتلة على ما قدمنا القول فيه، وفي الأبراج منافذ لرمي النشاب ومرمى قوارير النفط، وقدام الفيول العبيد المشاة في خِف من اللباس، بالسيوف والسلاح يفسحون لمجال الفيول؛ ويعرفون الخيل بالسيوف، الرماة في الأبراج تكشف عليهم من خلفهم من فوق، والخيل في الميمنة والميسرة، تضم أطراف الأرض على الأعداء، وتقاتل من حول الفيول وورائها، فلا يجد الهارب مفراً ولا مدخلاً، فلا يكاد ينجو قدامهم، لاحتياط العساكر المحدقة بهم، ومواقع النشاب والنفط من فوقهم، و مخالسة الرجالة لهم من تحتهم، فيأتيهم الموت من كل مكان، ويحيط بهم البلاء من كل جهة.

قال الشبلي: وحقيق على مسلم أن يدعو للسلطان هذا في الله جهاده، وذلك معروفه، وتلك سجاياه.

---

(1) سواس هو السائس القائم على رعاية الحيوان.

(2) شحنة الفيل: حارس الفيل وراعيه، والشحنة هو الوالي أو الحاكم أو القيم وصاحب الشرطة.

وحكى لي محمد الخجندى: إن لهذا السلطان في كل أسبوع يوماً عاماً يجلس فيه الناس جلوساً عاماً، وهو يوم الثلاثاء، يجلس في ساحة عظيمة متسعة إلى غاية يضرب له فيها جتر[1] كبير سلطاني يجلس في صدره على تخت[2] عال مصفح بالذهب مرصع بالجواهر، ويقف أرباب الدولة حوله يميناً ويساراً وخلفه السلاح دارية[3] والجمدارية[4]، ومن حكمه بين أرباب الأشغال الخاصة بحكمهم، وأرباب الوظائف على منازلهم ولا يجلس إلا على الخانات وصدر جهان والدبيران[5] يعني كتاب السر، بين يديه، والحجاب وقوف، وينادى مناداة عامة أنه من كان له شكوى يحضر، فيحضر كل من له شكوى أو حاجة يسأل السلطان فيها فإذا حضر أو وقف بين يديه، لا يضرب، ولا يمنع حتى ينهي إليه شكواه، و يأمر السلطان فيه بأمره.

وأما بقية الأيام فإنه يجلس في طرقى كل نهار ويركب في الخانات والملوك و الأمراء جميعهم إلى بابه، ومن رسمه أن أحدا لا يدخل عليه بسلاح كبيراً ولا سكين صغيرة ومن جاء اعتبر قبل دخوله ودون المكان الذي يجلس فيه سبعة أبواب بعضها داخل بعض وعلى الباب الأول البراني[6] منها رجل منها معه بوق فإذا جاء أحد من الخانات أو الملوك أو أكابر الأمراء نفخ في البوق إعلاماً للسلطان بأنه قد جاء كبير ليكون دائماً على تيقظ واستعداد من أمره.................

قال لي الشبلي: حتى أنه لا يوجد بدهلي خمراً بالجملة الكافية، لا ظاهراً ولا مضمراً، لتشديد هذا الرجل فيه، وإنكاره على من يعانيه، قال: مع أن أهل الهند لا

---

(1) المظلة التي ترفع على رأس السلطان.
(2) كرسي الحكم - عرش.
(3) حملة السلاح.
(4) حملة الملابس والأقمشة.
(5) الكتاب - وهنا تعني كتاب السر.
(6) بمعنى خارج، وصار منها يره ويراني.

رغبة لهم في الخمر ولا في المسكرات استغناءً بالتنبول[1]، وهو حلال طيب لا شية فيه مع ما فيه من أشياء لا يوجد في الخمر بعضها، وهو أنه يطيب النكهة، ويصرف الأطعمة، ويبسط الأنفس بسطاً عظيماً، ويورثها سروراً زائداً، مع ثبوت العقل، وتصفية الذهن، ولذاذة الطعم، فأما أجزاؤه فهو ورق التنبول و القوقل ونون[2]، يعمل خاصةً.

قال: ولا يعد أهل تلك البلاد كرامة أبلغ منه، فإنه إذا ضيف الرجل لآخر وأكرمه بما عسى أن يكون من أنواع الأطعمة والأشربة والرياحين والطيب، ولا يحضر معها التنبول لا يعتد له بكرامة، ولا يعد أنه أكرمه، و كذلك إذا أراد الرئيس إكرام أحد ممن يحضره، يناوله التنبول.

قلت: وهذا نظير مسك الأياق في ممالك أولاد جنكيزخان، والأياق هو قدح خمر أو تمر يمسكه الكبير لمن اراد إكرامه أو الرجل لمن أراد خدمته، وهو أبلغ خدمة عندهم، وسيأتي بمشيئة الله تعالى ذكر هذا في موضعه.

وحدثني العلامة سراج الدين أبو الصفاء عمر الشبلي أن هذا السلطان متطلعاً إلى معرفة أخبار ممالكه وبلاده، وأحوال من حوله من جنوده ورعاياه، وأن له ناساً يسمون المنهيين[3]، وطبقاتهم مختلفة، فمنهم من يخالط الجند والعامة، فإذا علم ما يجب إنهاؤه إلى السلطان أنهاه إلى أعلى طبقة منه، ثم ينهيها ذلك المنتهي، إلى آخر الأعلى فالأعلى إلى السلطان.

فأما أخبار البلاد النائية فإن بين حضرة السلطان وبين أمهات الأقاليم أماكن متقاربة، بعضها من بعض شبيهة بمراكز البريد في مصر والشام، ولكن هذه قريبة المدى

---

(1) التنبول: هي تانبول شجيرة تمو في الهند والصين وماليزيا، أوراقها معطرة.

(2) القوقل: شجرة تنمو في الهند طولها يبلغ 15 متراً، طعمها لذيذ مثل طعم التمر. و النون أيضاً شجيرة.

(3) المنهيون جمع مفرده منهي وناه وهو من ينهي الأمر إلى من يعلوه حتى يصل إلى السلطان .

بين المكا[1] والمكان بقدر أربع علوات نشاب أو دونها، وفي كل مكان عشر سعاة ممن له خفة في الجري، يحمل الكتب بينه و بين تاليه، إذا أخذ أحدهم الكتاب جرى به جرياً قوياً بأشد ما يمكنه أن يشتد، وأقوى ما يمكنه أن يجري إلى أن يوصله إلي الآخر، فيجري به كالأول إلى المكان الذي يليه، ويرجع حامله إلى مكانه على مهله، فيصل الكتاب من المكان البعيد إلى المكان البعيد في أقرب الأوقات أسرع من البريد والنجابة.

قال: وفي كل مكان من هذه الأماكن المركزة مساجد تقام بها الصلوات، ويأوي إليها السفّار، وبرك ماء للشرب، وأسواق للبيع للمكاكل[2] وعلوفة الدواب، ولا يكاد يحتاج إلى حمل ماء ولا زاد ولا خيمة.

قال: ومن جملة عناية هذا السلطان جعل بين قاعدتي ملكه وهما: دهلي وقبة الإسلام في هذه الأماكن المعدة لإبلاغ الأخبار طبول، فحيثما كان في مدينة وفتح باب الأخرى أو غلق يدق الطبل، فإذا سمعه مجاوره دق، فيعلم خبر فتح المدينة التي هو غاب عنها، وغلقه في وقت الحاضر كل يوم بنوبة.

ولهذا السلطان مهابة يسقط لها القلوب مع قربه من الناس، ولينه في كلامه وحديثه، وكل من أراد الوصول إليه وصل إليه، لا يبعده عظم حجاب، ولا عموم حجاب، وقد أدرّ الله في أيامه الأرزاق، وكثّر المواد، وضاعف النعم، على أن الهند مازال موصوفاً بالرخاء، معروفاً بالسخاء.

.... ولقد حدثني الشيخ مبارك قال: اللك الأحمر مائة ألف تنكة، واللك الأبيض مائة ألف تنكة الذهب، وهي المسمى عندهم التنكة الحمراء، ثلاثة مثاقيل، والتنكة النقرة وهي تنكة الفضة، ثمانية دراهم هشتكانة، وهذا الدرهم الهشتكاني[3] هو وزن الدرهم النقرة معاملة مصر والشام، وجوازه لا يكاد يتفاوت ما بينهما، وهذا

---

(1) المكا هو الرسول و رجل البريد جمعه مكاكي.

(2) الرسل.

(3) هشتكانة كلمة فارسية تعني ثمانية .

الدرهم الهشتكاني هو أربعة دراهم سلطانية، وهي المسماة الدكانية، وهذا الدرهم السلطاني يجيء ثلث درهم هشتكاني، وهو درهم ثالث يتعامل به في الهند، وجوازه بنصف وربع درهم ششتكاني[1]، ولهذا الدرهم السلطاني نصف يسمى يكاني[2] وهوبكتيل واحد، وكلهم درهم آخر اسمه شاتربكاني[3] جوازه بدرهمين، فحينئذٍ دراهم الهند ستة شاذودكاني ودوازديدكاني[4] هشتكاني، ششتكاني، وسلطاني ويكاني أصغرها السلطاني، وهذه الدراهم الثلاثة الأخيرة كلها مما يتعامل بها.

والمعاملات بينهم بها دائرة والأكثر بالدرهم السلطاني، وهو الذي تقديره ربع درهم من نقد مصر والشام، وهذا الدرهم السلطاني هو بثمانية فلوس، والثمانية فلوس هي جيتلان كل جيتل أربعة فلوس، فيكون الدراهم الهشتكاني، الذي هو مثل درهم النقرة، معاملة مصر والشام اثنتين وثلاثين فلساً.

ورطلهم يسمى سير[5] هو وزن سبعين مثقالاً عنها بصنجة[6] الدراهم بمصروفاته فإنه مائة ودرهمان وثلثان، و كل أربعين سيراً منّ[7] واحد، ولا يعرف عندهم الكيل.

وأما الأسعار فإن أوسطها القمح، كل منّ بدرهم ونصف هشتكاني، والشعير كل منّ بدرهم واحد منه، والأرز كل منّ بدرهم ونصف وربع منه إلاّ أنواعاً معروفة من الأرز فإنها أغلى من ذلك، والحمص كل منين بدرهم واحد هشتكاني، ولحم البقر والمعز سعر واحد، ويباع كل ستة أسيار بدرهم سلطاني، وهو ربع درهم هشتكاني، والغنم كل أربعة أسيار بدرهم سلطاني، والأوز كل طائر بدرهمين هشتكانية،

---

(1) ششكاني كلمة فارسية من شش بمعنى ستة وكانه لاحقة وتعني سداسي.

(2) اليكاني: من يك بمعنى واحد واليكاني يعني الأحادي.

(3) وردت شاذردكاني من الكلمة الفارسية شانزدة أي ستة عشر وكانة لاحقة وتعني المكون من ستة عشر جزءاً.

(4) دوازديدكاني: من الكلمة الفارسية دوازده كاني أي الإثني عشري.

(5) ورد ستر وهو نوع من الوزن.

(6) صنجة هي أداة وزن.

(7) المن: نوع من الوزن.

والدجاج كل أربعة طيور بدرهم هشتكاني، والسكر كل خمسة أسيار بدرهم هشتكاني، والنبات كل أربعة أسيار بدرهم منه، ورأس من الغنم الجيدة السمينة الفائقة بتنكة واحدة عنها ثمانية دراهم هشتكانية، والرأس البقر الجيد بتنكتين، وربما كان بأقل، والجاموس كذلك، وأكثر مأكلهم لحوم البقر والمعز.

قلت للشيخ مبارك: أهذا لقلة الغنم؟ قال: لا؛ ولكن عادة؛ وإلاّ فالأغنام لا تعد في كل قرية في الهند بالآلاف المؤلفة، والدجاج كل أربعة طيور فائقة بدرهم واحد بالمصري، وأما الحمام والعصافير وأنواع الطير فبأقل الأشياء ثمناً.

وأما أنواع الصيد م الوحش والطير بها فكثير، وبها الفنك[1] والكركدن[2]، وإنما فيلة الزنج أجل، وأمارتهم في الملبوس، لبسهم البياض وثياب الجوخ وثياب الصوف، إذا جلب إليهم، يباع بأربع الأثمان، ولا يلبس الصوف إلاّ أهل العلم والفقر[3].

ويلبس السلطان والخانات والملوك وسائر أرباب السيوف تتريات[4] وتكلاوات[5] وأقبية إسلامية مخصرة الأوساط خوارزمية[6] وعمائم صغار لا تعدى العمامة خمسة ستة أذرع من اللانس الرفيع.

وحدثني الشريف ناصر الدين محمد الحسيني الكارمي المعروف بالزمردي، وهو ممن دخل إلى الهند مرتين، وأقام عند السلطان قطب الدين[7] بدهلي، أن غالب لباسهم البياض، وغالب جمعاتهم أكسباتهم النتترية مزركشة بالذهب، ومنهم من

---

(1) الفنك: حيوان شبيه بالثعلب ولكنه أصغر، له أذنان طويلتان.

(2) الكركدن: يقصد هنا حيوان الكركدن.

(3) التصوف.

(4) تتريات جمع تتر، وهي نوع من الحراب الخاصة بالتتار.

(5) تكلاوات: نوع من الرماح.

(6) صنع خوارزم ببلاد ما وراء النهر.

(7) قطب الدين أيبك: هو أحد سلاطين المماليك الغورية ـ استقل بدهلي وبنى قطب منار، قتله السلطان تغلق.

يلبس مطرز الكمين بزركش[1]، ومنهم من يعمل الطراز بين كتفيه مثل المغل[2] وأتباعهم، مربعة الإنبساط مرصعة بالجواهر، وغالب ترصيعهم بالياقوت والماس، وتضفير شعورهم ذؤابات مرخية، كما كان يفعل عسكر مصر والشام، ويعمل في الذؤابات شراريب حرير، وتشد في أوساطهم المناطق[3] من الذهب والفضة وأخفاف ومهاميز[4]، وأما السيوف فلا تشد إلاّ في الأسفار، وأما في الحضر فلا تشد، وأما الوزراء والكتاب فمثل زي الجند، ولكن لا يشدون المناطق، وبعضهم يرخى له عذبات[5] أمامهم، مثل عذبات الصوفية، وأما القضاة والعلماء فلبسهم فرجيات شبيهات بالجندات ودرايع[6]، وأما عامة الناس فقمص، وفرجيات مقتدرة ودرايع.

وحدثني الشبلي: أنّ أهل دهلي أهل ذكاء وفطنة فصحاء في اللسان الفارسي، والهندي، ومنهم من ينظم الشعر بالعربي ويجيد فيه النظم، وكثير ممن يمدح السلطان منهم ممن ليس لهم اسم في ديوانه، فيقبل عليهم ويجزيهم..........

وحدثني شيخنا فريد الدهر شمس الدين الأصفهاني، قال: كان قطب الدين الشيرازي رحمه الله[7] يثبت صحة الكيمياء، قال: فبحثت معه في بطلان الكيمياء،

---

(1) بزركش: مذهّب.

(2) المغل هم المنغول قبائل تركية سكنت في المنطقة الواقعة جنوبي سيبيريا على شاطئ نهر أونون، وهي القبائل التي جاء منها جنكيزخان.

(3) المناطق جمع مفرده نطاق وهو ما يشد وسط المرء.

(4) مهاميز مفرده مهماز ومهميز وهي آلة حديدية في رجل الفارس يحفز بها الجواد.

(5) عذبات جمع عذبه ـ شيء يتدلى من العمامة على الكتفين.

(6) درايع جمع درعية، رداء يلبس على الصدر.

(7) قطب الدين الشيرازي: هو قطب الدين محمود ابن ضياء الدين مسعود الشيرازي المعروف بالعلامة الشيرازي، لبس خرقة التصوف عشر سنوات كان طبيباً، عمل بخدمة نصير الدين الطوسي ولازم جلال الدين الرومي، وأرسله السلطان أحمد تكودار بسفارة إلى مصر سنة 681 ومنها إلى الشام، عمل في بلاط آباقا خان وغازان خان، له مؤلفات منها: نهاية الإدراك ==

فقال لي: أنت تعلم ما يتلف من الذهب في الأبنية والمستعملات، ومعادن الذهب لا يتحصل منها نظير ما يتلف وينفذ، وأما الهند فإني حررت[1] أن له ثلاثة آلاف سنة، لم يخرج منه ذهب إلى البلاد، ولا دخل إليه ذهب، فخرج منه، والتجار من الآفاق تقصد الهند بالذهب العين، تتعوض عنه بأعواد، وحشائش وصموغ لا غير، فلولا أن الذهب يعمل لعدم بالجملة الكافية.

قال شيخنا شهاب الدين: أما قوله عما يدخل إلى الهند من الذهب ثم لا يخرج منه فصحيح، وأما إثباته لصحة الكيمياء فباطل لا صحة له.......................

مملكة الصين

صاحب التخت، وهو صاحب الصين والخطا، قد ذكرنا في صدر الفصل الأول أن القان الكبير هو القائم مقام جنكيزخان والجالس على تخته، وهو أجل ملوك توران، التي من مملكة الترك[2] من قديم الدهور والآباد، وبها أو بما جاورها أو قاربها كان أفراسياب[3]، غير أنه خرج عن هذا القان، ما هو الآن لأبني عمه؛ الذين تقدم ذكرهما، وإلى هذا القان إشارة الثلاثة أبناء عمه، وهو كالخليفة عليهم، فإذا تجدد من مملكة أحد منهم مهم كبير[4] مثل لقاء عسكر أو قتل أمير كبير أوصله إليه اليسق[5] أي

في دراية الأفلاك، والتحفة الشاهية، وفتح المنان في تفسير القرآن، وشرح حكمة الاستشراق للسهروردي، توفي سنة 710هـ.

(1) أي كتبت.

(2) المغول فرع من الأتراك.

(3) بطل أسطوري توراني قديم، حارب رستم حروباً طويلة، وأخيراً قتله رستم.

(4) أمر هام مشكلة كبرى ويسمى هذا الاجتماع باسم الطوى أي الضيافة.

(5) اليسق هي الياسا والياصا وهي الحكم والقاعدة.

الحكم أو ما يناسب هذا، أرسل إليه وأعلمه، ولا افتقار إلى استئذانه ولكنها عادة مرعية.

قال الفاضل نظام الدين ابن الحكيم الكاتب البوسعيدي[1]: أن هذا القان ما يزال يكتب إلى كل من القانات[2] الثلاثة، يأمرهم بالاتحاد والألفة، وأنه إذا كتب إليهم بدأ باسمه قبلهم، وكلهم مذعنون له بالتقدم عليهم.

وحدثني بكثير مما عليه صاحب هذه المملكة، وأنهم على ما هم عليه من الجاهلية، على السيرة الفاضلة الشاملة لأهل مملكته، ومن يرد إليها من إلحافهم بجناح العدل والإحسان، ومعاملتهم بقشور من لحاء شجر التوت[3]، مطبوعة باسمه، فإذا عتق ذلك المتعاطى به، حمله إلى ثواب هذا القان، وأخذ عوضه مع خسارة لطيفة[4]، كما يؤخذ من دار الضرب على ما يؤخذ إليها من الذهب والفضة، ليضرب بها.

وأهل مملكته هم أهل الأعمال اللطيفة والصنائع البديعة التي سلمت إليهم فيها الأمم، وقد ملئت الكتب عن أحوالهم بما أغنانا عن ذكره.

ومن عادة المجيدين في الصنائع أنهم إذا عملوا عملاً بديعاً حملوه إلى باب الملك، وعلق به ليراه الناس، وتبقى سنة كاملة، فإن سلم من عائب، أُسدى إلى صانعه صنائع الإحسان، وإن عيب عليه، وتوجه العيب، وضع قدر الصانع، وإن لم يتوجه العيب، قوبل من عاب عيباً غير متوجه قصد الأذية.

ومما حُكى في هذا أن صانعاً منهم صور في نقوش الثياب الكمخاء عصفوراً

---

(1) نسبة إلى أبي سعيد بهادر بن أولجايتو خدابنده بن أرغون بن القان هولاكو.

(2) القانات جمع مفرده قان، وهي في الأصل قآآن ،والقان سمة لكل من يلي الملك عند المغول.

(3) هي نوع من العملة المستعملة، فهناك عملة من الذهب والفضة ولحاء الشجر وتسمى جميعها بايزه.

(4) وتسمى كاغد وهي مختومة بخاتم السلطان.

على سنبلة حتى مثله كأنه حقيقة، فلما علقه حيث يعلق مثله، استحسنه كل من رآه، حتى مر به رجل، فعابه، فسئل لأي شيء عبته؟ فقال: لأن العصفور إذا قعد على سنبلة أمالها، وهذه مستقيمة ما هي مائلة، فاستحسن قوله، ووضع قدر الصانع.

هذا مما يحكى عنهم، وأما ما يحكى لي عن المشاهدة والعيان، فحكى لي الصدر[1] بدر الدين حسن الأسعودي التاجر، أن بعض صناعهم عمل سرجاً من أختاء البقر ودهنه، وأحسن صناعته، ثم قدمه إلى القان، فأعجبه، ووقع منه موقع الاستحسان، ولم يشك أنه معمول من خشب مثل بقية السروج، فقال له صانعه: أما علمتم هذا مما خشبه؟، فقالوا: لا، فأوقفهم على أنه من أختاء البقر، فاستحسنوا جودة صناعته، و لطف تدقيقه.

وحكى لي أن بعض صناعهم عمل ثياباً من الورق، وباعها من التجار على أنها من الكمخاوات الخطائية[2]، لا يشك فيه أحد، ثم أنه لما جاز هذا عليهم، أطلعهم على حقيقة حالها، فعجبوا لهذا.

قال بدر الدين حسن: ولقد رأيت منهم من هذه الأعمال ما تحار فيه العقول، وتذهل الأفكار، وأما ما حدثني به السيد الشريف تاج الدين حسن بن الجلال السمرقندي، وهو من جال في الأرض، وجال في الآفاق وهو من الثقات، وقد دخل الصين، وجاز بلاده، وجاب آفاقه، وجاس خلاله، وجال في أقطاره، قال: إن قاعدة الملك به مدينة خان بالق[3]، وهي مدينتان قديمة وجديدة، والجديدة بناها ديدو أحد ملوكها، وسميت باسمه ديدوا، وفي وسط مدينة ديدوا المذكورة منزل القان الكبير، وهو قصر عظيم يسمى كوك طاق ومعناه في اللغة المغولية "القصر الأخضر" لأن القصر عندهم "طاق" والأخضر "كوك" وهي خلاف اللغة التركية، فإن كوك فيها هو الأزرق.

---

(1) الصدر، هي وظيفة مرموقة تقارب وزير، وصدر أعظم الآن بمعنى رئيس الوزراء في الأردية.

(2) الخطائية نسبة إلى الخطا، وهم قوم من الترك ـ وتأتي الخطا والختا والقراخانية.

(3) مدينة خان بالق أو خان بالغ أو باليق اسم قديم لمدينة بكين الحالية عاصمة الصين.

ونزول الأمراء حوله خارج قصره، قال: وأما ترتيب هذه المملكة فإن لهذا القان أميرين كبيرين هما الوزراء ويسمى كل من يكون في هذه الرتبة جنكصان[1]، ودونهما أميران آخران يسمى كل من يكون في هذه الرتبة سمجين، ودونهما أميران آخران يسمى كل من يكون في هذه الرتبة يوجين، ورأس الكتاب ويسمى كل من يكون في هذه الرتبة كنجون وهو بمنزلة كاتب السر.

ويجلس القان كل يوم في صدر دار فسيحة تسمى شن هي عندهم من دار العدل عندنا، ويقف حوله الأمراء المذكورون عن يمين وعن الشمال على مقادير الرتب، ورأس الكتاب المسمى لنجون في آخرهم، فإذا شكى أحد شكوى أو سأل حاجة المذكور، فيقف عليها هو ومن معه في الرتبة، ثم يوصلانها إلى من يليهما في الرتبة، وكذا إلى أن تصل إلى القان، ويأمر فيها بما يراه مع العدل التام، والإنصاف المفرط.

قال: وهذا القان الكبير، ذو ملك كبير، وعسكر مديد، قال: والذي أعلم من أمره أن له بزداراً تركب الخيل، وعساكره من المغل عشرون توماناً[2] وهي مائتا ألف فارس، وأما من الخطا فما يحصى.

قال: وبلاد الصين تشتمل على ألف مدينة، وورث كثيراً منها، والطريق إلى سمرقند إلى خان بالق على ما يذكر من سمرقند إلى نيلي عشرون يوماً، ونيلي هي أربعة مدن، بين كل مدينة والأخرى فرسخ واحد، ولكل واحدة منها اسم يخصها، فالواحدة نيلي والأخرى نيلي بالق، والأخرى لنجك والأخرى تلان، ومن مدينة نيلي المذكورة إلى المالق عشرون يوماً، ومن المالق إلى قراجواجا إلى قمحو هي أول بلاد الخطا، أربعون يوماً، ومن قمحوا إلى خان بالق أربعون يوماً، ثم من خان بالق إلى

---

(1) جنكسان: أمير يعادل درجة وزير وهي جنكساتك.

(2) تومان: كتيبة من عشرة آلاف جندي وهي تعادل لقب ونشى واللقب الصيني يوان _ شواي أي القائد الأكبر ولقب بخشى بزرك كما استعمله رشيد الدين فضل الله تايشي.

الخنسا[1] طريقان؛ طريق في البر، و طريق في البحر، وفي كل منهما من خان بالق إلى الخنساء أربعون يوماً، وطول الخنساء يوم كامل، وعرضها نصف يوم، وفي وسطها سوق واحد ممتد من أولها إلى آخرها، وكل شوارعها وأسواقها مبلطة بالبلاط وبناؤها خمس طبقات، بعضها فوق بعض، وكلها مبنية بالأخشاب والمسامير، وشرب أهلها من الآبار، وأهلها قشف عيش، وغالب أكلهم لحوم الجوامس والأوز والدجاج، والأرز والموز وقصب السكر والليمون، وقليل رمان وهي شبيهة بمزاج مصر في حرها وهوائها، وأسعارها متوسطة، ويجلب إليها الغنم والقمح ولكنه قليل، ولا يوجد بها من الخيل إلاّ ما قل عند الأعيان الأكابر، وأما الجمال فلا يوجد بها شيء منها البتة، فإن دخل إليها جمل عجبوا منه.

قال الشريف هلال الدين حسن السمرقندي: وأما مدينة خان بالق، فمدينة طيبة وافرة الأقوات، رخية الأسعار، ويجمد بها الماء في زمن الشتاء، ويسيل إلى الصيف، فيبرد به الماء، ويشق أحد المدينتين منها، وهي مدينة ديدوانهر.

وبها أنواع الفواكه إلاّ العنب، فإنه قليل، وليس بها نارنج ولا ليمون ولا زيتون، ويعمل بها السكر نبات[2] مما يحمل إلينا من مدينة الزيتون، وأما ما بها من الزروع والدواب الجمال والخيل والأبقار والأغنام، فما لا يدخل في الإحصاء.

قال: وبين خان بالق ومدينة الزيتون شهر واحد تقديراً، ومدينة الزيتون بندر على البحر المحيط[3]، وهي آخر العمارة.

قال: وأما مدينة قراقوم فإنها مدينة جليلة، فيها غالب عساكر القان العظيم، ويعمل بها القماش المليح الفاخر والصنائع الفائقة، وغالب ما يحتاج القان إليه يستدعى

---

(1) الخنساء: ويعتقد البعض أنها هانج جو الحالية، ويذهب محقق الكتاب إلى أنها ميناء كانتون الحالي

(2) يقصد به السكر النبات.

(3) مدينة الزيتون على المحيط الهادئ، وهي مدينة كبيرة تصنع بها ثياب الكمخا والأطلس وتعرف بالنسبة إليها، وبها مرسى كبير، ويعتقد أنها كانتون

منها، لأنها دار استعمال، وأهلها أهل صناعات فائقة وأعمال.

قال الشريف حسن السمرقندي: وبلاد الصين كلها عمارة متصلة من بلد إلى بلد ومن قرية إلى قرية، ومعاملتهم بورق التوت=يسميها العرب الكمخا، ومنها كبار ومنها صغار، فمنها ما يقوم في المعاملة مقام الدرهم الواحد، ومنها ما يقوم مقام درهمين، ومنها ما يقوم مقام خمسة دراهم وأكثر إلى ثلاثين وأربعين وخمسين ومائة، وهو يؤخذ من لحاء شجر التوت اللين، ويختم باسم القان، وتجري به المعاملات، فإذا عتق، واضمحل، حمل إلى الخزانة، وأعطي عوضه مع غرم قليل.

قال لي الشريف السمرقندي: ومن عجائب ما رأيت في مملكة هذا القان الكبير، أنه رجل كافر، وفي رعاياه من المسلمين أمم كثيرة، وهم عنده مكرمون محترمون، ومتى قتل أحد الكفار مسلماً، قتل الكافر القاتل، هو وأهل بيته، وتنهب أموالهم، وإن قتل مسلم كافراً، لا يقتل وإنما يطلب بالدية، ودية الكافر عندهم حمار، لا يطلب غير ذلك.

وسألته عن أهل الصين، وما يحكى عنهم من رزانة العقل، وإتقان الأعمال، فقال: هم أكثر مما يقال، وكنا جماعة بحضرة سيدنا وشيخنا مزيد الدهر وارث العلم والحكمة شمس الدين أبي الثناء محمود الأصفهاني فقال الشريف السمرقندي: أنا أحكي لكم ما جرى لي: كنت أشكو ضرساً في فمي، فرآني بعض من كنت ألفت به في بلاد الصين، وأنا أتألم لشدة الضربان، فسألني عما بي، فشكوت إليه وجع ضرسي، فاستدعى شخصاً حطاباً قصير القامة، فقال له: أبصر حال هذا المسكين، فنظر في فمي وبقي يقلب أضراس بيده هنيهة، ثم أخرج ضرس الواحد ونصف الآخر، ولم أشعر لهما بألم، ثم أخرج من خريطة له، كانت أضراساً كانت كوامل وأنصافاً وأثلاثاً وأرباعاً معدة عنده لوضعها في مواضع ما يقلع، ثم لم يزل يقيس مواضع ما قلع لي حتى وضع موضعها من تلك الأضراس، ثم ذر عليها ذروراً، ودهنها بدهن، التأمت به لوقتها، وأمرني أن لا أشرب عليها الماء يومي كله، ففعلت كأني ما قلعت شيئاً، وأراني أضراسه، فوجدناها كأحسن ما يكون، فلا أن

المستجدين=الجديدين ظاهر عليها أنه ليسوا من نوع البقية والضرس المشعوب، يظهر أن نصف الشعب من غير النصف الأول.

وحدثني الفاضل نظام الدين علي بن الحكيم أن لأهل هذه البلاد عقولاً راجحة، وأعمالاً دقيقة، وهم يقولون الفرنج عور وباقي الناس عمى يعني أن صنائعهم، صناعة بصير العين وباقي الناس صناعتهم صناعة من هو أعمى ما يبصر ما يعمل، وحكى لي من أحوال هؤلاء القوم ما ينبئ عن عقول جمة وترتيب حسن وفقهنه[1] في الأمور.

فمما يحكى عنهم أن في مدن الخطا=شمال الصين مطابخ يطبخ فيها الأطعمة الفائقة والمشروب اللذيذ، مما لا يوصف حسنه أن يقدم منه إلى الملوك معدة لمن يشتري منه من الأكابر، حتى أن أحدهم إذا اهتم لضيافة كبير يبعث إلى صاحب المطبخ من تلك المطابخ، وقال له: عندي ضيف وأريد له ضيافة بكذا في وقت كذا، فإذا كان ذلك الوقت حمل إليه ما يناسب إرادته وشرطه من بدائع المأكول والمشروب كل شيء في وقته، إن كان المضيف ماله مكان يصلح للضيافة، أعد له صاحب المطبخ مكاناً بكل ما يحتاج إليه من البسط والفرش والآلات والغلمان على قدر ما حده له المضيف من القيمة، حسب صاحب المطبخ حساب مكسبه من كان ذلك عن أجرته و المطبخ والدار والفرش وكلفة الطعام والشراب، وإتمام كل شيء بحسابه بقانون متفق لا يزيد ولا ينقص، غير أن يحصل على المضيف تفريط ولا خيانة في شيء مما قل أو جل. قلت وحدثني الشريف الفاضل أبو الحسن الكربلائي التاجر رحمه الله وكان قد اجتمع بقان هذه البلاد وكثير من ملوك الأرض مما شاهده من عظمة سلطان هذا السلطان وطاعة رعاياه له وأمنهم في دولته، وقال لي أن لهذا القان أربعة وزراء يصدرون الأمر في مملكته كلها ولا يراجع القان إلاّ في القليل النادر ووصف لي أنه إذا أراد الركوب أنه لا

---

(1) فقهنة: أي دراية وعلم من فقه ويفقه.

يركب إلاّ في محفة لا يظهر للناس إلاّ في يوم واحد، وهو مثل يوم مولده من كل سنة، فإنه يركب فرساً ويخرج إلى الصحراء ويعمل بها الأطعمة والسماطات ما يغمر الناس، ويكون مثل يوم العيد عندهم وحدثني الصدر بدر الدين عبد الوهاب بن الحداد البغدادي التاجر أنه وصل إلى الختساء ووصف عظمة بنائها وسعة رقعة مدينتها مع تكشط الأقوات بها ووفور المكاسب فيها ورخص الرقيق الجيد فيها، ومن كل تلك البلاد قال وأهلها يتفاخرون بكثرة الجواري والسراري حتى أنه ليوجد لأحد التجار وآحاد الناس أربعون سرية فما زاد على ذلك قلت وكل ما ذكرناه في هذا هو على سبيل الاستطراد لبسط المقصود أن هذا القان هو أكبر الملوك الجنكيزخانيه الأربعة.

ب

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

تـ677 ـ 733هـ

نهاية الأدب في فنون الأدب

السفر الرابع عشر

وزارة الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة
القاهرة 1943م

ذكر أخبار ملوك الصين

قال أبو الحسن علي بن عبد الله المسعودي في كتابه المترجم بمروج الذهب: لما قسم فَالَغَ بن عَابَر بنِ أرْفَخْشَذ بن سام بن نوح الأرض بين ولد نوح سار ولد عامور بن تُوبِل[1] بن يَافَث بن نوح يسرة المشرق، فكان منهم أجناس الترك. وسار الجمهور من ولد عابور على ساحل البحر حتى انتهوا إلى أقاصيه من بلاد الصين؛ فتفرقوا في تلك البقاع والبلاد وقطنوها وعمروها، وكوروا الكُوَر، ومصروا الأمصار ومدنوا المدن، واتخذوا لمملكتهم مدينة عظيمة، وسموها إيقو، وبينها وبين ساحل البحر الحبشي، وهو بحر الصين، مسافة ثلاثة أشهر، مدن وعمائر متصلة. فكان أول من تملك عليهم في هذه الديار "نسطيرطاس" بن ماعور بن بزنج بن عامور. قال: ولما ملك فرق أهله في تلك الديار، وشقّ الأنهار، وغرس الأشجار، وطعّم الثمار، وقتل السباع، وكانت مدة ملكه ثلاثمائة سنة ونيفاً وهلك. فقام بالأمر بعده ولده عرون بن نسطيرطاس، فجعل جسد أبيه في تمثال من الذهب الأحمر جزعاً عليه، وتعظيماً له، وأجلسه على سرير من الذهب الأحمر مرصع بالجوهر، وجعل مجلسه دونه، وجسد له وهو في جوف ذلك التمثال، وسجد معه أهل مملكته، وفعل ذلك في كل نهار في طرفيه. وكانت مدة ملكه بعد أبيه نحواً من مائتي سنة وخمسين سنة ثم هلك.

فملك بعده ابنه عبيرون بن عرون، ولما ملك جعل جسد أبيه عرون في تمثال من الذهب ونصبه دون مرتبة جدّه، وكان يبدأ بالسجود لجده ثم يسجد لأبيه، وساس الرعية بأحسن سياسة، وساواهم في جميع أمورهم، وشملهم بعدله، وكثر النسل، وأخصبت الأرض، وكان ملكه إلى أن هلك مائتي سنة.

---

[1] هكذا في الكتاب المقدس (ج1 ص17) وفي الأصل "سربل".

ولما مات ملك بعده ولده عثينان بن عبيرون. قال: ولما ملك جعل جسد أبيه في تمثال من الذهب، وجرى في أمره على ما سلف من عادتهم في السجود والتعظيم. وطالت مدته في الملك، واتسعت مملكته حتى اتصلت بلاده ببلاد الترك من بني عمه. واتخذ في أيامه كثير من المهن مما لطف في الرقة من الصنائع، وعاش أربعمائة سنة ثم هلك.

فملك بعده ابنه حرانان بن عثينان. قال: ولما ملك جرى في جسد أبيه على عادتهم، ثم أمر باتخاذ الفلك وحمل فيها الرجال، وحمل معهم لطائف بلاد الصين، وسفرهم نحو بلاد السند والهند إلى إقليم بابل وإلى سائر الممالك مما قرب منها وبعد في البحر. وأهدى إلى الملوك الهدايا العجيبة والتحف النفيسة. وأمر أصحابه الذين سفرهم أن يجلبوا إليه ما في كل بلد من الطرائف والتحف و المأكول الذي لا يوجد في بلاده، والمشروب والغروس وأصناف الأقمشة والأمتعة وغير ذلك. وأمرهم أن يتعرفوا سياسة كل ملك، وملة كل أمة وشرائعها ونهجها الذي هي عليه، وأن يرغّبوا الناس فيما في بلادهم من الجواهر والطيب والآلآت. فتفرقت تلك المراكب في البلاد وفعلوا ما أمرهم به، فلم يردوا على مملكة من الممالك إلا أعجبوا بهم واستظرفوا ما معهم. فأنشأت الملوك المحيطة ممالكهم بالبحار السفن وجهزت نحو الصين، وحملوا إليهم ما ليس عندهم. وكاتبوا ملكهم وكافؤوه على ما كان قد هاداهم به من تحف بلاده، فعمرت بلاد الصين، واستقامت أمور مملكة الصين. فكانت مدة حياته في الملك نحواً من مائتي سنة وهلك، فجزع أهل مملكته عليه وحزنوا حزناً شديداً وأقاموا النياحة عليه شهراً.

وملك بعده ابنه توتال[1] بن حرانان. قال: ولما ملك جعل جسد أبيه في تمثال من الذهب، وسلك فيه سنّة من تقدمه من آبائه، واستقام أمره، وأحدث من السنن المحمودة ما لم يحدثه أحد من الملوك قبله. وقال في أهل مملكته: إن المُلك لا يثبت إلاّ

---

[1] في المسعودي: "تومامان".

بالعدل لأنه ميزان الباري، وإن من العدل الزيادة في الإحسان مع الزيادة في العمل. وخص وشرف وتوج ورتب الناس في رتبهم، ووقفهم على طرائقهم. وخرج يرتاد موضعاً يبني فيه هيكلاً، فوافى موضعاً عامراً بالنبات، حسن الاعتمام بالزهر، تخترقه المياه. فحط الهيكل هناك، وجلبت له أنواع الأحجار المختلفة الألوان، فشيد الهيكل وجعل في أعلاه قبة، وجعل لها مخارق للهواء متساوية. وجعل في الهيكل بيوتاً لمن أراد الإنفراد للعبادة. فلما فرغ من الهيكل نصب في أعلاه تلك التماثيل التي فيها أجسام من سلف من آبائه، وقال: في ترك ذلك على ما هو عليه خروج عن حد الحكمة، » ويكون ذلك إلى غير غاية ونهاية. وأمر بتعظيم تلك الأجساد التي جعلها في أعلى القبة. ثم جمع الخواص من أهل مملكته وأخبرهم أن من رأيه أن يضم الناس إلى ديانة يرجعون إليها فيجتمع الشمل و يتساوى النظام، وقال: إنه متى عدم الملك الشريعة لم يؤمن عليه الخلل، ودخول الفساد والزلَل؛ فرتب لهم سياسة وشريعة[1] وفرائض، ورتب لهم قصاصاً للنفوس والأعضاء، وقاعدة تستباح بها الفروج وتصح بها الأنساب. وجعل مما رتبه وقرره لوازم ونوافل، وأوجب عليهم صلوات لخالقهم تقرباً إلى معبودهم [منها] إيماء لا ركوع فيها ولا سجود [في أوقات من الليل والنهار معلومة، ومنها بركوع وسجود] في أوقات من السنين وفي شهور محدودة. ورسم لهم أعياداً، وأوجب على الزناة منهم حدوداً، وعلى من أراد من نسائهم البغاء جزية مقررة، وألا يستبحن بالنكاح وقتاً من الأوقات، وإن أقلعن عما كن عليه [تكف الجزية عنهن]. وما يكون من أولادهن ذكوراً يكونون للملك جنداً وعبيداً، وما يكون من أولادهن إناثاً فلأمهاتهن ويلحقن بصنعتهن. وأمر بقرابين للهياكل ودُخن وأبخرة للكواكب. وجعل لكل كوكب منها دخناً يتقرب إليه بها معمولة من أنواع الطيب والعقاقير. وأحكم لهم جميع الأمور، فاستقامت أيامه وكثر النسل. فكانت مدة حياته نحواً من مائة وخمسين سنة ثم مات، فجزعوا عليه جزعاً عظيماً، وجعلوه في تمثال من الذهب ورصعوه

---

(1) في المسعودي: "قرب لهم سياسة شرعية وفرائض عقلية وجعلها لهم رباطاً".

بالجوهر وبنوا له هيكلاً عظيماً، وجعلوا في أعلاه سبعة أنواعٍ من الجوهر على ألوان الكواكب السبعة وأشكالها، وجعلوا يوم وفاته صلواتٍ وعيداً يجتمعون فيه عند [ذلك] الهيكل، وصوروا صورته وذكروا سيرته في لوح من الذهب، وجعلوه في أعلى الهيكل من حيث تراه الأبصار ليكون ذلك مثالاً لمن يرد بعده في السياسة ونهج السيرة، وصوروا صورته على أبواب المدينة. وعلى الدنانير والفلوس والثياب. وأكثرو أموالهم الفلوس الصفر والنحاس. قال: واستقرت هذه المدينة دار ملك الصين وهي مدينة إيفو. قال: ولهم مدينة عظيمة نحو ما يلي مغرب الشمس من أرضهم يقال لها مدو، وتلي بلاد التبت. والحرب بين أهل مدو وبين أهل بلاد التبت سجال. ولم تزل الملوك ممن طرأ بعد هذا الملك أمورهم منتظمة، وأحوالهم مستقيمة، والخصب والعدل لهم شامل، والجور في بلادهم معدوم، يقتدون بما نصب لهم نوتال من الأحكام. وحروبهم على عدوهم قائمة، وثغورهم مشحونة، والرزق على الجنود جار، والتجار يختلفون إليهم في البر والبحر من كل بلد. ودينهم دين من سلف من آبائهم، وهي ملة تدعى السُّمنية، [عباداتهم] نحو من عبادات قريش قبل الإسلام، يعبدون الصور و يتوجهون نحوها بالصلوات. فاللبيب فيهم يقصد بصلاته الخالق عز وجل، و يقيم التمثال من الأصنام وغيرها مقام قبلة. والجاهل ومن لا علم له يُشرك هذه التماثيل بالاهية] الخالق ويعتقدهما جميعاً، وأن عبادتهم الأصنام تقربهم إلى الله زلفى، وأن منزلتهم في العبادة تنقص عن البارئ لجلالته وعظمته وسلطانه، وأن عبادتهم لهذه الأصنام طاعة له ووسيلة، إلى أن ظهرت في أهل الصين آراء ونحل حدثت من مذاهب الثنوية[1] وأهل الدهر. وقد كانوا قبل ذلك في الآراء وعبادة التماثيل على حسب ما عليه عوام الهند وخواصهم، فتغيرت أحوالهم وبحثوا وتناظروا، إلا أنهم ينقادون في جميع أحكامهم

---

(1) الثنوية: أصحاب الاثنين. يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان بخلاف المجوس فإنهم قالوا بحدوث الظلام والنور بتساويهما في القدم واختلافهما في الجوهر والطبع والفعل والخير والمكان والأجناس والأبدان والأزواج. (راجع الملل والنحل للشهرستاني).

إلى ما نصب لهم من القاعدة التي قدمناها. قال: ومُلكهم متصل بملك الطُّغُزْغُز. وكان اعتقاد الطغزغز القول بإله النور والظلمة، وكانوا قبل ذلك جاهلية جهلاء، سبيلهم في الاعتقاد سبيل أنواع الترك، إلى أن وقع إليهم شيطان من شياطين المانية[1]، فزخرف لهم كلاماً يريهم فيه تضاد هذا العالم وتنافيه من موت وحياة وصحة وسقم وغنى وفقر وضياء وظلام واجتماع وافتراق واتصال وانفصال وشروق وغروب ووجود وعدم وليل ونهار وغير ذلك من سائر المتضادات، وذكر لهم أنواع الآلام المعترضة لأجناس الحيوان الناطق والصامت، وما يعرض للأطفال والبُله والمجانين، وأن الباري غنيّ عن إيلامهم، وأراهم أن هناك ضداً شديداً دخل على الخير الفاضل في فعله وهو الله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، فاجتذب بذلك عقولهم ودانوا به. فإذا كان ملك الصين سُمَنيّ المذهب يذبح الحيوانات، فتكون الحرب بينه وبين ملك الترك قائمة، وإذا كان مانيّ المذهب كان الأمر بينهم مشاعاً.

قال: وملوك الصين ذوو آراء ونحل، إلاّ أنهم مع اختلاف أديانهم غير خارجين عن قضية العقل وسنن الحق في نصب القضاة والأحكام، وانقياد الخواص والعوام إلى ذلك. قال: وأهل الصين شعوب وقبائل كشعوب العرب وأفخاذها، ولهم مراعاة لحفظ أنسابهم. وينتسب الرجل منهم إلى خمسين أباً وأكثر إلى أن يتصل بعامور[2]. ولا يتزوج أهل كل فخذ إلا من فخذهم، ويزعمون أن في ذلك صحة النسل وقوام البنية، وأن ذلك أصح للبقاء وأتم للعمر.

---

(1) المانية ويقال لها أيضاً المانوية: أصحاب ماني بن فاتك الحكيم الذي ظهر في زمان سابور بن أزدشير وقتله بهرام بن هرمز بن سابور، وذلك بعد عيسى عليه السلام، أخذ ديناً بين المجوسية والنصرانية، وكان يقول بنبوة المسيح ولا يقول بنبوة موسى عليه السلام، وزعم أن العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين أحدهما نور والآخر ظلمة، وأنهما أزليان لم يزالا ولن يزالا. (راجع الملل والنحل للشهرستاني).

(2) في المسعودي: "بعابور".

قال المسعودي: ولم تزل أمور الصين مستقيمة في العدل على حسب ما جرى به الأمر فيما سلف من ملوكهم إلى سنة أربع وستين ومائتين؛ فإنه حدث في مُلك الصين أمر زال به النظام وانتقض به حكم شرائعهم ومَنَعَ من الجهاد. وكان سبب ذلك أن خارجياً خرج ببلد من مدن الصين وهو من غير بيت المُلك، يقال له ياسر، شرير. وكان في ابتداء أمره يطلب الفتوة، ويجتمع إليه أهل الدعارة والشر. فلحق الملوك وأرباب التدبير غفلة عنه لخمول ذكره، وأنه ممن لا يبالَى به؛ فاشتد أمره، ونما ذكره، وكثر عتوّه، وقويت شوكته، وقطع أهل الشر المسافات نحوه. فسار من موضعه وشن الغارات، ولم يزل كذلك حتى نزل مدينة خانقو[1]، وهي المدينة العظيمة. قال: وهي على نهر عظيم أكبر من دجلة أو نحوه، تدخله السفن التي ترد من بلاد البصرة وسيراف وعمان ومدن الهند وجزئر الزابج. وبين هذه المدينة وبحر الصين مسيرة ستة أيام أو سبعة، وفيها خلائق من الناس مسلمون ونصارى ويهود ومجوس وغيرهم من أهل الصين. فقصد الخارجي هذه المدينة، واتقى بجيوش الملك فهزمها. وحاصر المدينة وفتحها واستولى على المملكة، وقتل من أهل مدينة خانقو خلقاً لا يحصون كثرة. فأحصي من قتل فيها من المسلمين والنصارى واليهود غير أهل الصين فزادوا على مائتي ألف. ثم سار بجيوشه إلى بلد بلد فافتتحه. وقصد مدينة إيقو، وهي دار المملكة، وهو ثلاثمائة ألف ما بين فارس وراجل. فخرج إليه الملك في خواصه في نحو مائة ألف والتقيا، فكانت الحرب بينهم سجالاً نحو شهر وصبرا جميعاً. ثم كانت على الملك فانهزم، وأمعن الخارجيّ في طلبه. وانحاز الملك إلى مدينة في أطراف أرض الصين. واستولى الخارجي على حوزة الصين واحتوى على دار المُلك وخزائن الكلوك السالفة وما أعدوه للنوائب. وعلم أنه لا يقوم بالملك لأنه ليس من بيته، فأخرب البلاد واستباح الأموال وسفك الدماء. فكاتب ملك الصين ملك الترك أُمرخان واستنجده.

---

[1] مدينة خانقو كما وصفها الإدريسي: تقع إلى الشرق من مصب نهر خمدان (ينغ تسي كينغ). ولعل خانفو هي مدينة "كنتون" الآن.

فأنجده ملك الترك بولده في نحو أربعمائة ألف فارس وراجل. وقد استفحل أمر الخارجي فالتقى الفريقان، فكانت الحرب بينهما سجالاً نحو سنة، وقتل من الطائفتين ما لا يحصى كثرةً. ثم فُقد الخارجي فقيل قتل وأسر ولده وخواص أصحابه، وعاد ملك الصين إلى دار ملكه. قال: والعائلة تسميه "بغبور"، وتفسيره ابن السماء تعظيماً له. والاسم الذي يخاطب به ملوك الصين طمغاجيان، ثم لقبوا بعد ذلك ملكهم بالخان. قال: ولما كان من أمر هذا الخارجي الذي ذكرناه، تغلب صاحب كل عمل على عمله. وضعف ملك الصين عند ذكرنا لأخبار الدولة الجِنْكِزْخانية. والله أعلم.

ج

عن كتاب صبح الأعشى /الجزء الخامس
الشيخ أبي العباس القلقشندي
دار الكتب الخديوية
المطبعة الأميرية
القاهرة 1915م

مملكة الهند ومُضَافاتها

قال في "مسالك الأبصار": وهي مملكة عظيمة الشأن، لا تقاس في الأرض بمملكة سواها: لاتساع أقطارها، وكثرة أموالها وعساكرها، وأبهة سلطانها في ركوبه ونزوله، ودَسْت مُلكه؛ وفي سيطها وسمعتها كفاية. ثم قال: ولقد كنت لا أقف على حقيقة أخبارها لبعدها منا، وأجل مما كنت أظن. وحسبك ببلاد في بحرها الدر، وفي برها الذهب، وفي جبالها الياقوت والماس، وفي شعابها العود والكافور، وفي مدنها أسرة الملوك، ومن وحوشها الفيل والكركدن، ومن حديدها سيوف الهند؛ وأسعارها رخية، وعساكرها لا تعد، وممالكها لا تحد؛ ولأهلها الحكمة ووفور العقل؛ وهم أملك الأمم لشهواتهم، وأبذلهم للنفوس فيما يُظن به الزلفى.

قال: وقد وصف محمد بن عبد الرحيم الإقليشي هذه المملكة في كتابه "تحفة الألباب" فقال: المُلك العظيم، والعدل الكثير، والنعمة الجزيلة، والسياسة الحسنة، والرضا الدائم، والأمن الذي لا خوف معه في بلاد الهند. وأهل الهند أعلم الناس بأنواع الحكمة والطب والهندسة والصناعات العجيبة. ثم قال: وفي جبالهم وجزائرهم ينبت شجر العود والكافور وجميع أنواع الطيب: كالقرنفل والسنبل والدارصيني، والقرفة، والسليخة، والقاقلة، والكبابة، والبسباسة، وأنواع العقاقير. وعندهم غزال المسك وسنور الزباد؛ هذا مع ما هذه المملكة عليه من اتساع الأقطار، وتباعد الأرجاء، وتنائي الجوانب.

فقد حكى في "مسالك الأبصار": عن الشيخ مبارك بن محمود الأنباتي: أن عرض هذه المملكة ما بين سُومنات وسَرَنْدِيب إلى غزنة، وطولها من الفرضة

المقابلة لعدن إلى سد الإسكندر[1] عند مخرج البحر الهندي من البحر المحيط، وأن مسافة ذلك ثلاث سنين في مثلها في السير المعتاد، كلها متصلة المدن ذوات المنابر والأسرّة، والأعمال، والقرى، والضياع، والرساتيق، والأسواق؛ لا يفصل بينها خراب. بعد أن ذكر عنه أنه ثقة ثبْت عارف بما يحكيه إلاّ أنه استبعد هذا المقدار، وقال: إن جميع المعمور لا يفي بهذه المسافة، اللهم إلاّ أن يريد أن هذه المسافة من يتنقل فيها حتا يحيط بجميعها مكاناً مكاناً، فيحتمل على ما فيه.

وفيه إحدى عشرة جملةً:

الجملة الأولى: فيما اشتملت عليه هذه المملكة من الأقاليم

وتحتوي هذه المملكة على إقليمين عظيمين:

الإقليم الأول

إقليم السند وما انخرط في سلكه من مكران، وطوران، والبُدهة، وبلاد [القُفس] والبَلُوص

فأما السند، قال ابن حوقل: ويحيط به من جهة الغرب حدود كَرْمان، وتمام الحد مفازة سِجِسْتان؛ ومن جهة الجنوب مفازة هي فيما بين كَرْمان والبحر الهندي، والبحر جنوبي المفازة؛ ومن جهة الشرق بحر فارس أيضاً: لأن البحر يتقوس على كرمان والسند، حتى يصير له دخلة شرقي بلاد السند؛ ومن جهة الشمال قطعة من الهند. قال ابن خردازبه: وبالسند القُسْط، والقنا، والخيزران.

---

(1) تصور العرب وجود سد في شمال الصين تقف وراءه شعوب يأجوج ومأجوج، خلطوا بذلك بين سد الصين الحقيقي والسد التخيلي ليأجوج ومأجوج.

وقاعدته المنصورة — قال في "تقويم البلدان": وهي مدينة بالسند واقعة في الإقليم الثاني من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد: حيث الطول خمس وتسعون درجة وثلاثون دقيقة، والعرض أربع وعشرون درجة واثنتان وأربعون دقيقة. قال في "القانون": واسمها القديم يَمَنْهُو وإنما سميت المنصورة لأن الذي فتحها من المسلمين قال نُصِرْنا. وقال المهلّبي: إنما سميت المنصورة لأن عمر بن حفص المعروف بهَزَارَمَرْد بناها في أيام أبي جعفر المنصور ثاني خلفاء بني العباس وسماها بلقبه.

قال ابن حوقل: وهي مدينة كبيرة يحيط بها خليج من نهر مهران وهو نهر يأتي من الملتان فهي كالجزيرة ولكنها بلدة حارة وليس بها سوى النخيل؛ وبها قصب السكر، وبها أيضاً ثمر على قدر التفاح شديد الحموضة، يسمى اليمومة. وبها عدة مدن وبلدان أيضاً...............................

الإقليم الثاني: إقليم الهند

قال في "الأنساب": بكسر الهاء وسكون النون ودال مهملة في الآخر. قال في "تقويم البلدان": والذي يحيط به من جهة الغرب بحر فارس، وتمامه حدود السند؛ ومن جهة الجنوب البحر الهندي؛ ومن جهة الشرق المفاوز الفاصلة بين الهند والصين؛ ولم يذكر الحد الذي من جهة الشمال. وذكر في "مسالك الأبصار" أن حده من جهة الشمال بلاد الترك. وذكر عن الشيخ مبارك الأنباتي: أنه ليس في هذه المملكة خراب سوى مسافة عشرين يوماً مما يلي غزنة، لتجاذب صاحب الهند وصاحب تركستان وما وراء النهر بأطراف المنازعة، أو جبال معطلة، أو شعواء[1] مشتبكة.

قال صاحب "مسالك الأبصار": وسألت الشيخ مبارك الأنباتي عن بر الهند وضواحيه فقال: إن به أنهاراً ممتدة تُقارب ألف نهر كبار وصغار، منها ما يضاهي النيل عظماً، ومنها ما هو دونه، ومنها ما هو مثل بقية الأنهار. وعلى صغار الأنهار القرى والمدن؛ وبه الأشجار الكثيفة والمروج الفِيح. قال: وهي بلاد معتدلة لا

---

(1) والشعراء الأرض ذات الشجر أو كثيرته.

تتفاوت حالات فصولها، ليست مفرطة في حر ولا في برد؛ بل كأن كل أوقاتها ربيع؛ وتهب بها الأهوية والنسيم اللطيف، وتتوالى بها الأمطار مدة أربعة أشهر؛ وأكثرها في أخريات الرّبيع إلى ما يليه من الصيف.

ثم لمملكة الهند قاعدتان:

القاعدة الأولى: مدينة دَلِّي[1]

وسماها صاحب "تقويم البلدان" في تاريخه دَهْلي بإبدال اللام هاء. وهي مدينة ذات إقليم متسع، وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة قال في "القانون": حيث الطول مائة وثمان وعشرون درجة وخمسون دقيقة، والعرض خمس وثلاثون درجة وخمسون دقيقة. قال في "تقويم البلدان": وهي مدينة كبيرة في مستوٍ من الأرض، وتربتها مختلطة بالحجر والرمل، وعليها سور من آجر، وسورها أكبر من سور حماة، وهي بعيدة من البحر، ويمر على فرسخ منها نهر كبير دون الفرات، وبها بساتين قليلة وليس بها عنب، وتمطر في الصيف؛ وبجامعها منارة لم يُعلم في الدنيا مثلها، مبنية من حجر أحمر ودرجها نحو ثلثمائة درجة؛ وهي كبيرة الأضلاع، عظيمة الارتفاع، واسعة الأسفل وارتفاعها يقارب منارة الإسكندرية.

وذكر في "مسالك الأبصار" عن الشيخ برهان الدين بن خلال البزي الكوفي: أن علوها في نحو ستمائة ذراع. وذكر الشيخ مباركْ الأنباتي أن دلي مدائن جمعت ولكل مدينة منها اسم يخصها ودلي واحدة منها. قال الشيخ أبو بكر بن الخلال: وجملة ما يطلق عليه الآن اسم دلي إحدى وعشرون مدينة.

قال الشيخ مبارك: وهي مُميَّلة طولاً وعرضاً، يكون دَور عمرانها أربعين ميلاً، وبناؤها بالحجر والآجر، وسقوفها بالخشب، وأرضها مفروشة بحجر أبيض شبيه بالرخام؛ ولا يُبنى بها أكثر من طبقتين وربما اقتُصر على طبقة واحدة، ولا يفرش دوره فيها بالرخام إلا السلطان. قال: وفيها ألف مدرسة، منها مدرسة

---

(1) دلهي.

واحـدة للـشافعية وباقيها للحنفـية ؛ وبهـا سـبعين بيمارسـتاناً، وسمى بهـا دور الـشفاء ؛ وبهـا وببلادها من الرُّبط والخوانق نحو ألفين، وفيها الزيارات العظيمة، والأسـواق الممـتدة، والحمامـات الكـثيرة ؛ وشـرب أهلـها مـن مـاء المطـر، تجـتمع الأمطار فيها في أحواض وسيعة كل حوض قطره غلوة سهم أو أكثر. أما مياه الاستعمال وشرب الدواب فمن آبار قريبة المستقى، أطول ما فيها سبعة أذرع. وقد صـارت دلـي قاعدة لجميع الهند [مستقر السلطان] وبها قصور ومنازل خاصة بسكنه وسكن حريمه، ومقاصير جواريه وحظاياه وبيوت خدمه ومماليكه، لا يسكن معه أحد من الخانات ولا من الأمراء، ولا يكون بها أحد منهم إلاّ إذا حضر للخدمة ثم ينصرف كل واحد منهم إلى بيته. ولهـا بـساتين مـن جهاتهـا الـثلاث: الـشرق، والجنوب، والشمال على استقامة، كل خط اثنا عشر ميلا، أما الجهة الغربية فعاطلة من ذلك لمقاربة جبل لهابة. ووراء ذلك مدن وأقاليم متعددة.

القاعدة الثانية: مدينة الدواكير

ومدينة الدَّواكير، هي مدينة ذات إقليم متسع. وقد ذكر في "مسالك الأبصار" عن الشيخ مبارك الأنباتي: أنها مدينة قديمة جددها السلطان محمد بن طغلقشاه، وسماها "قبة الإسلام". وذكر أنه فارقها ولم تتكامل بعد، وأن السلطان المذكور كان قد قسمها على أن تبنى محلات لأهل كل طائفة محلة: الجند في محلة، والوزراء في محلة، والكتاب في محلة، والقضاة والعلماء في محلة، والمشايخ والفقراء في محلة، وفي كل محلة ما يحتاج إليه من المساجد، والأسواق، والحمامات، والطواحين، والأفران، وأرباب الصنائع من كل نوع حتى الصواغ والصباغين، والدباغين، بحيث لا يحتاج أهل محلة إلى أخرى في بيع ولا شراء، ولا أخذ ولا عطاء: لتكون كل محلة كأنها مدينة مفردة قائمة بذاتها.

واعلم أن صاحب "تقويم البلدان": قد ذكر عن بعض المسافرين إلى الهند أن بلاد الهند على ثلاثة أقسام:

القسم الأول ـ بلاد الجُزُرات[1].

قال في "تقويم البلدان": وبها عدة مدن وبلاد.

منها نهلُوارة، وقال ابن سعيد: نَهْرُوالة، فقدم الراء وأخر اللام، وكذلك نقله في "تقويم البلدان" عن بعض المسافرين. وفي "نزهة المشتاق" نَهْرُوارة براءين. وموقعها في الإقليم الثاني من الأقاليم السبعة قال في "القانون": حيث الطول ثمان وتسعون درجة وعشرون دقيقة، والعرض ثلاث وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة. وهي غربي إقليم المَنِيبار الآتي ذكره. قال: وهي أكبر كَنْبَايِت[2]، وعمارتها مفرقة بين البساتين والمياه؛ وهي عن البحر على مسيرة ثلاثة أيام. قال صاحب حماة في "تاريخه": وهي أعظم بلاد الهند.

ومنها كَنْبَايِت قال في "تقويم البلدان": بالكاف ونون ساكنة وباء موحدة ثم ألف وياء مثناة تحتية وتاء مثناة من فوقها، ومقتضى ما في "مسالك الأبصار": أن يكون اسمها أنبايت بإبدال الكاف همزة، فإنه يُنسب إليها أنباتيّ. وهي مدينة على ساحل بحر الهند، موقعها في الإقليم الثاني من الأقاليم السبعة قال في "القانون": حيث الطول تسع وتسعون درجة وعشرون دقيقة، والعرض اثنتان وعشرون درجة وعشرون دقيقة. وذكر في "تقويم البلدان" عمن سافر إليها أنها غربي المنيبار على خور من البحر طوله مسيرة ثلاثة أيام. قال: وهي مدينة حسنة، أكبر من المعرة من بلاد الشام في المقدار، وأبنيتها بالآجر، وبها الرخام الأبيض، وبها بساتين قليلة.

ومنها تانَةُ. قال في "تقويم البلدان": قال أبو العقول نقلاً عن عبد الرحمن الريّان الهندي. وهي بلدة على ساحل البحر، واقعة في الإقليم الأول من الأقاليم السبعة قال في "القانون": حيث الطول مائة وأربع عشرة درجة وعشرون دقيقة، والعرض تسع عشرة درجة وعشرون دقيقة. قال في "تقويم البلدان": وهي مشارق الجُزُرات. قال ابن سعيد: وهي مشهورة على ألسن التجار. قال: وأهل هذا

---

[1] أو الكجرات.
[2] أو كنباية.

الساحل جميعهم كفار يعبدون الأنداد[1]، والمسلمون ساكنون معهم. قال الإدريسي: وأرضها وجبالها تُنبت القنا والطباشير ويحمل منها إلى الآفاق. قال أبو الريحان: والنسبة إليها تانِشيّ ومنها الثياب التانشية.

ومنها صُومَنَاتْ قال في "تقويم البلدان" وموقعها في الإقليم الثاني من الأقاليم السبعة قال في "القانون": حيث الطول سبع وتسعون درجة وعشر دقائق، والعرض اثنتان وعشرون درجة وخمس عشرة دقيقة. قال في "القانون": وهي على الساحل في أرض البَوازِيخ. قال ابن سعيد: وهي مشهورة على ألسنة المسافرين، وتعرف ببلاد اللار، وموضعها في جهة داخلةٍ في البحر فينطحها كثير من مراكب عدن لأنها ليست في جون؛ ولها خور ينزل من الجبل الكبير الذي في شماليها إلى شرقيها؛ وكان بها صنم تعظمه الهنود يضاف إليها، فيقال: "صنم صومنات" فكسره يمين الدولة "محمود بن سُبُكْتِكين" عند فتحها كما هو مذكور في التواريخ.

ومنها سَنْدانُ، هكذا ذكره في "تقويم البلدان": ونقل لفظه عن المهلبي في "العزيزي". وقال بعض المسافرين إنها سَنْدَابُور وهي مدينة على ثلاثة أيام من تانة، وموقعها في الإقليم الأول من الأقاليم السبعة قال في "القانون": حيث الطول مائة وأربع درجات وعشرون دقيقة، والعرض تسع عشرة درجة وعشرون دقيقة. قال في "تقويم البلدان" عن بعض المسافرين: وهي على جون في البحر الأخضر، وهي آخر إقليم الجزرات. قال في "القانون": وهي على الساحل. قال في "العزيزي": وبينها وبين المنصورة خمسة عشر فرسخاً، وهي مجمع الطرق. قال: وهيَ بلاد القُسْط والقنا والخيزران، وهي من أجلّ الفرض على البحر.

ومنها نَاكُورُ قال في "تقويم البلدان": وهي مدينة على أربعة أيام من دلي.

ومنها جالُورُ. وهي على تل تراب نحو قلعة مِصْياف بين ناكور وبين نهروالة. ويقال إنه لم يعص على صاحب دلي من الجزرات غير جالور.

---

[1] أو الأبداد، الصنم، لعلها مشتقة من بوذا.

ومنها منوري قال في "القانون": وهي بين الفرضة وبين المعبر إلى سرنديب حيث الطول مائة وعشرون درجة، والعرض ثلاث عشرة درجة.

القسم الثاني - من إقليم الهند بلاد المنيبار[1]

قال في "تقويم البلدان": وهي إقليم من أقاليم الهند في الشرق عن بلاد الجزرات المقدم ذكرها. قال: والمنيبار هي بلاد الفلفل. ثم قال: والفلفل في شجره عناقيد كعناقيد الدُّخن. وشجره ربما التف على غيره من الأشجار كما تلتف الدوالي، وبها بلاد....[2] وجميع بلاد المنيبار مخضرة كثيرة المياه والأشجار الملتفة.

منها هَنَّوْر قال في "تقويم البلدان": بفتح الهاء والنون المشددة والواو وراء مهملة. وهي غربي سندابور من بلاد الجزرات المقدم ذكرها، فتكون أول بلاد المنيبار من الغرب. قال: ولها بساتين كثيرة.

ومنها بَاسَرُور.... وهي بلدة صغيرة شرقي هنور المقدمة الذكر.

ومنها مَنْجَرُور قال في "تقويم البلدان": بفتح الميم وسكون النون وفتح الجيم وضم الراء المهملة ثم واو ساكنة وراء مهملة. وهي شرقي باسرور المقدمة الذكر. قال: وهي من أكبر بلاد المنيبار، وملكها كافر، ووراءها بثلاثة أيام جبل عظيم داخل في البحر، يرى للمسافرين من بعد، يسمى "رأس هَيْلِي".

ومنها تَنْدِيُور... وهي بُليدة شرقي "رأس هَيْلِي" لها بساتين كثيرة.

ومنها الشَّالِيات...

ومنها الشِّنْكلي بالشين المعجمة المكسورة [وسكون النون[3]] وكاف ولام وياء آخر الحروف. وهي بلدة بالقرب من الشاليات.

ومنها الكَوْلَم قال في "تقويم البلدان": بالكاف المفتوحة والواو الساكنة ثم لام مفتوحة وميم في الآخر. وموقعها في الإقليم الأول من الأقاليم السبعة. قال في

---

(1) ذكرها ياقوت باللام بدل النون.

(2) بياض في الأصل ولعله "كثيرة".

(3) الزيادة من "تقويم البلدان".

"الأطوال": حيث الطول مائة وعشر درجات، والعرض ثمان عشرة درجة وثلاثون دقيقة. قال ابن سعيد: وهي آخر بلاد الفلفل من الشرق، ومنها يقلع إلى عدن. قال صاحب "تقويم البلدان": وحكى لي بعض المسافرين أنها على خور من البحر في مستوٍ من الأرض وأرضها مُرملة؛ وفيها حارة للمسلمين وبها جامع.

القسم الثالث: من إقليم الهند بلاد المعبر

قال في "تقويم البلدان": بفتح الميم وسكون العين المهملة وفتح الباء الموحدة ثم راء مهملة. وهي شرقي بلاد الكَولَم بثلاثة أيام أو أربعة. قال في "تقويم البلدان": وينبغي أن تكون بميلة إلى الجنوب. قال ابن سعيد: وهو مشهور على الألسن، ومنه يجلب اللانس وبها يضرب المثل في قصاريها. قال: وفي شماليها جبال متصلة ببلاد بلهرا ملك ملوك الهند، وفي غربيها يصب نهر الصوليان في البحر. وذكر في "مسالك الأبصار" عن قاضي القضاة سراج الدين الهندي: أن بلاد المعبر تشتمل على عدة جزائر كبار.

وبه عدة مدن وبلاد.

منها بِيّرْداول قال في "تقويم البلدان": بكسر الباء الموحدة وتشديد الياء المثناة التحتية وسكون الراء وفتح الدال المهملتين وألف وواو ولام. قال: وهي قصبة بلاد المعبر، وموقعها في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة. قال ابن سعيد: حيث الطول مائة واثنتان وأربعون درجة، والعرض سبع عشرة درجة وخمس وعشرون دقيقة. قال في "تقويم البلدان": وهي مدينة سلطان المعبر، وإليه تجلب الخيول من البلاد.

ثم اعلم أن وراء ما تقدم بلاداً أخرى ذكرها في "تقويم البلدان".

منها ماهُورة قال في "تقويم البلدان": بفتح الميم والألف والهاء والواو ثم راء مهملة وهاء. وموقعها في الإقليم الثاني من الأقاليم السبعة. قال في "القانون": حيث الطول مائة درجة وأربع درج، والعرض سبع وعشرون درجة. قال ابن سعيد: وهي على جانبي نهر كنك في انحداره من قنوج إلى بحر الهند. قال في "تقويم البلدان": وهي بلد البراهمة، وهم عباد الهند ينسبون إلى البرهمن أول حكمائهم. قال ابن سعيد: وقلاعهم بها لا تُرام.

ومنها لَوْهَوْر قال في "اللباب": بفتح الميم وسكون الواوين بينهما هاء مفتوحة وفي الآخر راء مهملة. قال: ويقال لها أيضاً لَهَاوُر. وموقعها في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة قال في "الأطوال": حيث الطول مائة درجة والعرض إحدى وثلاثون درجة. وقال في "اللباب": وهي مدينة كبيرة كثيرة الخير، خرج منها جماعة من أهل العلم.

ومنها قِنَّوج قال في "تقويم البلدان": بكسر القاف وفتح النون المشددة والواو ثم جيم. وموقعها في الإقليم الثاني من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد: حيث الطول مائة وإحدى وثلاثون درجة وخمسون دقيقة، والعرض تسع وعشرون درجة. وذكر في "الأطوال" الطول ينقص سبع وعشرين درجة، والعرض بزيادة ست درج. قال ابن سعيد: وهي قاعدة لهاور، وهي بين ذراعين من نهر كنك. وقال المهلبي: هي في أقاصي الهند من جهة الشرق عن الملتان على مائتين واثنين وثمانين فرسخاً. قال: وهي مِصْر الهند وأعظم المدن بها. ثم قال: وقد بالغ الناس في تعظيمها حتى قالوا: إن بها ثلثمائة سوق للجوهر، ولملكها ألفان وخمسمائة فيل؛ وهي كثيرة معادن الذهب. قال في "نزهة المشتاق": هي مدينة حسنة، كثيرة التجارات، ومن مدنها قِشْمِير الخارجة، وقِشْمِير الداخلة. قال: وملكها يسمى القنوج باسمها.

ومنها جبال قَامَرُون قال في "تقويم البلدان": بفتح القاف وألف وميم وراء مهملة ثم واو ونون. وهي حجاز بين الهند والصين، وعدها في "القانون" من الجزائر. قال: وهي خارجة عن الإقليم الأول من الأقاليم السبعة، إلى الجنوب قال في "القانون" و"الأطوال": حيث الطول مائة وخمس وعشرون درجة، والعرض عشر درج، ومدينة الملك شرقيها، وبها معدن العود القامروني.

قلت: وذكر في "مسالك الأبصار" عن قاضي القضاة سراج الدين الهندي: أن في مملكة صاحب الهند ثلاثة وعشرين إقليماً، عد منها بعض ما تقدم ذكره، وهي: إقليم دهلي، وإقليم الدواكير، وإقليم الملتان، وإقليم كهران، وإقليم سامانا، وإقليم سبوستان، وإقليم وجا، وإقليم هاسي، وإقليم سرستي، وإقليم المعبر، وإقليم تلنك، وإقليم كجرات، وإقليم بدلون، وإقليم عوض، وإقليم القنوج، وإقليم لكنوتي، وإقليم بهار، وإقليم كره، وإقليم ملاوه، وإقليم لهاور، وإقليم كلافور، وإقليم جاجنكز، وإقليم تلنج، وإقليم دورسمند.

ثم قال: وهذه الأقاليم تشتمل على ألف مدينة ومائتي مدينة، كلها مدن ذوات نيابات: كبار وصغار. وبجميعها الأعمال والقرى العامرة الآهلة. وقال إنه لا يعرف عدد قراها، إلا أن إقليم القنوج مائة وعشرون لكاً، كل لك مائة ألف قرية، فتكون اثني عشر ألف ألف قرية؛ وإقليم تلنك ستة وثلاثون لكاً، فيكون ثلاثة آلاف ألف وستمائة ألف قرية؛ وإقليم ملاوه أكبر من إقليم القنوج في الجملة.

وحكى عن الشيخ مبارك الأنباتي: أن على لكنوتي مائتي ألف مركب صغار خفاف للسير، إذا رمى الرامي في إحداها سهماً وقع في وسطها لسرعة جريانها. ومن المراكب الكبار ما فيه الطواحين والأفران والأسواق، وربما لم يعرف بعض ركابه بعضاً إلاّ بعد مدة لاتساعه وعظمه إلى غير ذلك مما العهدة فيه عليه..........

الجملة الثانية: في حيوانها

قد ذكر في "مسالك الأبصار" عن الشيخ مبارك الأنباتي: أن بها الخيل على نوعين: عِرابٍ وبرازين، وأكثرها ما لا يحمد فعله. قال: ولذلك تُجلب الخيل إلى الهند من جميع ما جاوره من بلاد الترك، وتقاد له العراب من البحرين وبلاد اليمن والعراق، وإن كان في داخل الهند خيل عراب يُتغالى في أثمانها ولكنها قليلة. قال: ومتى طال مُكث الخيل بالهند انحلّت. وعندهم البغال والحمير، ولكنها مذمومة الركوب عندهم، حتى لا يستحسن فقيه ولا ذو علم ركوب بغلة. أما الحمار فإن ركوبه عندهم مذلة وعار عظيم؛ وخاصتهم تحمل أثقالها على الخيل، وعامتهم تحمل على البقر من فوق الأنف[1]، وهي عندهم كثيرة، وبها الجمال قليلة لا تكون إلاّ عند السلطان وأتباعه: من الخانات، والأمراء، والوزراء، وأكابر الدولة؛ وبها من المواشي السائمة ما لا يحصى: من الجواميس والأبقار والأغنام والمعز؛ وبها من دواجن الطير الدجاج والحمام والإوز وهو أقل أنواعه، وإن الدجاج عندهم في قدر خلق الإوز. وبها الوحوش الفيل، والكركدن. وقد تقدم

---

(1) لعله مصحف عن الكتف.

ذكرهما في الكلام على الوحوش فيما يحتاج الكاتب إلى وصفه من الحيوان في المقالة الأولى، في غير ذلك من الوحوش التي لا تعد.

الجملة الثالثة: في حبوبها، وفواكهها، ورياحينها، وخضرواتها، وغير ذلك

أما الحبوب فقد ذُكر عن الشيخ مبارك الأنباتي أن بها الأرز على أحد وعشرين نوعاً؛ وبها من سائر الحبوب الحنطة، والشعير، والحمص، والعدس، والماش، واللوبياء، والسمسم، أما الفول فلا يوجد عندهم. قال في "مسالك الأبصار": ولعل عدمه من حيث إنهم قوم حكماء، والفول عندهم مما يفسد جوهر العقل، ولذلك حرمت الصابئة أكله.

وأما الفواكه ففيه التين، والعنب على قلة، والرمان الكثير، من الحلو، والمزّ، والحامض، إلى غير ذلك من الفواكه: كالموز، والخوخ، والتوت المسمى بالفِرْصاد؛ وبها فواكه أخرى لا يعهد مثلها بمصر والشام، كالعنباء وغيرها؛ والسفرجل على قلة، والكمثرى، والتفاح، وهما أقل من القليل، ولكنهما والسفرجل تُجلب إليه. وبها من الفواكه المستحسنة الرانج، وهو المسمى عندهم بالنارجيل، والعامة تسميه جوز الهند. وبه البطيخ الأخضر والأصفر، والخيار، والقثاء، والعجور، وبه من المحمضات الأترج، والليمون، والليم، والنارنج. أما الحُمَرُ[1] وهو التمر الهندي فكثير ببا ديتها.

---

[1] . ويقال له الحومر أيضاً.

على سبيل الختام

تُلقي هذه النصوص الأضواء على كثافة الصلات المعرفية، والثقافية، والتأثيرات المتبادلة، مابين العرب من جهة، والهند والصين من جهة أخرى، وتقدم فكرة عن الصورة الإيجابية التي كونها العرب في العصر الوسيط عن هذين البلدين وحضارتيهما، والتي خلت من النزعات العدائية، أو التعالي الثقافي أو العرقي، وهو ما يشهد على عمق تلك الصلاة، والتبادلات. إذ يعود احتكاك العرب، ومعرفتهم للهنود وللصينيين إلى ما قبل الإسلام، فقد مارس العرب القاطنون الحافة الجنوبية من الجزيرة العربية (حضر موت، عدن، وجزيرة سوقطرة) دور الوسيط التجاري ما بين عالم المتوسط وبلاد الشرق، منذ القديم، حتى أثناء سيطرة اليونان وما بعدهم الرومان على مصر وبعض بلدان المشرق العربي، فكانوا يأتون من الشرق الأقصى بالأحجار الثمينة والتوابل مقابل بضائع مصرية، وحملوا البهارات والموسلين، أما من الهند مباشرة أو من التجار الهنود في موانئهم في خليج عدن، وبفضل هذه التجارة الرابحة، وتلك الاتصالات المستمرة شيّد العرب حضارة زاهية مركزها سبأ.[1] وازدادت معرفة العرب تلك، مع توسع اتصالاتهم، بعد الإسلام، وتحولهم إلى إمبراطورية شاسعة الأبعاد، تمتد حدودها من الشواطئ الإسبانية إلى قلب الهند، وتضرب الرياح بأشرعة سفنهم في أهم مضايق العالم القديم، ومحيطاته، وتوسطت هذه الإمبراطورية، وشكلت صلة الوصل بين منطقتين اقتصاديتين عظيمتين، منطقة المحيط الهندي ومنطقة البحر الأبيض المتوسط.[2] فصارت أراضي الخلافة برزخاً تتلاقى عليه خطوط التجارة العالمية،

---

(1) د. مقبول أحمد. العلاقات التجارية بين الهند والعرب. مجلة ثقافة الهند. المجلد الحادي عشر. العدد الثالث. يوليو /1960. ص 103 ـ 105.

(2) آدم ميتز. الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج2. نقله محمد عبد الهادي أبو ريده. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. ط2 القاهرة 1948. ص 272.

ولعب العرب المسلمون فيها دور الوسيط التجاري، حتى غدا النشاط التجاري كما يقول ميتز "مظهراً من مظاهر أبهة الإسلام. وكانت سفن المسلمين وقوافلهم، تجوب كل البحار والبلاد، وأخذت تجارة المسلمين وقوافلهم، تجوب كل البحار البلاد، وأخذت تجارة المسلمين المكان الأول في التجارة العالمية، وكانت الإسكندرية وبغداد هما اللتان تقرّران الأسعار للعالم في ذلك العصر، في البضائع الكمالية على الأقل".[1]

وسافر التجار العرب ـ المسلمون من موانئ الخليج لعربي، سيراف والبصرة، والأبلة، ومن عدن، وموانئ البحر الأحمر إلى الهند وسيلان وجزر الهند الشرقية، والصين، وجلبوا من الصين الحرير والأسرجة، واللباد، والقرفة، والراوند، والأدوات الذهبية والفضية، والنقود الذهبية والعقاقير والأنسجة، والحلي والأقفال، ومن الهند النمور والقهوة والفيلة، وجلود النمور، والياقوت، وخشب الصندل الأبيض، وخشب الأبنوس، وجوز الهند، فعرفوا البحار الشرقية حق المعرفة، واستقر بعضهم لأغراض التجارة في الصين منذ القرن الثامن الميلادي.[2] كما استقروا على سواحل الهند، وجزر المحيط. على الرغم توطّد هيمنة العرب على التجارة البحرية الشرقية، فقد حافظت العلاقة الهندية ـ العربية على طابعها التنافسي السلمي، فعندما وصل البرتغاليون بقيادة (فونسو البوكرك) إلى ساحل الملايو لاحظوا أن التجار العرب والهنود، والصينيين، يتنافسون بحرية، في أسواق تلك المنطقة، تنافساً صريحاً لا لبس فيه، وكانت سفنهم التجارية الصغيرة والكبيرة لا تعرف الحروب ولا تستعد لها[3] لذلك، كان وصول المراكب

---

(1) أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي. معهد الاستشراق ـ مجموعة من الباحثين ـ دراسات في تاريخ الثقافة العربية القرن 5 ـ 15 ترجمة د. أيمن أبو شعر. دار التقدم موسكو. 1989. ص 367.

(2) برنارد لويس ـ العرب في التاريخ ـ ترجمة نبيه أمين فارس ود. محمود يوسف زايد ـ دار العلم للملايين بيروت 1954. ص 124 ـ 125 .

(3) د. شوقي عبد القوي مكاوي. تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية. سلسلة كتب ثقافية للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت. 1990 • ص 68

التجارية الكبيرة حادثاً جديداً، أدخل الحروب والصراع على تجارة تلك البحار.[1]

ورافق تلك الصلاة التجارية والاجتماعية صلاة معرفية بين العرب المسلمين والهنود والصينيين، وازداد احتكاكهم وتلمسهم لمناحي حياتهم المختلفة، فكانت التجارة بالنهاية وسيلة لتبادل الأفكار، والتجارب، والخبرات الثقافية، ولنقل الثقافات، واستعارة بعض جوانبها، فقام العرب بالترجمة والاقتباسات العلمية والفنية والتقنية من البلدين، فلقد وقف العرب القدماء على جانب من حضارة الهند وأخبارها، فقد تخرّج، على أيدي الهنود بمدرسة (جنديسابور) الساسانية، فريق من العرب، منهم الحارث بن كلده الثقفي طبيب العرب قبل الإسلام.[2]

فقد شغف المنصور بالفلك، ناهيك عن تشجيعه للترجمة، إلى درجة أنه اصطحب نوبخت الفارسي، وابنه أبا سهل بن نوبخت، وكان في حاشيته أيضاً ابراهيم الفزاري وابنه محمد، وعلي بن عيسى الأسطرلابي وغيرهم، وقد كلف المنصور العالم الجغرافي محمد إبراهيم الفزاري، بترجمة الكتاب الذي قدمته البعثة الهندية، المنوه عنها سابقاً، وصلت بغداد (156هـ ـ 773م) من الهند، وأطلق العرب على هذا الكتاب، اسم (كتاب السند هند الكبير)، ولقد اطلع العرب على "حساب الهنود" فأخذوا عنه نظام الترقيم، إذ أنهم رأوا أنه أفضل من النظام الشائع بينهم، وكان لدى الهنود أشكال عديدة للأرقام، هذّب العرب بعضها وكونوا من ذلك سلسلتين، عرفت إحداها بالأرقام الهندية، وهي التي تستعملها أكثر البلاد العربية والإسلامية، وعرفت الثانية بالأرقام الغبارية، وقد انتشر استعمالها في بلاد الغرب والأندلس وعن طريق الأندلس دخلت هذه الأرقام إلى أوروبا، كما أوجد العرب طريقة جديدة، هي طريقة الإحصاء العشري،

---

(1) ل. م. بانيكار. آسيا والسيطرة الغربية. ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد وزارة الثقافة. دار المعارف. مصر. 1962. ص 33

(2) الجاحظ: أبو عثمان عمر بن حرب. الحيوان. الكتاب الأول. الجزء السابع تحقيق عبد السلام محمد هارون. مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده. القاهرة 1954. ص 113.

واستعمال الصفر.[1] و اتفق الباحثون على واقعة أن العرب تعلموا صناعة الورق بسمرقند ، على يد الصينيين. وبالمقابل فقد مارس العرب - المسلمون تأثيرهم على الثقافة الهندية والصينية ، فقد كان التجار العرب - المسلمون يجتمعون في أحياء خاصة بهم في المدن الصينية ، ولهم نظام إداري خاص بمباركة الإدارة الصينية ، التي كانت تختار رجلاً منهم لرئاستهم وليتولى الرقابة والقضاء ، ويساعد الحكومة في جلب المكوس ، وكان هؤلاء التجار يبنون المساجد في أحياء سكنهم ، وكان أقدم المساجد التي بنوها هناك ، هو مسجد هواي تشينغ (مسجد الشوق إلى النبي) في مدينة كانتون ، ومسجد شينغ جينغ (مسجد الصفاء والطهارة) في مدينة الزيتون (يشوا انتشو) ومسجد شيان خه (مسجد الكركي الملاك) في مدينة بانغ تشو ، ومسجد جين جياو (مسجد الدين الحنيف) في مدينة هانغتو ، وكانوا في أماكن سكناهم يدرسون اللغتين العربية والصينية ، وقد توسعت هذه الظاهرة بعد غزو المغول للعالم ، وجلوسهم على عرش الصين[2]

يضفي هذا الوضع التاريخي برمته على علاقات هذه البلدان الراهنة بعداً محفزاً للثناء عليه وتدعيمه ، و يشكل حافزاً لهم ليعيدوا توطيد تلك الصلاة و ليساهموا في إحيائها والبناء عليها ، يساعدهم في ذلك ، حقيقة أن الفترة المعاصرة نفسها لم تشهد أي صدام بين العرب والحضارتين الهندية والصينية ، بل أن تلك الحضارات الثلاث وجدت نفسهما في العصر الحديث ، تواجه وضعية تاريخية مشتركية ، وذلك لوقوعها تحت وطأة الهيمنة الإستعمارية والحافزالمشترك للتحرر والاستقلال لبناء حياتها الجديدة ، ومن ثم أعقبها ، في منتصف القرن الماضي ، انخراط العرب والصينيين والهنود في حركة مؤتمر باندوغ(عبد الناصر ، نهرو ، شواة لاي ، تيتو)التي دشنت ولادة حركة (عدم الانحياز) ، فإعيد إحياء الصلاة والعلاقات القديمة ، على أسس من التفاهم السياسي

---

(1) قدري حافظ طوقان . العلوم عند العرب. سلسلة ألف كتاب 4 مكتبة مصر . القاهرة . بدون تاريخ ص 60 — 61 وص49

(2) أكاديمية العلوم السوفياتية . مصدر سابق . ص 406

والثقافي، والتعاون الاقتصادي المشترك لمواجهة مسائل التنمية والتقدم وتجاوز هوة التخلف، والتعاون الدولي لتوطيد قضايا السلم والحرية والعدل، على قاعدة الإحترام المتبادل والمساواة. وقد وقفت الصين والهند في صف قضايا العرب العادلة وفي مقدمتها قضية فلسطين.

ونأمل أن يساهم هذا البحث، ولو بطريقة متواضعة، في التذكير بالجذور التاريخية العميقة للتفاهم بين تلك الشعوب الثلاثة لإعادة ضخ الحياة من جديد في علاقاتها تلك، و لترتقي إلى مستوى رهانات العصر وقيمه الواعدة بالحوار الحضاري والثقافي على قاعدة الاعتراف بالتنوع الثقافي بين الأمم، الذي يسهل من عملية التعاون ويويد أواصر التبادل والبحث عن القيم المشتركة، ودعوة إلى حوار مخلص بين تلك الحضارات قد يسهم، في مآلاته، في بناء صرح الحضارة المعاصرة ويزيدها قوة وغنى.

Introduction
Textes of
Arab culture about India and China

This study aims to inform directly the arabic reader with the main textes that arab medial culture has saved,these textes focused on India and China, so they reflected the limits of arab knowledge about the two countries and regional surroundings, and the view of this culture of them, social behaviors, values ,religions,faithes they adoppted,and rites they practiced during their joy,greive and spritual devoutness,presented symboles and criteria that ruled its view toward Indians and Chines and their neighbours as human beings in their relation with their environment,and in their civilized attempt in building their political , civil ,technical and manifacuture edifice,comparing this attemt with other civilized attempts.

Religion was not the only criterion in which arab culture judged (valued) the others, where arab authors and scholars regarded at nations according to their participating in prosperty field, so arab culture depended on prosperty and civilization criteria ,valued (measured) the benefits and virtues had china and india by its participating in prosperty,and what the two countries specialized in its different categories, so that lead to a type of cultural relativism ,that was so obvious at AL_jahiz, Al_tawhidi and Ibn_khaldun,so they specialized each nation and civilazation, by a distiguished role in the prosperty field,whereas China appeared by manufacutring,Greece. ,by wisdom and litrerature,Arabs , by peotry and

Chivalry, Persia, in power , Turks, by wars.

Al_tawhedi,in his book: (Al_imtah&Muanaseh), said that :Persia had politics,literatures, arts, Romans had science and wisdom, India had thought and magic, Turks had bravery and herosim, Nigros had patience , hard_working and joy, Arabs had succor, courage , generous,eloquence, And oratory.

Arabs reached at a conclusion that China and India had the same level of other nations in virtues and vices, as Al_tawhedi

expressed by saying:(all nations had shared in vices and virtues by choosing thought and by nature

So there were nothing to be squabbled about for habit and hierarchy, and the excited dispute of the lustful force).

Also, the arab judgments at the others: Chinse . Indian and theirselves, were affected by the role they gave to the echo – geographical factor, and by the stars circuit and astronomy at people natures, so as a result to their knowledges by the world at those times, so each nation and civilization had echo – geographical site : in one of the seven regions they had divided the inhabitanted land, from the south of equator to the north , near the pole, and they adoppted the view that said: there was no life in the warmest countries to the south of equator, or the coldest ones in the far north.

Arab – muslims might establishe their view on all the criteria, where their view did not depend upon a criterion ,but they took all the criteria into consideration when examining the characteres , virtues , vices of the Chines and Indians without forgetting the role of their political relations with those people when they formed some of their judgements.

If the arab knowledge, qualified the negative and positive characteresof other people and nations outside (the muslims – lands) including chines and indians , for they were used to apply that rule at the same arabic and islamic regions.

The good relations between arabs and India,China and the far east people mor than their relation with europe, helped the arabic researcher to approach india and china epistemic.

In the east, The borders were opened in front of the arab – muslims travelers, whereas they went to india and china , they met islamic communities awaiting for them, but , in Bizenta &christdom, there were no acceptance to arab — islamic communities from the people nor from the authourities,so arabs found radical differences in their relations with the two worlds: europian and eastern.

Although of arab dominate at eastern marine trade, the indian – arabic relation kept at its competitive peaceful nature, and there was not any combat between their forces in the sea for trade.

Befor european coming,seeding fight, never any asian state in

any age , had had dominated at ships crossing, also the trade arab activities were cleaned (without any political stain).

When Portuguese reached at Al _ malayo coast, they noticed that: arab, indian,and chines merchants competed freely in the local markets, it was obvious free competive.

As a result : the theme is branched into two chapters, the first cosists of preface that aims to enlight the theme totally, by reminding with the sources of arab knowledge and its writings in india and china in all fields

Literaturally, intellctual,historical, travelogue writtings,vocabulary and encyclopedia recording that appeared after (14)fourteen century a.m ,to the wonders recordings and folklore feats , enlighting at what had arab writers achieved , and what they presented of data, thought, imaginaries, and vision about india and china in all knowledge fields.

The second chapter shows (the main arab texts) in india and china that we classified to groups according to its literatural style and theme and the method of approaching to the culture without cosideration the chronologic of its writing, so we presented these texts at six groupes :

Selected of : literaturies, geographical literatury,historical writing, travelogue literatury, vocabulary and encyclopedia recording, wonders recordings.

We hpoe that this research to fill a gap in the arab contemporary library, even if it was small

المراجع

- أحمد. نفيس. جهود المسلمين في الجغرافية. ترجمة فتحي عثمان. سلسلة ألف كتاب 272 دار القلم. مصر بدون تاريخ.
- أفاية ، محمد نور الدين : الغرب المتخيل ـ صورة الآخر في الفكر العربي الإسلامي الوسيط ، المركز الثقافي العربي ، بيروت 2000.
- أو مليل. علي. في شرعة الاختلاف. دار الامان. الرباط. 1991.
- أرنولد. توماس. تراث الإسلام جي. آ. ج. كرامرز. الجغرافية التجارة عربه جرجس فتح الله. دار الطليعة ط3. بيروت 1979م.
- أبو تلة. خديجة. الإسلام والعلاقات الدولية في السلم والحرب. دار المعارف. القاهرة 1983م.
- أمين. أحمد. ضحى الإسلام. دار الكتاب العربي. ط1. بيروت. تاريخ 1965م.
- بدوي ، فؤاد : ابن بطوطة ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، دون تاريخ.
- باوند. جفري. المعتقدات الدينية لدى الشعوب. ترجمة عبد الفتاح إمام. سلسلة عالم المعرفة 173. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت 1993
- بارتولد. تاريخ الحضارة الإسلامية. ترجمة حمزة طاهر. دار المعارف. مصر ط2. 1952.
- بانيكار. ل. م. آسيا والسيطرة الغربية. ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد. وزارة الثقافة. دار المعارف. مصر. 1962م.
- الجابري. د. محمد عابد. العقل الأخلاقي العربي. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت 2001

- جوهر. حسن محمد. وعبد الحميد بيومي. الصين. سلسلة مجموعة شعوب العالم 2 دار المعارف. مصر بدون تاريخ.
- حسن ، حسن إبراهيم تاريخ الإسلام السياسي الديني والثقافي الاجتماعي ، 4 أجزاء ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة 1960.
- حميدة ، د. عبد الرحمن : أعلام الجغرافيين العرب ، دار الفكر ، دمشق 1984
- حوراني. جورج فضلو. العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى ، ترجمة السيد يعقوب بكر مكتبة الأنجلو مصرية. القاهرة. بدون تاريخ.
- الخربوطلي ، علي حسني : المسعودي ، سلسلة نوابغ الفكر العربي 28، ط2، دار المعارف ، مصر 1980م.
- خصباك ، د.شاكر : الجغرافية عند العرب ، موسوعة الحضارة العربية الإسلامية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت 1995.
- الخضري ، محمد : نور اليقين في سيرة سيد المرسلين ، القاهرة 1910.
- خورشيد ، فاروق : أديب الأسطورة عند العرب ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون ، الكويت ـ أغسطس 2002.
- الدوري. عبد العزيز. بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب. بيوت 1983
- ديورانت. ول. قصة الحضارة. عصر الإيمان. ترجمة محمد بدران الإدراة الثقافية في جامعة الدول العربية. القاهرة.
- الذهبي. شمس الدين أبو عبد الله محمد بن إحمد ين عثمان. دول الإسلام. تحقيق حسن اسماعيل مروة. دار صادر. بيروت. 1999
- الزهري ، أبو عبد الله محمد : كتاب الجغرافية ، تحقيق محمد حاج صادق ، المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، دمشق 1958.
- زيادة ، نقولا : الجغرافية والرحلات عند العرب ، الأهلية للنشر والتوزيع ، بيروت 1962.
- زيادة ، نقولا : الرحالة العرب. سلسة ألف كتاب 97. والقاهرة 1996.

- زيادة. نقولا. مشرقيات. في صلات التجارة والفكر. رياض الريس. لندن. 1998م.
- ستودارد، لوثروب Lothrop Stoddoud: شكيب أرسلان حاضر العالم الإسلامي، نقله إلى العربية عجاج نويهض، بقلم الأمير شكيب أرسلان، 4 مجلدات، دار الفكر، بيروت 1971.
- زيتون. محمد محمود. الصين والعرب عبر التاريخ. سلسلة إقرأ 253 ـ دار المعارف. مصر. بدون تاريخ.
- سوسة، د.أحمد: الشريف الإدريسي، في الجغرافية العربية، نقابة المهندسين العراقيين، مكتبة جهري، بغداد 1974.
- الساداتي. د. أحمد محمد. تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضاراتها جزءان سلسلة ألف كتاب. مكتبة الآداب ومطبعتها القاهرة بدون تاريخ.
- شاخت، وبوزورث: تراث الإسلام، جزءان، ترجمة محمد زهير السمهوري وآخرون، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 1978م..
- صغير، بشير: الجغرافيون العرب، تعريب وتقديم حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1984م.
- الصيني بدر الدين حي. العلاقات بين العرب والصين. مكتبة النهضة المصرية 1950.
- ضيف، شوقي: الرحلات، ط4، دار المعارف، مصر 1987م.
- طه نجم. وديعة. الجاحظ والحاضرة العباسية. مطبعة الإرشاد. بغداد 1965
- طرخان، إبراهيم علي: دولة غانة الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1970.
- طرخان، إبراهيم علي: دولة مالي الإسلامية، دراسات في التاريخ الغربي الإفريقي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1973.

- طوقان. قدري حافظ. العلوم عند العرب. سلسلة ألف كتاب. 4. مكتبة مصر. القاهرة. بدون تاريخ.
- عثمان، د.شوقي عبد القوي: تجارة المحيط الهندي ـ عصر السيادة الإسلامية، سلسلة عالم المعرفة، الكويت 151، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1990.
- العظمة، عزيز: العرب والبرابرة ـ المسلمون والحضارات الأخرى، رياض الريس، لندن 1991.
- علوي. س.م. ضياء الدين. الجغرافية العربية في القرن التاسع والعاشر الميلاديين تعريب وتحقيق. د. عبد الله يوسف الغنيم. د. طه الجاسر نسخة مصورة في المكتبة الوطنية بحلب
- عويدات. حسين العرب والنصاري. الاهالي. دمشق 1992
- العدوي. د.ابراهيم احمد. ابن بطوطة في العالم الإسلامي إقرأ 144. دار المعارف مصر 1954
- فهيم، حسين محمد: أدب الرحلات سلسلة عالم المعرفة ـ 138، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت 1989.
- كحالة، عمر رضا: التاريخ والجغرافية في العصور الوسطى، المطبعة التعاونية، دمشق 1972م.
- كراتشكوفسكي، إغناطيوس بوليانوفتش: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، القاهرة 1957م.
- كروزيه. تاريخ الحضارات العام أربعة مجلدات. ترجمة أسعد داغر. وفريد داغر. منشورات عويدات بيروت 1966
- لوبون غوستاف: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة 1956.
- لوبون غوستاف. حضارة الهند. ترجمة عادل زعيتر. دار إحياء الكتب العربية. لأصحابها عيسى البابي الحلبي وشركاه. القاهرة 1948.

- لومبار موريس: الإسلام في عظمته الأولى، ترجمة ياسين الحافظ، دار الطليعة، بيروت 1977م.
- لويس. برنارد. العرب والتاريخ. ترجمة نبيه أمين فارس. والدكتور محمود يوسف زايد. دار العلم للملايين. بيروت. 1954م.
- مؤنس حسين: تاريخ الجغرافية والجغرافيين الأندلسيين، ط2، مكتبة مدبولي، القاهرة 1986م.
- متز، آدم: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، جزءان، ترجمة عبد الهادي أبو ريدة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط2، القاهرة 1948.
- مصطفى شاكر. التاريخ العربي والمؤرخون. ثلاثة أجزاء بيروت 1978
- ميكيل، أندريه: الإسلام وحضارته، ترجمة د.زينب عبد العزيز، بيروت 1981.
- ميكيل، أندريه: جغرافية دار الإسلام البشرية، 4 أجزاء، وزارة الثقافة، دمشق 1983 ـ 1995.
- مجموعة من المؤلفين. أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفيتي. معهد الاستشراق. دراسات في تاريخ الثقافة العربية. القرن 5 ـ 15. ترجمة أيمن أبو شعر. دار التقدم موسكو. 1989م.
- العدوي. د. أبراهيم. ابن بطوطة في العالم الإسلامي. أقرأ. دار المعارف. مصر. 1954
- نصار حسين: أدب الرحلة، مكتبة لبنان، الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة 1991.
- نمر. عبد المنعم. تاريخ الإسلام في الهند دار العهد الجديد. مصر 1959.
- هويدي. فهمي. الإسلام في الصين. سلسلة عالم المعرفة 43. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت 1981.
- الهندي. د. إحسان. أحكام الحرب والسلام في دولة الإسلام. دار النمر. دمشق 1993م.

- وات. مونتغمري. الفكر السياسي الإسلامي. ترجمة صبحي حديدي. دار الحداثة. بيروت. 1981
- يحيى. د. جلال. تاريخ العلاقات الدولية في العصور الحديثة. دار المعارف. مصر. بدون تاريخ.
- ندوة، "العرب وإفريقيا"، مركز دراسات الوحدة العربية، ط2، بيروت

المصادر حسب تسلسلها التاريخي

• ابن المقفع(ولد سنة106هـ ـ 716م/142هـ ـ 724 ـ 759م) عبد الله ابن المقفع، كليلة ودمنة. افيلسوف بيدبا. منشورات دار الحياة. بيروت 1965.

ـ ابن خرداذبة ـ أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت 272هـ ـ 885م) : المسالك والممالك، مكتبة المثنى ببغداد،

ـ الجاحظ، أبو عثمان بن بحر (ت 255هـ ـ 869م): رسائل الجاحظ، ج1، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة 1964م.

ـ الجاحظ... الحيوان. تحقيق عبد السلام محمد هارون. مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده القاهرة 1945

• سهراب، أبو الحسن بن بهلول (القرن التاسع الميلادي): كتاب عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية المعمورة، مطبعة فيينا، 1347هـ ـ 1929م، بإشراف مزيك حدة.

ـ اليعقوبي (ت284 هـ ـ 895 أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب: تاريخ اليعقوبي، جزءان، دار العراق، بيروت 1955.

• ـ اليعقوبي.كتاب البلدان.طبعة دي غويه.ليدن.1892 البلاذري (ت256هـ 867 م). الإمام أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر. فتوح البلدان. حققه عبد الله أنيس الطباع. وعمر أنيس الطباع. دار النشر للجامعيين. بيروت 1957.

• أبو حنيفة الدينوري(ت282هـ ـ 890م). الأخبار الطوال. تحقيق عبد المنعم عامر. مكتبة المثنى. بغداد. بدون تاريخ

ـ ابن رستة، أحمد بن عمر (300هـ ـ 913م): الجزء السابع من كتاب الأعلاق النفيسة، تحقيق دي خويه، مطبعة بريل 1992،

ـ الطبري، أبو جعفر بن جرير(ت 300هـ ـ 913م): تاريخ الرسل والملوك،

تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر 1961.

ـ البلخي (ت322 ـ 930م) أحمد ابن سهيل : (كتاب البدء والتاريخ)، يعتقد البعض أن مؤلف الكتاب، مطهر ابن طاهر المقدسي..الذي صدر حديثاً، في أربعة أجزاء. الخواجة أرنست لرو الصحاف. مدينة باريس 1907

- ـ السيرافي: أبو زيد حسن السيرافي (القرن العاشر الميلادي): رحلة السيرافي، تحقيق عبد الله الحبشي، المجمع الثقافي، أبو ظبي 1999.
- ـ بزرك بن شهريار (342هـ ـ 953م): بزرك بن شهريار، الناخذاة الرامهرمزي: كتاب عجائب الهند برها وبحرها وجزائرها، تحقيق عبد الله محمد الحبشي، المجمع الثقافي ـ أبو ظبي 2000.

ابن الفقيه ـ أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني (290هـ ـ 903م) ا: مختصر كتاب البلدان، طبع مدينة ليدن 1301هـ، دار صادر، بيروت، دون تاريخ، ص93.

- قدامة بن جعفر، أبي فرج (ت 320هـ ـ 932م) : نبذة من كتاب الخراج وصنعة الكتابة، يلي كتاب المسالك والممالك، لابن خرداذبة، مكتبة المثنى، بغداد، دون تاريخ.

ـ المقدسي، شمس الدين أبي عبد الله محمد *بن أحمد بن أبي بكر البناء البشاري* (ت 380هـ ـ 990م): كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبع في مدينة ليدن 1909، دار صادر، بيروت، دون تاريخ،

- الاصطخري (أبو إسحاق أبو إبراهيم بن محمد الفارسي الكرخي 346هـ ـ 956م): المسالك والممالك، تحقيق د.محمد جابر عبد العال الحسيني، دار الفكر، القاهرة 1961.
- المسعودي، أبي الحسن علي بن الحسين (287هـ/900م ـ 346هـ/959م): مروج الذهب ومعادن الجوهر، جزءان، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، ط4، مصر 1964.
- المسعودي، أبو الحسين علي بن الحسين: التنبيه والإشراف، جزءان، إعداد قاسم وهب، وزارة الثقافة ـ دمشق 2000م.

• المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين: آخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران، ج1، تحقيق عبد الله الصاوي، بيروت 1980م.

ـ ابن عبد ربه/أبو عمر شهاب الدين أحمد بن محمد (ت 328هـ_937): العقد الفريد، تحقيق أحمد أمين وآخرين، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1948 ـ 1953.

ـ ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي الموصلي (367هـ ـ 977م): : صورة الأرض، منشورات مكتبة الحياة، بيروت 1992.

• ابن النديم محمد بن اسحاق (383 هـ ـ 993م)الفهرست. المكتبة التجارية الكبرى. مطبعة الاستقامة. القاهرة. بدون تاريخ.

ـ صاعد الأندلسي: بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن صاعد التغلبي ولد سنة 420هـ/1029م، طبقات الأمم، تحقيق: حياة بو علوان.دار الطليعة. بيروت 1985

• إخوان الصفا وخلان الوفاء، (القرن الرابع الهجري) رسائل إخوان الصفا، أربعة أجزاء، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة 1928.

• مسكويه.ابوعلي احمد بن محمد (421هـ ـ 1030م).كتاب تجارب الامم، نشره ف. امروز، القاهرة 1914 ـ 1915

• المروزي الطبيب شرف الزمان طاهر (القرن 11م): المروزي. الطبيب شرف الزمان طاهر. أبواب في الصين والترك والهند. طبع في بريطانيه العظمى من wheffer وأولاده في كمبرج البغدادي.

• الإمام أبو منصور عبد القاهر طاهر بن محمد(ت487هـ ـ 1037م). كتاب الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم. ضبطه محمد بدر مطبعة المعارف مصر. بدون تاريخ. لندن 1942.

• البيروني (440هـ ـ 1048م): أبو ريحان محمد بن أحمد: البيروني، في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد ـ الدكن، الهند 1377 ـ 1958.

• البيروني، أبو ريحان محمد بن أحمد: القانون المسعودي، منشورات مجلس دار المعارف العثمانية بالهند. حيدر آباد، دون تاريخ.

• أبو حيان التوحيدي(ـ 414هـ 1023م) علي بن محمد بن العباس: : كتاب الإمتاع والمؤانسة، صححه وضبطه أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، دون تاريخ.

• الثعالبي ؛ أبو منصور عبد الملك بن محمد اسماعيل(ت 429هـ ـ 1035م). لطائف المعارف. تحقيق إبراهيم الإيباري..حسن كامل الصيرفي. دار إحياء الكتب العربية. عيسى البابي الحلبي وشركاه. القاهرة. بدون تاريخ

ـ القاضي رشيد الدين بن زبير (القرن الخامس الهجري): . كتاب الذخائر والتحف. حققه: د. محمد حميد الله. سلسلة التراث العربي 1 دائرة المطبوعات والنشر في الكويت 1959

• الإدريسي (493هـ/ 1100م ـ 560هـ/ 1169م) : محمد بن محمد بن عبد الله : الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسني: كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، دون مكان، ودون تاريخ.

• ـ أبو حامد الغرناطي ـ محمد بن عبد الرحيم بن سلمان بن ربيع القيسي الغرناطي المازني (473هـ/ 1080م ـ 565هـ/ 1170م): تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، تحقيق إسماعيل العربي، دار الجيل ـ بيروت، ط2، والآفاق الجديدة ـ المغرب، 1993.

• ـ ياقوت الحموي(626هـ ـ 1229م): معجم البلدان، 5 أجزاء، دار صادر، بيروت 1955 ـ 1957.

• ابن الأثير. أبو الحسن علي أبي كرم الشيباني (ت630هـ ـ 1235م). الكامل في التاريخ. دار الكتاب العربي. بيروت 1967

• ـ القفطي، (646هـ ـ 1248م)أبو الحسن جمال الدين بن يوسف بن ابراهيم الشيباني: اخبار العلماء بأخيار الحكماء. ليبسك 1903

- ـ ابن سعيد المغربي (673هـ ـ 1274م)، ابن سعيد المغربي، أبو الحسن علي بن موسى: كتاب الجغرافية، تحقيق إسماعيل العربي، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت 1970.
- والقزويني (ت 682هـ ـ 1283م)، أبو عبدالله زكريا بن محمد بن محمود الأنصاري: آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت 1960.

ـ النويري ـ شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت 733هـ ـ 1334م)- : نهاية الأرب في فنون الأدب، 18 جزء، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، دون تاريخ.

- أبو الفداء الملك المؤيد :اسماعيل بن علي بن محمود بن أيوب أبو الفداء (732هـ ـ 1335م): كتاب تقويم البلدان، طبع مدينة باريس 1850، دار صادر ـ بيروت، دون تاريخ.
- الدمشقي، محمد بن أبي طالب الأنصاري شيخ الربوة(ت732هـ ـ 1341م): نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، طبع في مدينة بطرسبورغ المحروسة، مطبعة الأكاديمية الإمبراطورية 1281هـ ـ 1865م.
- العمري (748هـ ـ 1349م) شهاب الدين أحمد بن فضل الله : ابن فضل الله العمري، شهاب الدين احمدبن يحيى، كتاب مسالك الابصارفي ممالك الامصار، تحقيق: د. أحمد عبد القادر الشاذلي. غصدار المجمع الثقافي أبو ظبي 2003
- ـ ابن بطوطة (770هـ ـ 1369م): ابن بطوطة، محمد بن عبد الله اللواتي: رحلة ابن بطوطة "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، دار الشرق العربي، بيروت، دون تاريخ.
- ـ القلقشندي، أبو العباس شهاب الدين أحمد علي بن أحمد(756هـ/1355م ـ 829هـ/1418م): صبح الأعشى في صناعة الإنشا، 14 جزءاً، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1963.

ـ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الأشبيلي الأصل، التونسي ثم القاهري (1342 ـ 1406) تاريخ ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1959.

- ابن خلدون، عبد الرحمن: مقدمة ابن خلدون، دار القلم، بيروت 1986.

● ان حجر العسقلاني، أحمد بن علي 852هـ - 1456م: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، دون تاريخ.

- شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي (850 هـ - 1459): المستطرف في كل فن مستظرف.دار الحياة.بيروت.1992.

● - المقريزي(- 845 - 1441)، تقي الدين أحمد بن علي : كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، خطط المقريزي، مكتبة المثنى، بغداد، دون تاريخ.

● المقريزي، تقي الدين: كتاب السلوك لمعرفة دور الملوك، تحقيق جمال شيال، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1941م.

● المقريزي، تقي الدين: الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، نشر الدكتور جمال الشيال، مصر 1955..

● ابن الوردي، سراج الدين أبي حفص عمر بن مظفر(ت861 هـ - 1465م): خريدة العجائب وفريدة الغرائب، أعده عمر فاخوري، دار الشرق العربي، بيروت - حلب، دون تاريخ.

● الحميري، محمد بن عبد المنعم(ت900هـ - 1503م): الروض المعطار في خير الأقطار، حققه إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، ط2، بيروت 1980.

فهرست الأعلام وتراجمها

ـ سنان بن سلمه الهذلي غزا أيام معاوية ، مكران "وأقام فيها وضبط البلاد.

ـ المهلب بن أبي صفرة، غزا أيام معاوية سنة 44هـ 653م، بنة والأهوار، وهما بين الملتان وكابل، وأيضاً بلاد القيقان.

ـ محمد بن القاسم، في عام 89هـ ـ 807م، ضمّ إقليم السند، مع جزء من البنجاب السفلي إلى الخلافة الأموية. فسار محمد إلى مكران، فأقام بها أياماً، ثم أن أتى قنزيور، وأرمائيل ففتحهما، وحاصر الديبل لفترة.ومضى في فتحه، فعبر نهر السند، نحو شط مهران، فالتقى مع جيش داهر، فقتل داهر وهزم جيشه، ومضى محمد في بلاد السند ففتحه بلداً بلداً ومدينة.

ـ قتيبة بن مسلم (ت750م): قائد جيش الخليفة الوليد بن عبد الملك (ت 96هـ ـ 715م) وصل إلى طرخان متوغلاً في اطراف الصين، وذلك في سنة 96هـ ـ 715 م، فأدرك إمبراطور الصين، وكان حينئذ وانغ جونغ (Yuang chung) المخاطر القادمة، فكتب إليه ملك الصين، كما روى الطبري، وابن الأثير، وغيرهما "إن ابعث إلينا رجلاً من أشراف من معكم يخبرنا عنكم، ونسائله عن دينكم" فانتخب قتيبة من عساكره إثني عشر رجلاً، لهم "جمال والسنّ وشعور وبأس" تحت قيادة (هبيرة بن المشمرج الكلابي)، قابل إمبراطور الصين وجرى بينهما حديث طويل دونه الطبري وابن الأثير.

ـ أبو عبيده عبد الله بن القاسم (القرن الثامن الميلادي)

تاجر عماني،الذي غادر عُمان إلى كانتون عام 750م، ويقال إنه وصل إلى الصين قبل سنة 141هـ ـ 758م ، أي قبل نهب خانفوه، وكان عالماً كبيراً في عصره وتاجراً كبيراً اشتغل بتجارة المر، وأيضاً رحلة النضير بن ميمون الأباضي البصيري من أبناء القرن الثالث الهجري، والقرنين الثامن والتاسع الميلادي.

ـ النضر بن ميمون الأباضي البصري، تاجر، من أبناء القرن الثاني الهجري، الثامن الميلادي، قام برحلة إلى الصين.

ـ **محمد إبراهيم الفزاري(القرن الثاني الهجري):**

العالم والجغرافي، كلفه الخليفة المنصور، بترجمة الكتاب الذي قدمته البعثة الهندية، التي وصلت بغداد (156هـ ـ 773م) من الهند، وأطلق العرب على هذا الكتاب، اسم (كتاب السند هند الكبير).

ـ **تميم بن بحر المطوعي (760 م ـ 800 م):**

وتميم من فئة التجار، عاش على تخوم بلاد الإسلام.هو أول الرحالة الذين زاروا بلاد الأتراك جيران الهند والصين ، فوصل إلى التغزغز القاطنين حوض أورخون جنوب بحيرة بايكال، وكان لهم قطعان ماشية، ومساكنهم من خيم وأكواخ لباد، ولا توجد عندهم مدينة سوى مدينة (الخاقان)، وهي مدينة كوشان، ومن المحتمل أن يكون قد قام برحلته في أوائل القرن التاسع وأنه وصل إلى عاصمة الأويغور (قره بلاساغوه) على نهر أورخون في مدينة مونغوليا الخارجية، ويذكر أن الأويغوريين على دين (المانويه)، وعلاقتهم وثيقة مع أباطرة الصين، ولقد نقل بعض وقائع رحلته ابن خردائبة، وابن الفقيه وياقوت الحموي.

ـ عبهرة الربان(القرن الثاني الهجري) روى بزرك حكاية أن عبهره سافر إلى الصين سبع مرات، ولم يكن سلك قبله إلى الصين إلاّ من غرر (أي من جازف بالمخاطر)، ولم يسمع أن احداً سلكه وعاد قط.، يُظهر هذا التعريف، أن عبهره من أوائل المتاجرين مباشرة مع الصين.

ـ **سلام الترجمان (ت 230هـ ـ 844م):**

صاحب الرحلة الشهيرة، في القرن التاسع الميلادي، و يقال أنه أول من عبر الطريق البري إلى الصين، وقد أرسله الخليفة الواثق بالله (232هـ ـ 847م) ليستطلع حال سد الصين، بعد أن رآه في المنام وقد تهدّم، ولعل هذا الحلم المزعج مرده الشائعات عن تحرك القبائل التركية في أواسط آسيا نتيجة قضاء القرغيز على دولة الأويغور حوالي عام 840م.وكان سلام متقناً ثلاثين لساناً، وضم إليه الواثق في رحلته خمسين رجلاً وأعطاهم مئتي بغل لحمل الزاد والعلف، فنقل لنا الترجمان

جانباً من أخبار الصين وعجائبها، ونقل إلينا انطباعاً عن الشعوب القاطنة في أقصى شمال شرق المعمورة، تلك التي يسميها بشعب يأجوج وماجوج" في الحدود الشمالية لبلاد الصين، والترك، وراء سور الصين، ألذي اعتقد أنه من بناء اسكندر ذي القرنين، امتزج في رواياته الكثير من الخيال.

ـ أبو عبد الله محمد بن اسحق(القرن التاسع الميلادي):

يبدو أنه تاجر ورحالة، أمضى قرابة عامين في جزيرة قماري (أي قمير ـ الاسم القديم لكمبوديا الحديثة)، وذلك في أوائل القرن التاسع الميلادي، حفظ وقائع رحلته الفلكي والجغرافي ابن رسته.

الجاحظ(255 ـ 868) أبو عثمان عمرو بن بحر:

ولد سنة 775م في البصره.اتجر بالخبز والسمك، ثم أقبل على النحو واللغة، وتلقى معارفه على(أبي عبيدة معمر بن المثنى)وعلى (الأصمعي)، وتخرج في علم الكلام على استاذه (النظام).أسند إليه المأمون ديوان رسائل بغداد، لكنه ترك وظيفته لتعود إلى حياة الفكر يعتبر بحق مؤسس البيان العربي، عاش في أوج تألق الحضارة العربية، وفي أزهى عهود الدولة العباسية في صبدره الأول.عاصر الجاحظ عهد المأمون أثناء هيمنة المعتزلة على استراتيجية البلاط الثقافية، وأثناء عهد الارتداد على المعتزلة في عهد المتوكل، وامتدت حياته المديدة قرابة ستة وتسعين عاماً من حوالي775 م إلى868 م، قلَّ أن تعلم منها أحد أكثر منه.الذي عُرف بحرية الفكر والميل إلى عقائد المعتزلة، من أشهركتبه: البيان والتبيين، كتاب التبصر والتجارة، رسائل الجاحظ، الحيوان، العثمانية.. حمل نزعة ثقافية منفتحة على العالم، وقد جسد ذلك في مؤلفاته، لاسيما في رسائله الشهرة.وقدم مقارنات حضارية واسعة قارنت حضارتي الصين والهند بالحضارات الأخرى. روى الجاحظ عن الهيثم بن عدي، عن أبي يعقوب الثقفي عن عبد الملك بن عمر، أنه رأى في ديوان معاوية بن أبي سفيان، بعد وفاته، كتاباً من ملك الصين إلى معاوية.

ـ سليمان التاجر(237هـ ـ 871م النصف الثاني للقرن العاشر ميلادي):

كان مقيماً في بلدة سيراف على ساحل الخليج، تقصدها السفن من جميع الأطراف بما فيها سفن الهند والصين، فرحل سليمان طلباً لأسباب التجارة فاجتاز

بحار الهند ماراً بين سيلان وملقا، ودخل بحار الصين وسواحلها.ترجع رحلته إلى حوالي 237هجرية، وقد سافر مراراً بغرض التجارة إلى بلاد الصين والهند.وترك وصفاً حياً للسواحل والجزر والمدن التي زارها، سكانها ومحاصيلها والسلع التجارية المتبادلة.تلقف تلك المذكرات السرافي فدونها، مرفقة بمذكراته الخاصة.ولقد أنهى الرحالة صمتهم في القرن الثالث الهجري، في سنة 851م، على يد سليمان التاجر، الذي ترك أهم الآثار العربية عن الرحلات البحرية التجارية في المحيط الهندي، وبحر الصين وسواحلهما.

ـ ابن وهب القرشي(القرن الثالث الهجري /التاسع الميلادي):

يرجع بنسبه إلى قريش، وكان من الأعيان الأثرياء.غادر بلده البصرة، عندما سقطت في أيدي الثوار الزنج سنة 257 الهجرية، انطلق من سيراف في رحلته إلى الصين، وكانت عاصمتها آنئذ خمدان وقابل الإمبراطور فيها.وقد دون السيرافي رحلة ابن وهب مع وقائع رحلة سليمان التاجر في القرن العاشر الميلادي.

ابن خرداذبة ـ أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت 272هـ ـ 885م)

يمكن القول أن بداية تشكل صورة أوربا في الثقافة العربية ـ الإسلامية، أتت مع ابن خرداذبة، الذي كان أول مؤلف للجغرافية الوصفية باللغة العربية، حيث كان يقع تحت سطوة نظرية بطلميوس عن الكرة الأرضية، والعالم المعمور فيها، وقد قسم كتابه (المسالك والممالك) إلى سبعة أقسام، يشمل في قسمه الأول كوزموغرافية (= علم الحركات الفلكية للأرض والكون) مستمدة على الأرجح من بطلميوس، بينما خصص القسم الثاني لبغداد باعتبارها مركز العالم، أما الثالث والرابع والخامس والسادس، فيتضمن معلومات إضافية عن الشرق، والغرب: الشام، مصر، المغرب. وبيزنطة وروميـة والشمال: أوربة الشرقية الحالية، ومنطقة بحر الخزر، والجنوب. ويعرض في القسم السابع لمعلومات عامة عن أقسام العالم الغربية. فالقسم الرئيسي من كتابه يصف فيه الطرق المتفرعة من بغداد في شتى الاتجاهات، ويسهب في وصف الطرق المؤدية إلى بيزنطة، كما يصف رومية بإسهاب، ولا ينسى الطرق التجارية الواصلة بين الهند وأوربا عبر دار الإسلام. ويضم في وصفه رحلة سلام الترجمان.

ابن قتيبه أبو أحمد عبد الله بن سلم الدينوري النيسابوري (276 هـ ـ 883م)

ينسب إلى مدينة مرو ، تقلد منصب القضاء في مدينة دينور ، عاش في بغداد في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري. من أوائل من دشن التأليف في "كتب الأدب" ، التي تعتمد على مصادر ثقافية متنوعة وألف في هذا المجال "عيون الأخبار" ، في أربعة أجزاء ، وكتاب(المعارف).وكتاب "الشعر والشعراء"وكتاب "أدب الكاتب".عبر ابن قتيبه عن مرجعياته المتعددة ، "ولم نزل نتلفظ هذه الأحاديث في الحداثة والاكتهال عمن هو فوقنا في السن والمعرفة ، وعن جلسائنا وإخواننا ومن كتب الأعاجم وسيرهم ، غير مستنكفين أن نأخذ من الحديث سناً لحداثته ولا عن الصغير قدراً لخسارته ، ولا عن الأمة الوكعاء لجهلها ، فضلاً عن غيرها ، فإن العلم ضالة المؤمن حيث أخذه نفعه " فتلقف الحكمة من الصين والهند ومن الأرجاء كافة.

ـ اليعقوبي (284هـ ـ 895م) :

اشتهر بمزجه التاريخ بالجغرافية ، معاصراً لأبي زيد السيرفي ، قام برحلات إلى الهند ، وإلى المغرب ماراً بمصر والبلاد الشرقية للخلافة ، وألف كتاباً في التاريخ وفي "البلدان" . ويعتبر الأول خلاصة تاريخ العالم ، أنهى تأليفه في سنة 872م ، وأدرك سعة بلاد الصين ، وعظمة ملكها وقدم ملاحظات عن احتكاك العرب بالصين ، وما يقطعه البحارة والتجار العرب من بحار ليصلوا الصين.وصنّف كتابه "كتاب البلدان" سنة 889م ، اعتمد فيه على إسهامه الشخصي كرحالة ، وعلى الوثائق التي بين يديه كإداري ، وعلى رحلات الآخرين. وهو صاحب أسفار ورحلات عديدة ، زار أرمينيا وخراسان والهند وسمرقند ، كما دشّن مع الطبري مرحلة كبرى من التأليف التاريخي العالمي ، فكان همّه الجغرافي لا ينفصل عن اهتمامه بالتاريخ ؛ وكان مؤلفه "كتاب البلدان" بمثابة افتتاح للمدرسة الجغرافية العربية الكلاسيكية.واتجه اليعقوبي بكتابه الأخير إلى الجانب الإحصائي الطوبغرافي ، أولي عناية خاصة بالخراج في دار الخلافة الإسلامية ، وبمسائل الإثنوغرافية والصناعة والفنون ، وقد اعترف عدد من الباحثين بأمانة اليعقوبي العلمية ، وتفرده بمعلومات لا توجد في المصادر الأخرى.

السيرافي : أبو زيد حسن السيرافي (القرن العاشر الميلادي) :

ويبدو أن السيرافي كان مغرماً بقصص الرحالة، فجمع مذكرات ابن وهب وسليمان التاجر، وأعطاهما الشكل المعروف لنا اليوم.وقد التقى به المسعودي عام 303 الهجري، واستفاد من رواياته.

البلخي(ت322 ـ 930م)أحمد ابن سهيل :

عالم سلك في مصنفاته طريق الفلاسفة، كتابه الأهم (البدء والتاريخ)، ذكر فيه ابتداء الخلق وقصص الأنبياء، وأخبار الأمم وتواريخ الملوك، تعرض فيه لعقائد الهند والصين.ويعتقد البعض أن مؤلف الكتاب، هو ابن طاهر المقدسي. مطهر. كتاب البدء والتاريخ.الذي صدرحديثاً، في أربعة أجزاء. الخواجة أرنست لرو الصحاف. مدينة باريس 1907

ـ بزرك بن شهريار (342هـ ـ 953م) :

كان رباناً من رامهرمز على الخليج، أولع بالبحر وقصصه.جمع خبرته في البحر، وما سمعه من أفواه الربابنة والملاحين في بحار الصين والهند وسواحلهما مابين(288هـ/900م ـ 342هـ/953)، ورواها كما هي، قصصاً متفرقة، وجمعها في كتابه(عجائب الهند).، قصصاً متفرقة لا يربطها رابط، متفاوتة الطول والقصر، تتراوح بين عشر صفحات وبضعة أسطر.

ابن خرداذبة ـ أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت 272هـ ـ 885م)

يمكن القول أن بداية تشكل صورة أوربا في الثقافة العربية ـ الإسلامية، أتت مع ابن خرداذبة، الذي كان أول مؤلف للجغرافية الوصفية باللغة العربية، حيث كان يقع تحت سطوة نظرية بطلميوس عن الكرة الأرضية، والعالم المعمور فيها، وقد قسم كتابه (المسالك والممالك) إلى سبعة أقسام، يشمل في قسمه الأول كوزموغرافية (= علم الحركات الفلكية للأرض والكون) مستمدة على الأرجح من بطلميوس، بينما خصص القسم الثاني لبغداد باعتبارها مركز العالم، أما الثالث والرابع والخامس والسادس، فيتضمن معلومات إضافية عن الشرق، والغرب: الشام، مصر، المغرب. وبيزنطة وروميةوالشمال: أوربة الشرقية الحالية، ومنطقة بحر الخزر، والجنوب. ويعرض في القسم السابع لمعلومات عامة

عن أقسام العالم الغربية. فالقسم الرئيسي من كتابه يصف فيه الطرق المتفرعة من بغداد في شتى الاتجاهات، ويسهب في وصف الطرق المؤدية إلى بيزنطة، كما يصف رومية بإسهاب، ولا ينسى الطرق التجارية الواصلة بين الهند وأوربا عبر دار الإسلام. ويضم في وصفه رحلة سلام الترجمان.

ابن قتيبه أبو أحمد عبد الله بن سلم الدينوري النيسابوري (276 هـ - 883م)

ينسب إلى مدينة مرو، تقلد منصب القضاء في مدينة دينور، عاش في بغداد في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري. من أوائل من دشن التأليف في "كتب الأدب"، التي تعتمد على مصادر ثقافية متنوعة وألف في هذا المجال "عيون الأخبار"، في أربعة أجزاء، وكتاب(المعارف).وكتاب "الشعر والشعراء"وكتاب "أدب الكاتب".عبر ابن قتيبه عن مرجعياته المتعددة، "ولم نزل نتلفظ هذه الأحاديث في الحداثة والاكتهال عمن هو فوقنا في السن والمعرفة، وعن جلسائنا وإخواننا ومن كتب الأعاجم وسيرهم، غير مستنكفين أن نأخذ من الحديث سناً لحداثته ولا عن الصغير قدراً لخسارته، ولا عن الأمة الوكعاء لجهلها، فضلاً عن غيرها ،فإن العلم ضالة المؤمن حيث أخذه نفعه " فتلقف الحكمة من الصين والهند ومن الأرجاء كافة.

ابن رسته ـ أبي علي أحمد بن عمر (300هـ ـ 912م)

جغرافي موسوعي، وهو ما تجلى في مؤلفه "الأعلاق النفيسة"، الذي لم يبق منه سوى جزؤه السابع فقط، وقد ألفه عام 903م، أي بعد ما يقارب العشرين سنة من وفاة ابن خرداذبة، واستند في مصادره من ما يسمى صورة الأرض، والمعارف العربية والجغرافية الوصفية، فضلاً عما حفظه من رحلات.يبدأ عرضه بالجغرافية الفلكية، والرياضية، ويعتمد الفرغاني، وأبا معشر، ولا يخلو من تأثير ابن خرداذبة، ويتستر وراء وصف الأرض، وعرض نظرية الأقدمين، ولا سيما نظرية بطلميوس، ليتناول دار الإسلام، وتردد في مجمل مصنفه بين المركز الديني (مكة والمدينة)، وبين المركز السياسي (العراق، بغداد)، الملتقى المشترك لمجمل الممالك. فيعطينا صورة عن دار الإسلام من داخلها، مع إلقاء نظرة إلى خارجها.يقدم لنا معلومات عامة عن البحار الهند والصين، والمدن الكبرى في

العالم؛ وعن الأقوام البعيدة عن العراق، وعجائب الأرض.حفظ رحلة أبو عبد الله محمد بن اسحق(القرن التاسع الميلادي) إلى جزيرة قماري (أي قمير- الاسم القديم لكمبوديا الحديثة)،

ابن الفقيه ـ أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني (290هـ ـ 903م)

كتب ابن الفقيه مؤلفه الموسوعي "كتاب البلدان" في خمسة مجلدات، قبل مؤلف ابن رسته بعشر سنوات، وصلت إلينا خلاصته "مختصر كتاب البلدان"، لا يرقى إلى مستوى مؤلفات معاصريه في ميدان الجغرافيا، إلا أنه من وجهة نظر تاريخ الحضارة يقف أحياناً على مستوى أرقى، إذ يقدم لوحة معبرة عن الاتجاهات والنزعات الأدبية للمجتمع العربي المثقف في نهاية القرن التاسع الميلادي، وهو معروف جيداً لدى المستشرقين الروس، الذين اهتموا بمعلوماته عن تركستان والقوقاز، وطريق سير التجار اليهود والروس.بدأ كتابه بمثل ما بدأه ابن رسته، بمدخل عن الكوزموغرافيا، بسط فيه نظريات اليونان بعد مزجها بالأقوال المأثورة، ووصف الأرض والبحار والأنهار، ثم "بصدر الدنيا مكة والحجاز والشام والعراق ومصر" أي البلاد العربية الإسلامية، معتبراً الإقليم الرابع الذي يقع فيه العراق/بابل متوسط الأقاليم وأفضلها مزاجاً. واهتم بشكل رئيسي بحال دار الإسلام، إلا أنه لم يغفل ماوراء الحدود، حيث روى بعض المعارف عن الكرة الأرضية، والصين، والهند، وعن الإمبراطورية البيزنطية، وررومية، وبلاد القوقاز؛ وحاول التوفيق في توزيع العالم حول مركز واحد، بين الاعتبار السياسي والنظر إلى العراق ـ بغداد كسرة للعالم، وبين مستلزمات العقيدة الإسلامية، ونقل هذا المركز إلى المدن المقدسة في الجزيرة العربية.واتخذ منهج المقارنة بين البلدان، لتحديد خاصية كل بلد، ناقلاً المقايسات والمقارنات والمفاضلات الشائعة في الأدب العربي، و انطلق ابن الفقيه لمعاينة "الخارق"، العجيب، فامتلأت صفحات كتابه بها.

قدامة بن جعفر ـ أبي فرج (ت 320هـ ـ 932م)

أديب، كاتب، إخباري، ناقد، جغرافي كبير.صاحب كتاب الخراج، الذي لم يصلنا منه سوى قسمه الثاني ذا الثمانية أجزاء، أراد من مصنفه هذا أن يكون موسوعة توفر لكتّاب الجهاز الإداري العباسي معلومات، لا غنى عنها لهم في

ممارسة مسؤولياتهم. فاهتم بوصف طرق بريد الولايات، والتقسيم الإداري، وجباية الخراج. وفضلاً عن ذلك قدّم معلومات تتعلق بالجغرافية الرياضية، ووصف الجبال والأنهار والبحار، والأقاليم السبعة. وأطلّ بنظره على الدول المجاورة لدار الإسلام، بما فيها أوربا. كرّس قدامة مفهوم "دار الإسلام" و"مملكة الإسلام" كمفهوم جغراي وسياسي وحضاري، الذي بقي سائداً في التأليف الجغرافي حتى نهاية القرن الحادي عشر الميلادي على الأقل.

أحمد بن فضلان(القرن العاشر ميلادي):

فقيه في بلاط الخليفة المقتدر، الذي أرسله سنة 309هـ ـ 921م، على رأس بعثة إلى بلاد البلغار على نهر آتل، جنوب روسيا، فقد تمّ إعداد هذه السفارة استجابة لطلب بلغار الفولغا الذين أرسلوا رسولاً إلى عاصمة الخلافة يرجون العون ضد ضغط الخزر عليهم في الجنوب، وأن ينفذ إليهم من يفقههم بالدين، ويعرفهم بشعائر الإسلام، وقد غادرت السفارة بغداد في الحادي عشر من صفر عام 309هـ ـ 21 يونيو 921.ترك وراءه رسالة شهيرة تصف رحلته إلى بلاد البلغار مروراً في شمال شرق آسيا، و تعتبر وقائع رحلة ابن فضلان من أهم كتب الرحلات عند العرب. ورحل الوفد من بغداد بقافلة تتألف من خمسمائة رجل وثلاثة آلاف دابة، يوم الخميس 11 صفر 309هـ (الموافق 21 يونيو 921م)، وصعد شرقاً ثم شمالاً ماراً بإقليم الجبال فهمذان فالري قرب طهران اليوم، وعبر نهر جيحون (أموداريا) فبلغ بخارى، ثم أوغل في البراري والبوادي إلى أن وصل إلى الفولغا، عند ملك الصقالبة يوم الأحد 12 محرم 310هـ (الموافق 11 مايو 922م)، ولاقى في طريقه المصاعب والأهوال.

المقدسي، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء البشاري (336 ـ 375هـ):

رحالة وجغرافي كبير، وهو من بيت المقدس بفلسطين، رأى فيه بعض المستشرقين أعظم الجغرافيين العرب في جميع عصورهم، واعتبره البعض الآخر أمثال اشبرنجر أكبر جغرافي عرفته البشرية قاطبة.كان شاباً يافعاً، مثقفاً ثقافة عميقة، عندما انطلق من القدس راحلاً يجوب العالم دون توقف، وبسرعة فائقة،

متنقلاً في البر والبحار والأنهار، فوصل تخوم الهند المسلمة، وعرّج على أرمينية، وإلى ضفاف النيل، وفي آسيا الوسطى.. ولعله زار صقلية كما أثبت ذلك أماري Amari.اعتمد منهجه على المشاهدة، وما يكتسبه من معرفة مباشرة من رحلاته الطويلة.

أبو الحسن بن أبي ذر يوسف العامري النيسابوري (ـ 381 هـ ـ 992م)

من مفكري المشرق في القرن الرابع الهجري، صاحب "مناقب الإسلام" الذي مارس التعددية الثقافية في إطار الحضارة العربية الإسلامية، دون تحزّب لموروث ثقافي معين. فنقل عن مرجعيات ثقافية مختلفة من الشرق إلى الغرب، دون حذر منوهاً، أن أهم الأمم، أو الأجيال البشرية، هم الصينيون والهنود، والترك، والحبش، والبربر، والقبط، والروم والعجم والعرب، وقد خصّ العرب والعجم من الناحية الجغرافية بموقع الوسط، أي في الإقليم الرابع من الأرض.

الاصطخري (أبو إسحاق أبو إبراهيم بن محمد الفارسي 340هـ- 951م)

جغرافي كبير من مؤسسي المدرسة الجغرافية العربية.صديق ابن حوقل الذي أمل مابدأ به صديقه، إذا عدنا إلى مخطط الاصطخري وجدنا قد قدم لنا انطباعات سريعة عن الهند والصين كما وصف المحيط الهادي والهندي، وجزرهما، وطرق التجارة التي تتضمنها،

الأصفهاني (356هـ- 967م) في محاضرات الأدباء بقوله:

أديب، وفقيه، ومتأمل في التنوع الثقافي، نقل النظرة التكاملية لأدوار الأمم المختلفة في مجال الحضارة، يذكر "والهند هم الأمة الأولى كثيرة العدد فخمة المماليك، وكان الصين يسمون ملك الهند ملك الحكمة لفرط عنايته بالعلوم..ا".

أبو زيد البلخي: أحمد بن سهل البلخي (ـ 322):

رأس المدرسة الجغرافية العربي، صنف كتاباً باسم صورة الأقاليم، يتضمن مصورات جغرافية، ونصوص مختصرة، لم يصل إلينا، ولكن الأصطخري وابن حوقل، اقتبسا منه بعض النصوص والمصورات.

المسعودي/ أبو علي بن الحسين بن علي (ـ 346هـ ـ 957م)،

يعود بنسبه الشريف إلى الصحابي الشهير عبد الله بن مسعود، متعدد المواهب، والاهتمامات، وواسع الاطلاع، التي يمكن معها أن يعطى صفة الموسوعي بامتياز.ولد في بغداد عام 287هـ ـ 900م، التي كانت في ذروة ألقها الثقافي على الرغم من انحسار سطوتها السياسية، من أسرة كوفية، وبعد تجواله الطويل في البلدان استقر في نهاية حياته في مصر إلى أن توفي عام 957م.بدأت رحلاته الطويلة. بعد أن استكمل عدته الثقافية، من بغداد، جاب فيها الكثير من أرجاء العالم القديم، و قضى في ترحاله أكثر من خمسة وعشرين سنة ، فزار أصقاعاً شتى، فبالإضافة إلى ترحاله في ربوع مشرق أفريقيا وتجواله في البلاد العربية الإسلامية، فزار الهند عن طريق البحر فمر بالسند والبنجاب، وكنكان ومليبار، ثم بعد أن اجتاز سيلان (سرنديب) مضى قدماً نحو بحر الصين، ثم عاد إلى زنجبار ومدغشقر وأخيراً قفل راجعاً صوب عُمان متخذاً طريقه إلى مسقط رأسه بغداد، ثم قصد مصر في سني عمره الأخيرة حتى قضى سنة 346هـ ـ 957م.وضع المسعودي ما يقارب الثلاثين مؤلفاً، لم يبق منها بين أيدينا من كتبه سوى المجلد الأول من "أخبار الزمان"، فضلاً عن كتابيه "مروج الذهب" و"التنبه والإشراف". أمدنا فيها بمعلومات ضافية عن أديان العالم القديم، والمعاصر له، وعن الملوك والأمم، وطوّف بنا في أرجاء العالم، معرجاً على الهند وأطراف الصين وأعطانا صورة عامة عن هذه البلاد، وغيرها من بلدان الشرق الأقصى، وبقية العالم.

ابن عبد ربه/أبو عمر شهاب الدين أحمد بن محمد (ـ ت 328هـ_937) :

نشأ في قرطبة مسقط رأسه، كان على صلة بالأمراء الأمويين، مات في زمن عبد الرحمن الناصر(ـ 350هـ) عن عمر يناهز الثمانين سنة، لا يُعرف له كتاب آخر غير (العقد الفريد)وديوان شعر مفقود، وقد تأثر بـ(عيون الأخبار)لابن قتيبة، فقد أراد من كتابه أن يكون "كافياً جامعاً لأكثر المعاني التي تجري على أفواه العامة والخاصة وتدور على ألسنة الملوك والسوقة"، فانتمى كتابه إلى صنف الموسوعات الثقافية التي تسمى (كتب الأدب).

ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي الموصلي (367هـ ـ 977م):

رحالة كبير جاب الكثير من البلاد، بدأ رحلته الطويلة من بغداد عام (231هـ ـ 942م) وعاد إليها بعد ثلث قرن، زار خلالها ديار الإسلام من الهند إلى إسبانيا.. ووصل إلى بلاد البلغار، أعالي الفولغا، كما زار صقلية. والتقى بالأصطخري عام 340هـ ـ 951م فطلب منه الأخير أن يعيد النظر في كتابه، ففعل ذلك، ومنذ ذلك الحين أصبح الأصطخري دليل الرحالة الجغرافي بعد أن كان قدامة بن جعفر، وذكر ابن حوقل هذه الحادثة في كتابه.وقدّم الصورة النموذجية عن نهج المدرسة الجغرافية العربية، في حصر اهتمامها بدار الإسلام، غير إن تركيزه على دار الإسلام لم يمنعه من الإطلال على أوربا، وغيرها من البلدان المجاورة لبلاد الإسلام، يعرج على جيرانها الأوربيين الشماليين والغربيين، ليعطي صورة عن بعض أممها، وعلى الرغم من نقله الكثير من المعطيات عن الأصطخري، فلدى مقارنة مصنفه مع كتاب الأصطخري، نجد أن يد التغيير والتبديل قد مسّت بصورة كبيرة الأقسام المفردة لمصر وإفريقيا وإسبانيا وصقلية، كما أجرى تعديلاً أساسياً على أقسام العراق وأرمينية وماوراء النهر، بينما نرى القسم المخصص لإيران لم يمسّه التغيير.

المقدسي، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء البشاري (336 ـ 375هـ):

رحالة وجغرافي كبير، وهو من بيت المقدس بفلسطين، رأى فيه بعض المستشرقين أعظم الجغرافيين العرب في جميع عصورهم، واعتبره البعض الآخر أمثال اشبرنجر أكبر جغرافي عرفته البشرية قاطبة.كان شاباً يافعاً، مثقفاً ثقافة عميقة، عندما انطلق من القدس راحلاً يجوب العالم دون توقف، وبسرعة فائقة، متنقلاً في البر والبحار والأنهار، فوصل تخوم الهند المسلمة، وعرّج على أرمينية، وإلى ضفاف النيل، وفي آسيا الوسطى.، ولعله زار صقلية كما أثبت ذلك أماري Amari.اعتمد منهجه على المشاهدة، وما يكتسبه من معرفة مباشرة من رحلاته الطويلة.

صاعد الأندلسي، ابن أحمد بن عبد الرحمن ولد عام 1029م :

تلميذ ابن حزم، كان قاضي طليلة، له عدة مؤلفات لم يبق منها إلّا كتاب "طبقات الأمم" الذي ألفه سنة 460هـ/1068م في مجال "فلسفة الحضارة"، طور فيه منهجية الجاحظ، والتوحيدي، وأوصلها إلى نهاياتها المنطقية، حيث أغفل العامل الديني نهائياً عند تقييمه لأدوار الأمم المختلفة في مجال الحضارة الكونية، حين أرجع أساس التفاضل الحضاري بين أمة وأخرى، إلى ما تقدمه تلك الأمم من إنجاز في مجال الذهنيات، وبالأخص في مجال العلوم الذهنية والفلسفية، وأهمل الدين في هذا التفاضل، وأيضاً المهارات اليدوية والبدنية، المتجلية في الحِرف والصنائع.أعطى للهند مكانة هامة في مجال العلوم. وللصين في مجال الحرفة والصناعة، وضع الهند في قائمة الأمم (العالمة)، والصين في مقدمة الأمم متقنة الصنعة اليدوية.

أبو دلف مسعر مهلهل الخزرجي الينبعي (390هـ- 1001م)

جغرافي اهتم بمعرفة البلدان، قام برحلة إلى أرمينيا واهتم بكنوزها المعدنية، وما تزخر به من ثروات طبيعية وقد سجل وقائع رحلته في كتاب خاص، كما قام برحلته إلى الصين عام (331هـ- 942م)، استجابة لتكليف الأمير الساماني نصر بن أحمد، الذي أتته سفارة من الصين تخطب ابنته إلى ملكها، فما كان من الامير الساماني إلا أن كلّف أبا دلف لمصاحبة السفارة الصينية، وليكون رسوله إلى "فالين بن الشخير) ملك الصين ليخطب ابنته لابنه الأمير نوح الساماني، (لأن الشريعة لا تسمح له بتزويج ابنته المسلمة من ملك الصين)، فقبل أبوها وجهزها وأرسلها إلى خراسان ومعها مائتان من الخدم وثلاثمائة من الجواري والخصيان وتزوج منها نوح. فخرج أبو دلف من بخارى وعبر تركستان الغربية فالشرقية والتيبت ودخل الصين، ثم غادرها إلى الهند، ومنها رجع إلى بخارى عن طريق تركستان ووصف البلاد التي مر بها.وقد وصف لنا مشاهداته في الصين، ومظاهر العمران والأشكال المتنوعة للسلوك الإجتماعي لدى الصينيين، ولدى أهل التيبت. كما وصف معيشة القبائل والشعوب التي مر بها في طريقه إلى الصين من مأكل وملبس ومشرب، وعاداتهم وعباداتهم ومبانيهم وأشكال سكنهم، ولم يتوقف عن إصدار الأحكام

والمعايير على ثقافتهم، و شمل وصف أبي دلف، أمم الترك والتتار، المنتشرة ابتداءً من سواحل البحر الأسود إلى ضفاف نهر آمور. فيصف لنا التغزغز وهم شعب يعيش على نهري سيحون (سيرادريا) وجيحون (أموداريا) بأن أكلهم اللحم النيء، ولبسهم الصوف والقطن، ومعابدهم، وتربيتهم للخيل، وأيضاً يشمل وصفه الخرخير في طريقة ذاتها، وزار في الهند المولتان والمنصورة وحيدر آباد، والديبل الساحلية، وأيضاً قنوج في شمال الهند، فضلاً عن الصين، وبلاد التيبت، ونعثر على نصوص رحلته في "معجم البلدان" لياقوت الحموي، وفي "آثار البلاد وأخبار العباد" للقزويني، وعندابن النديم في فهرسه.

مسكوية : أبو علي أحمد بن محمد (421 ـ هـ ـ 1030م) :

تلميذ أبو حسن العامري، وسلك مسلكه الثقافي نفسه، ولد في الري، وسكن أصفهان، التي كانت تزخر بالحوارات الثقافية، تلقى عن أبيه ثقافة دنيوية باللغة العربية ليجد وظيفة في الدولة، وحظي برعاية الوزير المهلبي، فعيّن مديراً للخراج، واشترك في حياة قصر المهلبي الموزعة بين حياة اللهو والفكر ومناظراته، وغنم من حياة بغداد الثقافة لأكثر من عق من الزمان، إلى صار خازن مكتبة ابن العميد(353 ـ 360 الهجرية).فأخذ كم كل علم بطرف.وخدم في بلاط عضد الله(366 ـ 372)، واشتغل بالطب والكيمياء، فعاشر علية القوم من العرب والفرس.اتهم منذ بداية حياته بالفلسفة وحضر حلقة أبي سليمان المنطقي.قرضه التوحيدي بالقول (هوغني عن تقريضي، ودلالتي على حسنه لظهور الحق عليه، فمن جعل هذا نبيلة صدره، وعقيدة سره..فهو الفيلسوف الحق).من أشهر كتبه "تهذيب الأخلاق" و"الحكمة الخالدة" و"تجارب الأمم" و"الهوامل والشوامل ".

البيروني (440هـ ـ 1048م) : أبو ريحان محمد بن أحمد :

حكيم، رياضي، فلكي، طبيب، وأديب، لغوي، مؤرخ.ولد بضواحي خوارزم 362. و قد انضم إلى ركب السلطان محمود الغزنوي عند فتحه الهند، واستطاع تعلّم اللغة السنسكريتية والقيام برحلات وتجوالات بالهند التي قضى فيها طويلا ،

وبهذا اجتمع له من المعلومات ما اشتمل عليه كتابه الموسيعي (تحقيق ما للهند).ودون خلاصة تجارب رحلاته وتجواله، في ربوع الهند، والتي استمرت أربعين عاماً، في كتابه الشهير، (تحقيق ما للهند من مقولة في العقل أو مردوده)، الذي انتهى من تأليفه عام 423هـ ـ 1031م، أي بعد عام ونصف من وفاة السلطان محمود الغزنوي، الذي جاء به من خوارزم إلى غزنة، وصحبه في غزواته الهندية، فتعرف من خلالها على حياة الهنود، وخاصة على حياتهم العقلية، والدينية، درس لغة أهلها وآدابهم في مختلف بيئاتهم. ووقف على تقاليدهم، معتمداً على معرفته المباشرة لأحوالهم. وكانت أولى مؤلفاته الكبرى رسالة علمية عميقة تعرف باسم "الآثار الباقية" قد درس فيها التقاويم والأعياد عند الفرس، وأهل الشام، واليونان، واليهود، والمسيحيين، والصابئة، والزرداشتيين، وعرب الجاهلية، والمسلمين، قال عنه ديورانت" والكتاب دراسة نزيهة إلى درجة غير مألفوة، مبرأة من أقصى حد من الأحقاد الدينية... كان موقفه موقف العالم صاحب النظرة الموضوعية"، ومن أهم كتبه الأخرى (القانون المسعودي).

أبو حيان التوحيدي(ـ 404هـ 1023م) علي بن محمد بن العباس:

أديب وفيلسوف من أعيان القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي، يقال أنه ولد في واسط، ويقال في بغداد.في عام 932م، درس النحو على يد السيرافي والرمّاني، والفقه على على أبي أحمد المروزي.وحضر مجالس الصوفية، وأكتسب من مهنة النسيج.ورسم صورة نقدية للوزيرين أبن العميد، وابن عباد، في كتابه (مثالب الوزيرين)، وصنف مابين العامين 961 ـ 975م(البصائروالذخائر)، وكتب (الهوامل والشوامل)أجاب فيها على أسئلته نفسها التي وجهها إلى مسكويه، وكتب أثناء مواظبته على مجلس أبي سليمان المنطقي(الصداقة والصديق) و(الإمتاع والمؤانسة)، وكان يشد أزره في هذه الأثناء أبو سعدان مفتش الجيش، وبموته خسر القوة الداعمة له، فأثر ذلك على حياته، وفي آخر سني حياته الصعبة كتب(المقابسات)، حيث شكل مع (الإمتاع والمؤانسة) كنزاً من المعرفة والتعقل، أعطيا صورة زاهية عن الحياة العقلية في بغداد آنئذ.أظهر أبو حيان في مؤلفاته احترامه العميق لتنوع الحضارات، ولإسهام الهند والصين في الحضارة الكونية.

ـ رشيد الدين بن زبير (القرن الخامس الهجري) :

مؤرخ من القرن الخمس الهجرين ذكر العديد من السفارات والرسائل والتهادي المتبادلة بين ملوك الصين والهند، والخلفاء المسلمين، ومن جملتها رسالة ملك الصين إلى معاوية بن أبي سفيان.

الإدريسي (493هـ/ 1100م ـ 560هـ/ 1169م) : محمد بن محمد بن عبد الله :

هو من سلالة الرسول، من بيت بني حمود الذين تملكوا بعض بلدان الأندلس.ولد في سبته ، وتعلم في قرطبة. طاف منذ السادسة عشر من عمره في البلاد الواقعة على المتوسط وإنكلترا، ثم رجع إلى شمال إفريقيا، وقدم إلى مصر والشام وآسيا الصغرى والقسطنطينية واليونان، واكتسب معرفة بأحوال البلدان، مما حدا بالملك روجار الثاني (Roger II) ملك صقلية أن دعاه إلى بلاطه ليستفيد من علمه؛ وفي وضع كتاب جغرافي يدوّن به معرفته لأحوال العالم، فصنّف له "نزهة المشتاق" ضمنه عدة خرائط توضيحية، وأخذ عن مدرسة الخوارزمي فكرة تقسيم العالم إلى سبعة أقاليم، وعن المدرسة الكلاسيكية العربية فكرة رسم الخرائط والأطالس، بعد أن وسع اهتمام هذه الأطالس لتتعدى دار الإسلام لتشمل العالم بأسره، وهو الذي ورسم منهجاً يعتمد المشاهدة والقياس والمقارنة، فعمل صورة كاملة للأرض، مع وصف كامل لها، فأنجز بذلك أول عمل جغرافي يتناول الكرة الأرضية، مفترضاً كروية الأرض حقيقة ثابتة، وقدّم معطيات مهمة عن الهند والصين.

ـ أبو حامد الغرناطي ـ محمد بن عبد الرحيم بن سلمان بن ربيع القيسي الغرناطي المازني (473هـ/ 1080م ـ 565هـ/ 1170م) :

عاصر للإدريسي، والمولود في قرطبة، بعد أن غادر الأندلس عام 1107م وهو في السن السابعة والعشرين من عمره، طاف بنواحي المغرب الأقصى، واتجه إلى الإسكندرية بطريق البحر عام 1118 ماراً بجزيرة سردينية، ثم انتقل إلى القاهرة زمن الفاطميين، وبعدها نزل بلاد الشام، ووصل إلى بغداد عام 1123م، وأقام بها أربع سنوات، وهناك ألف كتابه : المعرب في بعض عجائب المغرب، قد اتخذ

بغداد قاعدة لانطلاق رحلاته، ووصل إلى بلاد تركستان على حدود الصين ثم إلى جنوب روسيا، وحوض الفولغا وشرقي أوروبا وتوغل في بلاد الصقالية حتى وصل عاصمتهم كييف، وبلغ في رحلاته المجر وأقام فيها سنوات ووصفها بعمق، ودخل خوارزم ثلاث مرات، ماراً ببخارى، ومرو، ونيسابور، وذلك في عام 1155م، وقد دون الغرناطي مشاهداته في كتبه "المعرب عن بعض عجائب المغرب" وبشكل خاص في "تحفة الألباب في نخبة الإعجاب" ناقلاً معلوماته عن الهند والصين عن رجل يدعوه "أبا العباس الحجازي" الذي أقام بأرض الهند والصين أربعين سنة.

ابن سعيد المغربي ـ أبو الحسن علي بن سعيد (610هـ/ 1214م ـ 663هـ/ 1265م)

اعتبره البعض تلميذاً للإدريسي، ولد في غرناطة، ونال حظه من التعليم في إشبيلية، وأمضى الجانب الأكبر من حياته مترحلاً في طلب العلم، فانتقل من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي، ولقد احتك بأكبر العلماء وقرأ أفضل الكتب في مكتبات بغداد ـ قبل استيلاء هولاكو عليها بأعوام قليلة ـ عاش عمراً مديداً بلغ أكثر من سبعين سنة، قضاها في طلب المعرفة والترحال، وكتب الكثير من المؤلفات، وأهم مؤلفاته التي دون فيها معرفته لأحوال أوروبا والعالم هو كتابه "بسط الأرض في الطول والعرض" الذي سمّي أيضاً "كتاب الجغرافيا"، وقد اعتمد في مادته الأساسية على الإدريسي اعتماداً كبيراً، وعلى الرغم من أنه لم يزر بلاد الصين والهند، فإنه قدم الكثير من المعطيات عنهما، مستعيناً بمشاهدات غيره من الرحالة لهذه البلدان، و استفاد من معطيات رحلة ابن فاطمه، ربما تعود إليه الرواية التي انفرد بها ابن سعيد، وتتعلق باستيطان الهنود لجزيرة مدغشقر (جزيرة القمر)، وترك لنا ملاحظات قيمة للغاية عن المحيط الهندي، فنبه على التقائه بالمحيط الأطلسي، خارقاً بذلك نظرية بطليموس التقليدية، ومناقضاً، أيضاً، آراء أستاذه الإدريسي.

ياقوت الحموي (ت 623هـ ـ 1227م)

كان في نشأته غلاماً رومياً صغيراً وقع في الأسر، ودخل في ولاء سيده التاجر ابراهيم الحموي، فسماه ياقوتاً، فعُرف بياقوت الحموي. اعتنى سيده بتعليمه لينتفع منه بتجارته. فتعلم ياقوت من سيده التجارة، وأوفده في العديد من الرحلات التجارية فتعرف على الكثيرمن البلدان، اجتمع فيها بأهل العلم. وأصبح شريكاً لسيده بعد تحرره، استمر في عمله بالتجارة بعد وفاة سيده، مع تزايد اهتمامه بالعلم، فكان يطوف البلاد ويتردد على الوراقين ودور الكتب والعلماء. أهم ما كتبه معجمه الكبير(معجم البلدان) الذي جمع فيه مادة متنوعة هائلة الاتساع، لم يقتصر فيها على العالم الإسلامي، فقد وزع اهتمامه بالتساوي على العالم العربي ـ الإسلامي والشرق الأقصى لاسيما بلاد الهند والصين، وحفظ فيه العديد من الرحلات. وعندما استقر في الموصل، أتيح له الانصراف على تأليف معجمه بعد أن رعاه الفيلسوف ابن القفطي (646هـ ـ 1248م) وزير السلطان الظاهر الأيوبي في حلب، وقد انتهى من معجمه عام 1224م في حلب.

والقزويني (ت 682هـ ـ 1283م)، أبو عبدالله زكريا الأنصاري:

ولد في قزوين، وأقام في دمشق، وتولى القضاء، في واسط والحلة. يمكن اعتبار القزويني النموذج الأمثل لمصنفي العجيب لهذا، إذ إنه درس على يد المتصوف الكبيرابن عربي، وظل قاضياً في بغداد حتى سقوطها بيد هولاكو عام 1259م، قيل عنه كرامرز "هو بليني العرب"، يعتبر أكبر كوزموغرافي Cosmography، أي علم وصف الكون، فقد حفظ لنا الكثير من الرحلات، وقائع رحلة ابن فضلان الذي عبر بلاد الترك نحو بلغار الفولغا، وشذرات من رحلة أبي دلف إلى الهند والصين فملأ كتابيه "عجائب المخلوقات" و "آثار البلاد وأخبار العباد"، بالكثير مما كتبه سابقوه من الجغرافيين المسلمين، ورحالتهم.

ـ النويري ـ شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت 733هـ ـ 1334م)

يأتي في مقدمة أصحاب الموسوعات هؤلاء، الذي تولى كتابة الإنشاء، وترك كتابه "نهاية الأرب في الفنون والأدب" في ثلاثين مجلداً، جمع فيه ما كتبه الأقدمون عن أوربا والعالم. فضلاً عن الأغراض الأخرى للكتاب.خصص في أبواباً للصين والهند.

ـ أبو الفداء الملك المؤيد : اسماعيل بن علي بن محمود بن أيوب أبو الفداء (732هـ ـ 1335م) :

مؤرخ، وأديب وجغرافي، كان أمير حماه، ودفن فيها، له كتابين شهيرين، أحدها في التاريخ (المختصر في أخبار البشر)، في مقدمة وخمسة فصول، انتهى من تأليفه في سنة 721، وكتابه الثاني "كتاب البلدان" الذي يعتمد فيما يخص الصين والهند المؤلفات الجغرافية والتاريخية التي سبقته، وخاصة على ابن سعيد المغربي، بعد أن بوبها بطريقة جديدة مبتكرة.

القلقشندي : أبو العباس شهاب الدين أحمد علي بن أحمد (756هـ/1355م ـ 829هـ/1418م)،

فمن أشهر كتبه وأوسعها مادة فهو "صبح الأعشى في صناعة الإنشا"، في أربعةعشر جزءاً الذي يمكن اعتباره بمثابة دوائر معارف "في ذلك العضر، جمع فيه عدداً من العلوم في أربعة عشر مجلداً، خصص فيه أقساماً لعلم البلدان تعرض فيه لذكر الأرض وكرويتها، وإحاطة البحر المحيط بها، وأقاليمها الطبيعية، وأنواع البحار، وجهات البلدان وأبعادها، واعتمد على المؤلفات القديمة، لاسيما كتاب البلدان لأبي الفداء (732هـ ـ 1336م)، في معلوماته عن أوربا.

ابن خلدون(1342 ـ 1406):

عبد الرحمن بن محمد الأشبيلي الأصل، التونسي ثم القاهري عالم، أديب، سياسي، وقاض، ومؤرخ وفيلسوف، ولد بتونس سنة 723

الهجري، ونشأ بها وتعلم، ولي متابة السر بفاس، ورحل إلى غرناطة، ثم فرّ إلى الشرق، وولي قضاء المالكية بالقاهرة.وتوفي بالقاهرة.عاش تجارب سياسية مرّة في بلاطات أمراء الأندلس والمغرب العربي، قابل تيمورلنك أثناء حصار الأخير لدمشق، جسد في مقدمته، ومتن تاريخه، قدرته كمؤرخ ومفكر في الحضارة، ووضع أسس ما يمكن تسميته بعلم الاجتماع البشري، حيث كان موضوعه "العمران البشري والاجتماع الإنساني، وبيان ما يلحقه من العوارض والأحوال". فيبني مقارناته الحضارية على قاعدة ما سماها "الضروري في الاجتماع البشري" و"أسباب الوقائع والأحوال" و"أسباب الدول والعمران" للوصول إلى "العلم بقواعد السياسة، وطبائع الموجودات، واختلاف الأمم والقيام على أصول الدول والملل ومبادئ ظهورها وأسباب حدوثها" متجاوزاً بذلك اهتمام المؤرخ بـ"الأخبار" إلى عللها.

- العمري (748هـ - 1349م) شهاب الدين أحمد بن فضل الله :

في موسوعته (مسالك الأبصار) التي جمع فيها الكثير من الروايات ليس عن أوروبا وأفريقيا وحسب، بل عن بلدان الشرق الأقصى، وقد أثبتت دراسة شيفر schefer للأقسام المتعلقة بالصين، أنه يجب ألاّ نعتبر العمري بالنسبة لهذه الأقصاع نقالة يكتفي بتسجيل ما وصل إليه عن طريق الصدفة وحدها فهو يقدم لنا معلومات جمة عن شمال الصين، مروية بألفاظ من التقى بهم من الرحالة، وكان هؤلاء ينتمون إلى مجموعتين من الناس هم التجار، ثم الفقهاء الذين ساقتهم إلى تلك الجهات، في أغلب الظن، حاجة الأقليات المسلمة للتفقه بالدين، وكان بين هؤلاء الرحالة عدد من أهل العراق وإيران وما وراء النهر، وتؤكد جميع قصصهم أن الصين فتحت أبوابها في العهد المغولي للتجار، ولمن يدفع بهم حب الاطلاع إلى الضرب في الأرض، وكان التجار العرب يحملون إليها الخيل والطير، والصيد والحلي والأبنية المطلية بالميناء من حلب، وتمس معلوماتهم مختلف أوجه الحياة في الصين... وقد اهتموا اهتماماً خاصاً بوصف نظام الإدارة وطرق الموصلات والتجارة... وما يتصل بها من حرف ومهن، وشمل استدلالهم شتى مهارات الصينيين الصناعية. وكرس مجلداً من مسالك الأبصار" للهند والصين".. قدم لنا

معلومات جمة عن شمال الصين، مروية بألفاظ من التقى بهم من الرحالة، وكان هؤلاء ينتمون إلى مجموعتين من الناس هم التجار، ثم الفقهاء الذين ساقتهم إلى تلك الجهات، في أغلب الظن، حاجة الآقليات المسلمة للتفقه بالدين، وكان بين هؤلاء الرحالة عدد من آهل العراق وإيران وما وراء النهر. وتؤكد جميع قصصهم أن الصين فتحت أبوابها في العهد المغولي للتجار، ولمن يدفع بهم حب الاطلاع إلى الضرب في الأرض، وكان التجار العرب يحملون إليها الخيل والطير، كما قدم تقريراً مهماً عن الهند ثقافة وسياسة وتاريخ

ابن بطوطة (ـ 770هـ ـ 1369م)

كان مولد ابن بطوطة في طنجة، ثغر المغرب على البحر المتوسط عام 703هـ ـ 1304م، من أسرة اشتهرت بالعلم، والإشتغال بالعلوم الشرعية، والقضاء، فسار على نهج أسرته. بدأ رحلاته الكبرى وهو في الثانية والعشرين من عمره، في عام 725هـ ـ 1324م، فقضى ما يقارب من ثلاثة عقود في التجوال في العالم، وقد أملى في نهاية عمره تقريراً برحلاته لصديقه ابن جزي في كتاب "تحفة النظار" الذي أودع فيه تجاربه في الترحال بين الأمم والبلدان التي زارها، وتشتمل على رحلاته الكبرى الثلاث، وتقع رحلته الأولى. ما بين (725هـ ـ 1349م) إلى (738هـ ـ 1349م)، زار فيها شمال أفريقيا ومصر والمشرق العربي، وأفريقيا الشرقية، وجزيرة العرب واليمن، ثم قصد القسطنطينية ومنها إلى الهند، ثم سافر مع أعضاء بعثة دبلوماسية أرسلها سلطان الهند محمد شاه إلى الصين، أما رحلته الثانية فاستغرقت ما بين(739 هـ ـ 1350م)إلى(740هـ ـ 1351م) ودامت رحلته الثالثة ما بين(741هـ ـ 1352م) إلى (473هـ ـ 1354م) زار فيه السودان وغرب أفريقية.

زار خلال رحلته الكبرى الأولى، لاهير Lahiri (بجوار كراتشي)، وسكور Sukkur، وملتان Multan، وسرسه، وهاس، حتى وصل إلى مدينة دلهي، فأقام سنين طويلة برعاية السلطان محمد طغلق، الذي أرسله فيما بعد في سفاره إلى الصين فاجتاز الهند الوسطى، وملوه، وزار الموانئ الممتدة على طول ساحل مليبار، حتى وصل إلى جزر مالديف Maldive (جزر دية المهل) وأقام فيها سنتين ومنها عبر إلى جزيرة سرنديب (سيلان)، واستأنف رحلته إلى أن رسا في معبر

بساحل كرومندل، وأخيرا أقلع إلى البنغال وزار كمروب وسهلت، وسوفرجيون (بجوار دكا)، ثم أبحر حتى بلغ سومطرة، وبعد أن زار شبه جزيرة الملايو واندونيسيا انتهى إلى ميناء الزيتون (تشوان شوفو) في الصين، ثم زار بعض المدن الصينية القريبة من الساحل مثل الخنسا (هانج شو)، وفان بالق (بكين) وهي عاصمة الخان.

القفطي، (646هـ - 1248م)أبو الحسن جمال الدين بن يوسف بن ابراهيم الشيباني:

موسوعي ومؤرخ وأديب وفقيه مصري، ولد في نواحي قنا، ودرس في القاهرة والاسكندرية، ثم تنقل بين مصر والشام وبين القدس، وحلب.حتى انتهى إلى الوزارة في حلب الأيوبية، استضاف ياقوت، إذ كان من عادته مخالطة العلماء والأدباء، وشغوفاً في مطالعة الكتب.اشتهر بموسوعته (أخبار العلماء وأخيار الحكماء)، الذي لم يبق منه سوى مختصره، وكتب(أخبار المصنفين وأنباء الرواة).فكان بمثابة دائرة معارف متنقلة، منفتح الفكر والنظر إلى الثقافات، نظر إلى الثقافات بمنظار تعددي.وبهذه النظرة نفسها عاين انجاز الهند والصين الثقافي. اتبع خطا صاعد الأندلس، إذ اعتقد "إن الأمم الثماني التي عنيت بالعلوم هي: الهند والفرس، والكلدانيون وهذه الامم المذكورة هي التي اعتنت بالعلوم... وباقي الأمم لم تعن بشيء من ذلك ولا ظهر لهم شيء منه"

المقريزي(ـ 845 ـ 1441)، تقي الدين أحمد بن علي:

تلميذ ابن خلدون، أصله من بعلبك، انتقل مع والده إلى القاهرة..عُين قاضياً، وتولى الخطابة في الجوامع، ثم مدرساً، وحظي بمكانة عند السلطان برقوق وأبنه فرج، تردد إلى دمشق وتولى التعليم في مدارسها، ثم عاد إلى القاهرة ليتفرغ إلى تحصيل العلم.والاعتكاف لدراسة التاريخ.والمقريزي واسع الاطلاع، كثير النقل، قليل النقد.ترك وراءه ثروة من المعلومات. كتب كتباً كثيرة في التاريخ، أشهرها موسوعته "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" و"السلوك في

معرفة الملوك" و: اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الفاطميين الخلفا"، "الذهب المسبوك في ذكر من حج من الملوك" والإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك" و"إغاثة الأمة بكشف الغمة"، وغيرها من الكتب.

– شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي (850 هـ ـ 1459) :

ينتسب في كتابه "المستطرف في كل فن مستظرف" وانفتح كل من هؤلاء، على مرجعيات ثقافية مختلفة. "في موضوع (الحكمة) التي هي ضالة المؤمن يأخذها أين وجدها، فنحن هنا أمام ليبرالية واسعة تقوم على الاعتراف بالاختلاف، وعدم التعصب لأي مصدر، لا على مستوى المذاهب، ولا على مستوى تنازع الأجيال، ولا على مستوى الانتصار للغير على حساب الجديد". اغترف من الهند والصين وغيرها من الحضارات الحكمة والأمثال.

ـ (دهمي) والي البنغال من الهند (القرن الثالث الهجري)، أرسل رسالة إلى الخليفة المأمون، معها هدايا فاخرة.

ـ المقريزي المؤرخ الكبير ذكر في حوادث 835هـ ـ 1432م، وصول زنكين بن زنوك الصين (= جنك) إلى مكة للتجارة.

ـ سبكتسكين (367 ـ 378هـ / 966 ـ 997م) مؤسس الدولة الغزنوية، أنزل بعصبة أمراء الراجبوتين، التي كانت تضم أجمير Adjmar ودهلي، وكلنجر، وقتوج knnuwj، هزيمة ساحقة أرغمتهم على دفع الجزية، ومهدت السبيل لتوسع ابنه محمود الغزنوي في الهند، وتوطيد سلطان المسلمين، إذ غزا محمود الهندستان سبع عشر مرة، في خلال سبعة وعشرين عاماً ما بين (391هـ ـ 1000م و 417هـ ـ 1026م). ودام سلطان الغزنويون حتى سنة 1186م، إلى أن حل الغوريون مكانهم، الذين وضعوا يدهم، من عاصمتهم دهلي (دلهي).

ـ أبو دلف مسعر مهلهل الخزرجي الينبعي (390هـ ـ 1001م) :

قام برحلته إلى الصين عام (331هـ ـ 942م)، استجابة لتكليف الأمير الساماني نصر بن أحمد، الذي أتته سفارة من الصين تخطب ابنته إلى ملكها، فما كان من الامير الساماني إلا أن كلّف أبا دلف لمصاحبة السفارة الصينية، وليكون رسوله إلى "قالين بن الشخير) ملك الصين ليخطب ابنته لابنه الأمير نوح الساماني،

(لأن الشريعة لا تسمح له بتزويج ابنته المسلمة من ملك الصين، فقبل أبوها وجهزها وأرسلها إلى خراسان ومعها مائتان من الخدم وثلاثمائة من الجواري والخصيان وتزوج منها نوح.فخرج أبو دلف من بخارى وعبر تركستان الغربية فالشرقية والتيبت ودخل الصين، ثم غادرها إلى الهند، ومنها رجع إلى بخارى عن طريق تركستان ووصف البلاد التي مرّ بها، وحفظ لنا مقتطفات عن هذه الرحلة ابن النديم وياقوت والقزويني.وقد وصف لنا مشاهداته في الصين، والشعوب التي مرّ بها.

ـ البلخي (أبو زيد أحمد بن سهيل 322هـ ـ 934م) قد وضع أسس تلك المدرسة في كتاب "صورة الأقاليم" الذي رفع التقسيمات الأرضية من سبعة أقاليم إلى عشرين إقليماً وتبعه في بحثه الاصطخري (أبو إسحاق أبو إبراهيم بن محمد الفارسي 340هـ ـ 951م) وأعقبه ابن حوقل (أبو القاسم محمد بن علي الموصلي 367هـ ـ 978م)، بعد ذلك برز المقدسي (محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء 387هـ ـ 997م) في كتاب (أحسن التقاليم في معرفة الأقاليم).

ـ أبو ريحان البيروني (440هـ ـ 1048م)

قال عنه سارتون عنه: أنه أحد أعظم العلماء في التاريخ، فهو عالم، ومؤرخ طبيعي وجيولوجي، وفلكي، ورياضي، كما أنه درس التقاويم والطب، وتمتع بحاسة جغرافية حاذقة، واسع الأفق والمعارف، تعرف في الهند أكثر مما تعرف على المنطقة الشمالية الغربية من الهند، وأتقن السنسكريتية، ليكرس جهوده لدراسة علوم الهندوس، ثم أودع حصيلة دراساته ورحلاته في كتابه "تحقيق ما للهند" الذي يعتبر إحدى الثمار المرموقة في حقل الجغرافية الإقليمية، بسبب ما يتميز به من نفاذ للحقائق ومقدرة على الإفادة منها. قد انضم إلى ركب السلطان محمود الغزنوي عند فتحه الهند، دون خلاصة تجارب رحلاته وتجواله، في ربوع الهند، والتي استمرت أربعين عاماً، في كتابه الشهير، (تحقيق ما للهند من مقولة في العقل أو مردوده)، الذي انتهى من تأليفه عام 423هـ ـ 1031م، أي بعد عام ونصف من وفاة السلطان محمود الغزنوي، الذي جاء به من خوارزم إلى غزنة، وصحبه في غزواته الهندية، فتعرف من خلالها على حياة الهنود، وخاصة على حياتهم العقلية، والدينية، ويُعد الكتاب وثيقة تاريخية إثنوغرافية عن الهند،

وكان البيروني واستطاع تعلّم اللغة السنسكريتية والقيام برحلات وتجوالات بالهند التي قضى فيها طويلا، وبهذا اجتمع له من المعلومات ما اشتمل عليه كتاب الموسيعي (تحقيق ما للهند).وكانت أولى مؤلفاته الكبرى رسالة علمية عميقة تعرف باسم "الآثار الباقية" قد درس فيها التقاويم والأعياد عند الفرس، وأهل الشام، واليونان، واليهود، والمسيحيين، والصابئة، والزرداشتيين، وعرب الجاهلية، والمسلمين، قال عنه ديورانت" والكتاب دراسة نزيهة إلى درجة غير مألفوة، مبرأة من أقصى حد من الأحقاد الدينية... كان موقفه موقف العالم صاحب النظرة الموضوعية".

- المروزي الطبيب شرف الزمان طاهر (القرن 11م):

لخص في كتابه "أبواب في الصين والترك والهند الذي كتبه عام 514هـ ـ 1120م. معلومات منسبقه من الكتاب عن الهند والصين و الترك.

- ابن سعيد المغربي (673هـ ـ 1274م)،

من مواليد غرناطة بالأندلس في حوالي عام 610هـ ـ 1214م: وهو الذي أمضى الجانب الأكبر من حياته في الترحال طلباً للعلم، وللتعرف على العالم، فقد تنقل في تجواله من المغرب الأقصى على المحيط الأطلسي إلى المحيط الهندي، اصطحب أباه إلى الحج عام 638هـ ـ 1240م فزار في طريقه شمال أفريقيا ومصر، والاسكندرية، وأثناء عودته بقي في القاهرة حتى عام 1250م، إلى أن أتى الشام وأقام فيها حيناً من الدهر، ومنها ذهب إلى الموصل، ثم إلى بغداد، والبصرة، وتابع دراسته في بغداد قبل أن يدمرها هولاكو بأعوام قليلة، ورحل منها إلى حلب متجهاً إلى أرمينيا يدفعه الفضول ليتعرف على هولاكو مباشرة. إلاّ أنه رغم تجواله الواسع في أصقاع شاسعة بين أوروبا وأفريقية وآسيا، لم يزر بلاد الصين والهند، فعوضاً عن ذلك حفظ مشاهدات غيره من الرحالة لهذه البلدان، فقد استفاد من معطيات رحلة ابن فاطمه الذي جاب سواحل غرب أفريقيا حتى السنغال.

ـ ياقوت الحموي (626هـ ـ 1229م):

الذي حفظ في مؤلفاه الشهير "معجم البلدان" بعضاً من تلك الرحلات، فبالإضافة إلى خبرته المكتبية واطلاعه الثقافي الواسع، فقد استفاد من تنقلاته ورحلاته في مجال التجارة، التي كان يقوم بها لصالح سيده، التاجر الكبير في بغداد. أو من كثرة أسفاره في المحيط الهندي، وتردده إلى جزيرة كيش العُمانية، التي كانت أحدى محطات تجار المحيط الهندي، حيث أتاحت له توسيع أفقه الجغرافي، وزيادة معرفته عن طرق ما سمعه من التجار فيها عن شواهدهم، وقاده تجواله من بغداد إلى الموصل إلى بلاد الشام ومضر، ثم إلى أرمينيا، وإلى إيران الشرقية، ثم إلى أن قضى عامين في نيسابور، التي غادرها إلى هرات وسرخس إلى أن بلغ مرو فأمضى فيها زمناً، وكان عازماً على زيارة خوارزم وبلخ عندما أتته أخبار خروج المغول عام (616هـ ـ 1219م) فهرب إلى خراسان، ومنها إلى الموصل، وهناك أتيح له الانصراف على تأليف معجمه بعد أن رعاه الفيلسوف ابن القفطي (646هـ ـ 1248م) وزير السلطان الظاهر الأيوبي في حلب، وقد انتهى من معجمه عام 1224م في حلب، وانتقل إلى جوار ربه عام 626هـ ـ 1229م وهو في الخمسين من عمره.(143)كما حفظ لنا مقتطفات من رحلة أبي دلف بلاد الهند والصين والترك، ووقائع رحلة سلام الترجمان إلى شمال الصين لزيارة سورها العظيم، ورحلة تميم بن المطوع إلى بلاد الشرق الأقصى وتعرفه بالشعوب التركية هناك.

ابن بطوطة (770هـ ـ 1369م):

شيخ الرحالين العرب، وسيد الرحالين حتى ذلك الزمان، فقد قضى الرجل ثمانية وعشرين عاماً من حياته يتنقل في أجزاء العالم المعروف.وكان مولد ابن بطوطة في طنجة، ثغر المغرب على البحر المتوسط عام 703هـ ـ 1304م، من أسرة اشتهرت بالعلم، والإشتغال بالعلوم الشرعية، والقضاء، فسار على نهج أسرته. بدأ رحلاته الكبرى وهو في الثانية والعشرين من عمره، في عام 725هـ ـ 1324م، فقضى ما يقارب من ثلاثة عقود في التجوال في العالم، وقد أملى في نهاية عمره تقريراً برحلاته لصديقه ابن جزي في كتاب "تحفة النظار" الذي أودع فيه تجاربه في

الترحال. وتشتمل على رحلاته الكبرى الثلاث، وتقع رحلته الأولى. ما بين (725 هـ. 1349م) إلى (738هـ. 1349م)، أما رحلته الثانية فاستغرقت ما بين(739هـ. 1350م)إلى(740هـ. 1351م) ودامت رحلته الثالثة ما بين(741هـ. 1352م) إلى (443هـ. 1354م) زار فيه السودان وغرب أفريقية.

وقد أتمّ رحلاته إلى الشرق الأقصى خلال رحلته الكبرى الأولى، التي استغرقت معظم صفحات كتابه، بدأها من طنجه يوم الخميس في 2 رجب 725هـ. 1324م، وزار لاهير Lahiri (بجوار كراتشي)، وسكور Sukkur ، وملتان Multan ، حتى وصل إلى مدينة دلهي، فأقام سنين طويلة برعاية السلطان محمد طغلق، الذي أرسله فيما بعد في سفاره إلى الصين فاجتاز الهند الوسطى، وملوه، واعتلى السفينة من كميال إلى(جوا)، وزار الموانئ الممتدة على طول ساحل مليبار. حتى وصل إلى جزر مالديف Maldive (جزر ديبة المهل) وأقام فيها سنتين ومنها عبر إلى جزيرة سرنديب (سيلان)، واستأنف رحلته إلى أن رسا في معبر بساحل كرومندل. وأخيرا أقلع إلى البنغال وزار كمروب وسهلت، وسوفرجيون (بجوار دكا)، ثم أبحر بحذاء ساحل أركان حتى بلغ سومطرة، وهكذا وبعد أن زار شبه جزيرة الملايو واندونيسيا انتهى إلى ميناء الزيتون (تشوان شوفو) في الصين، ثم زار بعض المدن الصينية القريبة من الساحل مثل الخنسا (هانج شو)، وهي في نظره أكبر مدينة رآها على سطح الأرض، وفان بالق (بكين) وهي عاصمة الخان، لا يلبث أن يحمل عائداً إلى (الزيتون) ومن هناك حملته سفينة إلى سومطرة ومنها إلى ساحل مليبار، عائداً إلى بلاده ماراً بهرمز إلى العراق وبلاد الشام ثم مصر، إلى فاس، حيث يصلها عام 1349م.

القلقشندي، أبو العباس شهاب الدين أحمد علي بن أحمد(756هـ/1355م ـ 829هـ/1418م):

ولد في قرية قلقشندة القريبة من طوخ بمحافظة القليوبية، نشأنشأة علمية سليمة، قبل أن يتوجه إلى الإسكندرية طلباً للعلم، اشتغل أثناء ذلك بفنون الأدب واللغة، وفي المرحلة الثانية من حياته العلمية جلس للتدريس وبدا للناس فقيهاً يميل إلى الاجتهاد، فوضع مجموعة من المؤلفات الفقهية، والأدبية.اختير في سن الخامسة

والثلاثين في ديوان الإنشاء، كتب في أثنائها العديد من المولفات على شكل المقامات مثل(الكواكب الدرية في المناقب البدرية)، وانتهى بتتويج مؤلفاته بكتابة الموسوعي، (صبح الأعشى في صناعة الانشا)الذي استغرق في كتابته عشرين عاماً.

ـ (بابر) في عام 1526م :

أسس أعظم إمبراطورية مغولية مسلمة، مثّلت أعلى ما وصلت إليه الهند الإسلامية من روعة وازدهار ثقافي وسياسي. اتسم حكمه بالتسامح، والمشاركة بين الهندوس والمسلمين.

ان حجر العسقلاني، أحمد بن علي (852هـ ـ 1456م): مصري المولد والنشأة والوفاة، محدث، وؤرخ، لغوي، أديب، صاحب " الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة"، و"أنباء الغمر في أبناء العمر".

المحتوى

استهلال 5
الكتابة العربية في الهند والصين 15
أ ـ في كتب الأدب والمقابسات.. 15
ب – مسالك المدونات الجغرافية.. 21
ج ـ في المدونة التاريخية العربية.. 46
د ـ في الرحلات العربية إلى الصين والهند ومحيطهما 63
هـ ـ التأليف المعجمي والموسوعي.. 87
ز ـ جغرافية العجيب 96
الباب الثاني: النصوص العربية في الهند والصين 101
1ـ مختارات من كتب الأدب والمقابسات 102
2 ـ في المدونات الجغرافية.. 113
3 ـ مختارات من التأليف التاريخي 203
4 ـ مختارات من أدب الرحلات.. 237
5 ـ مختارات من مصنفات العجيب.. 335
6 ـ مختارات من المدونات الموسوعية والمعجمية 367
7 ـ على سبيل الختام 422
تعريف بالكتاب باللغة الإنجليزية.. 427
المراجع 430
المصادر حسب تسلسلها التاريخي 436
فهرست الأعلام وتراجمها 442



نصوص الثقافة العربية الوسيطة في الهند والصين/ شمس الدين
الكيلاني دمشق: اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٩ ـ (٤٧٠) ص، ٢٤ سم.
سلسلة الدراسات (١٤)

١ـ ٩٥٦ ك ي ل ن ٢ـ ٤، ٣٠٣ ك ي
ل ن ٣ـ العنوان ٤ الكيلاني ٥ـ السلسلة



عاصمة الثقافة العربية
Capital of Arab Culture
al-QUDS
2009

نصوص الثقافة العربية الوسيطة في الهند والصين

يهدف هذا البحث إلى تعريف القارئ العربي مباشرة بالنصوص الرئيسية الكبرى التي اختزنتها الثقافة العربية الوسيطة. والتي كان مدارها وموضوع بحثها الصين والهند. فعكست حدود المعرفة العربية لهذين البلدين ولمحيطهما الإقليمي. وموقف هذه الثقافة منهما ومن سلوكهما الاجتماعي. وقيمهما. ومن الأديان والمذاهب التي اعتنقوها. والطقوس التي مارسوها في أتراحهم وأفراحهم وفي تقواهم الروحية. وقدمت المعايير والرموز التي حكمت نظرتها نحو الصينيين والهنود و جيرانهم كبشر في علاقتهم ببيئتهم. وفي تجربتهم الحضارية في بناء صرحهم السياسي والمدني والتقني والحرفي. مع مقارنة هذه التجربة بغيرها من التجارب الحضارية.

وعلى هذا. فإن هذا البحث يتفرع إلى بابين. يتألف الأول من مقدمات تهدف إلى إضاءة الموضوع من جميع جوانبه. وذلك بالتذكير بمصادر المعرفة العربية وكتاباتها في الهند والصين في شتى فروع المعرفة. أكانت كتابة أدبية وفكرية. أو تاريخية. أوفي أدب الرحلات. أو المدونات المعجمية و الموسوعية. التي برزت فيما بعد القرن الرابع عشر ميلادي. وصولا إلى مدونات العجائب. والمأثورات الفلكلورية. والإضاءة على ما أنجزه المؤلفون العرب من أبحاث. وقدموه من معطيات وتخيلات وأفكار ومواقف في الهند والصين في شتى فروع المعرفة. و مجالات التأليف وأبوابه. أما الباب الثاني فيعرض ل [النصوص العربية الكبرى] في الصين والهند والتي رتبها البحث إلى مجموعات حسب أسلوب تأليفها الأدبي وموضوعها وشكل مقاربتها للثقافة. ولم نراع في ذلك التسلسل الزمني لتأليفها. وعلى ذلك عرضنا تلك المجموعات من النصوص إلى ست مجموعات. وهي على التوالي: مختارات من كتب الأدب والمقابسات. مختارات من الأدب الجغرافي. ثم من التأليف التاريخي. و من أدب الرحلات. ومن المدونات الموسوعية والمعجمية. ومختارات من مصنفات العجيب. لعل هذا البحث يسد ثغرة ولو صغيرة في المكتبة العربية المعاصرة.



مطبعة اتحاد الكتاب
دمشق



السعر داخل القطر : ٢٧٠ ل.س
خارج القطر : ٦٥٠ ل.س